س.هـ. ليدر

أبناء الفراعنة المحدثون

دراسة لأخلاق أقباط مصر وعاداتهم



دار الشروق

س.هـ. ليدر

أبناء الفراعنة المحدثون

دراسة لأخلاق أقباط مصر وعاداتهم

ترجمة أحمد محمود

دار الشروق

Modern Sons
of the Pharaohs
by S.H. Leeder
originally published by
Hodder and Stoughton, 1918

الصور الداخلية والغلاف من تصوير المؤلف
والفونس أفندى جريس، وجيمس
سكوت، وم.أ. وب. ديتريش، وليكيجيان.

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٦٥٩٢
ISBN 978-977-09-2307-8

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)
e-mail: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

المحتويــــــات

مقدمة المترجم

ربما يسأل سائل عما دعانى إلى ترجمة كتاب ألفه رجل إنجليزى عن الأقباط فى أوائل القرن العشرين. الإجابة ببساطة هى أن تلك فترة مهمة من تاريخ مصر انعكس ما جرى فيها على ما أعقبها من فترات. كما أنه عندما كان المؤلف س.هـ. ليدر يتحدث عن الأقباط، لم يكن ذلك بمعزل عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مصر إبان تلك الفترة. وذلك فى المقام الأول لأن الأقباط مصريون ويسرى عليهم ما يسرى على سائر طوائف الشعب المصرى، رغم ما لهم من خصوصية دينية.

الواقع أننى أود أن أبرز فى مقدمتى السريعة هذه تناول الكتاب لثلاث نقاط مهمة؛ هى علاقة الأقباط بأبناء وطنهم المسلمين، وعلاقة الأقباط بالحكام المسلمين، وعلاقة الأقباط بسلطات الاحتلال البريطانى.

ففى معرض حديثه عن الدكتور فانوس، الذى يصفه بأنه «ذلك الرجل المثقف وربما يكون أعظم خطيب حى فى مصر»، يقول المؤلف: إنه هو الذى أعلن أمام حشد كبير من أبناء بلده المسيحيين فى أسيوط أن الأقباط والمسلمين «قُسِّموا بالفعل، ومع ذلك فالواقع أنهم شعب واحد وموحَّد، والاختلاف الوحيد هو اختلاف العقيدة. ومن وجهة النظر هذه ليس من الإنصاف النظر إليهم على أنهم عنصران مميزان. فمهما كانت تسميتهم، فالمسلمون والأقباط أحفاد شعب مصر الذى عاش قبل سبعة آلاف سنة».

والواقع أنه فى تلك الفترة، وما قبلها، وما بعدها بقليل، لم تكن هناك تلك الحساسية الملحوظة حاليًا بين المسلمين والمسيحيين. ويقول ليدر إن الولع بالقديسين فى

مصر أمر يشترك فيه الأقباط والمسلمون، حيث يبجل كل طرف منهم قديسى وأولياء الطرف الآخر قدر تقديسه لأوليائه وقديسيه. ويروى أنه عند مرور سيدة إنجليزية، هى الليدى داف، فى قرية ببا بمديرية بنى سويف أثناء زيارتها الأولى لمصر، ذهبت إلى الكنيسة القبطية ووجدت عامل بناء يقوم ببعض الترميمات. قال لها الرجل بكل فخر إنه مسلم مؤمن من القاهرة زاره القديس المدفون فى كنيسة ببا لثلاث ليال متوالية وأمره أن يترك عمله ويذهب إلى القرية البعيدة لترميم كنيسته. وحكى عامل البناء كيف أطاع الأمر، وكيف عرض أن يعمل بدون أجر إذا أحضر الأقباط مواد البناء، وقد تحدث بفخر واضح باعتباره شخصًا تلقى أمرًا سماويًا. وأكد الأقباط جميعًا القصة، حيث أسعدتهم تلك المعجزة. ويصف ليدر هذه القصة بأنها «تلقى فيضًا من النور على الطابع المتعصب الذى يُنسب عادة للمسلمين والأقباط بحيث لا يصدق أحد بحال من الأحوال أن هذا البنَّاء، المعروف بأنه مشغول باستمرار بالعمل، يتلقى هذا الأمر ويطيعه بتلك البساطة ـ بينما كان الكاهن يحاول الحصول على بنَّاء ولو من بين الأقباط ولم يفلح فى ذلك».

ومن القصص التى يرويها ليدر عن علاقة المصريين المسلمين والمصريين المسيحيين، تلك القصة التى تتحدث عن المُدَرِّسة الإنجليزية التى كانت تعمل بالقاهرة وتذهب إلى الأقباط فى القرى «حاملة ضياء الكتاب المقدس إلى الفقراء والجهلة». وبينما كانت تلك المُدَرِّسة جالسة فى يوم من الأيام فى قرية سكانها جميعًا من المسلمين، جاءها اثنان من البدو فى الصحراء المجاورة، كانت تقرأ لهما الكتاب المقدس من قبل، بصديق لهما قائلين إنه جاء لكى «يسمع كتابك». كان الرجل قبطيًا يعيش هو وعائلته فقط وسط المسلمين فى قرية نائية، وكان البدو يمرون خلالها. وكانوا قد حكوا له عن قراءة ميس واتلى، وتمنيا أن يستمتع بهذه القراءة باعتباره قبطيًا، مثلما يجدان هما متعة فى سماع قرآنهما. سُحر الرجل بسماعه الكتاب المقدس بلغة يمكنه فهمها، واعترف بشعوره بالخجل من نفسه بسبب جهله التام بالكتاب المقدس.

يخصص ليدر فصلاً من الكتاب عن الأنبا أبرام أسقف الفيوم الذى اشتهر بزهده وقدرته على علاج الأمراض. وكانت تتوافد عليه أعداد كبيرة من الناس كل يوم التماسًا

لشفاء البدن أو النفس. ويتعجب ليدر لأنه بين تلك الحشود التى كانت تلجأ يوميًا إلى رجل الدين المسيحى هذا للحصول على مباركته الشخصية، كان عدد المسلمين يتساوى مع المسيحيين. ذلك أنه «لا اختلاف فى الإيمان المتلهف على قدرته على مساعدتهم فى كل أحزانهم ومشاكلهم ـ وهى الحقيقة التى تجعل الذين تعلموا النظر إلى التعصب على أنه السمة الأولى من سمات أتباع محمد يغيِّرون رأيهم. وعندما يُسأل كل هؤلاء الناس البسطاء عما لديهم من أسباب للظن بأن بإمكانهم الحصول على خير من أسقف مسيحى، يقولون إنه رجل طيب، وإن الرجال الطيبين جميعًا مقبولون من الله؛ فالأسقف يصلى لله كما يصلون، وهو تلميذ لـ «سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام»».

وهناك حدث مهم يذكره الكتاب ويدل على وحدة مشاعر الشعب المصرى بعنصريه. فعندما عاد البابا كيرلس الخامس من منفاه فى دير البراموس، شهدت القاهرة ترحيبًا شعبيًا حماسيًا قوبل به البطريرك عند عودته. «فقد ملأت الجماهير شوارع المدينة، وأزال بحر الحماس الضخم كل فكرة ما عدا فكرة الابتهاج الشديد بعودته، حيث احتفلت الجماهير المسلمة بهذا الحدث الكبير جنبًا إلى جنب مع الأقباط! وبكى الناس من الفرح وغنوا مادحين المنفيَّ، كأن إلهًا قد أعيد إليهم، وكان الأعداء التقليديون لقرون يتعانقون مهنئين بعضهم بعضًا».

كما يورد الكتاب شهادة قالها اللورد كرومر عندما انتهت مدة خدمته فى مصر، أوضح فيها رؤيته للمسلمين والمسيحيين. فقد أشار كرومر فى كتابه «مصر المعاصرة» إلى أن الفرق الوحيد بين القبطى والمسلم هو أن الأول مصرى يتعبد فى الكنيسة والثانى مصرى يتعبد فى المسجد.

ويؤكد المؤلف أن المسلمين والمسيحيين كانوا باستمرار شركاء فيما تتعرض له مصر من محن. ففى الأزمنة القديمة «كانت الأمة كلها تصلى للرب كى يعيد ملء النيل بالماء، صائحين فى نفس واحد «كيرياليسون» بينما يصيح المسلمون «الله أكبر» وهم يرغبون بشدة فى الإلحاح على الله العظيم بالسؤال». وعندما استولت الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس فى عام ١٠٩٩ منع الصليبيون أبناء الكنيسة القبطية من دخول المدينة المقدسة، وبذلك لم يكونوا يفرقون كثيرًا بين المسلمين

المصريين الذين هزموهم فى عسقلان، والمسيحيين الشرقيين أبناء دينهم. وعندما غزا الصليبيون مصر فى عام ١٢٠٤، ذبّحوا السكان دون تفريق بين مسيحى ومسلم».

ورغم كون المؤلف إنجليزيًا، فهو ينتقد الكُتاب الإنجليز «لأنهم سجلوا كل ما قيل لهم على نحو غير نقدى». وهو يرى كذلك أن هؤلاء الكُتّاب فى واقع الأمر هم مَن ألحق أكبر ضرر بالأقباط. كما يتهمهم بأنهم مَن «يُبقى إلى الأبد على كراهية المسلمين بتركيز الاهتمام على الماضى، بينما يتملقون الأقباط بأن ينسبوا إليهم فضائل ليست لهم ـ فرغم أكثر النوايا ودًا التى يبديها هؤلاء الكُتّاب تجاه الأقباط، فإنهم لم يفشلوا فى مساعدة القضية القبطية فحسب، بل أعاقوها». كما يرى أن تاريخ الصدع الذى بين القبطى والمسلم، الذى ازداد اتساعًا بذلك، يعود إلى فترة الاحتلال البريطانى فحسب؛ فالطائفتان ليست بينهما عداوة فطرية أو متأصلة، وهو ما أثبته التاريخ مرارًا وتكرارًا. ولم يحصل القبطى من الإنجليز على شىء من خلال الصدع. بل إن ما ادعاه من المعاملة الخاصة أدى إلى حد ما إلى إنكار العدالة المجردة. إذ لم يكن تأكيد الذات يعجب الحاكم الإنجليزى؛ فعندما كان يقوم على أية أفضلية «لإخواننا المسيحيين» يصبح بغيضًا؛ وكان الموظف الإنجليزى فى سعيه لبيان أنه برىء من أى تحيز، كان يفخر بأنه يبعد نفسه كثيرًا جدًا عن نقطة الحياد الأساسية».

ويورد ليدر كلامًا للبروفيسور سايس يؤكد ما كان عليه الحال قبل الاحتلال البريطانى. فهو يقول: «عندما عرفت مصر لأول مرة، فى أيام ما قبل الاحتلال، لم يكن هناك وجود للعداء الدينى بين الأقباط والمسلمين؛ فقد كانوا جميعًا سواء، مصريين».

ويعقِّب ليدر على ذلك بقوله: «لقد رأيت بنفسى كنائس قبطية بناها المسلمون، ومسجدًا بناه صاحب أطيان قبطى قبل الاحتلال بعام أو عامين. وفى المدارس العلمانية القبطية، التى بنيت على نفقة أهل الخير فى أنحاء مختلفة من البلاد، لم يحدث قط أننى لم أجد بها تلاميذ مسلمين؛ ولا يفكر أحد فى استبعاد الأطفال الأقباط من المدارس المشابهة التى بناها مسلمون، وخاصةً فى المناطق الريفية».

يشير ليدر إلى أن الشواهد التاريخية تؤكد أن الأقباط كانوا «يرقَّون إلى أرفع المناصب وأكثرها مسئولية فى الدولة، وكانوا يترقبون باستمرار قيادة الجيش ومنصب الحاكم. لم يكن محمد على (السياسى والجندى العظيم، ومؤسس الأسرة الحاكمة الحالية) ليقبل الحكم بعدم أهلية أى رجل تثبت مقدرته فى خدمة الدولة الخاصة، سواء أكان قبطيًا أم يهوديًا؛ فلم يكن فى عهده أى دليل على الاستياء الدينى الذى يُقال حاليًا إنه قد ينشأ فى ظل التعيينات التى قام بها هو وخليفته». كما يقول إنه «فى عهدى سعيد وإسماعيل، ظل الأقباط يشغلون مناصب مشابهة، مما جعل القاعدة هى تعيين قبطى فى منصب النائب العام فى كل مديرية ـ وهو منصب له قدر كبير من السلطة، حيث كان الرجال الذين يشغلونه يتولون منصب القضاء فى أوقات معينة». كما يقول: «وفى عهد إسماعيل (الذى كان يؤكد باستمرار أن «المصريين جميعًا سواء») خدم الأقباط الدولة فى كثير من المناصب العليا، والحقيقة الأكثر لفتًا للنظر هى أن نظارة الجهادية تولاها قبطى لأول مرة (كان محمد على أول من أزال الموانع التى تحول دون خدمة الأقباط فى الجيش) وكانت لعَيّاد بك حنا السلطة الكاملة».

ولكن بعد مجىء الاحتلال الإنجليزى وخلال أقل من ربع قرن من سيطرة البريطانيين على البلاد، «اختفى رؤساء المصالح الأقباط كلهم تقريبًا. فقد كانوا ممثلين تمثيلاً تامًا على منصات القضاء، ولكن شيئًا فشيئًا وصل العدد إلى صفر؛ وكذلك الحال بالنسبة لمصالح الدولة الأخرى، حيث استمرت عملية عزلهم وإغلاق الباب فى وجه التعيينات الجديدة».

كانت تلك لقطات من الكتاب اقتضى منى الظرف التاريخى الذى نعيشه أن أبرزها، كى ألفت نظر القارئ إليها، وأدعوه إلى سماع صوت يأتينا عبر عشرة عقود تقريبًا يوضح لنا بعض الحقائق التى ربما تكون قد خفيت على البعض، وكان من مصلحة البعض الآخر إخفاؤها لغرض ما فى نفسه، لا يقصد من ورائه خيرًا بطبيعة الحال.

وأترك القارئ يطالع بنفسه تلك الصفحات التى تتحدث عن الأقباط فى كل نواحى حياتهم، حيث تتناول حياتهم الدنيوية بأفراحها وأتراحها وعلاقاتها الاجتماعية، وحياتهم الدينية بمعتقداتها وطقوسها وتجلياتها الروحية. إنه كتاب كانت المكتبة العربية بحاجة إليه. ومما يدعو للعجب أننى رأيت إشارات عديدة إليه فى الأدبيات القبطية وتلك التى تتناول تاريخ الأقباط الحديث وتاريخ الكنيسة القبطية فى أواخر

القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومع ذلك فهذه هى الترجمة العربية الأولى له. ومن المصادفة أن الشىء نفسه حدث مع كتاب وينيفريد بلاكمان Fellahin of Upper Egypt الذى صدر فى عام ١٩٢٦ وكان معروفا بين دارسى علم الاجتماع والفولكلور والأنثروبولوجيا، وكانت ترجمتى له فى عام ١٩٩٤ بعنوان «الناس فى صعيد مصر» هى الأولى منذ صدور الكتاب بالإنجليزية.

المترجم

الهرم فى أبريل ٢٠٠٧



س.هـ ليدر

تصديــر

كانت نية الناشر هى ظهور هذا الكتاب فى عام ١٩١٤، وقد انتهى المؤلف من المخطوط فى آخر يوم من شهر يوليو، ذلك اليوم الذى يبدو لنا الآن أنه قُدِّر له أن يكون نهاية حقبة من تاريخ العالم. وقد اتُّفِق فى ظل ما أحاط بتلك الفوضى من شك وارتياب على تأجيل النشر؛ وكانت عبارة «إلى أن تنتهى الحرب» فى ذلك الحين عبارة نضرة وتوحى بالأمل. ومر أكثر من ثلاث سنوات، وكانت الحرب لا تزال مستمرة. وبعد ما قد يكون شعورًا بالتخمة من جانب القراء، ها هم يبحثون عن كتب لا صلة لها بترجمة مبادئ وحشية قبائل الهون والفلسفة الألمانية، أو حتى سياسة الحلفاء وتاريخ الحرب نفسها. بل إن مصر وأهلها (مع أن مقتضيات الحرب حالت بين السائح العادى وذلك البلد) قد أصبحت مركز اهتمام جديدا من خلال التحقق من أهميتها الحيوية بالنسبة لإمبراطوريتنا، وبسبب الجيوش الكبيرة التى تجمعت هناك من أنحاء الإمبراطورية كافة لتأكيد حقوقنا وحمايتها. وهكذا تقرر إصدار هذه الدراسة عن أقباط مصر فى أوائل عام ١٩١٨.

لم يذهب الكاتب إلى مصر خلال فترة الحرب، وإن لم تنقطع متعة المراسلة مع الكثير من الأصدقاء من أهل البلاد ـ مسلمين وأقباطا ـ لحسن الحظ. فعندما غادر وادى النيل، بعد الزيارة الأخيرة من تلك الزيارات الطويلة المتعددة، كانت «المسألة القبطية» التى يشير إليها فى الفصل الأخير، قد بلغت مرحلة حادة وتثير الكثير من الجدل. وقد وضعت الحرب بطبيعة الحال حدًا لكل هياج من ذلك النوع. ومع تعدد أيام التوتر والمحن التى واجهتها إمبراطوريتنا، ازداد ميل الأقباط إلى مساعدة الحكومة ـ بكل طريقة ممكنة ـ فى مجال السياسة وكذلك الأعمال الخيرية.

رأى المؤلِّف أنه من مصلحة الأقباط وحكومة مصر المسئولة ترك مؤلَّفه بالور الذى كان عليه تمامًا فى بداية الحرب. وبعد الهدنة الطويلة التى سوف تنتهى ب الحرب، قد يكون من المفيد التمكن من الاتجاه إلى سجل واضح ومحايد للأش التى يعتبرها هؤلاء السكان القدماء فى أرض الفراعنة ضرورية للإصلاح، ومعرو الرواية الأصلية لما لديهم من أسباب وحجج تتعلق بالمعاملة المختلفة، إلى جان الاستجابة الرسمية لمطالبهم. وليس من غير المرجح أن تتكشف أخطاء الجانب وتتضح فى ضوء الكشف الذى قد ينتج عن التجارب الضخمة للحرب العالمية، فق يرى الطالب أنه بالغ فى طلبه، وترى السلطة الحاكمة أنها كانت راغبة فى تلبية أك مما يجب من المطالب.

هناك وعد بحقبة جديدة فى مصر عند استئناف أيام الحكم الطبيعى. فقد حُلت المحكمة الفاسدة، وأقيمت سلطة قوية لبريطانيا حَلّت محل المحامين الذين قسمنهم تركيا على نحو ضعيف. وقُضى على الآلاف من الفضائح الاجتماعية والإدارية الناجمة عن امتيازات الأجانب. وجرى تحرير المسجد والكنيسة على السواء من احتمال الفساد الداخلى والرشوة من خلال ممارسة السيطرة الأهلية على وإيراداتهما الضخمة. وفى ضوء كل الآمال التى تبشر بيوم جديد، هل من المبالغ الثقة فى أنه ستوجد طريقة لتحقيق المطامح القبطية، التى أود أن أطلب ممن هم على رأس السلطة فى مصر أن يصدقوا أنها ـ مهما قيل عن قيمتها السياسية ـ صادقة ومخلصة حيث إنها صادرة من القلب؟

الكتاب الأول

الناس وعاداتهم

الفصـــل الأول

زيـارة إلى قريـة إقطاعـى قبطى

أشـعر بسـحر لا يُقـاوَم للقريـة المصرية. وقـد أُتيحت لـى الإقامة فـى العديد من القرى والعزب البعيدة، وكلما زاد عدد من رأيتهم من الفلاحين ازداد تقديرى لسـحر أدبهم البسـيط، وكرم ضيافتهم غير المفتعل، وذلك النوع من السـماحة المحلية، حتى بيـن عامة الناس، الذى يشع فى كل مناحى الحياة على قدر مـن البدائية تبدو وكأنها تعـود إلى الأيـام الأولى التالية لخروج الإنسـان من الجنـة كى يأكل من عَـرَق جبينه طوال أيام حياته.

فى السـنوات القليلـة الماضية بدلت زيـادة الثروة لدى طبقـات أصحاب الأطيان تلـك الحيـاة البدائية فـى بعض القرى، ومع عـودة الكثير من الأراضـى إلى أيدى من كانـت قد صودرت منهم عند اعتلاء الحكام الطغاة العرش، وآخرهم من حملوا لقب الخديـو، وأعلنوا أنفسـهم أصحـاب البلاد كلهـا. والكثير مـن تلك الثـروة فى أيدى الأقباط، الذين انتعشت أحوالهم بشكل كبير فى ظل أمان الحكم البريطانى.

لـدى عـدد قليل من الأقبـاط الأثرياء رغبة صادقـة فى زيادة أملاكهم وتحسـينها، وحكـم المناطـق الخاضعـة لهـم بطريقـة تمكنهم مـن اكتسـاب تقديـر الكثيرين من التابعين لهم وحبهم.

وليـس هنـاك مـا يمكن أن يؤدى إلـى مصلحة مصـر الدائمة على نحـو مؤكد مثل الحماس للزراعـة الماهرة التى يبديها هؤلاء. فهم يشـجعون دراسـة الزراعة العلمية التـى تزيـد بواسـطتها إنتاجيـة بلدهم زيـادة ضخمة؛ وعـن طريق إدخـال كل نوع من

الآلات الحديثة، يسرعون فى الوقت نفسه فى جعل أراضيهم الشاسعة، التى ما تعتمد حتى الآن على فيضان النيل فى زراعة محصول واحد، تعمل بكامل الزراعية، إذ يجعلها الرى الاصطناعى الآن تغل سلسلة من المحاصيل ط العام.

فى الدلتا - وخاصةً من خلال أنظمة تسوية التربة الكبيرة - يسـ أصحاب الأطيان هؤلاء مساحات ضخمة من الصحراء الخالصة والأرا الملحية، ويجعلونها تبتسم تحت القمح المتمايل الذى ينبت حيثما كانت السـ فى يوم من الأيام للبحر، أو كانت الصحراء الحارة ترفض أن تنبت ورقة خضـ واحدة.

الوجه البحرى هبة النيل، بالمعنى الحقيقى تمامًا للكلمة. فقد كان هناك و كانت الدلتا فيه خليجًا من خلجان البحر المتوسط. وقبل أن تملؤها رواسب النيل كانت أمواج البحر ترتطم بصخور جبل المقطم الشهير الجيرية وراء القاهرة.

بالإضافة إلى المساحات الكبيرة من الأراضى التى جرى استصلاحها، ما زال فى الدلتا مليون ونصف المليون فدان بور فى انتظار تخليصها من الملح الذى تخللها وجعلها عاقرًا لفترات طويلة. وتدل التجارب على أنه من الممكن زراعتها، وحينذاك لن تُزرع أرزًا فحسب، بل كذلك قطنًا.

بصورة عامة، وطبقًا لاستنتاجات الجيولوجيين، قد يُقال: إن النهر الجبار منذ بدء العصر الحديث جعل من نفسه خادمًا كريمًا للبشر بعدم توقفه عن مهمة إبعاد البحر المتوسط برواسبه الغنية؛ ففى العصور القديمة زاد حجم الهبة مع زيادة عدد السكان الذين ينعمون بها؛ وها هو التاريخ يعيد نفسه فى العصر الحالى.

كان ما قام به الإنسان لاستكمال دور النهر دورًا مهمًا باستمرار. وقد يكون هناك شك فيما إذا كانت المهارة المستخدمة اليوم تتجاوز كثيرًا مهارة المصريين الأوائل الذين كرسوا جهودهم لتطوير هبة النهر المقدس الغالية، وهناك الكثير من الأدلة على أنهم فهموا علم الرى، مثلما فهموا علم البناء بالخشب والطوب والحجر.

لا يحتاج الأمر إلا إلى نظرة سريعة على أرقام الزيادة المدهشة فى عدد سكان مصر - فى ظل ظروفها الحالية من العدل والأمان - كى يبين مقدار ضرورة عمل الناس، كذلك الذى تحدثت عنه، لدعم الحياة البشرية، ولو باستكمال أنشطة الحكومة، عن طريق استصلاح الأراضى بواسطة أنظمة الرى والصرف الضخمة.

لا يدرك أحد أنه بينما كان عدد سكان مصر منذ حوالى سبعين سنة ما يقرب من مليونين، فهو حاليًا حوالى عشرة ملايين، وأن الجزء الأكبر من تلك الزيادة تم تحت الحكم البريطانى الذى تعود بدايته إلى عام ١٨٨٢.

لم يعد عمل السخرة يحكم على عشرات الآلاف من الرجال بالعبودية التى ثبت أنها طريق سريع للموت. وإنه تفكير غريب أن يُنشئ الخديو من أجل سيدة رفيعة الشأن[1] ما زالت على قيد الحياة طريقًا - من القاهرة إلى الأهرام - بسرعة وحشية أدت إلى التضحية[2] بآلاف الأرواح خلال أسبوعين أو ثلاثة.

هناك أعمال كثيرة فى مصر جرى الحصول عليها بمثل هذا الثمن من الألم والدم البشريين. ففى زمن السخرة، وهو قريب نسبيًا، كانت القرى تردد صدى صرخات الأمهات اللائى أصابهن الجنود لاختطاف أبنائهن من بين أيديهن، إما للسخرة أو للجهادية. فقد كانت تلك الأمهات المسكينات يعرفن جيدًا أن فرص رؤية أحبائهن مرة أخرى وقد عادوا من أى من الخدمتين أقل من ضعيفة.

فى عهد اللورد كرومر انتهت السخرة، واليوم لا تسبب الخدمة فى الجيش أية ولولة؛ فالأم والزوجة الشابة تتطلعان إلى رؤية الشاب مرة أخرى، قويًا ومعافى، وقد اكتسب خبرة من الأسفار، ولديه الكثير من الأشياء التى يرويها، بل وفى جيبه القليل من المال.

بعد أن تلقينا دعوة من إقطاعى قبطى لزيارة أملاكه، أصبحنا طبقًا للعادة الشرقية فى مسئولية مضيفنا، منذ خروجنا من سكننا فى القاهرة إلى اللحظة التى يعيدنا فيها

(١) الإمبراطورة أوجينى إمبراطورة فرنسا التى دعاها الخديو إسماعيل إلى مصر عند افتتاح قناة السويس. (المترجم).

(٢) أظن أن فى هذا مبالغة كبيرة، وأن المؤلف قصد المغامرة بأرواح الآلاف. (المترجم).

إلى العتبة ذاتها. وأعرف أنه لا ينبغى لى إهانة المضيف المصرى بعرض دفع أجرة سفرى بالسكة الحديد، وليس هناك ما أواسى نفسى به فى الخضوع لمثل هذه العادة غير الإنجليزية إلا بالوعد الذى قطعه هو على نفسه لى بأن يزورنى فى بيتى بإنجلترا، حيث سيكون من اللائق أن أبدى له قدرًا مساويًا من التقدير والاهتمام.

عندما وصلنا إلى المحطة الريفية استقبلنا العديد من الخدم بتشكيلة غريبة من الجمال والبغال والحمير لتركبها مجموعتنا للذهاب إلى القرية النائية، وكانت السلامات والتحيات بيننا وبين الأشخاص الذين تجمعوا لاستقبالنا مفعمة بالمجاملة الودية على كل الجوانب، وكنا جميعًا ندعو ببركات السلام، مع التمنيات بيوم مشرق وسعيد لبعضنا البعض.

كان صباحًا رائعًا فى شهر يناير، حيث شتتت الشمس برد الليل (إذ كان قد خرج للتو من صقيع حقيقى) وشبورة الصباح الباكر البيضاء.

بعد الكثير من التأخير، وهو أمر معروفة به مصر عند من هم على علم بعاداتها التى تنم عن عدم الاكتراث، بدأ موكبنا المسير، وبعد أن غادرنا المدينة الصغيرة أصبحنا بعد وقت قصير نسير فى صف واحد طويل على جسر الترعة، وهو تقريبًا النوع الوحيد من الطرق المعروف فى الريف.

كم كان الأمر كله مثيرًا- الهواء الجاف الذى تدفئه الشمس، والسماء الزرقاء، والألوان الحية وقد مست ذلك كله لمعة ذهبية خفيفة غريبة عن أرض النيل. والحقول خضراء بما فيها من برسيم وفول يملأ الهواء بتلك الرائحة اللذيذة التى تتحدث برقة إلى الرجل الإنجليزى عن أيام الصيف الدافئة الأولى فى الوطن.

الروائح هنا ليست نسائم الريف الإنجليزى التى يصعب تحديدها، ولكنها تحتضننا بشكل كامل ودافئ- فقد تحولت الأرض إلى فردوس من العطور الرقيقة. إننا نأخذ نفسًا عميقًا؛ فالهواء ليس لذيذًا فحسب، بل هو زاخر بالقوى المنعشة المانحة للصحة، مع إيحاءات بالشباب الدائم الذى يتضاءل فيه الحذر ويصبح الإنسان حرًا لا يقيده شىء.

حياة الطيور بجوار المياه ساحرة. فطائر الرفراف، الذى لا يعرف روعة ألوانه ولمعانه من لم يره وهو يتحرك بسرعة من مكان لمكان فى ضوء الشمس، لا يبدى

أدنى أثر من الخوف من الإنسان. وقد رأيت عشرين طائرًا من هذه الطيور تطير مسرعة حول إحدى الترع. وفى مصر لا يحدث قط أن يزعج الأولاد، صغارًا أو كبارًا، مباهج الطيور.

يطير كذلك البوم الصغير من على الضفاف ويحط عليها، ناسيًا على ما يبدو عادات الليل الخاصة بنوعه؛ أو إذا اختار النوم، فإننا نمر عليه وهو قابع فوق الغصون العارية لبعض الأشجار، حيث يعشش أزواجًا.

القُبَّرة موجودة هنا، ولها أغنية قصيرة خاصة بها، بينما الطيور كلها تقريبًا صامتة؛ وهناك كذلك أبو فصادة كثير الحركة. والهدهد الجميل أليف كحمام ميدان سان ماركو [بفينيسيا]، بينما تطير بقع صغيرة ذات ألوان حية هنا وهناك كأنها زهور متحركة.

أحد ملامح الطبيعة المصرية هو موكب الأهالى بجوار المجارى المائية، الرجال بجلاليبهم القطنية الزرقاء، والنساء ملفوفات بلون أسود مغبر، وهو الموكب الذى لا تبدو له نهاية منذ طلوع الشمس حتى مغيبها.

لأننا راكبون، فالعرف يقضى بأن نلقى نحن السلام على من يسيرون، ونتلقى فى المقابل التحيات والابتسامات من المارة.

نبتعد بعد قليل عن الترعة ونسير فى طرق وسط الحقول صنعها ما لا يحصى من الأقدام التى مرت عليها.

هناك سوق تُقام اليوم، فى أقرب بلدة؛ وعندما اقتربنا منها قابلتنا أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال، يقودون جميعًا الحيوانات- جمالاً وأبقارًا وحميرًا وماعز وخرافًا، وفى بعض الأحيان كانت الحملان الصغيرة محمولة فوق أكتاف الراعى، أو فى حضنه، بالمعنى الحرفى للكلمة.

على الجانب كان هناك عدد من الشباب فى طريقهم إلى السوق توقفوا ليلعبوا ألعاب الكلمات التى يجدون متعة فيها وتدفعهم إلى نوبات خافتة من المرح.

هناك كذلك مجموعة من تلاميذ المدارس خرجوا من دروسهم الصباحية يلعبو
لعبة قديمة جدًا تشبه الرونـدرز.[١] كان أحد الصغار قد تجرد من ملابسه كلها، و
سخر منه رفاقه لأن إفرنجيًا شاهده عريانًا. أما هو فقد رد عليهم بسرعة قائلا: «سو
يظن أننى عفريت النهار» - وهو عفريت مألوف فى وادى النيل.

فى أحد الحقول كان فلاح يقود أحد المحاريث البدائية الذى يجره ثور، بينم
يغنى أغنية قديمة جدًا بصوت رتيب لطيف عن الأرض، عرفت كلماتها فيما بعد من
عامل آخر فى الحقول. وهذه ترجمة بتصرف شديد لها:

الشمس دافئة،
ومياه الفيضان تجرى؛
والبذور التى بذرنها فى أمان.
سوف تُحصد عما قريب،
وسوف تقفز الحملان الصغيرة،
وسوف يُحمل الحصاد إلى البيت.
سوف ينمو البطيخ فى الرمل الرطب،
وسوف يتدلى الخيار الأخضر من الغصن،
والعنب والخوخ والرمان،
سوف يبهج الأيام عندما ينخفض الماء.

تخلق الأصوات الصادرة من الحقول التى تضيئها الشمس فى مصر انطباعًا بالسعادة الطبيعية تختلف عن تلك التى فى أى بلد آخر. هل هى خوار الماشية الراضية فى هذا الوقت من السنة الذى ينمو فيه البرسيم، أم ضحكات وصيحات الأطفال الراقصين الذين يرعونها، أم زقزقة الطيور، التى تعطى للنشيد العظيم نغمته الخاصة؟! لا أدرى، ولكن يبدو أن الإنسان يستمع هنا إلى أغنية شديدة القِدَم خاصة بالحياة الفتية المائجة فى الجنة الأولى قبل أن تغيب الشمس فى يوم من الأيام.

(١) الرونـدرز (rounders) لعبة بالمضرب والكرة فى إنجلترا. ومن الواضح أن المؤلف يشير هنا إلى الحُكشة. (المترجم).

يرون فى مصر أن من حق كل حيوان الحصول على وجبة من البرسيم، الذى له اسم معناه «طعم الربيع».[١] وينادى عليه الرجل الذى يبيعه فى شوارع القاهرة لتأكله الخيل والحمير التى تؤجر هناك. فالحوذية يطعمون به دوابهم كلما أتيح لهم ذلك، وقمامة البرسيم الخضراء أمر تتميز به المدينة الشرقية ويتذكره زوارها جميعًا. ويخبرنا مضيفنا أن خيل المدينة تُرسل جميعها بالقطار إلى الريف كل عام من أجل «طعم الربيع»؛ والواقع أننا أحضرنا معنا هذه المرة اثنين أو ثلاثة من الحيوانات.

لا يمكنك بالطبع أن تطلق عددًا من الحيوانات فى حقل البرسيم لتقتات. فكل حيوان، سواء أكان عنزة أم جاموسة، يُقيد على حافة الحقل، حيث يختلف طول القيد باختلاف كمية البرسيم المسموح له بأكلها فى وقت معين.

مر موكبنا خلال قريتين أو ثلاث قرى، حيث اضطررنا للمرور صفًا واحدًا فى الممرات الضيقة. بُنيت الأكواخ بالطوب اللبِن المصنوع بطمى جاءوا به من ضفاف النيل، ولها أسطح مستوية غالبًا ما تغطيها أعواد الذرة الشامى التى تُستخدم وقودًا.

الأكواخ بلا نوافذ؛ ولكن بما أن الأشياء جميعها التى تحب الشمس موجودة خارجها، فإن المرء يرى حياة القرية كلها تمضى فى المساحات الصغيرة المفتوحة.

هنا بعض النسوة يخضضن اللبن للحصول على الزبد، حيث يدفع اللبن من جانب إلى آخر داخل قربة من جلد الماعز معلقة فى سيبية من البامبو[٢] ومجموعة من النساء والفتيات جالسات حولهن لمناقشة العملية بالطبع.

وهناك أم تجلس فى الشمس وقد استند ظهرها إلى جدار كوخها ترضع صغيرها. وتخرج نساء أخريات من النهر حاملات البلاليص فوق رءوسهن. والنساء جميعًا ملفوفات بالرداء المصرى الأسود غير المناسب إلى حد كبير لأن الطرقات جميعها ترابية؛ وعندما نظهر يغطين وجوههن إلى أن يمر الرجال من جماعتنا.

من غير اللائق إلى أقصى حد أن يخاطب الرجال النساء، ولكن زوجتى كانت فى الغالب فى آخر الركب كى يمكنها التمتع بتحيتهن. وكن أمامها يسقطن الأغطية

(١) «الربيع» هو اسم البرسيم فى الصعيد. (المترجم).
(٢) عادة ما تكون السيبية التى تعلَّق فيها القربة من العصى أو جريد النخل. (المترجم).

تمامًا عن وجوههن، ويبتسمن وهن يلقين كل أنواع التحيات والتمنيات الطيبة ال
توقف وتشرب من لبنهن؟! أيمكن أن يقدمن لها طعامًا؟! ولأنه سبقت لها زيار
الجزائر، فقد تعرفت على نوع من التحية يستخدمه العرب بصورة عامة هناك، ولكن
لا يستعمله فى مصر سوى «النساء» صباح الخير.

سوف يُدهش السائح العادى الذى يزور مصر حين يعلم أن كلمة «بقشيش»
لا تُسمع أبدًا خارج المنطقة الأثرية، مهما كان فقر الناس. فالواقع أنهم حريصون ف
كل مكان على ألا يأخذوا، بل على أن يعطوا أفضل ما لديهم من أشياء متواضعة
للزائر، الذى هو ضيف الكل طبقًا للتقاليد القديمة.

بما أنه وقت الظهيرة، فالمعتاد فى مثل هذه الساعة أن تكون هناك مجموعة من
الرجال الذين عادوا من الحقول ويستريحون فى «خضرة» القرية. ويبدو أن كون
الأرض ليست خضراء، بل رمادية متربة، ليس له أثر على أنشطة ذلك السرب الكبير
من الإوز جميل المنظر الذى يرعى عليها فكان لذلك نتيجة طيبة.

ويجد الفلاح متعة فى الحديث، شأنه فى ذلك شأن فئات الرجال كافة فى الشرق،
وتسمح أشد قواعد الأدب صرامة للرجال كافة بأن يتجمعوا حيثما يجرى الحديث.

ومن الطبيعى أن تنتشر أخبار اليوم شفاهةً، ولن يكون أى رجل حظى بميزة معرفة
القراءة والكتابة من الفظاظة بحيث يحرم الأغلبية العظمى من جيرانه، الذين
لا يعرفون القراءة، من الاستفادة من هبته التى يُحسد عليها. ويتوقف عابر السبيل
باستمرار ويجلس بهدوء بالقرب من جماعة الرجال الذين يتحدثون، ولا يتبرم أحد
من وجوده أبدًا أو يستاء.

قواعد الأدب الشرقية، وهى فى الغالب قديمة قِدَم الزمان، مفهومة فهمًا جيدًا
بحيث نادرًا ما يكون هناك شىء غير لائق فى مثل هذه التجمعات غير المتعمدة.
فالتربية الطيبة التى تمنع الرجل من أن يخاطب على نحو مباشر رجلاً له حق معترف
به من الاحترام الأكبر، تفرض كذلك على الرجل ذى المكانة الأفضل المعاملة الرقيقة
لرفيقه الأدنى منه مكانة. فليس من المقبول استغلال المكانة الرفيعة من حيث التعليم
أو الثروة على نحو لا يليق؛ وهناك إجماع على استهجان صخب الصوت وفظاظة
السلوك بالنسبة للرجال كافة، ولهذا السبب ليس هناك من يصفر بفمه فى الشرق.

تـأدب مصر أعمق بكثير من أى نوع من مراعاة الرسميات. وقد قرأت عن راهب قبطى عجوز كان يتبع قواعد غاية فى الصرامة فى مأكله، غير أنه كان يأكل فى وجود الضيوف على نحو يخالف تلك القواعد حين يرى أن ذلك يرضيهم. والأدب الذى على هذا النحو هو ما يوفر كل الراحة والاطمئنان فى الوقت الحالى للزائر الأجنبى الموجود فى مجتمع غريب عنه، الأمر الذى يخلق المتعة الاجتماعية. وبهذه الطريقة فالتعدى على الآداب أمر مستحيل، ذلك أنه مهما يكن ما فعله الزائر بغض النظر عن تعارضه مع عادة البلد فهو مغتفر دون أية إشارة. وإذا قُدِّم أى اعتذار فهو يُقابل بابتسامة رقيقة وكلمات من قبيل «نحن نعرف أن ما فعلته هو من باب الأدب فى بلدكم». المرة الوحيدة التى عرفت فيها أن زائرًا إنجليزيًّا تسبب فى إساءة بالغة حين أصرت سيدة بعد حضورها قداسًا قبطيًّا على شراء الصنوج التى استعملت فيه لتكون تذكارًا. ومن حسن الحظ أن الأدب الذى سمح للسيدة بأن تتصرف بالطريقة التى تصرفت بها كوفئ بتدخل رجل أدرك طبيعة الجرح الذى أحدثته دون قصد، واستعيدت ممتلكات الكنيسة.

الفلاح كائن فضولى، كحال كل من يحب الثرثرة دائمًا. مرات ومرات كان الخدم يتساءلون بصوت منخفض وبإيجاز طوال الرحلة عمن يكونون هؤلاء الأغراب! لماذا يزورون جزءًا من البلاد لا يذهب إليه السياح أبدًا؛ وكم من الوقت سيمكثون؛ وأهم شىء، هل للسيد أية علاقة بالحكومة؟

تنطلق الأخبار فى كل الاتجاهات بتلك الوسائل السحرية المعروفة فى الشرق فحسب. وكما فى الأزمنة التوراتية، أرسل كل من المراقب الواقف على سطح الدار والحارس الذى فى الحقول القائم على تله الترابى الإشارات.(١)

وأخيرًا ها نحن نرى على البعد، عبر الحقول الزمردية، القرية التى سنقيم فيها. إنها مثل القرى جميعًا، حشد بديع من الأكواخ الطينية بُنى على أرض ارتفعت قليلاً عما حولها اتقاءً لفيضان النيل. وتبرز فيها مئذنة المسجد الرشيقة، والدار البيضاء

(١) «وطلع الرقيب إلى سطح الباب إلى السور ورفع عينه ونظر وإذا برجل يجرى وحده». (صموئيل الثانى ١٨: ٢٤)

الكبيرة، أو القصر، الذى نحن ذاهبون إليه، والقباب الصغيرة التى تميز الكـ القبطية. وفى أى بلد آخر كانت القاذورات المحيطة بالقرية ستصبح أمرًا لا يمكـ احتماله. فإحدى عجائب مصر أن الشمس تُصْلح كلَ شىء.

فى حوليات مصر القديمة بالهيروغليفية، كثيرًا ما يرد ذكر الدور المميزة عـ المساكن العادية بلقب «الدار البيضاء». وكانت خزانة الفرعون تسمى «الدار البيـ المزدوجة». والشىء نفسه قائم الآن. فالعدد الأكبر من مبانى الحكومة المصر طُلى بالجير الأبيض ويمكن للمسافر تمييزها عن بُعد. ومسكن كل مصرى ذى مكا فى البلد طُليت جدرانه باللون الأبيض. والآن، وبما أنه ليس هناك ما يدعو إلى إخفا الكنائس القبطية، فهى تُطلى باللون الأبيض كما فى الماضى. وحتى تلك الكنائـ الصغيرة التى يؤمها الكثير من الأقباط الذين اجتذبتهم البعثة التبشيرية الأمريكية إلى المذهب المشيخانى تبرز ببياضها الناصع بين مساكن الناس بلونها الطيـ الكالح.

عندما وصلنا إلى الدار قوبلنا بأدب يبعث على السرور من مضيفنا الذى قدمـ إلى ناظر أملاكه، وإلى خدمه المهمين الآخرين، الذين كرسوا جميعًا جهدهم منـ تلك اللحظة لراحتنا والاحتفاء بنا.

من اللافت للانتباه أن نجد أن هذه الدار رغم أن تاريخ بنائها يعود فقط إلى الأيام الأولى للاحتلال البريطانى الذى وفر الأمن والكثير من الثروة التى قامت عليها أملاك صاحبها، فمخططها يتطابق تطابقًا شديدًا مع مخطط المساكن المصرية القديمة التى على القدر نفسه من الأهمية.

فالطوب اللبِن الذى ورد ذكره فى سفر الخروج هو المادة التى بُنيت بها، والفناء الداخلى محاط بغُرف تُستخدم لاستقبال الضيوف، وكمندرة، ولإقامة أهل الدار وكمخازن، وكل ذلك يشبه إلى حد كبير ما كان فى تلك الأيام.

يؤدى هذا الفناء إلى الورش، ومكاتب الدائرة، وغرف نوم الخدم، والمطابخ، ومخازن الكراكيب، بل واسطبلات تلك الحيوانات التى تستخدمها الأسرة باستمرار. وينزل الضيف من على دابته فى الفناء. والخدم الذين يسرعون لمساعدته على قدر كبير من الأدب، وهم يلقون عليه التحيات المعبرة التى يقتضيها العُرف.

وتشبه أبواب الفناء المنطوية ذات المزاليج الخشبية إلى حد كبير أبواب العصور القديمة، وكذلك أبراج الحمام القمعية المرتفعة القائمة على جانبى المدخل. وجرى تقوية الأبواب بصفائح حديدية قد تذكرنا بالطريقة التى كانت تُجلَّد بها أبواب معابد الفرعون بالذهب أو البرونز - حيث كان الأعداء الأجانب يسرقونها دون احترام للآلهة.

أبراج الحمام ذات أهمية كبيرة. فالحمام مكوِّن على قدر كبير من الأهمية من مكونات الطعام فى أنحاء البلاد كافة. ولا شك فى أن أصل الأبراج، الذى يعود إلى أزمنة بعيدة، هو معرفة أن الحمام فى هذا المناخ الحار يحب الاختفاء كى ينام خلال جزء من النهار فى أى جره أو بلاص بارد يجده. وتُبنى هذه الأبراج القمعية بالطين وقد لُصقت فيها الجرار القديمة. ولا يفكر أحد فى شراء الحمام فى مصر؛ فتوفير هذه الملاذات الباردة يكفى باستمرار لاجتذاب العدد الذى يمكن إعالته بهذه الطريقة. ولا يزعج أحد الأبراج، حتى وإن كان ذلك لتنظيفها، اللهم إلا إذا كان الغرض هو استخراج «الزبل» ذى القيمة الكبيرة. إلا أن ما يميز الحمام هو أنه لا يظهر عليه أى أثر للتراب والأوساخ الموجودة فى محيطه. وعندما يخرج الحمام قرب الغروب ويحلق حول المكان، ويلحق ضوء الشمس الذهبى، يبدو أن هذا المشهد هو الذى أوحى بذلك البيت الشاعرى من المزامير «إذا اضطجعتم بين الحظائر فأجنحة حمامة مغشاة بفضة وريشها بصُفرة الذهب».

أبدى المصرى القديم ذوقًا عظيمًا فى الزخرفة الداخلية لداره، فقد استُخدمت الزخارف التطبيقية على نحو كبير، وكانت الجدران كلها تحمل الزخارف والرسومات، وكان الأثاث مزخرفًا. وتخلو الدار الريفية الحديثة، كتلك التى نزورها، فى العادة من الزخارف الجدارية من أى نوع، حيث تُركت الجدران بالملاط الخشن. أما الأثاث فقليل جدًا وبشع، أما أغطية الأرائك، وهى فى بعض الأحيان من قماش جيد، والسجاد والأكلمة فهى بصورة عامة ذات قيمة كبيرة. إلا أن النقطة المهمة بالنسبة لمن يعتقدون أن الأقباط ينحدرون مباشرة من نسل شعب الفراعنة هى أن يروا كيف أنه مع عودة الرفاهية ينمو حب غير عادى لزخرفة الدور على نحو معقد. وأعرف العديد من الدور القبطية التى أُنفِق عليها قدر كبير من المال فى زخرفة الغرف الرئيسية كلها. والواقع أن المهارة والذوق القديمين هما الأمران المفتقدان

فى تلك المحاولات المكلفة لتزيين البيت. ومن المأمول أنه نتيجة للرعاية توليها الحكومة لتعليم الحرف اليدوية فى المدارس الفنية الممتازة سوف المواهب القديمة كامنة فحسب ولم تضج تمامًا.

من جانب الفلاحين، فإن المحاولات الوحيدة فى أى نوع من الزخرفة هى الرسومات البدائية الموجودة حول مداخل الأكواخ لبيان أن أحد السكان أدى فإذا كان هذا الرجل مسلمًا فإن رحلته إلى مكة تمنحه لقب «حاج»، ويستعد لعودته المباركة برسم صور بشعة للجمال والقطارات والسفن المفترض أنه بها على جدار داره حول المدخل.

ولكن لا بد أن نتذكر أن رحلات الحج المقدسة فى الشرق لا تقتصر على المسلمين فعلى الأقباط كذلك أن يسعوا لزيارة القدس، وإلى الاستحمام فى نهر الأردن. مصر يتبع كل منهما دون أن يدرى عادة من عادات القدماء؛ ذلك أن الحج إلى المعابد كان فرضًا واجبًا ومغامرة مقدسة؛ وكان يُصوَّر كذلك على المنازل.

حين كان الضيوف يأتون فى الماضى كان يقدم لهم قدح صغير من الخمر صغيرة من الزهور. والآن هناك فنجان القهوة الذى لا بد منه والسيجارة. والقبطى الحديث جدًا الذى اكتسب خبرة من الأسفار هو الذى يتخلى عن هذه العادة الشائعة بين المسلمين والمسيحيين على السواء، ويأمر بإحضار قارورة الويسكى والسيفون.(١)

ينبغى أن يغار الأقباط من اتباع عادة شرب القهوة، حيث يشير التراث إلى أن فضل اكتشافها يعود إلى راهب قبطى؛ فقد قادته تجاربه للعثور على شىء يمكنه من البقاء مستيقظًا من أجل صلواته الطويلة بالليل إلى تقرير أن حبوب البن هى ما يبحث عنه على وجه الدقة.

ليس من الأدب تقديم فنجان ممتلئ لآخره بالقهوة، ونادرًا ما رأيت فنجانًا ثانيًا يقدَّم؛ وقيل لى إن عرض فنجان ثالث يُفهم على أنه إهانة متعمدة ـ «الثالث للسيف» كما يُقال.

(١) أسطوانة معدنية تحتوى على الصودا التى تُضاف إلى الويسكى. (المترجم).

مضيفنا من الطراز القديم، ولذلك ارتشفنا قهوتنا على الجانب المشمس من الفناء، حيث وضِعت المقاعد وبُثت السجاجيد من أجلنا، بينما الحياة فى المعقل الإقطاعى تستمر حولنا لا يقطعها شىء.

توجد وسط الفناء شجرة جميز نشرت فروعها التى تقف عليها أعداد من الطيور التى تزقزق. جلست فى ظلها مجموعة أو اثنتان من أطفال الخدم الذين يحملقون فى الضيوف ويتبادلون التعليقات التى تبعث على الضحك بخصوصنا. وقد أضفت ملابسهم ذات الألوان الزاهية نبرة مرحة على المشهد. البعض منهم زنوج، وهم أولاد البوابين الجالسين فى صمت عند البوابة فى نوبة حراسة، حيث بيوتهم فى الغرف المفردة الصغيرة على جانبى المدخل. ولا تعنى الخدمة فى مصر العزوبة بحال من الأحوال؛ ومغزى كلمة «الأعباء الثقيلة» المشئومة غير معروفة لدى أىٍّ من السيد أو الخادم. إنه ذلك النوع من الحياة الذى نقرأ عنه فى الصفحات الأولى من الكتاب المقدس، حيث توجد إشارات كثيرة إلى أطفال الخدم «ابن أَمَتِك».

كان الشرقيون القدماء ينظرون إلى العزوبة بكراهية شديدة، باعتبار أن عدم وجود ذرية بلاء رهيب. ومع أن الرهبانية الدينية كانت النمو المبكر للكنيسة القبطية، فهى لم تؤثر على آراء الناس بشأن هذا الأمر. كما يكره الشرقى الرجل الأجرد.

تشبه مكانة مضيفنا مكانة اللورد الإقطاعى ويلجأ الناس إليه للحصول على العون والحماية، ويقدمون له الاحترام والتبجيل، كما كان يفعل الأقنان فى الماضى. وليس لدى البواب الذى يحرس البوابة الكثير مما يقوم به، ذلك أن دخول البوابة مباح من الناحية العملية، ليس بالنسبة لمن يتظاهرون بالعمل فحسب، بل كذلك بالنسبة لأى شخص يرغب فى أن يغذى عينيه بعظمة سيده الإقطاعى، أو مجرد رغبته فى التمتع بشرب الماء من القلة أو الزير الذى تظله الشجرة، والاستراحة فى وضع القرفصاء فوق إحدى الحصر الموجودة على الأرض؛ أو يخلع نعليه إذا أراد الجلوس على أحد المقاعد الخشبية المتوفرة، حيث تكون الساقان باستمرار تقريبًا مرفوعتين على المقعد والذراعان ملتفتين حولهما. وهكذا كان يجلس قدماء المصريين، كما تبين الآثار.

وهناك شكل من أشكال الجثو نهى عنه الإسلام والمسيحية على السواء. فنشاهد على الآثار القديمة رجالاً جثوا على ركبة واحدة، وخاصة فى وجود الأكابر، ولكن منذ أيام الرسول وهناك اعتقاد عام بأنه من الخطأ أن يسجد إنسان لغير الله وحده.

وقد رأيت رجلاً فى ضائقة يطلب معروفًا من الباشا وقد أخذ التراب من أرض الفناء وضمه على شفتيه علامةً على الاحترام والتبجيل؛ ولكن الرجل نفسه لا يمكن أن يركع لأحد، ولو للخديو نفسه.

الفناء هو ملتقى الكل - الرجال والنساء والأطفال - فى الناحية ممن لديهم وقت فراغ طوال النهار. ويمضى الرجال المسنون الذين لم يعودوا يعملون الساعات الطوال هنا كل يوم، مستمتعين بمنظر الأنشطة فى المكان، مسبحين بمسابحهم إذا كانوا مسلمين،(١) ومتمتمين بصلواتهم «أبانا الذى» و«كيرياليسون»(٢) إذا كانوا أقباطًا، وكذلك بالمسبحة؛ حيث يتبادلون الحديث عن ذكريات الأيام الخوالى حين كانت الحياة أقسى مما هى عليه الآن، ويحمل ظهر كل رجل من طبقتهم آثار سوط الطاغية(٣).

---

(١) لا يستخدم المسلم المسبحة للصلاة، بل فى ترديد أسماء الله الحسنى وعددها تسعة وتسعون ويرطب المؤمنون «ألسنتهم بها». [الواقع أن المسلم عندما يسبح يقول «سبحان الله» و«الحمد لله» و«الله أكبر» ثلاثًا وثلاثين مرة لكل منها، ويكون المجموع تسعًا وتسعين. (المترجم)].

(٢) «يارب ارحم» باللغة القبطية. (المترجم).

(٣) كان ذلك الضرب يتم فى إطار سياسة «السخرة» التى كانت من أبرز عناصر المأساة التى عاشها الفلاحون فى القرن التاسع عشر، واستمرت طوال النصف الثانى من القرن التاسع عشر لإقامة البنية الأساسية للدولة الحديثة وكذلك للقيام بعمليات تطهير الترع. ففى عام ١٨٤٧ كان عدد الفلاحين المطلوبين لحفر ثلاث ترع فى الدلتا ١٨٢٠٧٧ فلاحًا وُزِّعوا على مديريات الوجه البحرى. وفى بداية حكم سعيد عام ١٨٤٤ كان ما يقرب من ألف فلاح من قرية المنصورية بمديرية الجيزة يعملون بصفة مستمرة فى المشروعات العامة بعيدًا عن قريتهم، من بين مجموع سكان القرية البالغ ٢٦٥٣ نسمة. وفى فترة حفر قناة السويس كان مخصصا ما بين ٢٥ ألفا إلى ٣٠ ألف فلاح. وبلغ عدد من سُخِّروا لتطهير الترع فى عهد سعيد ٣٠٠ ألف فلاح. كما نفذ عدد آخر من المشروعات عن طريق السخرة مما أدى إلى نقص العمالة فى الريف بين ١٨٥٦ و١٨٦٣. وقد تحمل فقراء الفلاحين العمل بالسخرة وحدهم، حيث كان يؤخذ للسخرة كل الذكور فيما عدا الأطفال أقل من ثمانى سنوات والشيوخ أكبر من سبعين عامًا. وعدل هذا بعد ذلك بالأمر العالى الصادر فى ٢٥ يناير ١٨٨١، فأصبح يذهب للسخرة الذكور ما بين ١٥-٥٠ سنة. وبذلك يكون الفلاحون الفئة الوحيدة التى تطبق عليها السخرة. (المترجم).

الخفراء بنبابيتهم الطويلة موجودون هنا لتقديم تقريرهم؛ والصبية الحمارون محبو المرح ينتظرون الأوامر وفى أيديهم سياطهم.

بصورة عامة هناك مجموعة من الشباب والعجائز على الأرض يلعبون ألعابًا بسيطة بالحجارة(١) كان القدماء يلعبونها. وإذا ظننا أنها ألعاب صبيانية، فقد نستنتج أن هؤلاء الناس البسطاء جميعهم أطفال.

يخيم باستمرار سكون ووقار يختص بهما الشرقيون. ويجب ألاَّ يظن أحد أن هؤلاء الناس حزانى، لكونهم غير صاخبين. فهناك إشراق يحيط بهم لا يقل بهجة لكونه مكبوتًا. وتقديرهم للفكاهة والمرح لا خلاف عليه. وهم يقدرون كثيرًا أى رجل يمكنه «تقديم إجابة طيبة»، أو يتفوق فى التقليد، أو لديه أى لمسة من سرعة البديهة أو الفكاهة.

ولأن مرح الفلاح(٢) المصرى لا يعتمد بحال من الأحوال على أية درجة من درجات السُّكْر، فهو ليس صاخبًا: إنك تسمع الضحكة المرحة، وإن ندر أن تكون عالية جدًا؛ ولكن القهقهة والضحكات الرنانة والصياح الصادر عن العامة المجتمعين فى المشارب بالبلاد الغربية لا تسمعها هنا أبدًا. فهم يعلمون الشرقى منذ حداثة شبابه أن كل شكل من أشكال الإفصاح عن المشاعر قلة أدب ولا بد من استهجانه.

لا يعيش المصرى، مهما كانت ثروته وتحت أية ظروف، فى الدور الأرضى من أى منزل أو فندق، سواء فى المدينة أو الريف؛ فهو يظن أن النوم فى هذا المكان على نحو خاص يضر الصحة ضررًا بليغًا. ولذلك توجد غرف الاستقبال التى يأخذوننا إليها الآن فى الطابق الأول.

توجد هناك الأرائك الشرقية المغطاة بألوان زاهية وقد رُصَّت حول الغرفة، وغُطِّيت الأرضية بالسجاد الجميل والغالى. وهناك الكثير من النوافذ، وهى غالبًا فى

---

(١) يقصد السيجة. (المترجم).

(٢) استخدم هذه الكلمة هنا بالمعنى المقبول لدى الأوروبيين، أى العمال الزراعيين فى الريف؛ إلا أن الفلاح اسم يعطى لكل من يشتغل بالزراعة فى مصر، غنيًا كان أم فقيرًا.

حاجة إلى إصلاح؛ فالبعض منها لا يغلق، أو أن زجاجه مشروخ أو محطم. مثال على أن المصرى يمكن أن يصنع ثوبًا رائعًا، ولكنه لا يخيط الزر الأخير. حسن الحظ أنه يحب الهواء النقى فى غرفه. وبعد أن يلف نفسه فى المساء يجلس فى الداخل، فإنه يستنشق «الهواء البحرى الذى يرد الروح» بنفس البهجة التى كان يستنشقه بها أسلافه الأوائل الذين كانوا يستخدمون التعبير نفسه فى وصف الرياح الشمالية. وفى سفر أيوب «ومن الشمال البرد».

تقتصر كراهية العرب للريح، وهو الأمر الذى يشاركهم فيه الرسول نفسه(1)، على الخماسين، وهى رياح حارة محملة بالرمال تأتى من الصحراء، وهى بالفعل أمر يخشاه الناس عندما يقترب موسمها.

هناك جناحان كبيران من الغرف بطول المبنى كله؛ كل غرفة من الغرف بها باب يؤدى إلى الأخرى. ولذلك فلكى تذهب إلى الغرفة التى فى آخر الجناح، لا بد لك من المرور فيه كله، وهو ترتيب كان معتادًا فى مصر منذ أقدم العصور. أحد الجناحين مفتوح للضيوف، والآخر هو «الحرملك»، أو «المكان المعزول»، وهى الكلمة التى جرى تشويهها على نحو شرير فى الغرب. فالحرملك فى هذه الحالة مجرد جناح من الدار تعيش فيه الأسرة؛ وهو مخصص للزوجة والأطفال ولا يمكن لأى ذكر خارج درجة معينة من القرابة زيارته.

كثيرًا ما يسألون عمّا إذا كان الأقباط يتبعون العادات ذاتها التى يتبعها المسلمون فيما يتعلق باعتزال النساء وحجابهن أم لا؟ وهذا السؤال يحتاج إلى إجابة متأنية؛ لأن عددًا معينًا من المسيحيين المصريين المتعلمين والمستنيرين قد تخلوا منذ الاحتلال البريطانى عن العادات القديمة التى كان الأقباط يتبعونها حتى ذلك العهد كالمسلمين سواء بسواء.

(1) كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح استقبلها بوجهه وجثا على ركبتيه ومد يديه، وقال: «اللهم إنى أسألك من خير هذه الريح وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت إليه، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا، اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا» رواه الطبرانى عن أنس رضى الله عنه. (المترجم).

فقد هجرت سيدات أسيوط القبطيات الثريات، على سبيل المثال، الحجاب بالمرة ويتنقلن بحرية كما لو كن فى إنجلترا، لولا ذلك القدر الضئيل من التنازل الذى يفرضه كون رؤيتهن فى الأماكن العامة فى بلد الاحتجاب فيه هو القاعدة أمرًا يثير التعليق عليهن.

فى الفيوم كذلك تجمع عدد قليل من السيدات من الطبقتين العليا والوسطى معًا لتحسين أوضاعهن على الطريقة الغربية. وفى القاهرة والإسكندرية هناك عائلات لا تعرف فى الحياة المنزلية شيئًا عن الاحتجاب أو الغرف المعزولة، فالأصدقاء من الجنسين يُدْعَون إلى مائدة الغداء والعشاء، وأصبحت حرية الاختلاط التامة هى القاعدة.

لقد قابلت بهذه الطريقة عددًا من السيدات القبطيات شديدات الذكاء. وهن فى الغالب جميلات ويتمتعن بسحر رقيق وليد الحياة الخفية التى خرجن منها للتو، يدعمه اعتزاز بالنفس رباه فيهن التعليم الممتاز على أيدى مربيات أجنبيات من فرنسا وإنجلترا. وهن يتحدثن لغتنا بطلاقة، ويعرجن بطلاقة سهلة إلى الكلام الذى يستخدمنه فى رحلات التسوق التى يقمن بها سنويًّا فى باريس، حيث يشترين ملابسهن كلها. الواقع أن فصاحة لغتهن العربية الأم لا تصل فى فصاحتها إلى فصاحة تلك اللغات المكتسبة.

صديقة قبطية لزوجتى على قدر كبير من الأدب والثقافة والجاذبية لا تكتب بفضل تخرجها من «جيترون» النثر الإنجليزى فحسب، بل تكتب النظم الإنجليزى الذى يجد فيه خيالها الشرقى تعبيرًا ثريًّا.

ولكن كما أنه من المثير أن نجد مثل هذا التقدم، فلا بد من الاعتراف كذلك بأنه مقصور على طبقة صغيرة جدًا. فما زال من الواجب وصف الاحتجاب الصارم والحجاب المُحْكَم بأنه القاعدة القبطية؛ وأنه ليس كذلك بين أبناء الريف والجهلة فحسب. فهناك شباب مصممون، رغم التعليم فى مراكز العلم الأوروبية وربما لهذا السبب، على أن العادات الشرقية، فيما يخصهم، سوف يُحافَظ عليها. وأعرف أكثر من قبطى شاب من خريجى الجامعات الإنجليزية عادوا إلى

مصر مصممين على إبقاء زوجاتهم الشابات على قدر كبير من العـ
والاحتجاب.

بالنسبة للأكثرية من الناس، أغنياء وفقراء، نادرًا ما يكون هناك شك فى هذا الأ
ففى قلب القاهرة زرت أقباطًا من الطبقات كافةً، من مضيفى القروى الثرى،
المهنيين الشباب، إلى الكهنة والشمامسة فى الكنيسة، دون أن أرى قط أثرًا لزوجا
العائلات وبناتها. وكما هو الحال فى الأسر المسلمة، فإنهم يأخذون زوجـ
بمفردها إلى الحرملك، ومن خلالها سمعت عن الحياة المثيرة التى تجرى خلـ
تلك الأبواب المحمية.

يجب ألَّا نفترض أن النساء باحتجابهن يصبحن طيورًا محبوسة داخل أقفاص
تضرب بأجنحتها قضبان سجنها الذهبية. فقد كُتِب من الكلام الفارغ عن الحرملك
أكثر مما كُتِب عن أيٍ من تفاصيل الحياة الشرقية الأخرى، وهو الأمر الذى أبدع فيه
الكُتَّاب الغربيون أيما إبداع فى الاستنتاجات الزائفة - والداعرة فى كثير من الأحيان -
التى يغطون بها ما ينقصهم من معرفة دقيقة.

أحد الافتراءات التى يقبلها الناس بأسهل ما يمكن فى البلاد الغربية أن ارتداء
الحجاب واحتجاب الحريم من اختراع النبى (محمد)، وقد حافظ عليه أتباعه رفيقو
الحال، وأن المسيحيين فى مصر اضطروا لتبنى العادات الضارة من غزاتهم العرب.

الأحرى هو أنه لا بد من إرجاع وضع النساء هذا إلى مصر القديمة وإلى عصور
العهد القديم، كما تشير هذه الأشياء. فالمرأة السورية كما صورها رينان كانت تمامًا
كالمرأة فى مصر القديمة، تنأى بنفسها عن الأنشطة العامة والاهتمامات الاجتماعية
الخاصة ببعلها، وكانت راضية برعاية رفاهيته عن بُعد، واستقباله برقة حين يزورها،
والحصول على متعتها بألف طريقة نسائية، وقد أحاط بها أطفالها المحبوبون،
واستقبال صديقاتها ورد زيارتهن، ومناقشة أمر الملابس التى سوف يرتدينها،
والأخبار الأسرية كافة، بتفاصيل دقيقة، كما تفعل النساء جميعًا.

سيدات الحرملك فى مثل هذه الدار التى نزورها لسن عاطلات، كما يُفترض
بصورة عامة. فرعاية أسرهن تشغلهن إلى حد كبير؛ ومهارتهن فى تفاصيل معينة

تتعلق بالطهو أمر يجدن فيه متعة. وهن جديرات بأسلافهن القديمات فى اتقان ما لا يحصى من الفطائر التى يصنعنها فى المآدب الكبيرة التى يستمتع بها بعولتهن وأصدقاؤهم.

بالنسبة لمسألة الزى، هناك فحص مطول وجاد للأقمشة الغالية وللمجوهرات التى يرسلها تجار المدينة للاطلاع عليها. والأقمشة الحريرية والساتان التى يخترنها تكون ذات ألوان زاهية أو لامعة أو متقزحة اللون، مع أنسجة من الذهب والفضة. وبالنسبة للمجوهرات، لا تجد بلدًا الصانع الماهر للمعادن النفيسة والأحجار الكريمة على هذا القدر من الأهمية التى عليها هذا الصانع هنا؛ وإذا عرفت أين تبحث عنها سوف تجد فى القاهرة جواهر أندر وأجمل ترصيعا مما فى باريس. ويستمر الصائغ المفضل فى العمل حتى من أجل السيدات ذوات الثروة المتواضعة؛ ذلك أنهن إذا لم يكن يضفن إلى ممتلكاتهن شيئًا، فإنهن يعدن تشكيل التاج الثمين، أو القلادة الثقيلة، أو الأساور، لكى يجددن سرورهن بما لديهن من ماس ولؤلؤ وياقوت وزمرد، وهى الأحجار الكريمة المفضلة.

وعندما لا تكون السيدة من هذه الطبقة مشغولة بتلك الأمور، يكون إطار التطريز فى يديها، حيث تحقق نتائج تتسم بالمهارة والجمال. وجمع الكثير من العطور الشرقية التى تستخدمها هى وبناتها أحد أنشطتها الصغرى؛ وهى حَكَمٌ جيد، وبما أن زوجها يستخدم كذلك عطرًا مفضلاً - قد يكون الياسمين - فهى تختار هذا العطر له. وهى تستخدم الحنة لتخضيب أظافر قدميها ويديها لتضيف إلى جمالها جمالاً - إلى جانب استخدامها بسخاء أكثر فى الطقوس - وتستخدم (الأنتيمون)[1] فى جعل عينيها تبدوان طويلتين.

إذا كانت السيدة المصرية تحظى بحب زوجها، فإنها لا تطلب أكثر من ذلك كى تشعر بالسعادة التامة؛ والواقع أنه إذا فكَّر فى إزالة الحدود التى تجعل منها سجينة فإنها ستظن أنه لم يعد يحبها ويهتم بها، ويبدو لها العالم بأسره ولأنه ينهار ويتحطم.

(١) حجر الكحل. (المترجم).

الكثير جدًا من الزيجات على قدر كبير من السعادة؛ وإذا ما ظهرت الإنس
القديمة إلى أن النساء مجرد لُعَب يلهو بها الرجال، فإنى أقول: إنى أعرف أعد
كبيرة من النساء الماهرات اللائى يحترم أزواجهن ذكاءهن وشخصياتهن. والحرملك
هو الملاذ المفضل فى كل الأوقات لدى الزوج والأبناء الذين لا يتخذون بحال م
الأحوال أية خطوة مهمة فى حياتهم بدون الحصول على الاستشارة الحكيمة م
السيدة التى تتسم بالكياسة صاحبة السيادة فى هذا المكان - تلك السيدة التى نظ
وقد تقدمت فى العمر محتفظة بالتوقير والاحترام من الرجال كافة الذين لهم ح
الدخول فى منطقة نفوذها.

عندما وصلنا إلى الفناء كنا متأكدين تمامًا أن وراء شيش نوافذ غرف النساء الكثير
من العيون الفضولية التى تراقبنا، وأن الألسنة الثرثارة تناقش بحدة كل تفصيلة م
تفاصيل مظهرنا وتفاصيل أمتعة سفرنا.

كنت متأكدًا من أن السيدات قد سررن من البهجة التى أبديناها فى تحياتنا
للأطفال الذين نزلوا لينضموا إلى أبيهم فى الترحيب بنا، ذلك أننا تعلمنا منذ زمن
بعيد ما يكفى من التراث الشرقى بحيث نعرف كيف نستخدم الفطنة والحصافة فى
أن ننقل للآباء الفخورين إعجابنا بذريتهم الجميلة بحيث لا نثير فيهم كل تلك
المخاوف من عين الحسود الرهيبة التى لم تخف قيد أنملة بمرور الزمن. والاعتقاد
فى «عين الحسود» قديم جدًا وموجود فى كل مكان، وهو فى بلاد كثيرة الآن بالقدر
الذى كان عليه فى عصور ما قبل التاريخ.[1] ونحن نقول حين نحيى الأطفال «ما

(١) ما يسمى فى الإنجليزية «العين الشريرة» له ما يماثله فى كل لغة مكتوبة. ويسميها شكسبير «الإطلال»، والخطأ الذى يقع فيه كثيرون هو الظن بأن هذا معتقد شرقى، وربما إسلامى. ففى إيطاليا لا يمكن أن يعيش المرء ساعة بين الناس دون الإيمان بالخرافات. ولم يفعل العلم الحديث والتعليم شيئًا لإضعاف هذا المعتقد. وبعض الناس لديهم القدرة على إلقاء تعويذة ضارة من خلال نظرة العين، خاصةً إذا كانوا مستاءين. وسوف نجد فى أصل الفكرة باستمرار أن «الحسد» هو الروح المدمرة. وكلمة (envy) الإنجليزية تعنى: الشعور الضار أو العدائى الناشئ عن الغيرة. وعندما حسد شاول داود كان «يعاينه منذ ذلك اليوم» (صموئيل الثانى، ١٨: ٩)، وتتكرر الفكرة ذاتها فى العهد القديم، حيث يكون الحسد شرًا يُستعاذ منه. ومن المهم ملاحظة أن وصية كاملة من الوصايا العشر تتناول الحسد واشتهاء ما لدى الغير، ومن رحمة الرب أن «عينه على الإنسان للأبد».

شاء الله»، «الحمد لله!» «ربنا يحميهم لك!» «ما شاء الله! ربنا يطول فى عمرهم ويبارك فيهم!» ونجعل الآباء يعرفون أننا كذلك لدينا الكثير من الأطفال، على نفس ما عليه هؤلاء تقريبًا من جمال، ذلك أنه بهذه الطريقة فحسب سوف يسرهم إعجابنا.

وقد رأيت بنفسى أطفالاً، وأولادًا بصفة خاصة، لأشخاص أغنياء يُتركون يجرون ويلعبون شعثًا قذرين اتقاء لعين الحسود. ومع ذلك فإن هذه العادة آخذة فى الانقراض، خاصةً فى المدن، حيث يرتدى الأطفال فى الغالب هذه الأيام الملابس الجميلة وترعاهم مربيات ومعلمات فرنسيات وإنجليزيات.

الفصـــل الثانـــى

حياة الإقطاعى المنزليـة

فى وقت لاحق، وبينما كنا نستريح فى جناح عرفنا أنه يُستخدم كغرف استقبال أو غرف نوم، طبقًا لاحتياجات اللحظة (فهو لا يحتاج إلا إلى فرش المراتب والحرامات[1] لتغييرها من استعمال إلى آخر)، سألنا مضيفنا بحصافة عما نفضله فيما يتعلق بالطعام، بينما حاول اكتشاف الأوقات المعتادة التى نتناول فيها وجباتنا. ونشبت بيننا معركة رقيقة من المراوغات المؤدبة، حيث كانت رغبتى هى اتباع عادات الدار، بينما يقتضى منه الأدب أن يغير مؤسسته بكاملها حسب أفضليات ضيوفه، مهما كانت غريبة عنه.

صفق وظهر بهدوء الخادم الذى مهمته الأساسية هى تقديم الطعام، ووقف منتصبًا وبكرامة، بينما يتلقى من سيده أوامره الصادرة بصوت منخفض، دون أن يرد بشىء سوى كلمة «تمام».

اختفى بعد ذلك كى يترجم التفاصيل الدقيقة لمرقس الطاهى، وهو خادم موضع تقدير عرفنا فيما بعد أنه عبقرى من أهل المنطقة سافر كشاب أمى من قرية قريبة إلى القاهرة حيث تطورت موهبته فى الطهى فى مطبخ فندق كبير. إن قدرات الذاكرة والملاحظة عند الشرقيين تبعث على الدهشة باستمرار؛ فلا يبدو أن هذا الرجل ينسى أى شىء سمعه بحال من الأحوال. وهو يطهو بنفس القدر من الجودة بالطريقة المحلية أو الباريسية. وعندما يُطلب منه تقديم وجبة فرنسية، فإنه يصر على قائمة

---

(١) الحِرام غطاء ثقيل منسوج بخيوط من صوف الغنم وقد تكون به بعض الوحدات الزخرفية الملونة. (المترجم).

مكتوبة تحدد على نحو دقيق الاسم الفرنسى لكل صنف. واليوم سيطهو لنا مرق[…]
وجبة مصرية صرفة بناءً على رغبتنا الخاصة.

بينما كان يجرى إعداد الطعام، دعانا مضيفنا إلى التنزه فى حديقته للاستمتا[…] بهواء أبرد حيث الشمس فى سبيلها إلى المغيب. والحديقة المصرية متعة بلا[…] وخيبة أمل لا حد لها فى آن واحد! فهناك زهور بوفرة فى كل الأوقات، والأريـ[…] الغنى الدافئ الذى يحيط بالمرء من كل مكان يوقظ الحواس. ويعد المصرى كل[…] شىء ينمو، مهما كان جماله، مجرد حشيش لا اسم له، وليست هناك زهرة إلا وتفوح[…] بعطر يبعث على السرور.

ها هى الورود موجودة بوفرة كبيرة فى يناير، حيث تضفى على المنظر قدرًا كبيرًا[…] من اللون؛ وهذا سياج كبير من الياسمين، أبيض بزهوره الكبيرة، وتصدر عنه نشو[…] رقيقة؛ وتدعونا أشجار البرتقال المزهرة إلى مباهج تبعث على الحيرة لكثرتها.

ولكن حين نصل إلى ذلك الركن المخصص لإنتاج الخضروات، نجد الفول ذ[…] العبير الذى يُزرع عمدًا من أجل رائحته، ذلك أن مضيفنا لديه عشرات الأفد[…] المزروعة فولاً فى مزرعته المحلية.

لكن ما الذى يبعث على خيبة الأمل بشأن هذه الحدائق رغم مباهجها المختلفة؟ أول[…] شىء هو أن الهدوء الشديد الذى تتميز به تربة إنجلترا المزروعة زراعة جيدة مستحيل، حيث الفيض اليومى وطرطشة المياه التى يؤتى بها من النهر هى الطريقة الوحيدة للحفاظ على حياة أى شىء. تلك الطرطشة التى تحول أحواض الزهور إلى مساحات طينية غير مرتبة. كما أنه فى غياب أى شىء من الرصف أو الحصى، فإن ممرات الحديقة الشرقية لا تسر أبدًا العين التى تجد المتعة فى الخطوط المحدَّدة والنظافة والترتيب.

فوق هذا وذاك، ليس هناك ما يمكن مقارنته بمروجنا الإنجليزية فى هذا البلد الذى تهلك فيه الحشائش كلها فى فصل الصيف الحار، بحيث يجب زراعة محصول جديد كل شتاء؛ ونتيجة لذلك فإنها لا تمثل سوى محاكاة خضراء للمرج بالنسبة لمن يعرفون ثراء المروج الإنجليزية، التى يصل عمرها فى بعض الأحيان إلى قرون.

بعد أن ألقى مضيفنا اهتمامات النهار وراء ظهره، ها هو فى حالة مزاجية مرحة وبشوشة. وأثناء تجولنا فى الحديقة، دعانا إلى التقاط الكثير من الفاكهة وأكلها؛ غير أن معرفتنا بطول المآدب المصرية جعلتنا حذرين، ولذلك تركنا تلك الأطايب مثل التين الأخضر الناضج والبرتقال والفراولة وغيرها من الفواكه النادرة دون أن نتذوقها.

غالبًا ما تكون هناك مناسبة للتعليق على أن الشرقى يفعل كل شىء باستمرار على العكس تمامًا من الطريقة التى يفعله بها الغربيون. وينطبق هذا كذلك على الأشياء التى يأكلها. والذوق نفسه الذى يجعل مضيفنا يفضل الطرف الأخضر من الفجل ويبرر جمعه زهور البازلاء الخضراء وبراعمها الصغيرة، التى نصحنى بها باعتبارها ألذ بكثير من البازلاء التى أصررت على أخذها من القرن.

لقد حكى ضاحكًا إحدى القصص الشائعة فى الشرق. فأقدس واجب لدى أى رجل، وخاصة المنحدر من أصول بدوية ـ وهناك الكثير من العرب الخُلَّص الذين يجوبون صحارى مصر، وبعضهم على قدر كبير من الثراء ـ هو كرم الضيافة. وهو مهم أهمية أن يكون المرء شجاعًا.

كان هناك بدوى نسى ـ رغم ثرائه ـ تقاليد جنسه القديمة، مما جعله يضن بالقليل من الزاد والماء على المسافرين الذين كانوا يعبرون بثقة فى تلك المنطقة النائية من عند مضاربه. وكان رفض طلبهم أمرًا غير وارد بالنسبة للنخوة البدوية، ولكن ذلك الرجل بما هو عليه من بخل كان يسعى بمكر للتخلص من عابرى السبيل الجوعى بأقل تكلفة ممكنة.

وبينما كان يجرى إعداد الطعام الذى يتوقعونه كان يأخذهم فى زيارة طويلة إلى حديقته، وبينما كان يتحدث معهم كان يجمع مرارًا حفنات من الفول[1] ـ أرخص طعام فى مصر ـ ويعطيها لهم ليأكلوها. وكان التأخير الطويل، الذى لا يمكن أن يشكو منه أحد فى الشرق الذى يتسم بالبطء، يجعلهم يجوعون، ولا شك بالمرة فى أنهم كانوا يشبعون قبل أن يكون الطعام الأغلى ثمنًا قد أُعِد؛ وكان ذلك مبعث

(١) يأكل المصريون جميعًا الفول الأخضر بدون طهو، وكثيرًا ما يكون ذلك بكميات كبيرة ـ وهو طرى وطعمه لذيذ.

بخله الجنس النبيل الذى من دواعى فخره أنه يعز سرور الرجل الذى يشين
الخيام، مثلما فعل أبوهم إبراهيم.

أعلن مضيفنا وفى عينيه ضحكة أن هذا هو السبب فى إحضارنا إلى الفول... يطهون وليمته!

عدنا بعد ذلك إلى الدار حيث كانت استعدادات غرفة الاستقبال قد اكتم... تقريبًا للمأدبة.

من السهل جدًا أن ننسى أحيانًا فى مثل هذه «العزومات» أن هناك أى فرق... الأقباط والمسلمين؛ إلا أن هناك شيئًا يَرِد على بالنا باستمرار تقريبًا. فزجاجة الويسكى وقنينة الشراب، حتى فى أكثر الأسر تواضعًا، تظهران فى الفترة الأخيرة... انتظار العشاء، ويشرب بعض الرجال، باعتبار ذلك aperitif [فاتح للشهية]... يتفننون فى بعض الأصناف من المشهيات الشرقية؛ ذلك أن هناك اعتقادًا لدى الأقباط بأن المشروبات الروحية ضارة ما لم يكن معها نوع ما من الطعام. ويعرض الضيف بين كل نوع من أنواع الشراب الإسكوتلندية والأيرلندية، من الماركات المشهورة كافة.

وُضِع العديد من الصوانى المستديرة الكبيرة على حوامل نقالى منخفضة... والواجب أن نجلس على الأرض، غير أن امتيازًا قد أعطى لعاداتنا المختلفة بتقديمهم الكراسى لنا.

أول عمل من طقوس المأدبة هو أن يذهب المرء إلى المائدة ويأخذ فوطته، وهى فى حجم المنشفة، ثم يعود إلى الصالة الخارجية حيث ينتظر خادمان أو أكثر معهما إبريق لكى نغسل أيدينا فوق الطشت بالماء الجارى. إنه مصدر دهشة باستمرار بالنسبة للشرقى أن يغسل الإنسان، ولو يديه، فى ماء راكد أو «ميت» - فهو يرى أن هذه العادة أقذر من أن يفكر فيها. كنا نصنع رغاوى كثيرة بالصابون، ذلك أنه من الأدب أن تبدى دقة متناهية فى غسل اليدين قبل الأكل. ثم جففنا أيدينا بفوطنا، وعدنا فى الحال إلى المائدة، وكان المضيف هو آخر من غسل يديه.

الصحبة الآن فى أكثر حالاتها المزاجية مرحًا؛ فنحن جميعًا نشع سرورًا، وكان يخيم علينا سحر يصعب وصفه لمن لم يسبق له تجربته. أحد عناصر السحر الذى

يمارسه الشرقى فى ضيافته هو شعور المرء الذى يبعث على السكينة والهدوء بأنه بين أصدقائه أو إخوانه؛ إنه الجو الخاص بشكل من أشكال التربية الطيبة التى لا تضع قيدًا على المزاح غير الضار. ويُنقل إليك بمهارة أنك كضيف موضع كل اهتمام، بينما لا تقحم أية إشارة نفسها على نحو على نحو قد يزعج استمتاعك الهادئ، حتى ولو كانت تلك إشارة اهتمام أنت موضعه.

لا يمكن للشرقى أن يعانى من أفكار كئيبة تخص المستقبل؛ فالواقع أنه يدرك أنه يكفى التفكير فى شر اليوم؛ أما الغد فبيد الله الذى يظل أمرًا يعنيه هو.

أكثر المصريين جدية - ويمكن أن يكون بعض الشرقيين فى منتصف العمر جادين جدًا - هم كذلك بطبيعتهم أبناء المؤانسة المرحة، وقادرين على أن يحيطوا أصدقاءهم بهذا الجو من المزاح الطيب ونسيان مطالب الحياة الأكثر قسوة، حتى أن الإنجليزى يجد أنه من السهل فى هذه المجتمعات أن يبتعد لبعض الوقت عن كَدَر الذاكرة، وملل الواجب، ومتطلبات الزمن نفسه، فى رضا اللحظة الحالية الهانئ.

رُوى عن سلطان مراكش الحالى أنه أقام وليمة فى فاس مؤخرًا للمقيم العام الفرنسى. ولاحظ الضيف أن الساعات جميعها التى فى القصر متوقفة، وألمح أنه يود إهداء جلالته ساعة لمعرفة الوقت. وكانت إجابة السلطان مميِّزة لسلوك الشرق. فقد قال: «لقد أُوقفت الساعات بأمر منى. فأثناء إقامة سعادتك القصيرة جدًا معنا، ما الذى يدعونا إلى تذكر مرور الساعات؟» لقد خلق الله الأبدية، واخترع الإنسان استبداد الساعة.

ربما يكون لطف السلوك الشرقى ملحوظًا لدى المسلمين أكثر مما لدى الأصدقاء الأقباط، ولا أظن سوى أن شيئًا ما يُضحَّى به من أجل المنبه الاصطناعى المستورد من معامل التقطير فى شمال بريطانيا. فالقرآن يحرِّم أى مشروب مُسْكِر.

ينبع قدر كبير من السحر الذى يميز الشرقى باعتباره شخصًا محافظًا من اللغة الحية المعبرة التى يلبسها أى شىء يريد قوله بطريقة فطرية، ومن الحكمة الموروثة التى تجد ما يعبر عنها فى ثروة من الأمثال حاضرة فى الذهن باستمرار. وفى تجمعات كهذا ألاحظ دائمًا الأمثال التى تنساب بسهولة فى الحديث. وهذه بعض الأمثال التى سجلتها فى هذه المناسبة:

«اللى تلدغه الحية يخاف م الحبل».

«اللى ما لوش أخ زى اللى له دراع يمين ومالوش شمال».

«على قد لحافك مد رجليك».

«أخوك اللى يشاركك مصيبتك».

«كونوا زى الصحاب فى الحياة الاجتماعية، وكونوا زى الأغراب فى الشغل».

«الشيطان مش قد المرة العجوزة».

«الجنة من غير ناس ما تنداس». (هذا أوضح لأنه كذلك مثل إسلامى).

«أصدق راجل فى الدنيا اللى يفتكر أخوه وهو غايب، وهو ف شدة، وهو بيموت».

«البنت العازبة مكسورة الجناح».

«باب الجنة مفتوح للراجل اللى براعى والديه».

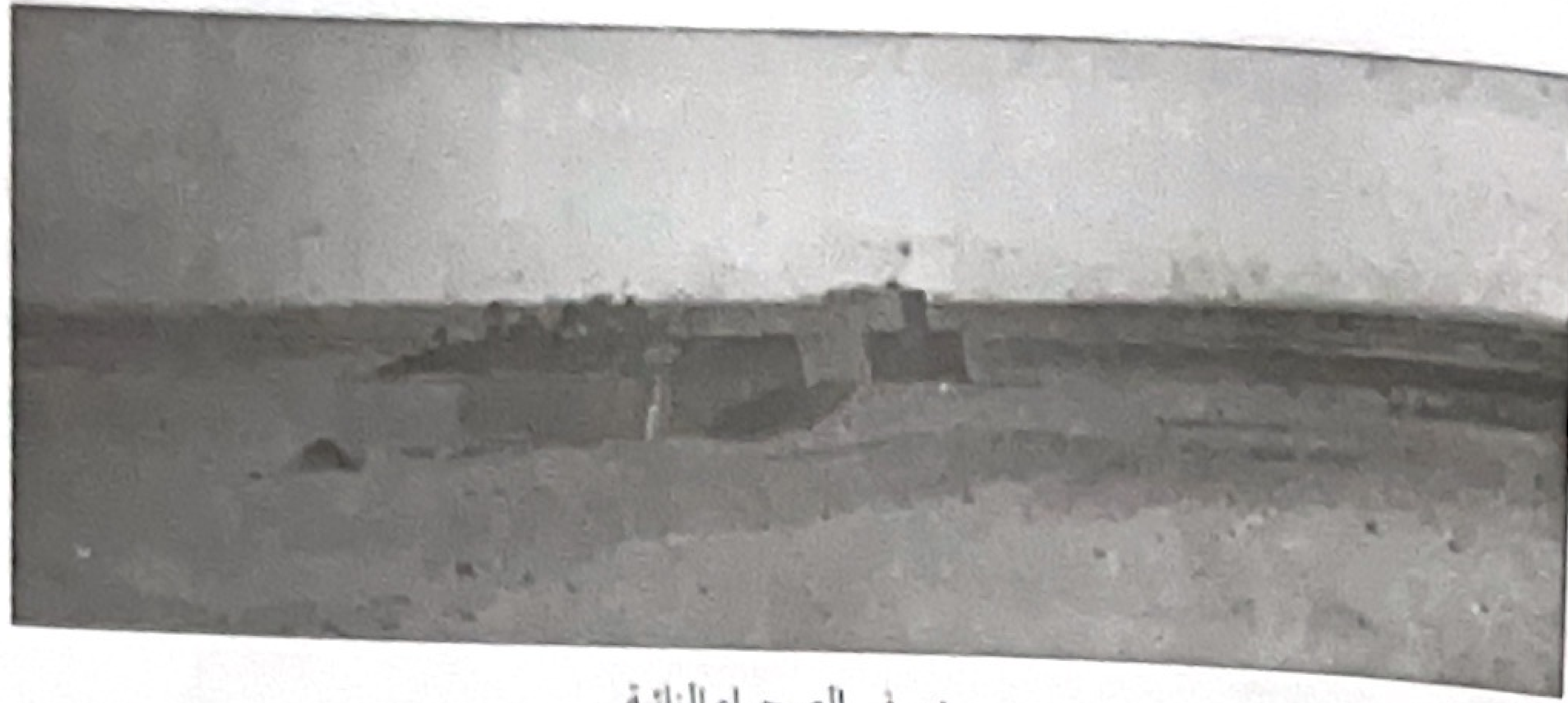
(هذا تنويع على المثل الإسلامى «الجنة تحت أقدام الأمهات»).(١)

كان من المثير للانتباه أن أجد هنا مثلاً يشير إلى الشخصية التى لا نفع منه لا يمكنك أن تفعل شيئًا بهذا الرجل، فـ«عقله مالح». تذكرت ما رُوى عن أ الرهبان من الوجه البحرى عاش فى القرن الرابع من أن بعض الأخوة توسلوا إ إحدى المرات إلى الأنبا إيبيفانيوس قائلين: «قل لنا يا أبانا كلمة عن الحياة، وإن حين تتكلم لا نستوعب بذرة كلمتك، لأن تربتنا مالحة».

جاء ذكر رجل ثرى من قرية مجاورة بتعبير متحفظ عن الرفض اتخذ شكل مث قديم يقول «الحشيش طالع على كانونه». وهذا قول كان معروفًا فى مصر منذ خمس عشر قرنًا وينطبق على الرجل الذى يفتقر إلى فضيلة كرم الضيافة.

هناك قول آخر سمعته من قبل فى مصر. كان يقول «الخلخ وتد الخيمة وبس» ينطبق بطريقة مضحكة على رجل حاضر كان قد تسبب منذ بضع سنوات فى قت

(١) من هذه الأمثال ما أوردت أصله العربى ومنه ما ترجمته. (المترجم).



دير فى الصحراء النائية



دير إرميا بأسوان

كبير من النزاع فى الكنيسة أثناء زيارة البطريرك، حين أدت الضغينة بين الأقباط الذين انضموا إلى المشيخانيين الأمريكيين وهؤلاء الذين ظلوا على عقيدتهم الأرثوذكسية إلى وقوع أحداث شغب. واحتج الرجل بأن ما قاله أو فعله كان أمرًا تافهًا لا ينبغى لومه عليه. واتفق مضيفنا بهدوء على أن الرجل «الخلخ وتد الخيمة شوية وبس» حيث أثار التعبير حالة من المرح بين الحاضرين على نحو جعلنى أرجوه أن يخبرنى بأصل المثل. وهذا ما قاله:

«كان عفريت شاب مسافرًا مع عفريت كبير، وأثناء مرورهما فى مخيم هادئ فى إحدى الليالى جعلا المكان كله فى حالة من الضجيج الرهيب. وحين اتهمه الرجل الكبير أنكر أنه فعل أى شىء يبرر تلك الضجة. «فما الذى تسبب فيها إذن؟» «لا أتخيل حدوث ذلك لولا أن أفلت حصان الشيخ. فقد كان مقيدًا فى أحد أوتاد الخيمة، وأظن أننى أردت فقط معرفة إن كان مقيدًا على نحو جيد أم لا. ولكن ربما حللت الوتد قليلاً».

ومع ذلك فهناك حرص فى الحديث الذى من هذا النوع على تحاشى الثرثرة الشخصية، وخاصةً تلك التى لها طابع يبعث على الضغينة، لئلا يحدث أو يصدر أى نوع من الإهانة ولو بشكل غير مباشر؛ وإن كان ذلك لا يعنى أن المصرى ليس حَكَمًا فَطِنًا على الطبائع. فهو على العكس من ذلك يوجه نقدًا للحكومة فى كل نقاش بحرية تعبير تدعو للدهشة؛ وتجعل الخطط السياسية الغربية البديلة لتلك المطروحة أمام البلد المرء يفكر فى تلك المناقشات التى تدور فى بِدلام.(1)

تُروى الحكايات والمغامرات الفكاهية، وتُحكى الأعمال البطولية، وتُقص قصص الأشباح التى تجمد الدم فى العروق. وفى تلك الليلة رُويت حكايات لا يصدقها عقل عن معجزات أسقف الفيوم المبجل والمقدس، تلتها أساطير رواها أحد المسلمين الحاضرين عن شيخ يعيش جنوب أسيوط. وكان الحديث فى الوقت ذاته يتسم بالأدب واللياقة، والخيال والطلاقة، وكان موشى باستمرار بالتشبيهات والمقارنات؛ وكانت حركات اليدين المصاحبة تساعد المتحدث فى توضيح معنى

(1) ما يشبه «العباسية» فى مصر و«العصفورية» فى لبنان، والمقصود به مستشفى المجانين. (المترجم).



رئيس أحد الأديرة (المتكئ على عصاه) وأصغر تلاميذه

ما يقول. ولا أظن أنى أبالغ حين أؤكد على أن هذا الحديث رائع، وتسرى فيه مسـ
من الذكاء المحلى تعوض عما فيه من ضيق المعلومات ومن مذمة الإيما
بالخرافات التى تميز كل ملاحظة.

على المائدة يوجد مكان أدوات المائدة المعدنية ملعقة خشبية فحسب، وينكو
الصينى من صحون فقط، وهذه دخلت حديثًا، وهى غير ضرورية بالنسبة لأصحا
العادات القديمة. ولدينا قطع كبيرة من أقراص الخبز الريفى الرقيقة التى نقطعها
قطعًا صغيرة تكفى لغمسها فى الصحون المستديرة ـ الموضوعة فى منتصف الموائد
ـ لنأخذ بها قطع الطعام التى نريدها. وفى حالة الحساء نستخدم ملاعقنا الخشبية
التى تغوص جميعها فى سلطانية واحدة. وعندما ظهرت الطيور كالديوك الرومية،
مزقتها أصابع مضيفنا القوية بمساعدة ضيوفه إربًا، ودُعينا إلى أخذ أطرى القطع.

الملمح الأساسى فى مثل هذه المآدب هو الخروف المشوى كاملاً؛ ولا بد أنه
ذُبح فى ذلك الصباح طبقًا للطقوس التى كانت معتادة فى مصر منذ أيام موسى،
وربما قبل ذلك. لا يمكننى القول بأننى أجد متعة فى منظر هذا الخروف الكامل،
ولكن لمعرفتى أن هذا دليل على تكريم الضيف، فقد انضممت إلى تقطيعه بما
يسميه ديكنز «الحواجب المحايدة». ومن حسن الحظ أن أيًا من الأصناف لا يبقى
كثيرًا؛ فميزة الضيف الرئيسى هى تنحية الأطباق جانبًا ليرفعها الخدم، وإن كان لا
يمارس هذا الحق إلا شخص مصرى. فالضيف الأوروبى لا يرضى على نفسه قبول
وضع السيد فى منزل رجل آخر، وهو ما يعرفه ابن البلد على أنه حق ضيف الشرف.
وبعد سلسلة طويلة من الأصناف المتعاقبة وصلت الحلويات المحببة، وهى إشارة
إلى أن الفاكهة ستليها.

وأخيرًا وصلنا إلى نهاية المأدبة، وغادرنا المائدة فرادى بالطريقة العشوائية التى
تعد مؤدبة هنا، فى اللحظة التى انتهينا فيها من الأكل، حيث ذهبنا إلى بعض الخدم
المنتظرين فى الخارج، كى نغسل أيدينا مرة أخرى؛ وكان مضيفنا آخر من غادر
الوليمة.

بينما كنا نغسل أيدينا أزال خدم آخرون كل أثر للوجبة التى تناولناها، وحتى
الموائد، وحين عدنا جلسنا متربعين على الأرائك العريضة بعد أن خلعنا أحذيتنا.



كبير نظار الباشا مع بعض الكتبة فى انتظارنا عند إحدى المزارع، وقد زينوا المدخل احتفاءً بنا

وبعد ذلك ارتشفنا القهوة العربى وهى لذيذة وعزيزة بالقدر الذى
الشرق يحرصون على ألا تؤثر عليها الأذواق الأوروبية الخشنة - بينما
السجائر التى اشتهرت بها مصر.

نُظِّم حفل غنائى شعبى للترفيه عنا، وبعد وقت قليل انتقلنا إلى الشرفة
بالغرفة وتطل على الفناء الكبير الذى أضىء بالمصابيح الحديثة، حيث كان
من التابعين للدار والفلاحين من القرية قد تجمعوا بالفعل، وكانوا يجلسون
الأرض فى جماعات ذات منظر رائع، وكان كل صوت وكل إشارة يعبر عن
سار.

هذه البهجة المثيرة للأرواح التى يستمدها الفلاحون - بل والمصريون
طبقة - من الغناء الشعبى نجربة خارج تجربة أهل الأجواء الأبعد شمالاً. وهى
منذ الوقت الذى بدأ فيه التاريخ.

المؤديان فى هذه المناسبة رجلان من قريتين مختلفتين بينهما نزاع لا ينتهى
المواهب المتنافسة التى يتمتع بها المغنون فى كل منهما الذين يجد فيهم الريف
متعته. ويحتفظ المغنيان فى الذاكرة بذخيرة لا حد لها من الأغانى الشعبية
علما نفسيهما بنفسيهما تلك المهارة العجيبة التى يعزفان بها آلة موسيقية تسمى
الكمنجة.

ليس صندوق الصوت فى هذه الآلة الوترية البدائية إلا جزءًا من جوزة
ولكن المؤدى عندما يعزف بقوسه على وتريها يثير جميع أنواع العواطف البدائية فى
جمهوره، وهو يصاحب الأغانى الشرقية عن الحب والعاطفة، وعن المرح والنخوة،
وعن المباهج العميقة الخاصة بالخيمة والقافلة، وعن الماء الجارى والواحات
الخضراء، وعن إثارة المعركة، ومسابقة الفطنة والإجابة السريعة الذكية.

عند اختيار هؤلاء المغنين، لا يفكر من يستأجرهم فيما إذا كانوا مسلمين أو أقباطًا؛ وعند تقديم المغنين لترفيههم لا يخطر على بالهم أبدًا أن من الضرورى مراعاة دين مضيفهم. وهذا ما اكتشفته عندما انطلق أحدهما فى أغنية الحج المثيرة للعواطف التى يعبر فيها المسلمون عن شدة اشتياقهم إلى مكة وغيرها من الأماكن

المقدسة الأخرى الخاصة بدينهم. ولم يرَ مضيفى والأصدقاء الأقباط كافة أى عدم اتساق فى ذلك. وحدث مرة أو مرتين عندما غنى المؤدى تلك الأغانى المليئة بالعواطف فى مدح الرسول التى يسمعها المرء فى البلاد الإسلامية كافة، كان الرد الوحيد على ملاحظتى هو «شايف، دا مسلم».

تناوب الرجلان الغناء، ومن المسلى أن نرى الشراكة بين جماعتين مختلفتين تؤيد كل منهما أحد المغنين. ولا ينتظر الناس حتى نهاية الأغنية ليبدوا استحسانهم؛ فبعد كل بيت تقريبًا يعبرون عن سرورهم بالهتافات المكثفة والمطولة - «الله! الله!».

يستمر إخلاص المصريين للمغنى الذى يسرهم مدى الحياة؛ والمؤدى النجم فى القاهرة الذى تزكيه نغماته الرتيبة الحلوة لدى جمهور المدينة يكون متأكدًا من اتباعه بحماس ما دامت لديه القدرة على مواجهته، تمامًا مثل تأكد نجم القرية من مشاعر الريف الذى يعيش فيه.

لم أستطع مقاومة الرغبة فى ترك صحبة الشرفة الفخمة أثناء فترة توقف الغناء، لاستفزاز العشائر دفاعًا عمّا يفضلونه[1]، عن طريق مدح كل منهما على نحو يغيظ المعسكر المضاد. وكانت الضجة تبعث على السرور؛ وكان التحيز طفوليًا فى أشد حالاته جدية، وكان شديد الروعة فى تعبيره. كان غناء أحدهما «أقل من تزييق الساقية المكسورة»؛ وكان الآخر مثل «خوار البقر، أو نباح الكلاب على القمر». ألم أكن مسرورًا بهذا الرجل؛ إذن ينبغى أن يغنى لى أغنيته عن عشق يوسف الفخرانى، وحينذاك ينبغى أن أشعر بأكبر قدر من السعادة، وأعترف بأنه لا يمكن أن يوجد على الأرض منافس لهذا الفنان.

(1) كانت لدى راوى السيرة الشعبية، كسيرة أبى زيد الهلالى مثلاً، القدرة على خلق علاقة إيجابية حية بين ما يرويه وجمهور المشاهدين يساعده فى ذلك ما يتمتع به من خبرة وحنكة. كما كان هذا الراوى عادلاً بين أبطاله. وكانت قدرة الراوى تجعل الحاضرين ينقسمون إلى فريقين يؤيد كل منهما شخصية من شخصيات السيرة. فمن الناس من ينحاز إلى أبى زيد ومنهم من يأخذ جانب الزناتى خليفة. والواجب على الراوى والأمر كذلك أن يُرضى الطرفين. أما إذا توقف عند انتصار أحد البطلين وهم بالانصراف منعه أنصار البطل الآخر حتى يروى لهم انتصارًا لبطلهم. (المترجم)

حين عدت إلى الشرفة بدا أن المنافسة دفعت المغنين إلى قدر أكبر من تعـ
تعبير، وأقر بأننى تأثرت تأثرًا عميقًا بالترنيمات الشجية، واللحن المصاحب
كان يكمل الجاذبية العاطفية التى فى صوت المؤدى بإبراز غريب. وكانت
أوقات حين كان النقر على الطبلة الصغيرة، أو الدَّرَبُكَّة، يصاحب بمفرده
إحدى القصص، حيث ينقل حالة الطرب التى تعطى حتى الأوروبى لمحة عن
الإثارة التى كثيرًا ما تقود فى الشرقى إلى حالة من النشوة اللا أرضية.

لا شك فى أن المصريين المحدثين من طبقة أصحاب الأطيان واعون بالشرف الذى يكتسبونه من الظهور أمام من يعولونهم فى تلك الشرفات الموجودة فى كل دار مهمة، وغالبًا ما تحيط بها تلك الشبكة المعقدة من الخشب الخرط بتصميم الأرابيسك، التى تسمى خطأً فى هذه الحال مشربية، لأن معنى الكلمة بالعربية هو «مكان الشرب»، وتنطبق فقط على ذلك الجزء من حجاب نافذة الحرملك حيث توضع القلل لتبريد الماء.

من المهم بيان أن تصميمات «الأرابيسك» لا تعود بشكل كبير فى أصولها إلى العرب، ذلك أنه فى المقابر التى تعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل زماننا هذا استخدم الفن المصرى هذه الزينات لأغراض زخرفية. وتدلنا أسقف بعض المقابر على نماذج من تصميمات على نحو أرق وأجمل ما يكون، أنتج فيها الخيال الثرى، حين توفرت له حرية الحركة، تأثيرات تسحر العين.

وأظن أن المرء قد يرى، فى هذه التفصيلة وفى تفاصيل كثيرة أخرى من الحياة المصرية، بعض التأييد للادعاء بأن الأقباط ينحدرون من الفراعنة. ويبدو أن لهم بعض الحق فى التأكيد على أنهم أتوا من الحضارة القديمة ببعض الفنون التى أثرت العالم فى ظل من فتحوا بلادهم ثراءً عظيمًا، فى الآستانة وحتى فى إسبانيا البعيدة وكذلك فى مصر.

أُعجب المسلمون باستمرار بهذا النوع من الزخرفة، الذى ربما رأوه أول مرة فى نماذج الكنائس القبطية الرائعة فى مصر القديمة. وسمعت أحد الأصدقاء يقول، عند أمل التأثيرات الثرية التى تحدثها تلك الزخرفة فى أحد المساجد: «إنه لا يمكن أن ون جمال تلك التصميمات قد جرى تخيله إلا فى الجنة وأن هناك اعتقادًا لدى الأُميين بأن الإنسان تعلم فن التطعيم بالصدف على خشب الأبنوس على يد جنى طيب تعلمه فى الجنة نفسها».

بالنسبة للشرفة، هناك مقبرة تعود إلى القرن السادس عشر قبل ميلاد المسيح بها صورة لإحدى تلك الشرفات يظهر فيها الملك أمينوفيس الرابع[1] الغامض بصحبة زوجته وابنته وهو يلقى بالجواهر والأوسمة لأحد ضباطه مكافأة له على الخدمة المخلصة فى مدينة تأسست حديثًا تكريمًا للإله الذى يعبده.[2] وشرفتنا هذه زُيِّنت الليلة بالسجاد الثمين على الجوانب، تمامًا مثل شرفة ذلك الملك القديم الذى يظهر وقد استند بيديه على المنسوجات المزخرفة الجميلة.

فى النهاية آوينا إلى الراحة فى غرفة جرى تشطيبها على نحو متقن بأسلوب فندق باريسى من الدرجة الأولى: وينظر مضيفنا بفخر إلى إنجازها المنمق غالى الثمن من وسائل الراحة الحديثة، باعتباره شخصًا يفهم احتياجات الضيوف الأوروبيين ويوفرها؛ رغم معرفتى بأن الأَسِرَّة وقطع الأثاث الأخرى غير ضرورية بالمرة لعاداته. وفى إحدى التفاصيل، على نحو خاص، لا يمكن للشرقى بحال من الأحوال إخفاء الدهشة التى ذكرتها للتو ويذكره بها توفير أباريق المياه والأحواض التى نستخدمها فى أوروبا: فنحن مجبرون على القول إن كنا نفضل مجىء خادم ومعه إبريق نحاس ذو بزبوز، كى نغتسل على نحو صحيح بالماء الجارى، أم لا نريد! وبالطبع نضطر للرفض بأدب.

كخدمة أخيرة، أشير إلى أن اثنين من الخدم سوف ينامان على مرتبتيهما على مقربة من بابنا ليكونا على استعداد لخدمتنا إذا احتجنا إلى أى شىء أثناء الليل.

فى الصباح، وبعد إفطار بسيط كان البيض البلدى الصغير الصنف الرئيسى فيه ـ وهو من الصغر حتى أن تناول شاب ريفى كان حاضرًا ثمانى بيضات لم يكن بالأمر المثير للانتباه ـ جلسنا بعض الوقت فى الفناء بينما كان مضيفنا يقوم ببعض الأعمال

---

(١) هذا هو الاسم اليونانى للملك أمنحتب الرابع (إخناتون). (المترجم).

(٢) هذه المدينة هى أخيتاتون، واسمها الحديث العمارنة، التى بناها إخناتون لعبادة الإله آتون التى حلت محل عبادة الإله آمون. (المترجم).

المعتادة مع النظار الذين يديرون أملاكه الواسعة تحت إشرافه. ويبعث عدد ونو الخدم المستخدمين فى العمل الإدارى فى مثل تلك الأملاك فى مصر على الدهش ويتجمع معظم العاملين، مع الكثير من الحرفيين، للخدمة فى المنطقة المحيط بالقصر.

الكتبة هم الفئة الأكبر، وهم حسب تقديرهم الأكثر أهمية إلى أقصى حد ممكن ومنذ أقدم إمبراطورية تاريخية فى مصر وهذه الفئة من الرجال تقوم بالجزء الأكبر من عمل البلاد؛ ذلك أنه من عادة مصر باستمرار كتابة رسائل لا حصر لها، حيث يبدو السلطة الحاكمة تجد فى هذه الطريقة التعبير الأساسى عنها. وحتى اليوم الكتبة فى مصر كلهم تقريبًا من الأقباط، سواء أكان صاحب العمل مسلمًا أم مسيحيًا.

رئيس الكتبة [الباشكاتب] هو سكرتير السيد الإقطاعى الموثوق به الذى يشارك فى المداولات المهمة كافة. وهذا منصب محفوظ فى كثير من الأحيان للأقباط، حتى بين مستشارى الخديو، حيث ارتقى الأقباط فى بعض الأحيان بحيث صاروا الحكام الحقيقيين للبلد.(١)

العمل فى المكتب مقسَّم بين الكتبة، بحيث لا يكون كل فلاح يعمل فى العزبة معروفًا هناك باسمه مع وجود ملف كامل بتاريخه فحسب، ولكن الحيوانات كذلك مسجلة، حتى أحدث الإضافات؛ ولا بد أن «الروتين» نشأ فى مصر فى فجر التاريخ ولم تخف قبضته قط.

والكاتب كائن أقل شأنًا بالنسبة لمن هم أعلى منه، وإن كان الاعتزاز بالنفس يملؤه وهو يتأمل الفلاح غير المتعلم الذى دونه؛ عقله مشغول دومًا بالترقية التى قد يحصل عليها إذا كان مخلصًا - فهو قد يرتقى إلى موضع ثقة أو ربما يُرَقَّى إلى دائرة سيده فى القاهرة (وهذه هى السماء السابعة).

كم هو قليل ذلك التغير الذى يطرأ على الأشياء فى أرض مصر! فقد سُجِّل عن موظف معين فى الأسرة الثامنة عشرة، فى عام ١٦٠٠ قبل العصر المسيحى أنه كان يرى نفسه فى أحلامه الطموحة «مبحرًا فى النيل إلى منف»، وهى القاهرة الحالية.

(١) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثامن. (المترجم).

على أحد جوانب الفناء نجد السروجية مشغولين باستمرار، ذلك أن دواب الحمل، من حمير وبغال وجمال، لا حصر لها؛ ولا بد أن نتذكر أن خط السكك الحديدية البعيد لا يعنى الكثير بالنسبة لدائرة كهذه، ويعنى غياب الطرق أن كل شىء تقريبًا لا بد من نقله يُحمَل على ظهر الحيوانات؛ واستهلاك السروج كبير، حيث إن كل من له حق ولو فى ركوب حمار لا يمشى على قدميه. ولا بد أن يكون الرجل الرئيسى المسئول عن الحيوانات مستعدًا فى كل الأوقات لتوفير وسيلة انتقال لسيده، والعائلة بكاملها، والضيوف؛ ولإحضار مجموعات الموظفين من المحطة، وتنظيم جولات النزهة القصيرة، وتزويد الرجال بالمعدات عند قيامهم برحلات الأعمال التى لا حصر لها إلى كل أنحاء الدائرة.

وفى ورشة أخرى قريبة يوجد نجارو العربات(١)، أو صانعو العَجَلات، الذين لم يتغير عملهم مطلقًا عن أيام الفراعنة؛ وهم يصنعون الساقية، والشادوف، ذلك الجهاز البسيط الذى يُرفع به الماء من مستوى النيل إلى الأرض الأعلى منه من خلال عملية موازنة وعاء الماء مع كرة من الطين ذات وزن مساوٍ له على الطرف الآخر من الذراع الخشبية المركَّبة على محور ارتكاز. وهم يصنعون كذلك عربة لنقل الأحمال الثقيلة، وخاصة قصب السكر، وأحيانًا الأحجار الثقيلة لعمل جسور الترع، وهى تلك العربة التى عرفتها مصر منذ حضارتها القديمة. والعجلات أسطوانات مصمتة خشنة، لكى تجرها جاموستان بطيئتان راسختا الأقدام، ويمكنها تحمل الاهتزازات على الطرق غير المستوية، أو صعود وهبوط مجارى القنوات الجافة.

أضطر كثيرًا لتكرار كيف أن الحياة القديمة المذكورة فى الكتاب المقدس يمكن رؤيتها فى كل مرحلة من مراحل الحياة المصرية بمجرد أن يغادر المرء أماكن تواجد السياح، أو الأفندية، وهم أهل المدن من الرجال الذين يحبون محاكاة أوروبا فى أساليب حياتهم. ومنذ الوقت الذى «أرسل يعقوب رسلاً قُدَّامه إلى عيسو» (سفر التكوين ٣٢: ٣) وإخوة يوسف حين «أوصوا إلى يوسف» (سفر التكوين ٥٠: ١٦)، يظهر هذا الخادم فى معظم مناظر الحياة المصرية، وكذلك فى صور كثيرة من

(١) عادة ما يُسمى هذا الرجل «نجار سواقى». (المترجم).

«الإلياذة» و«الأوديسا». وهنا الآن يقف أمامنا هذا الرجل نفسه، متطابقًا فى تفصيلة مع تلك الصور التى كثيرًا ما أسعدت خيالنا الشاب. ونجد فى أية دائرة أى حجم أن الرسول خادم موثوق به، ينتظر أن يحمل لسيده كلمة لا بد من إرسالها إلى أناس على مسافة بعيدة، وأن ينفذ بإخلاص تكليفات أفراد الأسرة الذين تسمح لهم مكانتهم بأن يكلفوه بها.

وجود مثل هذا الرجل فى خدمة الشخص يجعل الحياة سهلة جدًا، حتى إ الرجل الثرى المتقاعد لا يفارق الرسول المخلص أبدًا. ومَن منا على معرفة بالشر ولا يعرف هذا الخادم الهادئ واليقظ والحكيم والمؤدب والرزين، الذى هو نوع م اليد اليمنى التى تعى بسهولة ما يهمس به الباشا من أوامر، وتنفذها كأن إرادة واحد تحركه هو وسيده.

وفى بلد يبدو فيه الجوع إلى «البقشيش» أمرًا عامًا، فإنه حال تعذر كون الشخ فَطِنًا وعرض «البقشيش» على هذا الرجل، فسوف يعرِض هو بوجهه عن العطا المقدمة له قائلا «مش محتاجها» بنبرة حاسمة. وإذا اقترحت عليه دعوته إلى الطعا على حسابك (إذا تصادف وقابلته فى القاهرة) فإنه يقول «لا» بأدب شرقى؛ فإن كلماتك هى الغذاء الذى يحتاجه.

وما يدعيه باستمرار هو مقابلة الرجل الذى فوِّض بمقابلته، بغض النظر عن مكانته، أو العمل الذى أُرسِل من أجله؛ وهو لا يقبل بأية وساطة حينذاك ولا عند عودته إلى سيده. وهو لديه باستمرار مَلَكَة أن يتذكر بدقة كلمات الأمر الذى أُرسِل من أجله، وكذلك تفاصيله، لا يضيف إلى ذلك شيئًا ولا ينقص منه شيئًا. وهذه هى الصفات التى أعطت مثل هذا الرسول مكانةً مهمةً فى الشرق، مثلما فى كل الحضارات القديمة.

الفصل الثالث

جولات فى الريف
ودردشة مع البدو والفلاحين

أخيرًا صار مضيفنا حرًا من الكثير من المطالب الملقاة على عاتقه، وها نحن مستعدون لبدء جولة صغيرة فى المنطقة. إنها تجربة سارة فى صباح رائع كهذا أن نتجول فى مثل هذه العزبة، وأن يرحب بنا الفلاحون البسطاء بعلامات السرور، وهو ما أعرف أنه سيحدث فى كل مكان.

لجعل العزبة كلها متصلة بالمركز، أقيم نظام للسكة الحديد الخفيفة يجرى تطويله كلما زيدت مساحة الأرض المستوية. وطوله الآن حوالى ثمانية أميال، ونحن نتنقل من مكان لمكان على العربات المفتوحة الصغيرة التى صُنعت للركاب. ويصاحبنا الناظر الأكبر، ذلك أننى مهتم اهتمامًا خاصًا برؤية استصلاح الأراضى الصحراوية الرملية والأراضى المالحة فى الدلتا الذى يجرى الآن.

وهذه باختصار عملية استصلاح الأراضى: تلال الصحراء الرملية المرتفعة على نحو يجعل مياه الرى لا تصل إليها تُنقل بجد وببطء إلى المستنقعات المالحة التى يغمرها الماء، حيث يركد فوقها البحر منذ عرف طريقه إليها منذ فترة ليست بالطويلة. وعن طريق الحسابات العلمية الدقيقة فيما يتعلق بالمناسيب وإمكانية إيصال مياه النهر العذبة إلى الارتفاع الجديد، ومن خلال تزويد الرمل بالغذاء الكيماوى، شهدت البلاد معجزات الخصوبة وهى تتحقق. وهناك تعاقب لثلاثة محاصيل قَيِّمة

يجرى حصادها هنا طوال السنة، منها القطن والقمح، بدلاً من محصول واحد
على فيضان النيل على نحو مشكوك فيه.

فى الأماكن التى جرى فيها هذا العمل بمهارة وحكمة عاد بثروة كبيرة على
كان لديه إيمان منذ بضع سنوات جعله يدفع مالاً لقاء ما كانت تبدو مستنقعات
لا قيمة لها تقريبًا. وهذه الأرض نفسها التى اشتُريت بجنيهات معدودات يترا
ثمن الفدان فيها الآن ما بين ١٥٠ و ٢٥٠ جنيهًا.

ومع ذلك فليست عملية استصلاح الأراضى مسألة خالية إلى حد كبير
العوائق والصعوبات مثلما قد يُفترض نتيجة لهذا الوصف، وقد ألقى بعض النا
ثروات فى رمل الصحراء دون أن يكسبوا الابتسامات الوردية التى كانوا يتوقعو
نتيجة للحسابات الخاطئة وسوء الإدارة.

ولكن إذا جرى استصلاح هذه الأرض ذاتها على النحو الصحيح فإنها ستص
كما وصفها فرعون ليوسف، «أفضل الأرض فى مصر؛ ذلك أننا فى أرض جاسا
الحقيقية التى جاءها بنو إسرائيل ليسكنوا فيها، وتملكوا فيها، وأثمروا وكثر
جدًا» (التكوين ٤٧ : ٢٧).

تحتوى برديات تلك الفترة التى كتبها موظفون مصريون ذكرًا كثي
وعبارات حماسية، لسحر الريف. فالحياة هناك «لذيذة» نتيجة لجمال الأر
وخصوبتها. وفى زمن الخروج، كما أظهرت الاستطلاعات الحديثة، كانت تدي
بخصوبتها وجمالها لفرع من فروع النيل كان يجرى فيها ويصب ماءه فى البح
الأحمر.

فى تلك الأيام كانت جاشان تعتمد على قناة للماء العذب تمتد من النيل إلى القلزم (السويس). وهى ما زالت واحدة من أجمل أنحاء مصر، حيث المساحات العريضة من الأرض الخصبة، وقطعان الماشية الكبيرة، وبساتين النخيل النضرة التى تحمل أفضل التمور فى مصر. وهذه الفاكهة لا تُرى فى إنجلترا، ما لم يكن لدى المرء صديق كالباشا يتكرم عليه فى كل خريف بمدد خاص يرسله بالبريد؛ لأنها لا تُصَدَّر أبدًا. بل إن الأرض التى فى بساتين النخيل تغل محصولاً غنيًا من القمح

ويذكروننا بالوقت - الذى يعود إلى القرن السادس - حين كانت سفن القمح المصرى تبحر فى كل عام من مصر إلى إنجلترا لتقايضه بالقصدير، وكان «القمح فى مصر» مثلاً غربيًا. ومرة أخرى يكثر الناس فى جاشان بصورة كبيرة ليسكنوا الأرض الجديدة التى استُزرعت.

بالنسبة لأى شخص على معرفة ولو غامضة بالقصة التى رويت فى الأسفار الأولى من الكتاب المقدس، فإن الحياة التى تشى بنفسها أمامنا، وكذلك كل تفاصيل موقعها الجغرافى، تتخذ شكلاً مألوفًا، وصدقًا خاصًا، وهو ما يكاد يوحى للمرء بحدوث تناسخ، حيث يتطابق كل شىء تطابقًا شديدًا مع سمات التاريخ الذى فى الكتاب المقدس، الذى يدعمه على نحو مدهش التاريخ الذى يمكن قراءته الآن بهيروغليفية الآثار القديمة. ونجد هنا أدلة وافرة على الطابع المعاصر لرواية سفرى الخروج والأعداد. فمن السهل معرفة أن هذا الوادى كان المدخل المريح الوحيد إلى مصر بالنسبة ليعقوب ومواشيه وأغنامه. وقد جعله انعزاله عن سائر أرض مصر البقعة المستحبة أكثر من غيرها لاستيطان قوم كرسوا أنفسهم للوجود الرعوى، ويختلفون فى نمط حياتهم عن نمط أهل البلاد من المصريين. وبإدراك الطابع المزعج للاضطهاد فقط يمكن للمرء فهم كيف كانوا على استعداد فى النهاية لمغادرة هذه الأرض، رغم أن ذلك كان إلى الصحراء.

أثناء السير مررنا برجلين يضربان الطوب اللبن الذى تُقام به المبانى كافة، كما كان الحال باستمرار. وطرق ضرب الطوب المستخدمة الآن هى تمامًا التى كانت مستخدمة فى الماضى، كما تشهد على ذلك الصور الموجودة على الآثار. ولا بد من تذكر شكل ما من أشكال الاضطهاد، «وتبن لا يُعطى لكم ومقدار اللَّبِن تقدمونه» (الخروج ٥ : ١٨). وكثيرًا ما فحصت الطوب، القديم والحديث، المستخدم فى أنحاء مختلفة من مصر، وكان ما حيرنى هو ندرة التبن إلى حد كبير ضمن مكوناته فى تلك المناطق.

اقترح البروفيسور فلاندرز پترى[1] تفسيرًا توصل إليه من خلال مراقبة رجال كهؤلاء. فهم يستخدمون باستمرار التبن الذى يغمسون فيه أيديهم لمنع التصاق الطين بها، وكذلك لرشه على المكان الذى يرص عليه الطوب اللبن، ولتغطية كل كتلة طينية قبل وضعها فى القالب. ومن الواضح أن العمل سيطول إلى ما لا نهاية وسيصبح شاقًا بدون توفير هذا التبن؛ ولذلك فقد رأى بنو إسرائيل أنفسهم «فى بَلِيَّة» لعدم تمكنهم من إنقاص ما يجب عليهم ضربه يوميًا من الطوب - الـ «طوب بلا تبن» الذى فى المثل العالمي[2].

كانت لدى مضيفنا رغبة شديدة فى أن نمر على بدوى هَرِم استقر على أرضه ما لا حصر له من السنين وسوف يبلغ قريبًا عامه المائة.

كان سيرًا طويلاً على باشا مصرى إلى خيمة رجل عجوز، غير أنى أدركت يكن له حبًا وكثيرًا ما يزوره.

حتى ذلك اليوم لم أكن أظن أن رجلاً يبلغ من العمر مائة عام يمكن أن يكون ما يشد، ولكن حين التقينا بذلك الرجل العجوز الطويل معتدل الجسم كان وجهه يشع سعادةً وسمعت ما يجب أن يقوله عن الحياة؛ فقد اتخذ التقدم فى العمر هيئة جديدة.

وجدناه جالسًا فى الشمس على حِرام أمام الخيمة التى يستخدمها هو وزوجته فى النهار.

عندما رأى الباشا نهض بسهولة ممكنة فقط لمثل هذا القوام النحيل وحيانا تحية لطيفة كان يمكن أن تشرِّف بلاطًا ملكيًا.

فرش بيديه المزيد من الأحرمة لنا، مُرحِبًا بنا وكأننا فى قصر. وخلع بُرْنُسَه للسيدة الإفرنجية وفرشه على الأرض وهو يبتسم مبديًا مجموعة من الأسنان البيضاء المنتظمة التى لم يؤثر عليها الزمن.

---

(١) Egypt and Israel, p. 33.

(٢) يُضرب هذا المثل للدلالة على تكليف شخص بعمل شىء ما دون توفير ما يلزمه لتحقيق ذلك. والرد عليه هو المثل المصرى «اطبخى يا جارية .. كلِّف يا سيدى» (المترجم).



خض الزبد فى الريف. نرى هنا بعض السيدات يخضخضن اللبن لاستخراج الزبد، حيث يدفعن اللبن من جهة إلى أخرى داخل قربة من جلد الماعز معلقة فى سيبيو.

استدعيت زوجته، وأخبرنا أنها الزوجة الوحيدة التى اتخذها. لم يكن
واجبها أن تشارك فى التحيات والضيافة، ولم تقم بشىء سوى عمل القهوة
يعنى أدبًا رسميًا لا يقل فى خيام الصحراء عنه فى منازل السهل الكبيرة.

ومع ذلك فقد كانت المرأة العجوز تؤدى عملها بسعادة أكبر بسبب
الباشا المؤدب بها. وكانت محجبة تمامًا على طريقة غريبة عن بدو الدلتا، كما
مبين فى صورى الفوتوغرافية (فى بعض أجزاء إفريقيا يتخلى البدو عن الحجاب
ولكن عمرها (كانت تظن أنها فى الخامسة والثمانين) كان يسمح لها بقدر من
يزيد عما يعتبر لائقًا فى حالة المرأة الأصغر منها.

كانت الخيمتان البدويتان اللتان يملكهما الرجل العجوز مجرد سقفين مربعين
من شعر الإبل مشدودين بميل على أعمدة خشبية ومفتوحتين ناحية الشمال
والجوانب الثلاثة من قماش السقف نفسه. وكانت الخيمة الثانية للنوم، وأمكننا رؤية
الأحرمة والسجاجيد المطوية التى تمثل أثاثها الوحيد.

أمام الخيمة، حيثما كنا نجلس، كان هناك سياج من الحجم نفسه تقريبًا، وكانت
جدرانه الثلاثة التى يتكون منها من حطب الذرة، مما يوفر حماية من الريح. وهنا
يجرى الطهى، وهنا يُستضاف الضيوف الذين لا يمكنهم دخول الخيمة الصغيرة على
نحو شديد الدفء. تُشعل نار صنع القهوة بقطع من حطب وقشر الذرة الشامية
الموضوعة على الأرض، وبفضل المهارة الغجرية العجيبة لدى المرأة العجوز
كانت النار متوهجة بعد قليل.

وضعت حبوب البن فى مغرفة حديدية وحُمِّصت. ولا يمكن أن يقدم البدوى
تحت أى ظرف من الظروف لضيف قهوة لم تجرِ كل خطوة من خطوات صنعها فى
وجوده.

وسرعان ما طُحِنَت الحبوب تحت دقات عصا طويلة، بينما كان الماء فى تلك
الأثناء يغلى داخل إبريق وُضِع على الرماد المتقد الذى احْمرَّ لونه.

وُضِع البن فى الإبريق، حيث اكتملت العملية بالغلى مرة أخرى. أُخرِجت فناجين
صغيرة وكتل السكر غير مستوية الشكل التى كُسِّرت إلى قطع صغيرة وخُيِّرنا بين
أخذها أو تركها بينما كانت الفناجين نصف المملوءة تُقدَّم لنا.



البدوى العجوز، الذى تعدى المائة، وزوجته. وضعت حبوب البن فى محمصة من الحديد وحُمِّصت. إنهما يجلسان داخل سياج أمام الخيمة. ترتدى المرأة برقعًا من الخيط المنسوج. خاص بالدلتا.

بينما عين كل منا على هذه العملية المثيرة للاهتمام، كانت عينه الأخر[ى] الرجل العجوز المشغول فى حديث حيوى مع الباشا. كان يدور حول عمره؛ عن الحساب بالسنين التى لا يعرف الكثير عنها. فهو مسلم، ولذلك عنده قمرية، بينما لدى الباشا القبطى حساب شمسى، ولذلك فهما بالطبع فترات بينهما اختلاف كبير. ولكن الباشا جعله بدهاء يتحدث عن أعماله شبابه، وهى كثيرة لأنه خدم فى جيش محمد على، وهنا استطاع الباشا، انطلاقـ[ـا] أرضية الأحداث التاريخية المأمونة الخاصة بحروب معينة، تقدير أن عمر ربما يكون قد تجاوز بالفعل قرنًا من الزمان.

بالطبع يطلب المرء معرفة سر العمر غير العادى، وهو ما يختلف بطبيعة من شخص لآخر. فهذا العجوز المبتهج يقول إنه الحياة فى الخيام، والمعيـ البسيطة، وتحاشى الشر، وفوق هذا وذاك مواظبته على الصلاة وصوم رمضان ونوافل الصوم الأخرى التى يحب كبار السن من المسلمين المحافظة عليها.

سأله: هل مللت الحياة؟

فأجاب بضحكة ترن بالصدق: «لا! لا! أود أن أعيش خمسمائة سنة. لقد كان الله العظيم كريمًا معى طوال حياتى، وسوف أهتم بنفسى باستمرار. لماذا؟» -بنبـ توحى بأنه بسبب الامتنان وعزة النفس لا يمكنه أن يقول ما هو أكثر من ذلك- «لقد حججت إلى مكة مرتين!».

ورأى أن البدوى العجوز، شأنه شأن كل المصريين الذين يعرفون الصحراء، فلكى ماهر، على علم بأسماء مجموعات النجوم وطرق تجميع أشكال تختلف عن تلك المعروفة للشخص الإنجليزى.

ثم انتقلنا إلى موضوعات أقل جدية، وسأل الباشا الرجل العجوز مازحًا عن «الخميرة» التى لا بد أنه ادخرها؛ فلأنه راع ماهر، فإن مصدر رزقه الوحيد هو قطعان الأغنام التى يرعاها بترتيب بسيط مع مضيفنا.

تحاشى تلك النقطة ضاحكًا، ورد بأن الباشا جاء من القاهرة، ولأول مرة منذ سنين لم يأتِ له بهدية.

هذا صحيح، وقد سُئل إن كان هناك شيء معين يحتاجه؛ ورد بأن طربوشه اهترأ. وقد وُعِد بطربوش جديد إذا سمح لى بفحص الطربوش الذى يلبسه.

اسمحوا لى بالتوقف قليلاً هنا لأعطيكم لمحة عن الفرق بين ملابس البدو والفلاحين. ما زال الكثير من الرجال يرتدون الملابس المصنوعة من وبر الإبل «وعلى حقويه[1] منطقة من جلد» التى لا شك أن يوحنا المعمدان اقتبسها منهم حين كان يجوب الصحراء. وليس هناك من زى أنسب من هذا لطريقة الحياة تلك.

فى عنفوان الحياة يحب البدو ميسورو الحال أن يلبسوا فى الأعياد وعند زيارة المدن أثوابًا ذات ألوان زاهية، ويلفون حول رءوسهم عمائم ذات ألوان زاهية لها أطراف بها شراشيب تتدلى على أقفيتهم. أما الرجل الكبير، مثل صديقنا المعمر، فيلبس بُرْنُسًا أبيض؛ ويضع على رأسه طربوشًا (فوق طاقية بيضاء)، يلف حوله عمامة بيضاء. الطربوش الأحمر المعروف فى المدينة المصرية لا يُرى أبدًا فى الصحراء.

من الواضح أن هناك نكتة كبيرة وراء طلب الطربوش الجديد هذا، وبينما يضحك الرجل العجوز، يرفع الباشا بتردد مصطنع وبخفة يد غطاء رأسه الخارجى، ويكتشف مبتهجًا مجموعة من الكنوز المخفية فيه التى تليق بجيب تلميذ مولع باقتناء الأشياء. كان هناك العديد من إبر الخياطة، مع خيوط وصوف من مختلف الألوان، وورق بافرة، وعدد من الأوراق المطوية على نحو منتظم تمثل الجانب التجارى كله فى حياة الرجل العجوز - بخلاف تلك الأشياء التى يعهد بها البدو إلى الذاكرة والشرف وحدهما؛ سداد ديونه وإثبات مدخراته التى توفر له الأمن المالى. وبعد ذلك هناك كيس نقود من التريكو أُعطى لصاحبه الذى أخرج محتوياته لإثبات أنه لا يحتوى إلا على القليل من الفضة؛ وإن كان الباشا لم يُخدع. ذلك أنه عندما أخذ الكيس مرة أخرى قَلَبَه، حيث خرجت من فتحة سرية فيه ثلاث أو أربع قطع ذهبية. لا يمكن أن يكون هناك تلميذان استمتعا بمجموعة من المقالب الصغيرة فيما بينهما بما يزيد على ذلك الاستمتاع.

---

(١) خَصْره. (المترجم).

لاحظت أن الرجل العجوز لديه قدر جيد من الشعر فى رأسه؛ وهى مشجعة لهؤلاء الذين يميلون إلى تخيل أن عدم ارتداء المرء لغطاء رأس خصلات شعره؛ فرأس الرجل الشرقى لا تتكشف أبدًا ـ بالنهار أو بالليل

بعد قليل بدأت فى إبداء علامات الرحيل، حين بدا الرجل لأول مرة حيث ضغط علينا كى نبقى لتناول الطعام. هل رأينا ذلك الديك الرومى لابد أنه سيذبحه من أجلنا؛ أو ربما يذبح حملاً؛ كان لديه أرز وخبز؛ وبالطبع عدس ـ وهو طعام البدو المفضل منذ عهد عيسو. سوف نخزيه إن نحن رفضنا

ومع ذلك فقد نبهونا إلى التشدد فى الرفض، وحين انطلقنا بعد جدل طويل معنا الرجل العجوز الرشيق، محتجًا، وفى عينيه دموع حقيقية، ذلك أن انصرافنا هذا النحو أحزنه؛ وكان الوعد بتكرار الزيارة هو وحده الذى أعاد الابتسامات الوجه العجوز الذى بدا شابًا تقريبًا من جديد.

عندما يبتعد المرء عن الحديث والتحريض، وعن صحافة المدينة المتأ يكتشف ضآلة الفرق بين الأقباط والمسلمين. وفى هذه الزيارة على وجه الخصوص لم أرَ قط علامة تدل على أى نوع من القيد أو التحفظ فى الخطاب؛ فالواقع أن الباشا يبدى بطرق شتى اهتمامه بدين من هم مسلمون من بين رجاله، وهو يناقش التفاصيل معهم بصراحة لا يساويها إلا الطريقة التى يردون هم بها. إذا كان هناك من يشير إلى أن هذا نابع من مكانته الرفيعة، فإنى أقول: إننى أقمت مع باشا مسلم فى ظروف مشابهة تقريبًا، ووجدت الشعور الطيب نفسه موجودًا بينه وبين الرجال من دين آخر وقد بنى مضيفى الحالى مسجدًا على نفقته؛ تمامًا مثلما أن باشا مسلمًا بنى كنائس على أراضيه.

زرنا بعد ذلك بيتين للصلاة. وليس هذا وصفًا لكنيسة قبطية، فذلك ما سوف أتناوله تحت عنوان آخر. غير أنى أشير إلى أنه فى الكنيسة هناك قواطيع من أشغال المشربية، يجلس خلفها الرجال من الطبقة العليا فقط للعبادة. فى هذا الجزء الأرض مغطاة بالسجاد. وفى ذلك القسم من الكنيسة الموجود داخل الباب مباشرة تتجمع الطبقات الدنيا، حيث الأرضية عارية. وتدخل النساء الكنيسة من باب منفصل، حيث يكن متحجبات تمامًا، ويخفين أنفسهن خلف سواتر الأروقة.

فى المسجد كل شىء مرتب بحيث يكون الرجال جميعًا، من الباشا للعبد، على قدم المساواة ـ وليس هناك استثناء من هذا المخطط منذ بناء الرسول لأول بيت للصلاة ـ أرضية الصلاة مفتوحة، وحرة، وغير مقسمة، والشحاذ عابر السبيل يمكنه أن يتخذ وقت الصلاة مكانًا له بجوار الإمام أمام القبلة دون أن يثير بذلك كلمة تعليق، ناهيك عن المنع.

فى طريق العودة زرنا مضخة المياه البخارية القوية التى تفخر بها الدائرة، وقد اشتُريت من شركة كبيرة فى إنجلترا لتكملة رى الترعة عن طريق سحب الماء من بئر لا ينضب.

مررنا كذلك على مسكن متواضع بجوار الشيخ، حيث خرجت الأسرة كلها لتحيتنا. كان أحد أفراد الأسرة فتاة جميلة جدًا فى الرابعة عشرة من عمرها، بدا عليها الخجل حين سأل الباشا أباها إن كانوا رتبوا أمور زواجها أم لا؛ ومع ذلك فقد أجابت بـ «نعم» بدون تردد عن سؤال الباشا: «هل كانت تريد الزواج؟» وكان يعرف شابًا مناسبًا يبحث عن عروس، وسوف يرى إذا كان بالإمكان ترتيب الأمر أم لا.

اتجهنا بعد ذلك إلى مشاهد تتسم بقدر كبير من النشاط فى الحقول؛ على جانبنا مجموعة كبيرة من الرجال يزرعون القطن، ليكون أهم محصول فى الخريف، تحت عين أحد النظار المساعدين. وتتناوب هذه المجموعة على إلقاء البذور فى حفر فى أرض أعدت إعدادًا جيدًا، وهى التى كانت منذ عام أو عامين صحراء صفراء.

على أطراف الحقل الشاسع كانت هناك جماعة كبيرة من الرجال تقوم بزيادة المساحة القابلة للزراعة. كانوا ينقلون بعزم شديد تلال الرمال الصغيرة إلى مستوى المستنقعات لجعل الصحراء والمستنقعات على السواء أرضًا خصبة.

إنهم لجنس نبيه وقوى ومليح هؤلاء الكادحون فى الدلتا، إذ لم يتغيروا كثيرًا عن أهل مصر الأوائل مثلما هو حال البدو، هؤلاء الساميون الرحل فى الزمن القديم، الذين كانوا يتجولون بأعداد كبيرة على حافة الأراضى الزراعية، أو على شواطئ البحر والبحيرة حيث تمثل الأسماك والطيور غذاءً جيدًا.

عند الكلام مع مضيفى عن ساعات العمل (وهى طويلة جدًا) والأجور (وهى قصيرة جدًا) التقطت كلمة فرضت نفسها علىَّ منذ أن قرأت عن راهب مصرى قديم

قال وهو يعدد خدماته الدينية: «أؤدى كل يوم بيدى عملاً يساوى قيراطين». واعر
أننى لم أكن أعرف أن فى مصر يُقاس كل شىء بمعيار أربعة وعشرين قيراطًا. بل
الناس يطلبون من طبيبهم أن يخبرهم مقدار الأمل الذى يراه فى شفاء مريضهم
بالقيراط. وقد عرف القيراط كمقياس طريقه إلى إنجلترا، وهو ما زال موجودًا
استخدام الصائغ له فى بيان نوعية الذهب.

بينما كان الرجال يعملون فى الحقول فى ضوء الشمس الرائع، التقطت شذرات من الأغانى التى كانوا يغنونها: هنا وهناك كان أحد الفتيان ينسى العادة الشرقية ويرفع صوته الفتىّ إلى عنان السماء فرحًا بالحياة. وأقدم أغنية أو اثنتين من تلك الأغانى طالبًا من القارئ أن يتذكر أنها لا بد أن تفقد قدرًا كبيرًا من شاعريتها البلدية بنقلها من العربية الغنية بالصفات اللازمة لهذه الأغانى.

يغنى الحرَّاث، حيث يصيح فى البداية «صباح الخير» لأحبائه بنوع من الأسلوب المرنم:

يارب اجعل صباحهم خير وأميرى، زى صباح الناس الطيبين على ضهور الخيل.

تاجر المواشى يستاهل عباية هندى على التورين إللى جابهملى.

وأنا راسى متغطى أمشى وراهم، وأخرم عين الحسود.

وبعيونى ودموعى أبكى على الحبايب الغايبين، لكن يا خسارة، منين أجيبهم؟

ولأن الحرَّاث يحب ثوريه حبًا شديدًا، فهو يخاف عليهما من عين الحاسد، ويغنى الرجل الذى يعمل على الشادوف غناءً رتيبًا فيقول:

يا خسارة خدوا منى حبيبى وسابولى بيت فاضى.

يا حلاوة بنات بحرى وهما بيقطعوا الخبيزة.

والنبى يا بنت تفردى شعرك

وتخلّى الهواء يطيّره.

ضيعت سبع سنين وأنا بأدور على الضفاير السايحة، والرقبة المرمر، والعين الكحيلة.

أثناء درس القمح، يخفف الفلاح من رتابة طريقة ضرب القش القديمة وانتظار الريح لتفصل التبن عن الحبوب بهذين البيتين اللذين ينشدهما مرارًا وتكرارًا.

قلبى مشتاق لحاجة حلوة وجديدة.

قلبى مشتاق لفرسة حمرا ليها ركاب بيلمع.

الرجل الذى يدرس القمح بالأداة القديمة الثقيلة التى يجلس عليها ليقود الثورين اللذين يجرانها[1] له أغنية مختلفة إلى حد كبير:

قول لى يا عم مين المغرورين إللى ورانا؟

دول البنات الحلوين إللى يأسروا القلوب.

إزاى بكت عليا على أبو زيد ولبست توب الحزن بدل توب الفرح.[2]

يوضح لى صديق مصرى أن أبا زيد شخصية أسطورية فى الشعر العربى، أشبه بالملك آرثر. وتشبه قصته قصة طروادة. وعلياء هى زوجته.

كان بستان النخيل جميلاً جدًا حيث القمح الأخضر تحته، وقد دخلناه لنستريح قليلاً فى الظل قبل العودة للدار. جلسنا فى حالة من الرضا الشديد على شاطئ الترعة، حيث أشار أحد أصدقائنا من الأهالى إلى أنه «لكى يكون المصرى سعيدًا، فإنه لا يحتاج إلا إلى منظر الماء والخضرة والوجه الحسن».

بعد قليل انضم إلى مجموعتنا عدد من المارة، من الرجال والأولاد، الذين جلسوا فى هدوء بالقرب منا، حيث كانوا يأملون لا شك فى سماع شىء مثير أو مُسَلٍّ من أشخاص معروف أنهم جاءوا من مدينة بعيدة.

على الطريقة الشرقية الغامضة، انتشر خبر وجودنا فى الحال فى الاتجاهات كافة، بحيث ظهرت بعد بضع دقائق، ضمن أشخاص كثيرين آخرين، امرأة بدوية ببرقعها المعلقة فيه قطع معدنية كثيرة جاءت من أحد المخيمات الخفية وأتت معها بالمؤن

(١) النورج. (المترجم).

(٢) هذه وما سبقها ترجمة للنص الإنجليزى، وليس النص العربى الأصلى. (المترجم).

والأدوات اللازمة لعمل القهوة! كانت معروفة لدى الباشا «صديق الكل»، و أرملة، فقد كانت مسئولة عن الخيام بالنهار فى غياب الرجال. وقد أتت ممثلة المخيم لتقدم هذه العلامة البسيطة من علامات كرم الضيافة. وكانت معها الوحيدة، وهى فتاة صغيرة جميلة عمرها خمس سنوات كانت تحمل الوقود

أُشعلت النار الصغيرة، وحُمِّصت حبات البن، وجرت الطقوس بالطريقة جرت من قبل تمامًا. ولا يمكن تخيل لوحة شرقية أكثر جاذبية من هذه.

من الواضح أن الباشا مولع بتزويج الناس إلى حد كبير. فقد سمعته يسأل المرأة بصوت منخفض عن ظروفها. وكانت ظروفها صعبة منذ وفاة زوجها، ولكن والحمد لله، لديها ابنتها الحبيبة. هل فكرت فى الزواج مرة أخرى؟ إنها تقول «لا» لعروض الزواج التى تلقتها. كانت فى كل حالة تفكر فى سعادة طفلتها فربما لا يكون زوج الأم متفاهمًا.

فى ذلك الوقت كان صنع القهوة قد انتهى، ونامت الصغيرة فى أحضان أمها غطتها بثوبها الأسود وأخذت تهدهدها بحب بسيط.

ذكر الباشا اسم رجل محترم يعمل فى وابور الطحين الذى يملكه، وهو أرمل فى عمر مساو لعمر المرأة، ليكون زوجًا محتملاً لها.

لم يضيِّع الكبرياء الذى اتسم به الرد شيئًا من نبرته الهادئة: «أنا بدوية، والبدو لا يتزوجون الفلاحين أبدًا!» «نحن أبونا إبراهيم!» لقد نسى الباشا تلك القاعدة العامة؛ فالبدوى بنسبه الطويل، الذى يتعلم قصته من آبائه، ولا ينساها أبدًا، يعتبر نفسه أميرًا مقارنةً بأفراد طبقة الفلاحين الذين لا يزيد اهتمامهم بالنسب عن اهتمامهم الحيوانات التى تخدمهم به.

ذكرت وابور الطحين الذى يملكه الباشا. عند زيارته وجدنا مطحنًا بخاريًا مجهزًا تجهيزًا جيدًا وبه أحدث الآلات التى تحمل أسماء الشركات البريطانية المشهورة؛ وكان المكان كله يموج بالنشاط تحت إشراف ملاحظ من الأهالى.

وكثيرًا ما نقول: إن الشرق لا يتغير أبدًا، وفى كل مجال من مجالات الحياة تقريبًا يبدو أنه ليس هناك ما يدل على الخروج عن السلوك والعادات المسجلة فى أقدم

كتب التاريخ. ولهذا السبب يندهش المرء من الأمر أو الأمرين اللذين قُبِل فيها التغيير باتفاق عام تقريبًا من الشرقيين!

أنا شخصيًا لم أرَ قط رجلاً عربيًا من الواحات النائية، على سبيل المثال، يعمل على ماكينة خياطة من أحدث طراز دون أن يحدث ذلك صدمة من الدهشة. ومع ذلك فإن الحمولة المعتادة لقوافل الجمال التى تعبر المدقات الموحشة فى الصحارى النائية هى تلك الصناديق التى تحمل خاتم شركة سنجر، التى يمكنها أن تبيع ماكينات فى وكالاتها الشرقية الكبيرة بأسعار أغلى مما فى المراكز الغربية.

وهنا، فى جزء ناءٍ من مصر، نجد أن النساء لم يعدن يجلسن فى أزواج «يطحنَّ على الرحاية»، حيث يسحقن الكمية اليومية من القمح بين حَجَرى الرَّحَى. إنهن يأتين - من على مسافة أميال عدة - إلى وابور الطحين الحديث، وفى قسم الحريم المخصص لهن (حيث أتاحت لى فتحة صغيرة رؤيته) يجلسن ويثرثرن بينما الماكينة البخارية تؤدى عملهن.

إنه منظر جميل أن ترى النساء ينطلقن إلى بيوتهن وأكياس القمح فوق رءوسهن، والأطفال الفرحون الذين يصاحبونهن فى كل مكان يرقصون بجوارهن. إنهن يحملن الماء بهذه الطريقة كذلك، حيث ينتج عن ذلك قوام معتدل كل الاعتدال. وتتميز نساء القرى بصورة عامة بالقوة والصحة.

عمل المرأة فى القرى المصرية لا ينتهى أبدًا ، وكذلك عمل الرجل. فهن يستيقظن مع شروق الشمس، ولا يسترحن إلا عندما يدركهن الظلام. وأذان الفجر الآتى من مئذنة المسجد، «قبل طلوع الشمس»، هو الإشارة للرجال والنساء، مسلمين أو أقباطًا، كى يبدأوا يومهم. وهناك اعتقاد عام بأن ترك الشمس تشرق فوق رأس الشخص الناعس ضار بالصحة على نحو مؤكد كل التأكيد.

يذهب الرجال إلى الحقول؛ أما النساء فعليهن طهى الطعام، وجلب الماء، وجمع الوقود - فى بلد ليس فيه غابات أو فحم لا يعد هذا بالأمر الهيِّن - وتفريط الذرة من كيزانها، وغربلة القمح، وغزل الخيوط، وخض اللبن لاستخراج الزبد. الواقع أن

هناك مائة عمل تجعلها مشغولة للأبد. وهى على عكس أختها الإنجليزية ليس
أسِرَّة تعدها ولا صحون وأطباق تغسلها.

يومها الكبير هو يوم الخبيز. وتُستدعَى نساء العائلة جميعًا من أجل هذا
ذلك أن نخل الدقيق، وخلط الخميرة، وعجن العجين الذى يستغرق وقتًا
يمتد من ساعتين إلى ثلاث ساعات تعتقد أنها ضرورية، ثم خبز الأرغفة
الكثيرة فى الفرن الطينى، يحتاج إلى نشاط كبير. وهناك اعتقاد لدى الناس بأن لل
مزايا طبية، الأمر الذى سوف أتحدث عنه فى موضع آخر، مما يجعل المرأة تضيف
إلى عملها بسحق حبوب هذا النبات لخلطه بالخبز. وفى أنحاء أخرى من ال
أكلت أقراص خبز نُثرت عليها حبوب السمسم بكثافة.

لذيذة هاتيك الأيام التى قضيناها فى تلك القرية من قرى الدلتا. وأظن أنه
يمكن لإنسان ادعاء معرفة أى شىء عن شعب مصر دون أن يكون على معرفة
بالفلاحين. وأن تقوم معهم بزيارة ودية إلى القرى النائية تجربة ذات سحر وأهمية
لا حد لهما.

وأدب السلوك المصرى الرقيق أمر يسر الزائر الغربى باستمرار، وإن كنت أعترف
بأن عدم ارتباطنا بأى عمل مُلح قد يكون هو السبب فى عدم فقدان الأساليب
الشرقية اللطيفة لسحرها. ويُروى عن أحد المبشرين أنه أراد الإلحاح على أحد
الأهالى، الذى كان يستمع لرسالته، بأنه ينبغى أن يصبح كذلك من الـ«عاملين
بالكلمة». وقرأ أمثولة الابنين التى فى إنجيل متى، الإصحاح الحادى والعشرون، ثم
قال: «أى الابنين يستحق الثناء؟» وكانت الإجابة الفورية هى: «ذلك الذى رد بأدب
على أبيه، مع أنه لم يذهب!».

إذا كان المرء محظوظًا بالقدر الكافى لكسب ثقة أهل الريف بحيث يقبلون النزر
اليسير من المعروف والاهتمام، فسوف يكتشف باستمرار مقدار ضلال بعض
العبارات المقبولة لدى الكل التى استبعدهم بها العالم الغربى بعد بحث سطحى
يفتقر إلى العمق والتحليل.

يُقال لنا على سبيل المثال إن الامتنان غير معروف لدى الفئات الفقيرة فى الشرق؛

ولا أساس لذلك سوى أنه من غير المعتاد قول «شكرًا» التى تشكل فى إنجلترا أول
واجب يُفرض على الطفل الذى يتعلم الكلام. والحقيقة أنه ليس هناك قوم أسرع
فى تقدير الحب والمعروف، أو فى مبادلة ذلك بإخلاص غير معقول من هذه
الفئات. وشكرهم الذى يبدونه بكل أنواع الهدايا الصغيرة والقلق المؤثر على صحة
من يحسن إليهم وعلى شئونه خير دليل.

وتحكى سيدة إنجليزية عاشت مع هؤلاء الناس سنوات عديدة كيف أن النساء
كن يأتين إليها عندما يسمعن أنها مريضة ويقلن: «ألا يمكن أن نُقَبِّل يدك اليوم لأنك
متألمة؟» ويعرضن عليها جزءًا من كل شىء يملكنه.

الحقيقة هى أن العادة المنتشرة فى الشرق تجعل من كلماتنا الرسمية الخاصة
بالشكر قلة أدب، حيث تشير إلى أن المعطى شخص بخيل لا يفعل عملاً طيبًا
باعتباره أمرًا طبيعيًّا. ومع ذلك، يمكن أن تتأكد من النظرة التى تنم عن الامتنان؛ وفى
بعض الأحيان يُقَبَّل الشىء الذى يُعطى تعبيرًا عن التقدير الشديد. ألا يكفى سماع
الهمهمة بدعوة مثل «ربنا يخليك!».

نحن نتحدث بسهولة عن التعصب الدينى؛ ما أكثر سماعى لعبارة «كل من يحب
الفقير سوف يدخل الجنة؛ لن يطلب الله منه أكثر من ذلك». فى كل مكان من مصر
سوف تجد أن أفقر الناس يعطون جزءًا من أى شىء يأكلونه أو يشربونه لصديق ما؛
وقد لا يوجد فى أى بلد هذا القدر القليل من العَوَز الفردى، بالرغم من فقر طبقة
الفلاحين.

فى هذه المشاركة فى الطعام هناك فهم مشترك بأن المتلقى سوف يفعل الشىء
نفسه فى مناسبة أخرى. وتشجع هذه العادات التى تنم عن الكرم على الأخوة التى
هى ملمح بارز من ملامح الحياة فى الريف المصرى؛ وهذا قائم على نحو خاص
بين الرجال الذين يعيشون على القوارب النيلية التى لا حصر لها. فأكل الخبز والملح
معًا أساس كافٍ لتحاشى الشجار أو إنهائه. ولا شك فى أن هذا الكرم الميسور
يشجع الطفيلى، ولكن لو صادف الفلاح قدرًا معيَّنًا من التسامح اللطيف فإنه
لا تعوزه الفطنة التى كثيرًا ما يمكنها صرف المتشرد الوقح.

كثيرًا ما يقع خطأ مقارنة الفلاحين الفقراء بطبقات أوروبا العاملة ـ وهى م... لن تكون عادلة أبدًا ما لم يتقدم التعليم، ويُنقل إليهم مستوى أعلى من ال... الأخلاقية. وفى ظل انعدام أية وسيلة للتثقيف الذاتى، أو أى من تنوير ما... الخدمة الاجتماعية من طبقة أكثر تقدمًا ـ لا بد أنه لا تزال هناك آثار كثيرة... الهمجية.

ما زال الإيمان بالخرافات يتغلغل بشدة فى فقراء مصر بحيث لا ... فهمهم بمعزل عنه. إلا أنه بالرغم من ذلك هناك فضائل يتفوقون فيها لا يمارس... إلا الأوروبيون من طبقة مختلفة تمامًا، ولا يتوفر لها ذلك إلا بعد التعليم والقدوة...

إنهم يحيون حياة من الكد الدائم، ومن الصبر الشديد، وتتسم بأكبر قدر... الانتظام والترتيب؛ وهم يلجأون إلى الرب العظيم بإخلاص، فى عبادة يومية... توقف؛ ومن المؤكد أنهم أكثر شعوب العالم أدبًا، حيث يتميزون بتهذيب... تعاملاتهم مع بعضهم، ومع الأغراب، وهو ما يُبحث عنه فى أوروبا بين من يدعون... أنهم «ذوو أصول عريقة» فحسب.

الفصل الرابع

بين أهل الريف. معتقداتهم وخرافاتهم - أهمية حديثهم وخفة ظله

رجال الدلتا ذوو بنية جميلة برءوس متطورة تطورًا جيدًا ـ أقوياء الأطراف، خفيفو الخطوات، مرحو الوجوه ـ نمط مثير للإعجاب بصورة عامة. المشاعر الأسرية قوية، وخفة روح الفلاح لا يمكن التغلب عليها تقريبًا. من السهل إسعاده إلى حد كبير. وإذا تصادف أن تعكر مزاجه، فإنه ينفجر بحرارة شديدة؛ وعندما تهدأ ثائرته فجأة، ينظر لأعلى مبتسمًا على استحياء قائلاً: «حسبنا الله!».

هناك ميل إلى الجدال حبًا فى الجدال، مع انفصال شبه هزلى عن الأمر الذى يُناقش، وهو ما يذكرنا فى الغالب بالأيرلنديين؛ وكما يذكرنا حبهم للنقاش، فهناك مرحهم، والتطرف الذى يبدونه فى القصص التى يرونها، والطريقة التى يحكون بها الأفعال العادية. وعندما يترك الفلاح أى شخص يعرفه، فإنه لا يرجو منه ـ بغض النظر عن أى نوع من الخلاف ـ سوى العفو والسماح، خشية أن يكون قد أساء إلى صديقه فى أى وقت دون قصد.

المصريون شديدو الحساسية لجمال الطبيعة؛ وهم جميعًا يستمتعون بمباهج الحديقة، وخاصةً إذا كان بها ظل للأشجار وصوت الماء الجارى. وهم يجدون متعة كبيرة فى تلك الأشياء على نحو يجعل المرء يفهم الراهب العجوز الذى بكى حزنًا حين أخذوه إلى إحدى الحدائق، حيث أوضح أن فى هذا المكان شيئًا أعاد له حب الحياة الذى ظن أنه تغلب عليه. «تلك المباهج للجنة وحدها».



فى أيام الصيف الحارة، يتجمع رجال القرية وصبيانها حول ساقية بدائية

عندما أقابل رجلاً فى القرية يدعونى بنبرات رقيقة إلى «العجمى» وهو ينضج»، وأجده حساسًا لألوان النخلة المحملة بالثمار وخلفها السماء أتساءل عن المكان الذى يجب أن أبحث فيه عن أصل هذا بالثمار للأشياء فرضاه البالغ بامتلاك بئر ماء حلو ـ معظم الآبار فى مصر مالحة ولا تصلح والطريقة الشاعرية التى يتحدث بها عن الخلاص الذى تمثله للأرض بتعبيرات الكتاب المقدس الشاعرية عن «آبار الماء». وفى الشرق فقط يمكن نزاع إسحاق والفلسطينيين على امتلاك الآبار.

فى أيام الصيف الحارة يتجمع رجال القرية وصبيانها حول الساقية، حيث متعة فى طرطشة الماء المتساقط من القواديس التى تخرج من مجرى الماء أسفلها وتصب فى حوض حجرى على مستوى الأرض العطشى. وتحكى أغنية شعبية عن اللازمة التى يسمعها هؤلاء الناس أصحاب الخيال فى الصرير عن دوران الساقية، ووقع خطى الجاموسة الثابتة التى تديرها ـ حيث ذلك صبى يجلس، ربما عريانًا تمامًا، على ذراع الساقية.

وهم على وعى عميق بمتع هواء الريف المنعش؛ والتعبير الشائع فى كل المدينة والريف الخاص بالخروج، للتمشية أو التنزه فى عربة، هو «عاوز أشم هوا» وتوحى الصورة الواقعية للمناظر الريفية، حيث يتضح كل عمل من أعمال الفلاحين وما فيها من الحيوانات المستأنسة كافة والطيور البرية كلها، بمتعة بدائية فى الطبيعة لا بد من نقلها.

الطقس كبداية للحديث مخيب لآمال الشخص الإنجليزى فى مصر، ذلك أن الطقس يتقلب قليلاً بالقدر الذى يجعل التعليق ضربًا من العبث. إلا أنه بينما نتحدث نحن عن التغيرات المناخية يتحدث المصرى عن حالة النيل؛ وإذا كانت تلك التحيات تحلها له الصيغ المؤدبة التى ليس للطقس فيها كلمة، فمن المؤكد أن هذا الموضوع الذى لا ينتهى الحديث فيه والخاص بالنهر يمكن الوصول إليه آجلاً أو عاجلاً.

ربما يُظن أنه قد تكون للنهر أهمية عاطفية لدى الأقباط تزيد عما لدى المسلمين،



فى أيام الصيف الحارة. يتجمع رجال القرية وصبيانها حول ساقية بدائية

ما لم نعرف أن الحياة كلها فى الوادى الكبير تعتمـد بالكامل عليه. والتقديس
للنهر لدى المسيحيين وصل إليهم من العنصر الفرعونى.(١)

يكاد نوتى النيل فى الوقت الحالى لم يتغير منذ تصويـر أسلافه الأوائل
الآثار، وإن كانت المراكب المستخدمة الآن تختلـف اختلافًا غريبًا عن مرا
مصر القديمة. بل إننا قد نتذكر بابتسامة أن المسابقات التى كثيرًا ما نسمع
تجرى بين طواقم المراكب المختلفة، خاصةً حين تكون فى تنافس على
من نوع ما، تشبه كثيرًا تلك المسابقات المتصلة بقدماء المصريين أثناء الع
إلى بوباسطة(٢).

وتتبع الرياضات الحالية، التى يُحتفل بها هذه الأيام بفيضان النيل السنوى
هرميس، أو تحوت،(٣) فى الأيام التى كان يُعبد فيها النيل باعتباره إلهًا(٤)
فكرة القداسة ماثلة فى الذهن القبطى تدل عليه الطريقة التى اندفع بها الناس
النهر لتطهير أنفسهم فى مياهه، عندما أثار شخص الذعر فى البلاد عام ١٧٣٤
النهاية الفورية للعالم. وكما هو متوقع، كان المسلمون على القدر نفسه
الاستعداد والقفز فى النهر، مثلهم فى ذلك مثل المسيحيين. وحتى يومنا هذا ما
الأحباش، الذين يمارسون شكلاً فجًا من المسيحية، يظهرون فى مشاهد
بالحماس الشديد على ضفاف النهر فى عيد الظهور والتجلى (الغِطاس)؛ ويُقال إنهم

---

(١) هذه تسمية خاطئة. فصفة فرعونى لا تطلق إلا على ما يخص حكام مصر القديمة، أما الشعب فهو
المصريين، واللغة هى اللغة المصرية القديمة. وتكرر ذلك فى مواضع أخرى فى الكتاب، ابتدا
العنوان، غير أننى التزمت بالمصطلح الذى استخدمه المؤلف. (المترجم).

(٢) اسمها المصرى القديم «برباستت» أى بيت الإلهة باستت التى اتخذت شكل قطة. وهى تقع على
من الزقازيق وتسمى الآن تل بسطا. وقد زارها المؤرخ اليونانى هيرودوت ووصف الأعياد التى تقام
تكريمًا للإلهة باستت والمراكب التى كانت تقل المحتفلين إلى هناك. (المترجم).

(٣) تحوت هو إله القمر عند قدماء المصريين وكان يصوَّر على هيئة طائر أبى منجل، الذى يشبه أبا قردان
وكان تحوت حامى الكتبة، ويرجع إليه فضل اختراع الكتابة، وهو الإله المكلف بالحسابات، وهو الذ
يحسب الزمن والسنوات والتقويم. وقد شبَّه اليونانيون تحوت بإلههم هرميس وأسموه «المعظم ثلاثًا»
(المترجم).

(٤) حعبى هو اسم إله النيل عند قدماء المصريين، وكان على هيئة رجل ترمز بطنه المكتنزة وثدياه
المتدليان إلى الخصوبة الدائمة. (المترجم).



منظر من الريف المصرى. درس القمح بالطريقة التى كانت متبعة فى زمن الفراعنة

يعتقدون أن ماءه سوف يغسل ذنوبهم السابقة. وفى الاحتفال نفسه فى مصر، ما زا
يصبون القليل من الماء الذى يأتون به من الكنيسة فى النهر فى أماكن مختلفة و
فيه الناس.

يعتمد التقويم القبطى على مسار النيل القوى، وما زالت تلك التواريخ ت
الأنشطة الزراعية على مدار العام، أما التقويم الإسلامى المتغير، وهو قمرى،
يؤثر على الترتيب قط. واليوم الذى يُعتقد أن النيل يصل فيه إلى أعلى منسوب له
أول أيام السنة ـ أول شهر توت[1] الذى يوافق الحادى عشر من سبتمبر. وتمر
الأيام السابقة لهذا التاريخ بإثارة الأزمة الكبيرة. فالناس يوقفون بعضهم سائلين
مقدار ارتفاع النيل اليوم؟» بل إن الحيوانات والطيور تبدى علامات الهياج.[2]

لو كانت آلهة الفيضان كريمة، فحينئذ يُقام مهرجان مرح. وللقاهرة مهرجان
الفيضان الخاص بها، إلا أنه ما زال هناك بعض القرى التى تقيم احتفالات خاصة بـ
لمدة ثلاثة أيام. فى البداية يختار الناس من بينهم حاكمًا يسمونه أبا نيروز[3] وهم
يلبسونه ثوبًا زاهى اللون، ويضعون على رأسه طرطورًا، ويجعلون له لحية من
الكتان، ويضعون صولجانًا فى يده؛ وبينما يتبعه حشد من المحتفلين الذين يرتدون

---

(١) اشتُق اسمه من اسم الإله المصرى تحوت. (المترجم).

(٢) أصبح العالم على قدر كبير من التوحد بحيث بات حتى غير المتعلمين فى إنجلترا يسمعون الآن عن فيضان النيل. وهذا العام (١٩١٤) سمعت امرأة تشكو من ارتفاع سعر البصل. قالت المرأة: «يقولون إن هذا سببه انخفاض النيل العام الماضى». وهو ما كان السبب الحقيقى.

(٣) النيروز أو عيد رأس السنة المصرية هو أول يوم فى السنة الزراعية الجديدة. وقد أتت لفظة نيروز من الكلمة القبطية «نى ـ يارؤو = الأنهار»، وذلك لأن هذا الوقت من العام هو ميعاد اكتمال موسم فيضان النيل سبب الحياة فى مصر. ولما دخل اليونانيون مصر أضافوا حرف السين للإعراب كعادتهم (مثل أنطونى وأنطونيوس) فأصبحت نيروس فظنها العرب نيروز الفارسية. ولارتباط النيروز بالنيل أبدلوا الراء باللام فصارت نيلوس ومنها اشتق العرب لفظة النيل العربية. أما النيروز الفارسية فتعنى اليوم الجديد (نى = جديد، روز = يوم) وهو عيد الربيع عند الفرس ومنه جاء الخلط من العرب ويُقال إن النيروز اختصار لـ«نيارو أزمو رووؤو» وهو قرار شعرى ابتهالى للخالق لمباركة الأنهار. (لاحظ كلمة أزمو المستخدمة فى التسابيح القبطية مثل الهوس الثالث وتعنى سبحوا أو باركوا) وعوضًا عن كتابة القرار كامل بنصه اختصروه إلى كلمة واحدة (مثل صلعم فى العربية) يوضع فوقها خط لتوحى للقارىء بتكميل الجملة (مثل كلمة أبشويس القبطية) وأصبحت نياروس ومعناه الكامل عيد مباركة الأنهار (CopticChurch.org) (المترجم).

ملابس غريبة، بعضهم على هيئة جلادين وكتبة، يتجه مباشرةً إلى قاعة قاضى القضاة. وهنا ينحنى الجميع بطريقة فكاهية لحكمه؛ ويجلس على كرسى السلطة، ويمضى بما يقوم به فيعقد جلسة جادة، ويستدعى أمامه على نحو أخص القاضى نفسه وموظفيه جميعًا. ويحكم على الجلاد بالشنق، وبإلقاء السجان فى أدنى زنزانة ـ قديمًا كان السجان الذى مهمته ضرب المساجين بالسوط يصدر ضده حكم بالجلد ـ وتُقدَّر ضريبة خرافية على الأغنياء. ويجرى كل شىء بمبالغة تبعث على الضحك؛ وكل حكم يُكتب بالتفصيل الشديد. ثم ينطلق الموكب من جديد لفرض إرادته؛ والفرصة الوحيدة للعفو هى تقديم بضع عملات معدنية كبقشيش. وبعد انتهاء هذا العمل الفكاهى توقد نار ويتظاهرون بحرق الطاغية نفسه. وفى الوقت الحالى يمكن مقابلة أبا نيروز عن طريق السفر إلى القرى النائية.

يُعقد الكثير من الزيجات فى ذلك الوقت، حيث يكون لدى الفلاح وقت فراغ أثناء فيضان النيل أكثر من أى وقت آخر من السنة، وخاصة فى تلك الأماكن التى يجب أن ينتظر فيها انحسار الفيضان قبل أن يمكنه فلاحة الأرض؛ وإذا كان هناك ما يكفى من الماء الآن فى النهر، فهو لا يُضطر لتوقع لحظة شك أو قلق فى السنة الزراعية، حيث يكون قد كُفى شر محاولات المناخ المتقلب المزعجة.

وكان يُنظر إلى مقياس النيل باستمرار على أنه مقدس، وعندما نُقِل لأول مرة من معبد سرابيس إلى داخل كنيسة مسيحية، ظن الوثنيون أن الإله سوف ينتقم لنفسه بمنع الفيضان السنوى. وفى ذلك العام ـ ٣٩٠ ميلادية ـ تأخر الفيضان، ورأى الناس ـ المسيحى منهم والوثنى ـ فى ذلك تحقيقًا للنبوءة الوثنية؛ ولم يتبدد خطر أعمال الشغب المتزايد إلا بالوصول المتأخر للمياه الغائبة. ومنذ ذلك التاريخ يحتفل رجال الدين المسيحيون بفيضان النهر بدلاً من كهنة المعابد القديمة، بموافقة تامة من الناس.

كثيرة حقًّا هى معجزات الدعاء، الذى لا يزال عامة الناس يتحدثون عنه، ويدعون به لتسريع فيضانات النهر ـ فعندما كان الرعب يصيبهم من تأخير الماء كانوا يفكرون فى المجاعة ويتمثلون كل ما فيها من معاناة وخراب ويجأرون بالدعاء إلى الرب. ولا تزال لذكرى موت آلاف كثيرة من الجوع التى كانت تصاحب عدم مجىء

الفيضان، فى تلك الأيام السابقة لمشروعات الرى الكبيرة التى حفظت رئيسى بنجاح، حِدَّة موروثة فى عقول عامة الناس.

سمعت قصصًا محرفة وملفقة يرويها الناس الأميون تمامًا عن إحدى النيل، وهى مثال للطريقة التى يجرى بها تناقل التاريخ من الأب للابن ٧٥١ كان الماء منخفضًا جدًا. وفى السابع عشر من شهر توت سار جميع رجال الدين والعابدين فى موكب قبل طلوع الشمس حاملين الأناجيل، وما بخور، إلى كنيسة القديس بطرس التى كان أساسها فى النيل عند مصر القد وهناك رفع البطريرك الصليب، ووقف أسقف منف بجواره ومعه الكتاب المقد وخرجوا حاملين صلبانًا وأناجيل أخرى ووقفوا على ضفة النهر. وبعد أن الأسقف استمر الناس فى الصياح بعبارة «كيرياليسون» حتى الساعة الثالثة من النه حين ارتفع النهر بمقدار ذراع وقدم الجميع الشكر.

حينذاك لم يعجب الأمير أن يعود الفضل إلى المسيحيين، فأمر المسلم بالخروج فى موكب كبير صباح اليوم التالى ويطلبون فى دعائهم ذراعًا آخر الماء. ولكن القصة ـ كما يرويها الأقباط ـ تقول إن الماء هبط بحيث ضاع ما حقق الصلاة القبطية. ملأ ذلك الأمير باليأس إلى حد أنه طلب من الأقباط إقامة قدا شفاعة آخر؛ وحينذاك ارتفع النهر بمقدار ثلاثة أذرع وزال الخوف من المجاعة ومهما كان ما نظنه عن المعجزة، فإن التاريخ العلمانى يسجل بالفعل فى ذلك التاريخ فترة قصيرة من تحرر الأقباط من الاضطهاد.

بعد مئات السنين، ظهرت عادة أخذ إحدى المخلفات المقدسة من إحدى كنائس القاهرة فى شهر رجب، حين ينبغى أن يبدأ الفيضان فى الظهور. وكانت تلك المخلفات تتكون من أصابع شهيدة عذراء؛ وكانوا ينزلونها فى النهر معتقدين أنها سوف تؤثر على ارتفاع منسوب النهر. وكان ذلك يسمى عيد القديسة. وهذا مثال لكيفية تأسيس الكُتَّاب الغربيين فى كثير من الأحيان صور خاطئة للحياة المصرية على مجرد سياق كلمة، ذلك أنهم كانوا حتى وقت قريب يعتقدون أنه كان يُضحى بعذراء كل عام بإغراقها فى النيل فى ذلك الاحتفال.

وكما يحدث فى مصر باستمرار، فإن المصيبة العامة لا تفشل أبدًا فى توحيد

دعوات الناس جميعًا. ففى كثير من الأحيان كان انخفاض منسوب النيل يؤدى إلى تنظيم مواكب الدعاء والصلاة التى تضم المسيحيين والمسلمين الذى يرفعون أصواتهم المختلطة إلى السماء طلبًا للماء الذى يهلك بدونه الناس حتمًا، حيث يجرى إنشاد «كيريا ليسون» القبطية فى وقت واحد مع «الله! الله! لا إله إلا الله» من المسلمين.

ومن المهم تذكر أن المرة الأخيرة التى انخفض فيها منسوب النيل كانت فى العام الماضى (١٩١٣) جمعت العاطفة المتغلبة للدعاء عند الحاجة القومية نفسها كل الرجال معًا. وفى عام ١٨٠٨ شهد جامع عمرو الكبير فى القاهرة مشهدًا بارزًا بحق. كبار المشايخ المسلمين ورجال الدين الأقباط جميعًا، ومعهم رجال الدين من الكنائس الشرقية الأخرى، والحاخامات اليهود، تجمعوا فى صحن الجامع الرائع كى يتوحدوا فى التضرع من أجل رفع منسوب الماء.

يذهب الكثيرون من الزوار الريفيين إلى كنيسة القديس ميخائيل حيث توجد لوحة كبيرة للملاك ميخائيل، التى يفيد كثيرًا الوقوف أمامها طلبًا للشفاعة، وبشكل أخص من أجل رفع منسوب النيل؛ وقد ربطت أعداد كبيرة من العابدين قطعًا من ملابسهم وأحزمتهم ومناديلهم الحريرية فى مقصورة الضريح. وفى بعض الأحيان يحضر من يأتون للصلاة الزيت للكنيسة، أو هدية من البخور. وعندما تُجاب دعواتهم يعودون بهدايا أخرى.

ليس هناك ما يقتنع به المصريون على نحو مطلق مثل اقتناعهم بأن مياه النيل مرسلة من السماء لكل الاحتياجات البشرية، ليس فقط بما تتميز به من صفات مانحة للصحة، بل كذلك الإنعاش اللذيذ الذى تحدثه. وبعد خبرة طويلة يمكننى القول بأننى أتفق مع تقدير الأهالى. فسوف آخذ قدرًا كبيرًا من العلم الحديث للتأثير على اعتقاد عام له جذوره العميقة مثل هذا الاعتقاد. فالواقع أن العالِم مضطر للاعتراف بأن فِطرة الناس هذه تفوق تشخيصه. كان الدكتور كلونزنجر طبيب صحة رسميًا لبعض الوقت فى مصر، وعندما نظر إلى المياه لأول مرة مرِض من الرعب من الإسهامات الضارة التى جمعتها فى رحلتها الضخمة عبر أفريقيا. وسأل نفسه إن كان يمكنه المغامرة بشرب هذا الخليط أم لا. ويضيف: «نحن نغامر. وقد فعل

ابن الشمس ذلك قبلنا، وما زال أبناؤه يفعلون ذلك، وهو
والواقع أنه رحيق نقى؛ ونتفق إلى حد كبير مع الأهالى، وخاصة
من الصحراء الذين يعتبرون أن شربة من ماء النيل أعظم نعمة يمكن
العالم».

ليس مستغربًا أن الأطباء المسيحيين فى الأزمنة القديمة، مثل الط
أيتيوس، كانوا يوصون - حتى زمن أثناسيوس - بشرب ماء النيل من أجـ
ينبغى أن نسميه «علاجًا» فى زمن تجدد الاهتمامات بالمتنجعات
أوروبا. وكان أيتيوس يعتقد أن فيه لمسة سحرية؛ إلا أنه ظن فيما بعد أن
الأخضر إذا ما وضع فى خاتم تكون له صفات السحر الشافى.

كان يحدث أثناء الدردشة فى المساء فى سلاملك المضيف الريفى
الزيارات لجيرانه، أن تبرز حتمًا تلك الموضوعات جميعًا المتصلة بالنيل؛ والع
التى يجرى بها خلط تاريخ النهر بحكاياته الخرافية أثناء الحديث جذابة إلى
كبير.

ينسل أهل القرية، الذين يتمتعون دومًا بحق دخول المنازل الكبيرة فى مصر
هدوء إلى تلك التجمعات المسائية، ويبدون اهتمامًا كبيرًا بكل شىء يُقال، ويو
أسئلة كثيرة من خلال المضيف عن الضيف الإنجليزى، مثل رأيه فى أمور حساسة
مثل ما يقوم به المنادون بمنح المرأة حق الاقتراع. وكثيرًا ما كنت أقلب الوضع بالرد
على السؤال بسؤال؛ وفى بعض الأحيان كنت محظوظًا بما يكفى لإدهاش التحفظ
الشرقى بسبب بعض الأشياء التى يبدى بشأنها تحفظًا كبيرًا.

فى إحدى المرات أثرت جلبة هى الأكثر إثارة للضحك بسؤالى عما إذا كان
الرجال المتزوجون فى مصر يحبون حمواتهم أم لا. وهذا موضوع يربط العالم كله
بعضه؛ فالقصص المضحكة عن هذه السيدة التى تصلنا فى الغالب من الأيام
الخوالى، هى فى الغالب الحلقة الضعيفة الوحيدة التى تربط الرجال من كل جنس
معًا. وعلى الفور روى هؤلاء الفلاحون المصريون قصة، سبق أن سمعتها فى
أيرلندا، بنفس الكلمات تقريبًا. فقد كان منزل أحد المصريين يحترق، فصعد إلى
الطابق الأعلى وأنزل مرتبته (كانت فراشًا من الريش فى أيرلندا) برقة، بعد أن أخطأ

فى غمرة نشاطه بإلقاء حماته أولاً من النافذة. وأعلن أحد الرجال - وبموافقة لا لبس فيها - أنه عندما تتزوج نساء قبيلة العبابدة فى الصعيد يجب ألا يرين أمهاتهن مرة أخرى. فالعريس باستمرار يغادر الحى الذى يعيش فيه بعد الزواج مباشرةً إلى مكان بعيد بقدر الإمكان، وذلك لتجنب حماته فى المقام الأول. وهناك مصطلح عربى يعطيها الوصف نفسه الذى فى اللغة الألمانية وهو (Tiger Mutter)؛ بينما يعلن أحد الأمثال أن الشيطان ليس ندًّا لها.(١)

هناك باستمرار قدر كبير من الحديث بين الفلاحين حول موضوع الحيوانات والطيور؛ وهم يروون الكثير من القصص الغريبة عنها، ويقابل المرء باستمرار خرافات جديدة تبرز فيها الحيوانات. وقد تحدثت عن غياب أى خوف من البشر من جانب الطيور فى مصر. ونتيجة لقدر كبير من التساؤل، فى كل أنحاء القطر، أظن أن هذا يمكن تبريره أولاً بإيمان حقيقى بأن أى قتل لا مبرر له فيه معصية للخالق؛ حتى وإن كان المخلوق مُنَفِّرًا، كما هو حال الخنزير بالنسبة للمسلمين، أو القرد والكلب بالنسبة لكل شرقى.

وأظن أن قصة مقار الراهب لها علاقة ما بهذا المعتقد. فبينما كان جالسًا فى قلايته قتل ناموسة كانت تقرصه؛ وأصابه القلق فى الحال لأنه انتقم لنفسه، وحكم على نفسه بالذهاب إلى جوف الصحراء، حيث الكثير من الناموس الكبير، وجلس هناك عاريًا ستة أشهر. وعندما عاد إلى قلايته لم يتعرف عليه أحد إلا من صوته. ومن المؤكد أن بغض المصريين لقتل الأرواح ينسحب على أقل المخلوقات أهمية، إلى الحشرات الصغيرة، وخاصة الخنافس. فقد رأيت خادمًا فى أحد الفنادق يفضل آسفًا عدم أخذ البقشيش المقدم على قتل خنفساء اجتذبتها الأضواء إلى داخل الغرفة.

وهناك كذلك خوف عام من أن عفريتًا ما قد يكون حالاً فى بعض الحيوانات أو الطيور، أو أن الجن يتنكر فى صور الحيوانات والطيور. وهذا الاعتقاد يخص الجن إلى حد أننى أعلم جيدًا أن أيًا من أهل القرية الذين أتحدث معهم لن ينادى على أى

(١) هناك أمثال كثيرة تصف الحما بأوصاف قاسية منها «الحما عقرب تقرص وتهرب» و«الحما حما ولو كانت ملكة من السما» و«الحما حما وأخت الجوز عقربة صمة». (المترجم).

حيوان دون أن يؤثر [illegible] عن شيء إلى الحيوان الذي يلاحظه. [illegible]
مقربة ويحظى العلاج [illegible] وتصبح الإشارة حينئذ وبتلك [illegible]
[illegible] الشرق بطريقة معاكسة تماما [illegible]
التي يؤثر [illegible] كما نفعل نحن عندما نرغب في إبعاد [illegible]
عن طريق [illegible] كما كان عليه الحال في [illegible]
يمثل [illegible] الآن أكثر المخلوقات أهمية في الشرق [illegible]
التمسيح والسحر على السواء.

السحرة [illegible] الطريقة التي يتكلم بها العرب قصص القديس [illegible]
عندما نرى الطريقة [illegible] عليها من المهم أن نعرف الرأي [illegible]
والطيور التي كانت له السيطرة عليها [illegible]
صوتا في الشرق، وهو أن أي رجل ذا حياة طاهرة سوف يجد كل [illegible]
له ويروي الأقباط قصصا عجيبة عن قدرة آبائهم المقدسين حتى على [illegible]
الخطرة فالأسود تصبح أليفة ووديعة أمامهم، ومعروف أن الحيوانات [illegible]
لمستضيفها راهب لا مأوى له. ويُحكى قصة عن أحد النساك أنه كان [illegible]
يستطيع [illegible] الصحراء ليختلط بالحيوانات البرية دون أن يصيبه أذى [illegible]
ليلة إلى الصحراء [illegible] صوت الراهب الرقيق تقفز فرس نهر غاضب [illegible] بالاسم المقدس [illegible]
رجل مقدس آخر النيل على ظهر تمساح ودود. وذات يوم زارت الأ[illegible]
أنثى فهد أمسكت بطرف ردائه وقادته برفق إلى كهفها حيث [illegible]
وأحضرت صغارها وألقتهم عند قدمي الراهب. وقد وجد أن الصغار عميان [illegible]
ومسح على أعينها فأبصرت في الحال. وفي اليوم التالي جاءت أنثى الفهد [illegible]
إلى الراهب وقد أحضرت له فروة خروف، واستخدم القديس الفروة [illegible]
حتى بليت.

ما من رجل بين هؤلاء الذين تحدثت معهم إلا ويؤمن بأن الحيوانات [illegible]
معرضة إلى حد كبير لأعين الحسود؛ ومن ثم كانت كل التعاويذ التي [illegible]
رقبة الحيوانات. وهناك اعتقاد بأن الزينة التي أخذها جدعون من أعناق [illegible]
(سفر القضاة ٨: ٢١) كانت تعاويذ تحميها وكانت عبارة عن أهلة [illegible]
وخرز أو أقراص من الزجاج الأزرق- تماما كتلك التي تلبسها الجمال [illegible]

يدخل البيت الذي تحدث فيه. وأكثر من أن الزينة النحاسية التي تدخل في عدة الخيل التي تجر العربات في إنجلترا تعود إلى الأصل الوثني نفسه.

مصر هي المكان الذي ينبغي أن نتوقع العثور فيه على الخرافات ذات الجذور العميقة المتصلة بالحيوانات؛ ذلك أن استعمالها كنبوءات مصري أصيل ويعود إلى عصور قديمة جدا. فعندما كان العجل أبيس يُستشار، كان الفأل إما حسنا أو سيئا بناء على قبول العجل أو رفضه للطعام الذي يقدمه له العابدون، أو عندما كان أبيس يختار دخول إحدى حجرتين في الحظيرة. ومن المحتمل أن ذلك الاستخدام للحيوانات المقدسة المحفوظة داخل المعابد كان فحسب نتيجة لخرافات الناس، ولم يكن يشجعه الكهنة حتى انقضاء العصور الكلاسيكية. وما حدث في حالة العجل أبيس تكرر في معابد كوم أمبو، حيث كانوا يحتفظون بالتماسيح المقدسة، وفي حالة كباش الفنتين أو كباش منديس.

وبسبب كراهية المصريين بصورة عامة للقرود، لم يكن هناك ما يغري بعض أصدقائي على الاقتراب من أقفاصها داخل حدائق حيوان الجيزة- هو أن القرد إنسان ممسوخ. وتمثل قردة الرباح ذلك الوغد الذي سرق نعل النبي الأحمر، عندما قال: "أيها اللص، عسى أن يصبح شكلك مسخا لشكل الإنسان، وأن يكون جسمك في المكان المعلق فيه نعلاي ملونا باللون الأحمر مثلهما على الدوام، ليكون ذلك تذكرة بفعلتك الشريرة"(1) ليس من بين الفلاحين من هو مقتنع بصدق هذه القصة، حيث إن قردة الرباح له صور كثيرة على الآثار القديمة. كما أنهم لا يجهلون السجلات المحفوظة، ذلك أنه كثيرا ما يتذكر في أحاديثهم أن عددا كبيرا منهم تعجب- مثلما تعجب الباحثون الغربيون- من عدم وجود الجاموس أو الجمال على أي من الآثار.

في إحدى الأمسيات رُويت حكاية منتشرة عن صاحب جمال غني. فعندما اقترب أجل ذلك الرجل، لم تخرج روحه بالسهولة التي أرادها. وحاول أصدقاء

(1) تتحدث الحكاية الشعبية المصرية عن شخص استنجى بالخبز، وفي رواية أخرى بالحليب، فمسخه الله قردا وكان مكان الاستنجاء ما عليه مؤخرة قرد الرباح من احمرار. وفي حكاية شعبية فلسطينية أن أما لم تجد ما تمسح به طفلها بعد أن تبرز سوى رغيف من الخبز فمسخ الله الطفل قردا بالحال الذي عليه الرجل في الحكاية المصرية. (المترجم)

كثيرون أن يخمنوا سبب ذلك، ولكنهم عجزوا عن معرفته، إلى أن قال أحدهم فى النهاية إنه ربما آذى حيوانًا ما، ربما يكون جملاً. وهكذا جاءوا برئيس الجمال الذى أبى أن يأتى قبل أن يجتمع بالجمال كافة التى حكت لـه مصيبة صاحبهم. وكان «قرار» اجتماع الجمال كما يلى: «سيدى، يمكنك أن تستريح الآن؛ فقد عفت الجمال عنك. ولكنها تريدك قبل أن ترحل معرفة سبب تأذيها الشديد. فنحن يمكننا تحمل الأحمال الثقيلة، وكذلك ضربات سوط الجمّال. فهذا أمر الله، ويدخل ضمن عملنا اليومى. أما ما وجدناه إهانة لا يمكن تحملها فهو أنك عندما كنت تربطنا ببعض لنسير على هيئة قافلة، كنت تضع بذلك مؤخرة ضئيلة فى البداية لتقودنا!».

هناك ساحر خسيس من العصور القديمة ممثل اليوم فى الضبع؛ فقد سخط عليه غضب الله. ولكن إحدى تلك التناقضات الشديدة تقريبًا، التى كثيرًا ما توجد فى معتقدات الناس الخرافية، هى أنهم بدلاً من أن يرتعدوا خوفًا من هذا الكائن الملعون، نجدهم قد اختاروا إعطاء الضبع قيمة سحرية كبيرة، وهاهم يسعون للحصول على أسنان هذا الحيوان وشعره وجلده ولحمه ليتخذوا منها تعاويذ سحرية. فإذا تأكد مسلم من أن ضبعًا ذُبح طبقًا للشريعة الإسلامية - وهذا نادرًا ما يحدث - فإنه يأكل لحمه فورًا. والشيوخ على وجه خاص مغرمون به؛ ذلك أنهم يعتقدون أنه يمنح قوة جنسية. وإذا شعر الرجل بألم فى ظهره، فإن أفضل علاج هو النوم على جلد الضبع. وإذا كان محظوظًا بحيث يملك هذا الجلد، فلا بد له من إخفائه، ذلك أن كل زائر تتاح له الفرصة سوف ينتف شعرة من شعره الذى فوق رقبته وظهره، اعتقادًا منه بأنه سوف يضمن محبة أصحاب المكانة الرفيعة وإخلاصهم، وكذلك الحظوة لديهم.

لا حصر للقصص التى تُروى عن الثعلب المكار، وإن كانت جميعها تنتمى إلى طائفة الحكايات الخيالية الفكاهية. والنكتة الكبيرة فى تلك الحكايات جميعها هى حكاية الثعلب قاضيًا للقرية. والقصة التى سمعتها أكثر من غيرها هى قصة الثعلب الذى قابل رجلاً ذاهبًا السوق ومعه قفص به طيور. وكان الثعلب بطبيعة الحال يشتهى الطيور، فأراد أن يخدع صاحبها ليستولى عليها. تسلل الثعلب وسبق الرجل واستلقى على الطريق متظاهرًا بأنه ميت. لمحه الرجل ولكنه استمر فى سيره وتجاوزه ليجد ثعلبين آخرين ميتين على الأرض. فى تلك اللحظة قال لنفسه إن قيمة

جلود ثلاثة ثعالب كبيرة؛ ولذلك وضع قفصه على الأرض بجوار الثعلب الأخير وعاد ليأخذ الثعلبين الآخرين. ولكنه لم يجد شيئًا؛ وعندما عاد إلى قفصه كان فارغًا.

وجدت فى كل مكان من الريف إيمانًا قويًا بسحر الحجارة - من أنواع عادية جدًا - يؤتى بها من أماكن مقدسة كالقدس ومكة ودمشق والمدينة وغيرها من البقاع المقدسة. أحد الرجال الذين تحدثت معهم كانت لديه مجموعة من تلك الحجارة التى يُنظر إليها فى الريف كله على أنها كنز كبير؛ وكان يُطلب منه باستمرار إعارتها فى حالات المرض الشديد. ولا بد من إحضار سلطانية من ماء النيل حيث تُدعك الحجارة ببعضها فيها ثم يشرب المريض الماء. وبما أن الحجارة جاءت من أماكن إسلامية ومسيحية، فإن أهل الديانتين على قدر متساو من الاستعداد للاستفادة من السحر نفسه. وهم يظنون أن هذا علاج ناجع لحصوات المرارة.

ذكروا لى علاجًا لليرقان عندما أرسل مضيفنا فى طلب «الصحن السحرى» الخاص به كما أسماه. وكان صحنًا مستديرًا من النحاس الأصفر عميق بعض الشىء عليه كتابات باللغة العربية - وهى فى هذه الحالة نص من الكتاب المقدس؛ أما تلك التى يستخدمها المسلمون فآيات من القرآن. وهذا الصحن لا بد من أخذه فى المساء حيث يُملأ بماء النيل، ولا بد أن توضع به العديد من حبات البندق. وبعد ذلك يوضع فى العراء كى يسقط فيه ندى الليل. وفى الصباح لا بد أن يأخذ المريض الصحن، وبينما يقف وظهره للشمس المشرقة، يأكل البندق ويلقى بقشره من وراء ظهره، وبعد أن ينتهى من أكل البندق كله لا بد له من شرب الماء بالكامل.

ذات صباح ذهبنا لرؤية شجرة مقدسة، وهى واحدة من عدد قليل من هذا النوع فى مصر. كانت تلك شجرة نبق كبيرة جدًا وكانت مغطاة بالمعنى الحرفى للكلمة بمِزَقٍ من ملابس الناس الذين زاروها. وعادة اعتبار أشجار بعينها مقدسة عادة أخرى من تلك العادات التى دخلت المسيحية من الممارسات المصرية القديمة. وأظن أن هناك أشجارًا مقدسة فى أيرلندا.

ولدى المسلمين اعتقاد كبير بكون أشجار بعينها مأوى الأولياء الراحلين؛ فهم يظنون أن الجنة محاطة بسياج من النبق، وهى شجرة على قدر كبير من التقديس،

حتى أنها تصبح باستمرار مأوى أحد الأولياء عندما يصل عمرها إلى أربعين سنة.

وفى أيام بعينها، يظن أهل القرية جميعًا أن شجرتهم المقدسة زاهية بأرو إضاءة وتُسمع أصوات بين غصونها؛ ويظن الأقباط والمسلمون على السواء أن الولى أو القديس يكون عند الشجرة فى ذلك الوقت، ويسمى أولياء الأشجار وأهل البركة».

وكان يوجد فى مصر نوع من الأشجار اسمه اللبخ[1]، وهى شجرة مقدسة لدى سيدنا، لأنها الشجرة التى استراحت تحتها العائلة المقدسة عندما مرت على المطرية. وفى وقت ما قبل دخول العرب مصر صدر قانون للحفاظ على هذا النوع من الأشجار، وكانت تُفرض غرامة كبيرة على من يقطع أيًا منها. ولكن هذا لم يمنع انقراض هذه الشجرة؛ فالآن لا يعرف أحد أية شجرة هى المقصودة باسم اللبخ، والشجرة المقدسة الموجودة فى المطرية حاليًا شجرة جميز، وبذلك فليس مستغربًا أنها لا تحظى بتبجيل الأقباط وإنما المسيحيين اللاتينيين.

سألت الأشخاص الذين يلجأون إلى تلك الأشجار، ليس فى مصر وحدها، بل فى أنحاء مختلفة من شمال إفريقيا، وخاصة عن السبب فى ربطهم قطعًا من ملابسهم عليها. وبقدر ما يمكننى وضع إجاباتهم الغامضة نوعًا ما فى لغة أخرى، فقد وجدت أن لديهم باستمرار أمل فى أن يظل الولى أو القديس على اتصال مستمر بهم من خلال نوع من الاستبصار، وأن يذكر حاجاتهم عند الله، وأن الله سوف يسمع دعواتهم المتواضعة بسبب أفضال الولى أو القديس.

مسلون جدًا أطفال القرية هؤلاء الذين نراهم يلعبون معًا فى جماعات بالحقول. وفى سن المراهقة يتسم أطفال القرى المصريون بالجمال؛ فالبنات والصبيان يكونون قد تشكلوا على نحو جيد، وهم مع نحافتهم أقوياء وكلهم نشاط لطيف والملامح طيبة، والعيون البنية الرقيقة والأسنان البيضاء ـ التى تُغسل بحرص بعد كل وجبة ـ مع البشرة البنية الدافئة، تشكل أكثر صور الجمال الشاب لطفًا.

---

(1) كانت شجرة «إشد» (اللبخ) مقدسة عند قدماء المصريين وارتبطت بالشمس المشرقة فى أون (هليوبوليس فى العصر اليونانى الرومانى وعين شمس الحالية) ومنف وإدفو. (المترجم).



شجرة عجوز مقدسة. تغطى الأشجار المقدسة بخِرَق من ملابس الذين يزورونها، وهم يأملون بذلك إقامة علاقة طيبة مع القديسين الذين يزورون الفروع ويسكنون فيها. وقد وجد المؤلف هذه الأشجار المقدسة فى الصحراء الكبرى وصحراء النوبة والسودان.

وتشكل المواكب الصغيرة للبنات اللائى يسرن كل صباح ومساء ... والترعة حاملات جرار الماء على رءوسهن منظرًا من أكثر المناظر سحرًا فى ... النيل. أقدام البنات حافية. وإذا كان جسم الفتاة ملفوفًا إلى حد كبير جدًا فى ... الأسود الذى اتسخ ذيله وهى تجره على الأرض، فما زال بالإمكان رؤيتها ... ملفوف على نحو جميل امتد ليمسك بالجرة؛ وبما أنها لا تسعى إلى ... الحجاب الكامل الخاص بـ«المحارم»، كما تسمى هى نساء المدن، وتستر ... فقط ثوبها لتغطى به وجهها (إذا لم يكن هناك رجال مصريون فى المكان، ... ذلك لا تفعله) فكثيرًا ما نرى وجهًا ذا جمال رقيق. قد تفسد علامات الوشم الزرقاء ... الصغيرة الوجه ذا البشرة الفاتحة، ولكن يبدو أنها تتوافق مع الأقراط الذهبية والقلادة ... المصنوعة من العملات الذهبية، والخرز الأحمر القانى الذى تتفاخر بارتدائها.

الألعاب التى يلعبها الأطفال من أبسط ما يكون. فها هى مجموعة من الأطفال ... الصاخبين يلعبون لعبة يبدو أنها تتكون من جانبين حيث يحجلون على قدم واحدة ... محاولين فحسب إيقاع بعضهم البعض على التراب. وبعد ذلك نمر على مجموعة ... أكثر هدوءًا تجلس على الأرض التى رسموا عليها فى التراب ما يشبه لوحة ... مكبرة؛ واللعبة التى يلعبونها بحجارة صغيرة حركاتها سريعة مما يؤدى إلى انتهائها بسرعة.(١) ومن الغريب أن تسمع أن «الرجال» الذين يستخدمهم الجانبان فى هذه اللعبة يسمون المسلمين والنصارى؛ يبدأ المسلم، وتُنادى الأسماء بصوت مرتفع مع كل حركة. وقد رأيت أطفالاً فى إحدى الواحات الصحراوية، على بعد آلاف الأميال من هذا المكان، يلعبون اللعبة نفسها تمامًا. وهناك لعبة شائعة بين الأطفال فى مصر تشبه الراوندرز،(٢) حيث تُضرب الكرة بالعصا، تمامًا بالشكل الذى تبينه صور مصر القديمة؛ وأحيانًا يلعبها الأطفال وهم يركبون على أكتاف بعض، وهكذا كان يفعل أسلافهم البعيدون.(٣)

الريف المصرى به القليل من الألعاب، ولكن كثيرًا ما تُشاهد نحلة بدائية. وما

(١) يتحدث المؤلف هنا عن السيجة. (المترجم).

(٢) rounders لعبة بالكرة والمضرب فى إنجلترا. (المترجم).

(٣) هذه اللعبة تسمى الحُكشة. (المترجم).

أظن أنه أمر أكثر وضوحًا هو أن أجد أولاد الفلاحين لديهم فى بعض الأحيان تلك المفرقعات النارية الصغيرة المزعجة التى تُفجر فى معظم القرى الإنجليزية ليلة جاى فوكس.(١)

كثيرًا ما قابلت عددًا من الأطفال الصغار، فى كل أنحاء مصر، يشاركون بجدية فى لعبة تقليد وصفها أغرب ما يكون. فالأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة والسابعة، يقفون فى حلقة، واتباعًا لحركات الشيخ الصورى الجالس فى الوسط، يميلون من جانب إلى جانب فى وقت واحد وبجدية، حيث تظهر على وجوههم تعبيرات مؤلمة بينما ينشدون مرارًا وتكرارًا بنبرتهم الطفولية الحلوة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وبعد فترة يتظاهر أحدهم بالإعياء ويقع على الأرض، ثم يتبعه بقية الأطفال الواحد تلو الآخر إلى أن يسقطوا جميعًا، وهنا تنتهى اللعبة. وهم بذلك يلعبون لعبة الذِّكر، وهو إحدى الممارسات الدينية فى الشرق التى يسعى فيه المسلمون إلى الوصول إلى النشوة الروحية؛ ومن الواضح أنه لم يغب عن الملاحظة الطفولية أية تفاصيل خاصة بهذا الطقس. ويفكر المرء فى العباءة الكهنوتية المصنوعة من مفرش الطاولة الأبيض والوعظ الجاد من خلف ظهر كرسى مرتفع فى إحدى غرف الأطفال الإنجليزية؛ ومجموعات الأطفال من العمر نفسه فى كل قرية إنجليزية التى كثيرًا ما تترك المدرسة الحقيقية كى تشارك فى تقليد شديد الجدية لـ«المدرس»، مع عدم تخفيف الأسئلة الصعبة، وقد يُسمح باستخدام أكثر جدية للخيزرانة عما هو فى الواقع.

فى بعض الأحيان نمر على الفقراء فى أكواخهم أثناء تناولهم للطعام. وهم جميعًا يأكلون بأصابعهم، ولكن لا بد أن أقول عمومًا: إن آداب المائدة الخاصة بهم يمكن مقارنتها من حيث الرقة والقيود التى تنم عن الكرم والإيثار بالشعوب التى تستخدم الشوكة والسكين. فهم يأكلون باعتدال ومن أبسط الأطعمة التى يعد الخبز الصنف الأساسى فيها.

(١) جاى فوكس Guy Fawkes متآمر إنجليزى أُعدم لدوره فى مؤامرة البارود، وهى محاولة لقتل الملك جيمس الأول وتفجير البرلمان فى ٥ نوفمبر من عام ١٦٠٥ انتقامًا لاضطهاد الروم الكاثوليك فى إنجلترا. (المترجم).

الخبز المحلى عبارة عن رغيف مستدير مفرود لونه داكن أشبه بحجر كـ
ما يذكرنا مرة أخرى بالكتاب المقدس «فمن منكم وهو أب يسأله ابنه خبزًا يعطيه
حجرًا». وغالبًا ما تكون الوجبة عبارة عن كسرة خبز مع اللفت المخلل و
الرايب. ورأيت الأطفال فى بعض الأحيان يأكلون هذا الخبز بعد غمسه فى العسـ
الأسود، مع أن الخضروات رخيصة جدًا بحيث يكون من النادر أن يعجز المرء
تذوق الجزر والفجل والطماطم والبصل والخيار الصغير وكلها تُزرع بكثرة
مصر. وفى الطقس الحار يأكل الجميع الخيار؛ والواقع أنه بدون صحن من هـ
الخضروات الباردة والمنعشة غالبًا ما لا يأكل الناس بالمرة.

البطيخ كذلك متوفر بكثرة بحيث يستمتع به الكل - وهو طعام وشراب فى أيـ
منتصف الصيف شديدة الحرارة. ونعرف أن الرجال الذين بنوا الأهرام كانوا يأكلو
الطعام نفسه الذى يأكله الفلاحون اليوم، وكانوا يأكلونه بالطريقة البسيطة نفسها.

وليس من الأدب مراقبة الناس وهم يأكلون، ولذلك كنا ننصرف ثانيةً بعد قبو
لقمة ردًا على عروضهم الملحة. «عين الحسود» نشطة جدًا فيما يتعلق بالطعا
ولذلك فنحن لا نرد أية رغبة، حتى بالنسبة للفواكه المغرية جدًا.

الفصـل الخامـس

الولادة وما يصاحبها من احتفالات

استطاع المؤلف عند كتابة هذه الفصول التى تتناول العادات المصرية، استكمال ملاحظاته الشخصية بمذكرات قيمة كتبها قبطيان ينتميان إلى العائلات القديمة المحافظة والأرثوذكسية، وهما الدكتور صبحى ومرقس سميكة باشا من القاهرة.

يثبت النمط الأساسى للمصرى القبطى صحة التأكيد على أن سكان النيل باعتبارهم جنسًا من بين أكثر أجناس البشر محافظةً. فمن حيث ملامح وجوههم وغرابة سلوكهم وعاداتهم، هناك قدر كبير من الأدلة الموجودة على الآثار القديمة، وفى أدب العصر الفرعونى، تبين أن الناس فى الوقت الحاضر لا يختلفون كثيرًا عن أسلافهم ما قبل المسيحيين.

وإذا كان هناك أى اتجاه نحو التغير، فهو بين طبقة صغيرة نسبيًا من الأغنياء والمتعلمين تعليمًا عاليًا الذين يسافرون كثيرًا إلى أوروبا ويحرصون على تبنى كل شىء من الحضارة الغربية. فالرغبة فى العيش بأسلوب الإنجليز أو الفرنسيين يبعد أهل هذه الطبقة بعيدًا جدًا عن عادات حتى الجيل السابق لهم، حتى أن المراقب العابر قد يتخيل أن هناك ثورة اجتماعية تغير الجنس كله. إلا أن المؤلف يرى أن الأمر لا يحتاج إلا إلى القليل من المعرفة كى يتضح أن العادات المكتسبة على هذا النحو لا تزيح المزاج الشرقى الذى لا بد أن يظل يعبر عن نفسه بطريقته بالرغم من القيود الاصطناعية، مهما كانت تلك القيود.

ليس هناك تغير فى السواد الأعظم من الناس. وربما يؤدى انتشار التعليم إلى تعديل بطىء جدًا للتجاوزات الهمجية، وخاصة ما يتعلق بالنساء فى أوقات الحزن

الشديد، إلا أنه لا يمكن أن يأتى لشعب شرقى بالقيد المستدام الخاص
مختلف يعيش فى مناخ أكثر برودة.

قد تجتذب مهارة الطبيب وعلمه الناس شيئًا فشيئًا من إيمانهم بالسحر والتعـ
إلا أنه من غير المرجح انتزاع الخرافات التى تحظى بالتقدير على مدى قرون
بسهولة من عالم الشرق العجيب، وهو الذى يحيا بكل إمكانيات السحر الرومانـ
فهو عالم كل رجل فيه له ملاكه الحارس واعتاد على أساليب جنس كامل من
والعفاريت. وقد ازدهرت كل هذه الأمور زمنًا طويلاً لأن لها جذورا فى احتياجـ
النفس البشرية ورغباتها.

وللأسباب نفسها احتفظت كنيسة هؤلاء الناس القديمة بسماتها الشرقية،
هناك ما يوضح ذلك على نحو أكبر من العمل الذى قام به الأمريكان فى مصر
محاولة لإخراج الأقباط من عقيدتهم الأرثوذكسية. وقدمت البعثة التبشيـ
الأمريكية خدمة جليلة للمسيحيين المصريين بطرق كثيرة؛ فقد أفادت بمدارسـ
وكلياتها الرائعة وبمستشفياتها وبقدرتها المدهشة وكرمها الزائد مصر كلها.

لقد أنشأوا أعدادًا من القاعات التبشيرية، بكل ما فى المشيخانية من جفا
وكانوا يدعون الناس من على منصاتهم، ليس لأن يعيشوا حياة من القداسـ
الشخصية، بل كذلك لتفادى أخطاء كنيستهم القديمة. ويعد من اتبعوهم بعشرات
الآلاف وأنا أتحدث عن حماس وجدية هؤلاء الذين غيروا ملتهم، بمن فيهم
أعداد كبيرة من أغنى الأقباط وأكثرهم نفوذًا فى البلاد.

وبينما يمكننى الوصول إلى حد الاعتقاد بأن المحصلة النهائية لهذه البعـ
التبشيرية قد لا تكون شيئًا أقل من إصلاح الكنيسة القبطية، حيث أعادت لها
الروحانية التى فقدتها، فإنه بناءً على ما رأيت لا أظن أن الشرقيين وجدوا فى الشكل
المشيخانى للعبادة أى رضا دائم.

الذين غيروا مذهبهم فى شوق دائم إلى شعائر كنيستهم القديمة المتألقة. فكم
منهم الآن ينسى، حين يشعر بالحاجة إلى سر القربان المقدس القديم، مبشر كنيسته
لبعض الوقت ويذهب إلى الكاهن والمحراب. وإذا حدث أن شهدت الكنيسة

إصلاحًا وأصبحت كنيسة حية، فإنى أعتقد أنه لن يكون فى مقدور هؤلاء الذين غيروا ملتهم مقاومة الغرائز الطبيعية التى تدعوهم طوال الوقت إلى العودة إلى حظيرتهم. ومن المؤثر أن تسمع نبرات العاطفة الجياشة التى يتحدثون بها عن الكنيسة الأم، حتى وإن بدوا من الخارج فى استياء تام.

ربما جرى توارث العادات المحيطة بمولد الطفل أكثر من أية عادات سواها بدون تغيير منذ أقدم أيام التاريخ المصرى. وليس ممكنًا فى أى الأحوال تتبع أصل كل عادة على حدة وشرح معنى الكثير من الممارسات والشعائر فى الوقت الحالى، إلا أن هناك ما يبرر نسب غموضها ذاته وطابعها الذى يبدو لا معنى له إلى كونها جزءًا من ديانة قدماء المصريين البدائية، وقد باتت غير قابلة للتفسير حين لم يعد للديانة نفسها وجود.

فى المنازل التى يُتبع فيها نظام الحريم، وعند الفقراء، لا يمكن أن تراجع الأم الحامل الطبيب، حتى وإن كان فى ذلك قطع لفترة حملها الآمنة. وإذا كانت حياتها معرضة لخطر شديد فقد يُستدعى الطبيب إلى المنزل، ولكن هذا تنازلاً جرى مؤخرًا من جانب الذين يحبون اللجوء إلى العلوم الطبية باعتبارها تدبيرًا وقائيًا ضد أنواع العلاج المحلية. وإن لم يكن ذلك فسوف تتولى المسئولية على نحو كامل القابلة التى تسمى «الداية» فى العامية؛ وإذا كانت تلك المرأة تحمل شهادة فإنها تسمى «الحكيمة».

وفى ضوء المناقشات التى دارت مؤخرًا حول الموضوعات المتصلة بتحسين النسل فى إنجلترا، من اللافت للاهتمام أن نجد أن المصريين يعتقدون باستمرار أنه لا بد من الاهتمام بشدة بما يؤثر على الأم قبل ولادة الطفل، حيث إن كل تأثير يقع على جهازها العصبى سوف يكون له أثره على الطفل الذى لم يولد بعد.

قد يتذكر القراء أنه فى حياة الراحل تشارلز كنجزلى هناك تعليق خاص على فكرة حديثة وهى أن الأم رحلت إلى ديفونشاير معتقدة بأن كل التأثيرات التى ستقع على عقلها حينذاك يمكن أن تنتقل إلى الطفل. وبعد سنوات ذكر جالتون عائلة كنجزلى على نحو خاص فى كتابه عن الموهبة الوراثية.

وكان أحد تلك المعتقدات المتأصلة فى مصر باستمرار، والمألوف ... لايحتاج إلى تعليق، هو أنه ليس شخصية النسل الآتى أو حتى صحته ... التى تتوقف على الموضوعات التى تُقحم فيها المرأة، وخاصة فى الثلاثة ... الأولى من فترة الحمل، بل كذلك مظهر ذلك النسل.

فالنظر باستمرار إلى وجه جميل يصل به الأمر إلى ضمان ولادة طفل ... الوجه؛ وأى شىء تبدى الأم رغبتها فى الحصول عليه قد يعاد إنتاجه فى هيئة ... على جسم الطفل.

وهناك قصة تُروى كثيرًا عن امرأة كانت تشتهى التفاح -وهو فاكهة نادرة فى ... -وهى رغبة لم يكن من الممكن تحقيقها؛ وولدت تلك الأم طفلاً على جسمه ... لا تختلف فى شكلها أو لونها عن التفاحة الحمراء. وفى حالة أخرى، يعتقد ... أن امرأة كانت تربى قردًا فى بيتها أنجبت طفلاً يشبه القرد فى ملامحه.

سمعت قبطيًا على علم جيد بالكتاب المقدس يعلن أن هذا المبدأ كان معروفًا حتى فى تطبيقه على عالم الحيوان، منذ أيام تجربة يعقوب مع قطعان الغنم ... أصبح غنيًا بسببها.(1)

---

(1) سفر التكوين ٣٠: ٣١-[«فقال ماذا أعطيك فقال يعقوب: لا تعطينى شيئا. إن صنعت لى هذا الأمر أعد أرعى غنمك وأحفظها. اجتز بين غنمك كلها اليوم واعزل أنت منها كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزى فيكون مثل ذلك أجرتى. ويشهد فى برى يوم غد إذا جئت من أجل أجرتى قدامك كل ما ليس أرقط أو أبلق بين المعزى وأسود بين الخرفان فهو مسروق عندى. فقال لابان: هو ذا، ليكن بحسب كلامك. فعزل فى ذلك اليوم التيوس المخططة والبلقاء وكل العنـ... الرقطاء والبلقاء كل ما فيه بياض وكل أسود بين الخرفان ودفعها إلى أيدى بنيه. وجعل مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية. فأخذ يعقوب لنفسه قضبانا خضرا من لبنى ولوز ودلب وقشر فيها خطوطا بيضا كاشطا عن البياض الذى على القضبان. وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب تجاه الغنم لتتوحم عند مجيئها لتشرب فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطاء وبلقاء. وأفرز يعقوب الخرفان وجعل وجوه الغنم إلى المخطط وكل أسود بين غنم لابان وجعل له قطعانا وحده ولم يجعلها مع غنم لابان. وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران لتتوحم بين القضبان. وحين استضعفت الغنم لم يضعها فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب. فاتسع الرجل كثيرا جدا وكان له غنم كثير وجوار وعيد وجمال وحمير». (المترجم)].

من المؤكد أن القاعدة بين قدماء المصريين كانت فى كل الأحوال هى أن «المرأة التى ستصبح أمًا ينبغى لها العيش على نحو مريح، وينبغى أن تحصل على ما تشتهيه».(1) وهى قاعدة ما زالوا يحرصون على اتباعها حتى الآن.

عرف الدكتور صبحى نساءً كن يحملن معهن طوال فترة حملهن صورة طفل جميل كن يحملقن فيها باستمرار، حيث كان لديهن اعتقاد قوى بأن هذا يضمن أن يكون لنسلهن الملامح نفسها.

من ناحية أخرى فإنه من الخطورة بمكان، فى مثل هذه الحالة، أن تشم أية مادة لها رائحة نفاذة كالجير الحى أثناء عملية إطفائه، أو حمض الكاربوليك، أو الحلتيت(2)، أو الثوم المحمر فى الزبد.

يُنظر فى الشرق إلى عدم الإنجاب على أنه أسوأ مصيبة يمكن أن تصيب المرأة، ولكن لا يُنظر إليه أبدًا على أنه مجرد عيب بدنى. ولا يُراجَع الطبيب أبدًا، بل يبحثون عن العلاج فى اتجاهات كثيرة توحى بها الخرافات. وهناك اعتقاد بأن لبس أنواع معينة من العملات المعدنية عند زيارة صديق محبوس تتسبب فى هذه اللعنة، وإذا تصادف أن شاهدت الزائرات جنازة، أو جثمان ميت، فى الطريق فإن هذا يحدث ذلك الأثر البغيض، وبالطبع فإن هذه الحالة لا يمكن علاجها بأى نوع من الأساليب البشرية، بل لا بد من مواجهتها بعلاج من النوع نفسه. ولذلك يجب نقع عملات معدنية شبيهة بتلك التى سببت الضرر فى الماء، ولا بد للمريضة من شرب المنقوع أو استخدامه كغسول.

وإذا كان السبب هو رؤية جنازة أو جثمان ميت، فحينئذ لا بد من زيارة المقابر، أو الحصول على إذن بتخطية جثمان ميت؛ وتسمى هذه العملية «المشاهرة».

وهناك نساء عجائز حكيمات لديهن خبرة كبيرة يتولين وصف التمائم والتعاويذ التى تقبلها من تراجعهن بإيمان أشد ما يكون. وهؤلاء النساء يجدن

---

(1) Manners and Customs of Ancient Egyptians, Wilkinson.

(2) الحلتيت نبات كريه الرائحة والطعم، مر المذاق. واستُخدم هذا الصمغ قديمًا ضمن أنواع العلاج التى تزعج الجن، وكانوا يجعلونه فى البخور لطرد الشياطين. (المترجم).

أحيانًا من بين المترددات عليهن من اكتفين، بسبب الفقر، بعدد أسرهم ال... بالفعل.

وتتكون اهتمامات القابلة فى الغالب من التوسل بالأولياء والقديسـ... تعرفهم، وصيحتها الأساسية هى: «يا ستى كَحْلة، انتعينا من دى الوهلة!» ويسا... الوالدة، إذا دعت الضرورة، عقاقير ساخنة محفزة للطلق هى فى الغالب إما ال... المغلية أو الزعفران المغلى.

فى صباح اليوم الثانى من حياة الطفل تقوم القابلة بعملية «إفادة العين» ... تتكون من رفع جفون الطفل والدهان حول العين بمحلول قار الفحم ثم ... الكحل. وتتكون هذه المادة من حرق البخور واللوز ثم جمع السناج الناتج ... ذلك. ولأن هذا السناج ناعم جدًا، فالنساء فى كل مكان يستخدمنه لرسم العـ... والمفترض أن استخدامه المستمر يجعل لون العين أسود. وهذه كذلك عادة ... مصر القديمة.

لا يُظن أن الأم بحاجة إلى الاهتمام، وليس هناك من يظن أن الراحة التامة ال... تتمتع بها الأم الغربية ضرورية؛ فالواقع أنها تتحرك الآن كيفما شاءت. إلا أنه غ... مسموح لها على مدى أسبوع أن تؤدى أى عمل؛ فإذا كانت فقيرة جاءتها قريباتها و... جاراتها طواعية لمساعدتها فى الأمور المنزلية، بل قد يستمر ذلك حتى اليو... الأربعين لولادتها.

العلاج الوحيد فى اليوم الثالث، عند استخدام غسول من أوراق البرتقال المر... وأوراق الشيح (١) المجففة (المفيدة لقلويتها)، والمر، وثمار القَرَض (٢) المجففة ... التى تُغلى جميعها معًا.

وتتضح مهارة القابلة فى مسألة النظام الغذائى فى الغالب، حيث يُنظر إلى هذا الأمر باعتبار أن له الأهمية القصوى. ومهما كان فقر المرأة فلابد أن تقدم لها دجاجة

(١) Artemisia maritima

(٢) Acacia nilotica

على الأقل فى كل يوم من الأيام الثلاثة الأولى بعد الولادة؛ وإذا كانت سبل العيش وفيرة، فإن طعامها يقتصر على الدجاج تقريبًا خلال العشرة أيام أو الاثنى عشر يومًا الأولى.

ما يحزن هو أن الخمر يعطى فى كل حالة ولادة من حالات النساء القبطيات بكميات كبيرة، إلى حد أنه يؤدى أحيانًا إلى حدوث نوع من النزيف يرجعه الأطباء إلى هذا السبب. والصنف الآخر المهم جدًا من الغذاء نوع من الثريد يتكون من الخبز المنقوع فى العسل الأسود مع كثير من الحلبة.(١) ويحظى هذا النبات بشهرة كبيرة فى مصر باعتباره دواءً عامًا للأسرة؛ فهو يعتبر عمومًا مقويًا للأعصاب، ولأنه مر فهو يعمل كمهضم.

فى المنازل الريفية على وجه الخصوص، كثيرًا ما كان آخر عمل من الأعمال التى تدل على اهتمام مضيفى بنا فى نهاية اليوم هو أن يرسل إلى غرفتى دورقًا مليئًا بالحلبة المغلية، حيث إن هناك اعتقادًا قويًا بأنها تضمن النوم بالليل والصحة بالنهار. ويعتقد أهل البلاد أنه إذا صُنعت حبوب من هذا النبات مع مرارة الثور فإنها تصبح علاجًا أكيدًا لمرض السكر.

العقار الأكثر أهمية الآخر الذى تستخدمه القابلة مصنوع من مسحوق جذور نبات اسمه المُغات (يعرفه الفرنسيون باسم grenadier sauvage)؛ وهو يُخلط فى العادة مع حبة البركة، وأحيانًا مع الخروب. ويُسمى الخليط مُغات ويستخدمه فى كل مكان الأشخاص المؤمنون أشد الإيمان بفاعليته.

فى بعض الأحيان تصنع القابلة، حين تكون امرأة تتمتع بقدر غير معتاد من الطاقة والمهارة، مشروبًا أكثر تعقيدًا يسمى «مغات محوَّج»، حيث تُضاف إليه العقاقير العطرية المعتقة كالقرفة والقرنفل والحبهان وجوزة الطيب وغيرها كثير، وتدق جميعها لتصبح مسحوقًا ناعمًا.

الإعداد يكون على هذا النحو: يُصهر أولاً مقدار من الزبد ويُحمر فيه بعض المكسرات المجروشة والعقاقير؛ يُخلط به بعد ذلك المغات العادى ويوضع الخليط

(١) Trigonella fænum Gracum

كله على النار من جديد، وأخيرًا يُضاف الماء ويُحلى بالسكر ويغلى ...
ويقدَّم في فناجين الشاي. وفي بعض الأحيان يُصنع بدون الزبد، ...
يكون له قوام الجيلي ولونه أصفر مائلا إلى البني ذا رائحة عطرية لذيذة ...
مقوية وهاضمة أكيدة. وهذه المشروبات ليست من نصيب الوالدة وحدها ...
تقدَّم كذلك لزوارها جميعًا. كما تقدَّم للوالدة الكراوية المغلية كمشروب ...

الشيء اللذيذ شديد الخصوصية الذي يقدَّم في هذه المناسبات ...
المفتقة. وهي تتكون من مستخلصات مسحوقة لأربعين نوعًا من النباتات ...
معظمها من أنواع المهضمات المرة. وتحمر هذه المستخلصات في زيت ...
المسمى السيرج، ويصب عليها العسل الأسود أو عسل النحل بغزارة. ولا ...
استدعاء نساء خبيرات لإعداد هذا الصنف، إذ إنه يحتاج إلى مهارة كبيرة ...
على النكهة التي تجعله لذيذًا جدًا. ومن بين الأربعين مادة المستخدمة ...
أهم المواد: المكسرات بأنواعها المختلفة؛ ومن العقاقير القِنَّة[1] ...
الكافور المطحونة، والقرفة، وجوزة الطيب، وخلاصة حبة البركة، وجذور ...
والحبهان، والقرنفل، وحَب الملوك، وخشب الصندل، والكبابة، ...
ومسحوق الزنجبيل، وقشر البرتقال والليمون، وخشب المر، ...
والعرقسوس، والتمرهندي، والتين، والشمر، وخشب الكينا، ...
والطرخشقون، مع اقتراح بإضافة الحلتيت. وقد تذوقتها ووجدت أنها ثرية ...
على نحو لا يقبله مذاقي.

عادةً ما تؤكل هذه الحلاوة مع معجنات خاصة تسمى الكُماجة تُصنع على ...
أرغفة صغيرة مستديرة مزينة على الأطراف وعليها طبقة من السمسم ...
وتُعجن العجينة بالزبد، وبالزيت إذا كانت الوالدة قبطية وكان الوقت وقت صوم ...
ويوزع الدجاج المعد خصيصًا بالحليب والدقيق مع هذه الأطعمة اللذيذة على ...
الضيوف المهمين. والدجاج المصري طائر صغير الحجم باستمرار.

نصل الآن إلى اليوم السابع ذي الأهمية الكبرى، ليلة السبوع. بين الأغنياء ...

(1) صمغ شجرة القناوشق التي تنمو في آسيا. (المترجم).

وخاصة، هؤلاء الذين لديهم عدد قليل من الأطفال، تكون هذه الليلة بمثابة احتفال كبير، فتقدم وليمة رائعة، ويُستأجر عازفو الموسيقى، وتشبه هذه المناسبة وليمة العُرس في كل شيء.

هذه الليلة السابعة هي المرة الأولى التي يحمم فيه المولود. وقد لا يتخلصون من الماء الذي يحمم فيه الطفل، بل يُحفظ في إناء من الفخار المزجج يُسمى الماجور الأخضر. وإذا كان المولود ذكرًا، يوضع في وسط الماجور إبريق نحاسي كبير يُستخدم في غسل الأيدي، أما إذا كان أنثى فتوضع قلة صغيرة عادية من الفخار.

وفي الحالتين يزيَّن الإناء بالإشارة الدالة على كل جنس من الجنسين ـ فالإبريق يزيَّن بطربوش أحمر وساعة بكتينة؛ أما القلة فتزين بمنديل وقرط وغيره من الحلي النسائية حسب ثروة الوالدين.

على حافة الماجور توضع ثلاث شمعات (كانت في الأصل سبعًا) توقد في وقت واحد. ويختار الوالدان والأصدقاء ثلاثة أسماء، حيث يطلق اسم على كل شمعة؛ واسم الشمعة التي تظل مشتعلة فترة أطول من غيرها هو الذي يُختار للطفل.

ومن المؤكد تقريبًا أن لهذه العادة أصولها في أساطير قدماء المصريين الذين كانوا يؤمنون بوجود الحتحورات السبع عند ولادة كل طفل، وهي التي مصيره في أياديها. وكانت القُرعة تُجرى بينها، وتلك التي تقع القرعة عليها هي التي تحدد اسم الطفل ومصيره. وربما يعود إلى المصدر نفسه الاعتقاد الذي لا يزال قائمًا في أنحاء مصر كافة، وهو أن كل طفل يرتبط بالنجم الذي يولد تحته.

تكشف الأسماء التي يستخدمها الأقباط عن آثار كل الأمم التي سيطرت على مصر على التوالي، وبينما يعود عدد لا بأس به إلى الجنس القديم، مثل حور من حورس، سيرابامون من سيرابيس وآمون، هناك أسماء يونانية مثل تيودوروس (يُنطق تادرس وتاوضروس)، وفيلوتيوس (يُنطق فلتاؤوس)، وأسماء رومانية مثل كلاوديوس (تُنطق إقلاديوس)، وأسماء فارسية مثل ناروز، والكثير من الأسماء الفرنسية مثل لويس وألفونس، والآن هناك أسماء إنجليزية. فالكثير من الفتيات سمي ڤيكتوريا وألكسندرا، وتشيع إلى حد كبير أسماء من الكتاب المقدس بشكلها

الإنجليزى؛ فعدد من الأولاد يُسمى كرومر وكتشنر، وكثيرًا ما نلتقى بأولاد يسـ… هنرى وجيفرى. والقبطى المحافظ على التقاليد القديمة، وهو ضمن الأ… الساحقة، يحتقر هذه الأسماء المستوردة، حيث يتساوى فى ذلك تقريبًا مع المسـ… الذى لا يستخدم سوى الأسماء العربية.

والقابلة شخصية مهمة فى هذا الاحتفال. وهى تأتى معها بكميات صغيرة… الحبوب من كل نوع ـ قمح وذرة وبازلاء وفول وعدس وغير ذلك ـ وتضع قسمًا… كل منها مع بعض المكسرات فى قدر، ثم تأخذ قسمًا آخر من الحبوب وتنثر… وسادة صغيرة، ولا بد أن ينام الطفل على هذه المخدة إلى أن يكبر بالقدر الذى… يمكنه من تمييز اسمه. ويربط قسم ثالث فى قطعة قماش ولا بد أن يوضع تحـ… المخدة التى تنام عليها الأم.

يؤخذ الطفل قرب الصباح من سريره ويوضع فى غربال ويهز بالطريقة التى تُهـ… بها الغلة عند غربلتها. وبعد ذلك تأخذ القابلة هاون كبير من النحاس الأصفـ… وتقترب من الطفل وتدق الهاون بأعلى ما يكون الصوت، بينما تقول «اسمع كلام… أبوك» وبعد الدق مرة أخرى بحماس تقول «اسمع كلام أمك». ثم تطلب من الأم أن… تخطو ثلاث مرات على طفلها الراقد فى الغربال.

يُخرَج بعد ذلك الإبريق (أو القلة) من الماجور الذى يُنثَر الماء الموجود فيه على… عتبة الغرفة. ويحاول كل من الضيوف انتشال بعض المكسرات من الماجور ويضع… مكانها نقودًا كهدية للقابلة؛ تضع النساء الزائرات ما أخذن من مكسرات فى أكياس… نقودهن كتعويذة ضد سوء الأحوال المالية.

يتشكل الآن موكب لافت للانتباه. إذ يتجمع الأطفال جميعًا الذين فى المنزل وتُعطى لهم شموع مضاءة. وعندما يبدأون من الغرفة التى جرت بها الولادة ينشدون أغانى الولادة الخاصة بالشرق. وفى معظم الحالات تتقدمهم الوالدة وقد ارتدت ثوبًا أبيض وضمت وليدها إلى صدرها، وأحيانًا تكون القابلة هى من يتقدم الموكب حاملةً المولود، وفى أى الأحوال تحمل القابلة باستمرار كمية من الحبوب والملح العادى فى قطعة قماش وتنثرها أثناء سيرها.

ومن حين لآخر ينشد الجميع موجهين كلامهم للمولود: «حلقاتك برجالاتك، حلقة دهب فى وداناتك، يارب تعيش وتربى عيالك». وبعد أن يمر الموكب على كل غرفة فى المنزل، يصاحب الجميع الأم ووليدها عائدين بهما إلى غرفتهما حيث يتركوهما ليستريحا.

من أجل هذا الموكب يكون جد المولود وجدته (من ناحية أمه) قد أعدا فى منزلهما حلويات وكعكًا يسمى «كُماجة» ويرسلان قسمًا منه مع كمية من المكسرات كاللوز والجوز وجوز الهند إلى كل أسرة على صلة بهما.

ولا يُسمح للوالدة بالخروج من باب المنزل قبل مرور أربعين يومًا على ولادتها. وحينذاك تزور الحمَّام، وبعد اغتسالها المعقد والمرح تكون قد تحررت من كل القيود الأخرى.

حب الأطفال، الذى يشترك فيه الأب والأم على السواء ويبديه الشرقيون كافة، لا مبالغة فيه؛ فهو أحد أكثر ملامح الحياة المصرية جاذبية. ولا يختلف فى ذلك الأقباط عن المسلمين. والعلامة الجميلة التى تبين هذا الحب للصغار يدل عليها عدم وجود أطفال أيتام على النحو المعتاد. فهناك باستمرار عائلة ما مستعدة لأخذ الصغار الذين مات أبواهم، ويكون التبنى تبنيًا بمعنى الكلمة. وليس هناك ما يجعل مثل هذا الطفل يشعر بأنه «قريب فقير». أليس هذا مثالاً آخر للتشابه الذى يطالع المرء فى كل مكان بين مزاج الشرقيين ومزاج الأيرلنديين طيبى القلب الذين يؤون الأطفال التعساء فى بيوتهم على النحو نفسه؟

إن هذا هو ما عناه أيوب حرفيًا حين قال: «أو أكلت لقمتى وحدى فما أكل منها اليتيم. بل منذ صباى كَبُرَ عندى كأبٍ ومن بطن أمى هَدَيتُها» (٣١: ١٧ و١٨).

بالنسبة للشبه بين الشرقيين والأيرلنديين، قد يكون استطرادًا لافتًا للانتباه أن أذكر قصة الطاهى فى دير الأنبا باخوم الصحراوى. فقد أهمل عمله المكلَّف به على نحو دقيق، وهو الخاص بطهو الخضروات للإخوة، وخصص وقته لجدل الحصير. وكل ما قاله اعتذارًا عن ذلك هو أن الإخوة لم يأكلوا الطعام كله الذى طهاه؛ فقد كان يشغل نفسه بأمر الأربعين قنينة زيت التى كانت تُخلط يوميًا مع البازلاء

والخضروات. وهم لا يروون أن أخًا صانعًا للحصير أصر على تولى الطهى، ولكن أتوقع أن الأمر كان كذلك. ولتقل أية سيدة تدير شئون منزل فى جنوب أيرلندا هذا لا يذكرها بتجاربها المنزلية المهمة. فهى عندما «تكلف» أحد المخلوقات المحبوبة ـ ولكنها تغيظ ـ التى تخدم فى المنزل الأيرلندى «بعمل ما وبشكل معين» فيعنى هذا تأكدها من أنه سيفكر فى كل حيلة للتهرب من هذا العمل والقيام بأعمال أخرى غير مكلَّف بها. ومن ذا الذى يمكن إيجاده ليحزن تلك القلوب العربية بعقاب مثل عقاب رئيس الدير. لقد أمر باخوم بإحضار الخمسمائة حصيرة التى صنعها الطاهى وألقى بها فى النار!

الفصل السادس

التعميد

القاعدة فى الكنيسة هى تعميد الطفل الذكر فى اليوم الأربعين من مولده والأنثى فى اليوم الثمانين، ولا بد أن يجرى التعميد داخل الكنيسة باستمرار، إلا إذا كان الطفل يحتضر؛ ففى هذه الحالة يمكن أن يكون التعميد فى البيت. وفى حالة المرض تصبح الحاجة إلى التعميد ملحة جدًا، ذلك أن الاعتقاد الشائع هو أن الطفل الذى يموت دون أن يُعمَّد سوف يكون أعمى فى الجنة. وليس هناك ذكر بحال من الأحوال لروح الطفل المحروم من الجنة.

ليس هناك تشدد فى الالتزام بقاعدة اليوم الأربعين أو اليوم الثمانين؛ فالواقع أن هناك يومين فى العام باتا يُختاران على نطاق واسع باعتبارهما الأنسب لهذه الشعيرة. فالأحد قبل الأخير من الصوم الكبير ويوم عيد الصليب فى النصف الثانى من شهر سبتمبر يُسميان يومى التعميد. وكان يُظن منذ أقدم عصور الكنيسة أن موسم عيد الغطاس مناسبًا؛ ويستحم الرجال جميعًا يوم عيد الغطاس التماسًا للنعم الخاصة. وقبل هذه الشعيرة لا بد للكاهن والطفل (أو المعتنق للدين حديثًا) أن يصوم. وفى حال معتنق الدين لا بد من سهر الليل فى القراءة والصلاة.

قُدَّاس التعميد هو أغرب دليل على النزعة المحافظة الصارمة التى لا يحكمها العقل لدى الكنيسة الشرقية فيما يتعلق بالاحتفاظ بشعائرها القديمة.

لا بد أن الجزء الأول من قُدَّاس التعميد قد تكوَّن فى أقدم أيام المسيحية التبشيرية؛ ذلك أنه ينطبق فقط على من اعتنقوا الدين من الوثنيين الذين لا بد

[illegible]

بعد ذلك يأخذ الزيت الأول ويصبه فى جرن المعمودية ثلاث مرات على الصليب، ويرشم الماء أربع مرات أخرى بإصبعه، من الشرق للغرب ومن الشـ إلى الجنوب.

يبارك الكاهن بعد ذلك الماء، الذى لا بد أن يكون «حيًا» وباردًا،(1) البخور والدعاء بأن يمنح الرب القوة للطفل وأن يدمر هذا الماء القوى المعا وأن يطرد الأرواح الشريرة، وأن يُقضى على كل السحرة والسحر وصلوا الأوثان.

ينفخ بعد ذلك الكاهن فى الماء ثلاث مرات على شكل صليب، مع الدعا جديد بأن يكون ماءً مقدسًا، وماءً يزيل الخطيئة، وماء غُسْل الميلاد الثانى. «لا تجعـ فى هذا الماء روحًا نجسة، ولا تجعلها تنزل مع من سيُعمَّد، ولا تجعل فيها روح النهار، ولا روح الظهر، ولا روح المساء، ولا روح الليل، ولا روح الهواء، ولا روح الغرق ـ فلتسحق جميعًا أمام علامة صليبك، وأمام اسمك المقدس».

بعد ذلك يأخذ الكاهن الميرون المقدس ويصبه فى الجرن ثلاث مرات على شكل الصليب. وبينما يحرك الماء بيده يتلو فقرات من المزامير.

يأخذ الكاهن الطفل العارى من الشماس وبينما يرفعه لأعلى ينفخ فى وجهه على شكل الصليب ثم يعمده. والغمر الثلاثى هو الشكل الوحيد المعترف به فى الكنيسة القبطية؛ أما نثر الماء فغير مقبول إلا فى حالة الضعف الشديد.

يضع الكاهن يده اليمنى على رأس الطفل، ويؤدى بيده اليسرى عملية الر والتغطيس الثلاثية. فى المرة الأولى يُغَطَّس الطفل باسم الأب حتى وسطه، وفى الثانية باسم الابن حتى رقبته، وفى الثالثة باسم الروح القُدُس يغطى الماء رأسه.

بعد التعميد مباشرة يجب حل الماء، أو إلغاء قدسيته؛ ذلك أنه بينما يصب الكاهن بعض الماء على يديه، وعلى الجرن وما يحيط به، يدعو أن يعود الماء إلى طبيعته الأولى، وأن يعود إلى الأرض.

---

(1) فى الحالات القصوى من الضعف يُسمح بقليل من الدفء.

بعد أن يأخذ الميرون ويصلى عليه فى الهيكل، ها هو يثبت عماد الطفل. فهو يدهن، مع تلاوة دعوات خاصة، جبهة الطفل وعينيه ومنخريه وفمه وأذنيه ويديه وجانبيه وصدره وركبتيه وبطن قدميه وظهره وذراعيه قائلًا «تَلَقَّ الروح القُدُس، ولتكن وعاءً طاهرًا، بعون الرب يسوع المسيح». وهذا عمل مقصور على الكنيسة القبطية، ويبدو أنه يشير إلى أنه لكى يكون للدهن بالميرون أثره لا بد من نفخ الكاهن؛ أو كما يقول أحد الحُجَج، فإن تثبيت العماد الصحيح فى الكنيسة القبطية هو نفخ الكاهن، وصيغته الكلامية هى «تلقى الروح القُدُس».

بعد دهن اليدين لمباركتها، ينزع الكاهن غطاء الطفل ويلبسه رداءً أبيض، ويربطه بالحزام المقدس، أو الزنار، ثلاثى الألوان؛ والحزام أمر تتفرد به الكنيسة القبطية. يبارك الكاهن تاجًا ويضعه على رأس الطفل. وهذه الأعمال ترمز إلى خلع الإنسان القديم ولبس الجديد، ويرمز الخصر المطوق بالحزام إلى دخول السِّباق المسيحى، أما التاج فهو ما يوعد به الفائزون.

يؤتى بالطفل إلى الهيكل، ويُقام القُدَّاس للطفل، وتُعطى قطرة واحدة من الخمر الذى نُقع فيه الخبز فى حالة الأطفال؛ إذ يغمس الكاهن إصبعه فى الكأس ويضعها على لسان الطفل.

أثناء هذا الوقت الطويل تكون نسخة من الإنجيل فى صندوق مُحكم موضوع على حامل فى مكان التعميد وحولها شموع مضاءة. وبما أننى رأيت ذلك كثيرًا فى القاهرة، فقد يكون مسموحًا لى بإعطاء فكرة عن المفهوم المادى لقدسية الكتاب المقدس التى وُلِدت فى هذا المكان نفسه. فقد أخرجت الجنيزة بالقاهرة محصولاً وفيرًا من نسخ الكتاب المقدس القديمة التى على قدر كبير من القيمة. وكانت النسخ محفوظة فى أماكن دفن مقدسة عن طريق وضعها فى صناديق معدنية.

فى البداية لم يكن مفهوم القداسة المادية هذا معروفًا فى المسيحية. ولكن الناس تبنوه فى وقت مبكر جدًا، وأصبح الكتاب المقدس أمرًا محرمًا العبث به. وكان ذلك على نحو خاص هو ما جرى مع الأناجيل، التى أصبحت هى والخبز

المقدس وصور المسيح تحظى بالتقدير باعتبارها تأكيدات للوجود المقدس لـ
المعجزة.

نرى هناك المكان الذى ما زال مخصصا له فى الكنيسة القبطية، حيث بحـ
قرار المجالس القديمة بضرورة أن تكون الأناجيل، باعتبارها ممثلاً للمسيح، مو
التقدير. وعند تكريس الأسقف توضع الأناجيل على رأسه كوسيلة للاتصال با
القُدُس وحلول المسيح.

يحمل رجال الدين الطفل بعد ذلك ويطوفون به ثلاث مرات فى أنحاء الكـ
وقد ارتدوا ملابسهم الكهنوتية الكاملة، ويتبعهم خدم الكنيسة حاملين الشمو
بينما يدق أفراد جوقة الترتيل الأجراس والمثلثات ويضربون الصنوج.

يحصل الأطفال على اسم ثانٍ عند التعميد، وعادة ما يكون هذا الاسم مو
قديس ذلك اليوم، إلا إذا كان الأبوان يرغبان فى اسم قديس مفضل لديهما. و
أسماء التعميد الشائعة جرجس بالنسبة للأولاد وماريا أو مريم للبنات.

فى اليوم الثامن بعد التعميد يُقام طقس فك الحزام فى مكان التعميـ
بالكنيسة. يوضع وعاء به ماء طاهر على حامل الإنجيل ويوضع على حا
صليب، وتُضاء الشموع حوله. يُطلق البخور وتتلى هذه الأجزاء من الكتا
المقدس:

رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (١٠: ١-٤)

صلاة الثلاث تقديسات[1].

الدعاء أمام الإنجيل.

المزمور ١١٤: ٣ و٥.

---

(١) «قدوس الله، قدوس القوى، قدوس الحى الذى لا يموت، الذى وِلدَ من العذراء، ارحمنا. قدوس الله، قدوس القوى، قدوس الحى الذى لا يموت، الذى صلب عنا، ارحمنا. قدوس الله، قدوس القوى، قدوس الحى الذى لا يموت، الذى قام من الأموات وصعد إلى السموات، ارحمنا. المجد للآب والابن والروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين. أيها الثالوث القدوس ارحمنا. أيها الثالوث القدوس ارحمنا. أيها الثالوث القدوس ارحمنا». (المترجم).

إنجيل متى، ٣: ١٣-١٧.

الابتهالات الثلاثة ودستور الإيمان[1].

بعد صلاة خاصة، يرشم الكاهن، الذى يزيل الحزام ويغسل الطفل وملابسه الماء ثلاث مرات.

هناك حكاية قبطية من القرن الرابع - ربما خرجت فى الوقت الراهن من إحدى القرى - وهى لا تبين فقط الأهمية المتصلة بالتعميد، بل تدل كذلك على الأمل غير المحدود لدى أهل الشرق فى رحمة الرب. كان لرجل ما يعيش نائيًا عن العالم ابنة صغيرة ماتت قبل أن يتمكن من تعميدها. وزع أبوها النصيب الذى يخصها على الفقراء، ولم يتوقف عن التوسل إلى الرب نيابةً عن ابنته لأنها رحلت عن العالم دون تعميد. وبينما كان يصلى فى يوم من الأيام سمع صوتًا يقول: «لا تحزن، لقد عمدت ابنتك». ولكنه لم يصدق ما سمعه. وتحدث إليه الصوت مرة أخرى قائلاً: «اكشف قبرها، وسوف تجد أنها لم تعد موجودة فيه». وكشف القبر ولم يجدها، لأنها رحلت، ووضعت مع المؤمنين.

---

(١) الإيمان: بالحقيقة أؤمن.
الله الآب: بإله واحد، الله الآب، ضابط الكلّ.
الخلق: خالق السماء والأرض، ما يرى وما لا يرى.
يسوع المسيح: وبرب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، واحد مع الآب فى الجوهر، الذى به كان كل شىء، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء.
التجسد: وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنّس.
الفداء: وصُلِب عنّا على عهد بيلاطس البنطى، وتألّم، وقُبر، وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب، وصعد إلى السماوات وجلس عن يمين الآب.
الدينونة: وأيضًا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات، الذى ليس لملكه انقضاء.
الروح القدس: نعم أؤمن بالروح القدس، الرب المحيى، المنبثق من الآب قبل كل الدهور.
الثالوث القدوس: نسجد له ونمجده مع الآب والابن، الناطق فى الأنبياء.
الكنيسة: وبكنيسة واحدة، مقدسة، جامعة، رسولية.
المعمودية: وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا
القيامة: وأنتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى. (المترجم).

…حاد التثبيت والتعميد مقصور على الكنيسة القبطية، بالإضافة … الميرون المقدس للتثبيت، وكذلك تمتع الكاهن بسلطة التثبيت … ويؤكدون هنا أن الأقباط حافظوا على التعاليم الأولى للكنيسة … تخلى عنها الفرع الغربى.

يُمارس ختان الذكور بصورة عامة فى هذا البلد، ولكن نادرًا ما … القاهرة. وتحظر الكنيسة إجراءه بعد التعميد حظرًا واضحًا لسبب … تعلن بطلان التقديس بعد إجراء هذه العملية؛ ولكن أهل الريف لا يهتمون … القاعدة، حيث يلتزم أغلبهم بقاعدة الأغلبية المسلمة، وهى الانتظار حتى … عامه الخامس أو السادس حيث يجرى الختان حلاق القرية الرسمى … طابع العملية تغييرًا طفيفًا فى حالة الأقباط ـ ويحتفلون به كاحتفال … ما يُختار شهر سبتمبر لتلك الاحتفالات، لأن حصاد المحاصيل يكون قد أتى … بثروة بعد ما قاموا به من عمل.

تبنى الإسلام هذه العادة؛ ذلك أن الختان كان طقسًا مصريًا يعود إلى … قبل إبراهيم. وهو يظهر على الآثار القديمة، وتدل المومياوات على هذه الحقيقة … وهو مذكور فى سفر الخروج ومن المهم أن نتذكر أن إسماعيل ابن هاجر المصرية … كان هو أول من ختنه إبراهيم قبل أن يولد إسحاق بفترة طويلة.

ويؤمن به الأقباط إيمانًا قويًا على أسس صحية؛ فهم يؤمنون بأنه وقاية … السرطان، أو بأنه علاج حين يُجرى فى مرحلة لاحقة من حياة الشخص. ويعالج … الجرح بلحاء شجر الرمان المسحوق. وبالنسبة للمسلمين لا يكون مسموحًا للطفل … بالصلاة فى المسجد إلا بعد إجراء هذا الطقس.

وهذه مناسبة لاحتفال كبير يبدأ فى الليلة السابقة، حيث تُعجن الحنة التى تكوَّر … على هيئة قطع وتوضع على صينية وقد غُرِست فى كل منها شمعة. ويحدث هذا فى … المناطق الريفية على نحو خاص. ويمشى الطفل المحتفى به خلف صينية الحنة فى … أنحاء المنزل بينما تغنى النساء جميعًا أغانى شعبية ويزغردن إبداءً للفرحة. وقبل أن … يجلس الطفل ليستريح يقبض على قطعة من الحنة فى راحة يده، وكذلك تفعل

النساء. وتكون النتيجة أن تصبح راحات أيديهم مخضبة بلون بنى يميل إلى الاحمرار فى صباح اليوم التالى.

فى يوم الختان يرتدى الصبى أفخر ملابس ممسكة، تؤخذ من كنوز الحريم، إشارة إلى أنه حتى هذه اللحظة ينتمى إلى النساء. وتوضع على رأسه طاقية موشاة بالقصب كتلك التى تلبسها النساء، ويركب على ظهر حصان متباهيًا ويسير فى موكب رائع فى شوارع البلدة أو القرية، مع الموسيقى وإطلاق الأعيرة النارية من البنادق التى لا تكتمل بدونها «الفنتازيا».

وهناك بالطبع وليمة جميلة يقدمها الأب؛ ويساهم الضيوف فى أجرة الحلاق، الذى هو شخص يُعيَّن بشكل صحيح فى كل مجتمع. وفى ذلك تعقيب لافت للنظر على ما يقوله من يبدو أنهم يجدون متعة فى تعميق العداء بين المسلمين والأقباط؛ إذ إن هذا الحلاق نفسه، بغض النظر عن ديانته، هو الذى يقوم بهذا الطقس للمجتمع كله.

الفصل السابع

اختيار الزوجة

ما زالت تشيع حتى الآن تلك العادة القبطية القديمة القائمة على أن من واجب الوالدين تزويج أبنائهما وبناتهما بمن يظنان أنها مناسبة أو أنه مناسب، دون الرجوع إلى أبنائهما وبناتهما أنفسهم، ما عدا فى المدن داخل الأسر التى على قدر عالٍ من التعليم. أما فى الريف، حيث لا تزال العادات الأبوية القديمة كما هى بلا تغيير، فما زال الشباب لا رأى لهم فى هذا الأمر، والواقع أن الزيجات تُرَتَّب قبل بلوغ الأطفال سن الزواج بزمن طويل.

هناك اتجاه نحو تغيير عام: لم يعد الناس يظنون أنه من المناسب تزويج الأطفال أبناء الخامسة عشرة لفتيات فى الثانية عشرة، كما كان يحدث قبل نصف قرن. وتصر الكنيسة الآن على أن يكون الرجل فى العشرين والفتاة فى السادسة عشرة؛ ولا يقيم كاهن شعائر الزواج بدون ترخيص من البطريرك أو أسقف الأبرشية.

هناك تقدم آخر أحدثته الكنيسة كذلك، من خلال مرسوم البطريرك. فقد كان هناك فصل حازم بين الجنسين، بحيث لا يرى أى رجل أية امرأة خارج درجة القرابة الوثيقة.

يعتقد الكثير من الأقباط أن هذا الفصل يعود فقط إلى الغزو العربى ـ ذلك الحدث الذى يعد كبش الفداء على نحو خاص لكل الرجال الجديرين بالتصديق الذين يسعون إلى تزكية السباق القبطى عند الإنجليز المهيمنين ـ ولكنهم مخطئون خطأ جليًّا، كما يبين لهم الكتاب المقدس وحده ذلك. فقد كان واحدًا من آبائهم

الأوائل، هو الأنبا أرسينوس، الذى وبخ سيدة نبيلة سافرت من روما [illegible] الإسكندرية قائلاً: «ألم تكونى تعرفين أنك امرأة، وأنه محظور عليك [illegible] أى مكان؟» فكما هو الحال بالنسبة للحجاب، كان الفصل بين الجنسين فى [illegible] باستمرار مسألة عادة، وليس مرسومًا.

مع انتشار التعليم، ومن خلال الاتصال فى المدن بالحضارة الغربية والإنجليزية، زحف التراخى فى تطبيق هذه القاعدة إلى بعض الدوائر المحدودة، مما أدى إلى التقاء الشبان والشابات، وفى بعض الحالات يرفض[illegible] الاستمرار فى الخطوبة التى تمت لهم من قبل. أو ربما يحدث بعد الزواج [illegible] يجدوا شخصًا مناسبًا أكثر لأن يكون زوجًا أو زوجة لهم. وقد أدى ذلك فى بعض الحالات إلى حدوث احتكاكات داخل العائلات؛ ذلك أن إهانة فك الخطوبة كان[illegible] باستمرار سببًا فى إثارة أشد العداوات، وفى حالات أخرى كانت النتيجة [illegible] الفجور.

عملاً بنصيحة حكيمة - أصدر البطريرك توجيهًا إلى كل رجال الدين يفيد بأ[illegible] ليس مخالفًا لقوانين الكنيسة أن يرى الشبان والشابات المخطوبين بعضهم، ولكن يجب أن يجرى ذلك فى ظل ظروف مناسبة كى يعرفوا بعضهم معرفة جيدة؛ وعلى الذين يعلنون أنه رجعى إلى حد بعيد أن يتذكروا ذلك. بل إنه أعلن أن على الكهنة القيام بواجب التأكد من تطبيق هذه القاعدة، وألَّا يعقدوا قرانًا قبل التأكد من الطرفين أنهما موافقان عليه بملء إرادتهما.

ما زال الشاب الذى يسعى للزواج يعمل من خلال الوسطاء، ولا يتقدم مباشرةً للفتاة؛ ويكاد لا يمكن للفتاة إن لم يكن هذا الأمر غير معروف بالمرة أن تتزوج بدون موافقة والديها.

يمكن أن أشهد على أن هناك الكثير من الزيجات السعيدة بين الأقباط، وإن لم يمكننى القول بأنها مقصورة على الجيل الصغير؛ فالأدلة تشير إلى أن الزيجات التى جرت بناءً على نصيحة الآباء كانت فى عمومها زيجات ...حة.

أعلم أن الغربيين لا يعتبرون أنه من الممكن البحث بين الشرقيين عن قصة داربى وجوان(١). لقد كنا مخطئين تمامًا فى ذلك. فأنا أعرف الكثير جدًا من الأزواج فى مصر، مسلمين ومسيحيين، تزوجوا وهم أطفال، ووصلوا معًا بسعادة إلى سن النضج يجمعهما الحب والاحترام الذى يتزايد باستمرار السيدة الكبيرة هى الحاكم الوحيد فى الحريم الذى يجد الزوج متعة فى إثرائها بالهدايا الثمينة التى تبعث على السرور، ولذلك فهو حتى الآن الجزء الأكثر فخامة فى البيت. هنا الزوجة هى صاحبة الكلمة العليا، وبمرور السنين أصبح الحرملك مأوى الزوج المفضل، وكذلك الحال بالنسبة لأبنائه الكبار الذين يعاملون أمهم بكل ما يدل على التبجيل والاحترام القائم على الحب.

عند زيارتى لباشا متقدم فى العمر فى القاهرة، وهو رجل ذو ثروة كبيرة، أصبح الأمر نوعًا من النكتة بينى وبين خادمه الموثوق فيه أن سيده موجود فى الحرملك باستمرار؛ وبما أنه مسموح لزوجتى بدخول الأماكن المحظورة على الرجال الغرباء، فقد سمعت الكثير عن الزوجة العجوز اللطيفة، والحياة الأسرية الساحرة التى هى السيدة فيها. وما هذه إلا حالة واحدة من كثير تتناقض مع التصورات الشهوانية عن الحرملك التى أخشى أن يفضلها الغرب على الحقيقة المجردة.

أتمنى لو كان بإمكانى الظن بأن هذه التغيرات فى عادات الزواج القبطية أدت إلى زيادة فى الفضيلة. ولكن ما يؤسف له أن الحضارة الغربية التى أوحت بها أتت فى أعقابها بشرور اجتماعية لم تكن معروفة من قبل تقريبًا. وقد أعلن اللورد كرومر أن حيًا فاسدًا من أحياء القاهرة يعد «مقبرة لأفضل كنوز مصر»؛ وهى المقبرة التى حفرها بالكامل تقريبًا الأوروبيون، وخاصة القادمين من شرق المتوسط.

وفيما يتعلق بتأثر الأقباط، هناك الكثير من العبارات المضلِّلة. وليس صحيحًا

---

(١) داربى وجوان زوجان عفيفان على النمط القديم. ويعود الاسمان إلى قصيدة غنائية كتبها هنرى ودفول. وشخصيتا القصيدة هما چون داربى من بارثلميو كلوز الذى توفى عام ١٧٣٠ وزوجته «العفيفة كأنها تمثال قُد من مرمر. وقد تحركُ حجرًا سيئًا أسرع من أن تشعلَ النارَ فى صدرها». وظهر فى عام ١٩١٢، قبيل كتابة هذا الكتاب، فيلم أمريكى صامت حمل اسميهما بطولة ماى بكلى وهارى مايرز (المترجم).

كذلك أن نقول، كما قال إدوارد لين ضمن تلك الافتراءات الشريرة عن الأ[illegible] تعد العيب الوحيد فى الكتاب الذى أصبح بجدارة أحد الكتب الكلاسيكية العظ[illegible] إن الأقباط «استرسلوا فى الانغماس فى المتعة الحسية»؛ أو أن تصدر عن [illegible] شديدة السخافة كتلك التى صدرت عن كاتبة معاصرة تذكر ما تقول إنها [illegible] وهو: «لا ينبغى أن ننسى أنه ليست هناك امرأة قبطية من العامة لها شخصية [illegible] كلها. ...فالمرأة التى فقدت عفتها تخفى عارها بالدخول فى الإسلام».(٢)

هذه العبارة غير الصحيحة على نحو مضحك اقتبسها كل كاتب من بعد[illegible] وخاصة هؤلاء المنحازين ضد المسيحيين، بغض النظر عن كون أكثر المط[illegible] فضائح فى القاهرة تحمل اسمًا جعلته شهيرًا بحيث إننى لم ألتقِ بشخص ذكر [illegible] مكان من الوجه البحرى لا يعرفه ـ وهو شفيقة القبطية. ونتذكر قصة تاييس العاهرة(٣)

---

(١) The Modern Egyptians. E.W. Lane (written in 1833-1835).

(٢) Things seen in Egypt. E.L. Butcher.

(٣) نشأت تاييس بالإسكندرية يتيمة الأب، وكانت والدتها غير حكيمة استغلت جمال ابنتها ال[illegible] فألحقتها بعمل فى السوق العام لتكسب الكثير، خاصة وأن الفتاة كانت ذلقة اللسان لبقة الع[illegible] تعرفت على أغنياء المدينة الذين قدموا لها الكثير عند قدميها من أجل شهواتهم الدنسة، ومك[illegible] اشتهرت تاييس كإحدى الساقطات، تفتح بيتها للأغنياء الأشرار. مع القديس بصاريون إذ سمع عن[illegible] القديس بصاريون أحد شيوخ برية شيهيت الكبار، وكيف صارت تاييس علة سقوط الكثيرين اشتاق [illegible] نفسه إلى خلاصها، فقدم صلوات كثيرة بدموع ومطانيات مع أصوام من أجلها لكى ينتشلها الله م[illegible] هذه الهوة. تخفى القديس بصاريون وطلب مقابلتها، وإذ دخل حجرتها دار بينهما الحديث التالى: أ[illegible] يوجد مكان أكثر عزلة أستطيع أن أحدثك فيه بحرية؟ يوجد، لكن لا جدوى من الذهاب إليه، لأنك إ[illegible] كنت تستحى من الناس فإنه فى هذه الغرفة لا يرانا أحد، أما إذا كنت تخشى عين الله فليس عندى غرفة لا يراك فيها. هل تعرفين أن الله موجود، وأنه توجد مكافأة للفضيلة ومجازاة عن الخطية؟ فإن كنت تعرفين أنه يوجد حكم ودينونة، كيف تتسببين فى هلاك كل هذه النفوس؟ لأنه من أجل هذه النفوس الكثيرة سيكون عقابك أكثر. إذ شعرت تاييس بجدية الحديث، وتلامست مع نعمة الله الغنية، امتلأت خجلاً، ثم سقطت على الأرض لتنفجر فى البكاء بلا توقف، وهى تقول: «يا أبى، السماء هى التى أرسلتك. إنى أعلم أنه توجد توبة للذين يخطئون. أريد أن أترك الحياة النجسة التى سلكت فيها منذ زمن بعيد. أرجوك أن تساعدنى على خلاص نفسى، وسأطيع أوامرك بكل دقة، ومهما قلت من أمر سأفعله». علمت تاييس أن هذا الأب كان أحد خدام الله الذين عرفتهم فى طفولتها المبكرة. صدق[illegible] توبتها تهللت نفس القديس بصاريون جدًا إذ رآها صادقة فى توبتها، واتفق معها على موضع يلتقيان فيه. انصرف الأنبا بصاريون ومسحت تاييس دموعها، وأخذت تجمع ملابسها وكل أمتعتها، وجاءت=

والحياة القبطية فى زمانها. يا لها من إدانة رهيبة تلك الصادرة عن ناقد معاصر حين يقول إن مبالغ كثيرة من عائدات الكنيسة القبطية مأخوذة من أملاك فى حى الفسق بالقاهرة.(١)

أظهرت لى ملاحظتى حقيقة حكم اللورد كرومر الناضج، كما ينطبق على هذا الأمر على نحو خاص، وهو أن الأقباط على المستوى نفسه الذى عليه سائر المصريين.

ومع ذلك فإنى أعتقد أنه إذا تحققت آمال استعادة الحياة الروحية للكنيسة بأية درجة، فسوف يحدث تغير كبير جدًا فى حياة هؤلاء الناس الأخلاقية. ولا يشك أحد رأى حماس وتدين هؤلاء الشبان الذين ترعرعوا فى ظل هذه الحركة الإصلاحية فى كونهم ذرية هؤلاء الرجال والنساء الذين أدى حبهم للتقوى والورع فى أيام المسيحية الأولى إلى واحدة من أبرز الحركات الروحية التى شهدها العالم، وهى تأسيس نظام الرهبانية.(٢) وإذا كان لنبى أن يظهر فى الكنيسة نفسها ـ وفى الشرق هناك باستمرار جو من الترقب لذلك ـ سوف يكون هناك حصاد أخلاقى وروحى هائل. ولا يماطل

= بها إلى السوق فى وسط المدينة وأشعلت فيها النيران، وهى تقول: «تعالوا يا جميع رفاق السوء وانظروا، إنى أحرق أمام أعينكم كل هداياكم وتذكاراتكم وكل ما جمعته فى حياتى الشريرة..». انطلقت إلى القديس بصاريون ليرشدها، فأتى بها إلى بيت للعذارى حيث أخذت قلاية صغيرة كانت تتعبد فيها ليلاً ونهارًا بنسكٍ شديدٍ. مع الأنبا أنطونيوس بعد ثلاث سنوات التقى القديس بصاريون بالقديس أنبا أنطونيوس الكبير، وروى له قصة تاييس التائبة، وسأله إن كان الله قبل توبتها أم لا. طلب القديس أنبا أنطونيوس من بعض تلاميذه أن يصلوا لكى يكشف لهم الرب أمرها. وبالفعل رأى القديس بولس البسيط كأن كرسيًا مجيدًا لم يجلس عليه أحد بين كراسى القديسين، أمامه ثلاثة ملائكة يمسك كل منهما سراجًا وإكليلاً بهيًا ينزل عليه. إذ رأى القديس بولس ذلك قال: «هذا العرش لتاييس». فى الصباح انطلق القديس بولس يروى للقديس أنبا أنطونيوس رؤياه، وإذ سمعها الأنبا بصاريون فرح جدًا واستأذن منصرفًا، ومضى إلى بيت العذارى ليخرج تاييس من قلايتها الصغيرة الحبيسة فيها، أما هى فبانسحاق ترجته أن يتركها فيها حتى يوم انتقالها. لم تبقَ فى القلاية سوى حوالى أسبوعين، حيث مرضت وأسلمت روحها فى يدىْ الله، وقد تركت لنا مثالاً حيًا لعمل الله الفائق فى حياة الإنسان مهما كانت شروره ونجاساته.(www.St-Mina.com) (المترجم).

(١) Egyptian Gazette. Dec. 2. 1913.

(٢) يعتبر العالم الأنبا أنطونيوس «أبا السرة الرهبانية» ومؤسس الحركة الرهبانية فى العالم كله (فى القرن الثالث الميلادى) بالرغم من وجود حركات رهبانية سابقة له. (المترجم).

الشرقي، مهما كانت ديانته، إذا سُمع النداء واضحًا إلى الحياة الأعلى... روحه؛ فهو يترك كل شيء ليلبي هذا النداء.

بالنسبة للنهوض بالنساء، الذي نأمل أن تكون الريادة فيه للأقباط، دعوني أ... لكم تلك القصة الجميلة، باعتبارها أمثولة، عن قديسة قبطية من دير للراهبات... باخوم المبارك في مصر.

كانت في الدير أخت عذراء جعلت نفسها موضع ازدراء؛ فقد كانت... الأخوات يعاملنها بتحقير إلى حد أنهن كن لا يسمحن لها بالأكل معهن، وكانـ... المرأة راضية إلى حد كبير بتلك المعاملة، حتى أنها كانت تخدم الجميع في... الطعام. وبذلك أصبحت «مكنسة الدير كله».

كانت تلك الأخت تضع على رأسها قطعة من القماش الخشن، بينما كانـ... الراهبات الأخريات يضعن حجابًا تبعًا لملة كل منهن قُص بشكل جيد وحيك... نحو طيب. وكانت تأكل بمفردها، ولم تكن أي منهن تنظر إليها، ولم تلمس رغيف... خبز كامل قط؛ بل كانت تأكل اللقم والفتات الذي يسقط على الطاولة، وكانـ... تشرب ما تبقى في قصاع الراهبات الأخريات.

ومع أن النساء الأخريات كن يسئن لها القول باستمرار، ويضربنها، ويلقين غسول... الأواني عليها، ويبعدنها عنهن بالكلمات القاسية والمهينة، فهي لم تسء القول لأ... واحدة منهن، ولم تتذمر، ولم تنطق بأية كلمات زائدة.

في ذلك الوقت كان في مصر قديس، «رجل كرامات»، يسمى بيتيريوس، وظهـ... له ملاك وقال: «إن كنت تريد أن ترى قديسًا أفضل منك، اذهب إلى الدير الذي في... تابينا، وهناك سترى من هو أسمى منك». وذهب بسرعة ورجا رئيسة الدير أن يرى... الراهبات. ولأنهن كن يعرفن أن بيتيريوس رجل مبارك، فقد جئن يلتمسن بركته؛ لكن تلك التي جعلت من نفسها مجرد مكنسة لم تظهر.

قال بيتيريوس: «هناك واحدة غائبة»؛ ولكنهن قلن إن هناك واحدة أخرى فقط، ...ـه لا وزن لها. ولذلك بحثن عنها في صالة الطعام، ولكنها أبت أن تذهب معهن، ...جعلهن يسحبنها بمعاملتهن المعتادة لها.

وعندما رآها مار بيتيريوس انحنى أمامها وقال: «باركيني أيتها الأم!» ولكنها جثت عند قدميه باكيةً وقالت: «باركني يا سيدي!» وأصابت الدهشة الراهبات ورجونه ألّا يهين نفسه - فتلك مخلوقة دون الاحتقار. وحينذاك قال بيتيريوس: «أنتن أنفسكن مخلوقات دون الاحتقار؛ ولكن هـذا المرأة أمكم، وأمي، وإني أرجو أن يهبني الرب قسمًا معها يوم القيامة».

أقدم هـذه القصة للشعب القبطي، الذي كانت هذه القديسة الجميلة تنتمي إلى كنيسته. ومـا توحي به فيما يتعلق بمسألة المرأة واضح - للعقول الشرقية - بوجه خاص - بحيث لا يحتاج إلى تعليق.

بمجرد الحصول على موافقة الأسرتين على الخطوبة، يرسل الشاب إلى الفتاة، عن طريق الكاهن، خاتمًا من ذهب، وقد يكون مرصعًا بالماس، يسمى «الشَّبْكَة»، ويحدد يومًا قريبًا للخطوبة الرسمية. وتُسمى هذه المراسم «جبنيوت»، وهي الكلمة التي تعني «أبانا» في الصلاة الربانية.(١) وفي مساء اليوم المحدد، يذهب العريس وعدد من أقاربه وأصدقائه مع الكاهن إلى منزل العروس، حيث يتجمع أقاربها لاستقبالهم.

يبدأ الكاهن الإجراءات بتلاوة الصلاة الربانية، التي لا تزال تُستخدم في كل المناسبات فيما يشبه طلاسم المسيحيين الأوائل، حيث ينضم إليه كل الحاضرين. وبعد ذلك يلقى الكاهن خُطْبَة رسمية قصيرة، مشيرًا إلى قِدَم المراسم، ويلمح إلى خِطْبَة رِفْقَة لإسحاق.(٢)

يُكتب عقد القران؛ ولا بد أن تُدفع الدوطة(٣) المذكورة فيه، ويُذكر تاريخ العُرس في العقد. ويوقع الكاهن والأشخاص المهمون الحاضرون الآخرون على الوثيقة،

---

(١) «أبانا الذي في السموات. ليتقدس اسمك. ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك؛ كما في السماء، كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا؛ أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين» (المترجم).

(٢) أوصى إبراهيم أن لا يتزوج إسحاق إلا امرأة من أهل أبيه وقد كانوا مقيمين في أرض بابل (العراق). ونُفّذت وصية إبراهيم، فتزوج إسحاق عليه السلام رفقة بنت بتوئيل بن ناحور بن آزر، وناحور هذا هو أخو إبراهيم عليه السلام، فتكون رفقة بنت ابن عمه. **(المترجم)**

(٣) البائنة أو المهر عند المسلمين. **(المترجم)**.

الشرقى، مهما كانت ديانته، إذا سُمع النداء واضحًا إلى الحياة الأ... روحه؛ فهو يترك كل شىء ليلبى هذا النداء.

بالنسبة للنهوض بالنساء، الذى نأمل أن تكون الريادة فيه للأقباط، ... لكم تلك القصة الجميلة، باعتبارها أمثولة، عن قديسة قبطية من دير للراهبا... باخوم المبارك فى مصر.

كانت فى الدير أخت عذراء جعلت نفسها موضع ازدراء؛ فقد كا... الأخوات يعاملنها بتحقير إلى حد أنهن كن لا يسمحن لها بالأكل معهن... المرأة راضية إلى حد كبير بتلك المعاملة، حتى أنها كانت تخدم الجميع... الطعام. وبذلك أصبحت «مكنسة الدير كله».

كانت تلك الأخت تضع على رأسها قطعة من القماش الخشن، ... الراهبات الأخريات يضعن حجابًا تبعًا لملة كل منهن قُص بشكل جيد و... نحو طيب. وكانت تأكل بمفردها، ولم تكن أى منهن تنظر إليها، ولم تلمس... خبز كامل قط؛ بل كانت تأكل اللقم والفتات الذى يسقط على الطاولة، و... تشرب ما تبقى فى قصاع الراهبات الأخريات.

ومع أن النساء الأخريات كن يسئن لها القول باستمرار، ويضربنها، ويلقين ... الأوانى عليها، ويبعدنها عنهن بالكلمات القاسية والمهينة، فهى لم تسء القول لـ... واحدة منهن، ولم تتذمر، ولم تنطق بأية كلمات زائدة.

فى ذلك الوقت كان فى مصر قديس، «رجل كرامات»، يسمى پيتيريوس، و... لـه ملاك وقال: «إن كنت تريد أن ترى قديسًا أفضل منك، اذهب إلى الدير الذى ... تابينا، وهناك سترى من هو أسمى منك». وذهب بسرعة ورجا رئيسة الدير أن ير... الراهبات. ولأنهن كن يعرفن أن پيتيريوس رجل مبارك، فقد جئن يلتمسن بركـ... ولكن تلك التى جعلت من نفسها مجرد مكنسة لم تظهر.

قال پيتيريوس: «هناك واحدة غائبة»؛ ولكنهن قلن إن هناك واحدة أخرى فقط، وإنه لا وزن لها. ولذلك بحثن عنها فى صالة الطعام، ولكنها أبت أن تذهب معهن، مما جعلهن يسحبنها بمعاملتهن المعتادة لها.

وعندما رآها مار پيتيريوس انحنى أمامها وقال: «باركيني أيتها الأم!» ولكنها جثت عند قدميه باكيةً وقالت: «باركني يا سيدي!» وأصابت الدهشة الراهبات ورجونه ألّا يهين نفسه - فتلك مخلوقة دون الاحتقار. وحينذاك قال پيتيريوس: «أنتن أنفسكن مخلوقات دون الاحتقار؛ ولكن هذا المرأة أمكم، وأمى، وإنى أرجو أن يهبنى الرب قسمًا معها يوم القيامة».

اقدم هذه القصة للشعب القبطى، الذى كانت هذه القديسة الجميلة تنتمى إلى كنيسته. وما توحى به فيما يتعلق بمسألة المرأة واضح - للعقول الشرقية - بوجه خاص - بحيث لا يحتاج إلى تعليق.

بمجرد الحصول على موافقة الأسرتين على الخطوبة، يرسل الشاب إلى الفتاة، عن طريق الكاهن، خاتمًا من ذهب، وقد يكون مرصعًا بالماس، يسمى «الشَّبْكَة»، ويحدد يومًا قريبًا للخطوبة الرسمية. وتُسمى هذه المراسم «جبنيوت»، وهى الكلمة التى تعنى «أبانا» فى الصلاة الربانية.[1] وفى مساء اليوم المحدد، يذهب العريس وعدد من أقاربه وأصدقائه مع الكاهن إلى منزل العروس، حيث يتجمع أقاربها لاستقبالهم.

يبدأ الكاهن الإجراءات بتلاوة الصلاة الربانية، التى لا تزال تُستخدم فى كل المناسبات فيما يشبه طلاسم المسيحيين الأوائل، حيث ينضم إليه كل الحاضرين. وبعد ذلك يلقى الكاهن خُطْبَة رسمية قصيرة، مشيرًا إلى قِدَم المراسم، ويلمح إلى خِطْبَة رِفْقَة لإسحاق.[2]

يُكتب عقد القران؛ ولا بد أن تُدفع الدوطة[3] المذكورة فيه، ويُذكر تاريخ العُرس فى العقد. ويوقع الكاهن والأشخاص المهمون الحاضرون الآخرون على الوثيقة،

(١) «أبانا الذى فى السموات. ليتقدس اسمك. ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك؛ كما فى السماء، كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا؛ أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا فى تجربة، لكن نجنا من الشرير. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين» (المترجم).

(٢) أوصى إبراهيم أن لا يتزوج إسحاق إلا امرأة من أهل أبيه وقد كانوا مقيمين فى أرض بابل (العراق). ونُفّذت وصية إبراهيم، فتزوج إسحاق عليه السلام رفقة بنت بتوئيل بن ناحور بن آزر، وناحور هذا هو أخو إبراهيم عليه السلام، فتكون رفقة بنت ابن عمه. (المترجم)

(٣) البائنة أو المهر عند المسلمين. (المترجم).

التى يوقع عليها بعد ذلك مكتب الأسقف، وتوضع فى أرشيف الأبرشية ويصد مقابلها تصريح زواج.

تتراوح الدوطة بين ١٠ جنيهات و٢٠٠ جنيه (ويجب ألا تتعدى المبلغ الأخ) تبعًا لثروة العريس. وعمومًا يساهم والد العروس بمبلغ مساوٍ ـ وفى بعض الأ بضعف المبلغ ـ ويُنفق إجمالى المبلغ على شراء الحُلى الجميلة التى يملكها معظ النساء المصريات، أو على جهاز العروس الأكثر خصوصية. وفى الصعيد فقط تو العروس أثاث البيت بالكامل.

والآن تقدم العروس المشروبات ويبتهج الجميع؛ وتقدَّم التهانى والتحيات بلغ الشرق الشاعرية.

فى الفترة السابقة للزواج، التى لا تزيد على أسبوع أو أسبوعين، يُنتظر من الشا أن يرسل هدايا يومية من الزهور أو الفاكهة لعروسه. وإذا تخلل تلك الفترة أعياد مثل عيد الميلاد المجيد أو عيد القيامة، فإنه يرسل إليها ثوبًا وبعض الكعك والحلوى التى لا تؤكل إلا فى مثل تلك المناسبات.

الفصل الثامن

العُرس القبطى

عادةً ما يحتفلون بالأعراس فى ليلة السبت والأحد. ولا يحتفلون بها أبدًا أثناء الصوم الكبير أو أى من أيام الصوم الخاصة بالكنيسة القبطية، إلا فى ظل الظروف الاستثنائية جدًا. ومع أن قليلاً جدًا من الناس الذين يقومون بالصوم الطويل، فما زال هؤلاء يحظرون الزواج فى أكثر من ثلث العام.

وأثناء الصوم الأسبوعى كذلك يُختار يوم الأحد للزواج، حيث إن الأربعاء والجمعة يوما صوم منتظمان؛ وحيث إنه لا بد من تخصيص ثلاثة أيام للاحتفال الصحيح، فالسبت والأحد والاثنين هى الممكنة. وبما أن الزواج أحد الأسرار المقدسة، فهم يظنون أن من المناسب أكثر اختيار اليوم المقدس. ومن المستحيل أن يكون أى عرس يوم الثلاثاء حيث إن هناك خرافة عامة تعتبره نحسًا.

تُسمى الليلة الأولى ليلة العروس، ويُحتفل بها فى منزل والديها؛ ويتحدثون عنها أحيانًا باعتبارها «ليلة الحنة»، لأنه قبل أن تنام العروس تضع الحنة فى راحة يديها وفى بطن قدميها، كى يكون اللون الأحمر الذى تتركه نضرًا فى اليوم التالى. ويُنظر إلى ذلك بطريقة ما على أنه دليل على البكارة.

أثناء ذلك اليوم تذهب العروس وصديقاتها وقريباتها إلى أحد الحمَّامات العامة حيث يكون محجوزًا لهن؛ وهناك يكون مرح كثير، وتلقى العجائز أجمل التحايا على الفتاة، الأمر الذى يسعد أم العروس ويرضيها إلى حد كبير.

فى الليل تُزين بكل بهاء ممكن ـ حتى الفتيات متوسطات الثروة يلبسن تاجًا قيِّمًا

من الماس فى هذه المناسبة ـ ويُقام حفل استقبال يُدعَى إليه كل الأقارب والأصدقا
ويبقى الضيوف حتى تناول العشـاء، ويمضون جزءًا كبيرًا من الليل يستمعون فيه إ
الموسيقى والغناء.

يُزيَّـن المنـزل علـى نحو كبيـر بالزهـور والرايات، وفـى الليل تتلألأ الأنوار، حيـ
يُستأجر النجف اللامع المتلألئ لهذه المناسبة. وتشغل النساء الطوابق العليا، أما الطابـ
الأرضـى فيخصص للرجال. وفـى أغلب الحالات يُقام سُرادِق جميل، مزين بزخارف
الخيامية كثيـرة الألـوان ويُعلَـق داخله نجـف لا حصر له يوقد بالشموع، فـى الفنا
الحديقة، أو حتى فى الشارع لاستخدام الرجال، حيث يُترك المنزل بالكامل للنساء.

يعـد الطعـام طهاة خاصـون يؤجرون لهذه المناسبة. وقد وصفت من قبل ولبمة
شـرقية، حيث تقدم علي صوانٍ معدنية مستديرة توضع على كراس، ويأكل الضيوف
بأصابعهـم. وغالبًا مـا تُقام هذه الولائم الشـرقية فى المناسبات الاحتفالية الكبيرة
حتـى وإن كان المضيفـون معتاديـن علـى الأكل بالطريقـة الفرنسية. وعندما يكون
الكاهـن حاضرًا، كما فى هذه المناسـبة، يتقدم الآخرين جميعًـا، مهما تكن مكانتهم
وهـو يبـدأ بتلاوة صلاة قبل الأكل ثم يأخذ رغيفًا ويباركه ثم يقطعه ويعطى قطعة لكل
شخص موجود.

لا يظهـر العريس فـى منزل العروس فى تلك الليلة، ولكن يرسـل وفدًا صغيرًا من
أقـرب أقاربـه ومعهم باقة ورد وشـمعة لا بد أن تكون فى طول العـروس. وتظل هذه
الشـمعة مضـاءة فـى غرفتها طـوال الليـل، ويُنظـر إليها كذلك علـى أنها رمز لبكارة
العروس.

فـى صبـاح يوم الأحـد، وبعد اعتـراف العريس والعـروس، لا بد مـن حضورهما
القُدَّاس بعد الاعتراف. وبعد ذلك يمضيـان الوقـت فى تأمـل هـادئ؛ ولكن ذلك لا
يفعله إلا المتدينون.

فـى العصـر ـ وفيما تسـمى ليلة العريس ـ يذهب الإشـبين،[1] بصحبـة رجلين أو

(١) «إشبين» كلمة سريانية معناها الحارس أو الوصى، وهو الشخص الذى يتلقى الطفل من جرن المعمودية
بعـد أن يجحد الشـيطان ويعلن إيمانه بالنيابة عن الطفـل ويتكفل بأن يربى المُعَمد على الإيمان والتقوى
ويكون عادة والد الطفل أو أحد أقاربه. كان الأشـابين يهتمون بالأطفال ـ فى بداية العصور المسيحية ـ
الذين يقتل والديهم أثناء الاضطهاد فيربونهم تربية مسيحية. (**المترجم**).



منظر فى مزرعة بالدلتا. الفتاة التى رتب الباشا زواجها مع والدها. يقود الأخ الأصغر الجاموسة التى تدير الساقية البدائية.

ثلاثة رجال من أقرب أقارب العريس لإحضار العروس. ويدفع الإشبين دائمًا ثمن العربات المؤجرة لهذا الموكب، كما يدفع البقشيش للخدم. ويهديه والد العروس علبة سجائر من الفضة أو الذهب؛ وهو ما يبرر امتلاك كل رجل من أية مكانة فى مصر على ما يبدو شيئًا قيّمًا من هذا النوع، وفى بعض الأحيان يُرجع الرحالة ذلك إلى حب التباهى المبالغ فيه.

تغادر العروس بيت والديها وقد بدت فى أبهى حال إلى المنزل الذى أعده العريس تسبقها فرقة من العازفين. ومنذ بضع سنوات كانت هذه المواكب لا تسير إلا ليلاً، وكانت لافتة للنظر إلى حد كبير. وكان فى المقدمة حاملو المشاعل الكبيرة تليهم الفرقة الموسيقية يتبعها رجال يحمل كل منهم شمعة تخرج من باقة زهور، وبعد ذلك الصبيان الذين يسيرون للخلف لكى يواجهوا العروس حاملين المباخر وقوارير العطر الذى ينثرونه على المشاهدين، ومن بعدهم العروس المتكئة على أفضل الرجال(١)، تتبعهما السيدات، ثم خدم الأسرة فى المؤخرة.

ربما لا تزال مواكب العُرس هذه تُشاهد فى بعض الأحيان، ولكنها فى الأغلب مواكب لأعراس المسلمين. وبالطبع تكون العروس فى هذه الحالة مختبئة، إما داخل عربة مغلقة أو هودج مثبت على ظهر جمل، كما رأيت كثيرًا فى الريف.

المعتاد حاليًا بالنسبة للأقباط فى المدن أن تُنقل العروس والسيدات إلى منزل العريس فى عربات مغلقة لا يصحبهن إلا الإشبين والقليل من أقاربهن الذكور. عند الوصول إلى المنزل، لا تزال هناك عادة قديمة متبعة وهى ذبح عجل أو خروف عند قدمى العروس بحيث يسيل الدم على العتبة التى لا بد أن تخطوها. ويعطى اللحم للفقراء. ويحمل الإشبين العروس أو يساعدها على الصعود إلى مكان السيدات. عندما يغادر الموكب بيت والدى العروس وعندما يدخل منزل العريس يُنثر عليه الملح، وأحيانًا أوراق الورد، اتقاءً لـ«عين الحسود».

(١) قد يفسر هذا عبارة «دى عروسة البيه، تعالوا بنا نسندهالو» فى أغنية الزفة الشهيرة «يا عشاق النبى» (المترجم).



قرية نائية فى الصعيد يُقال إن السحرة الذى عرضوا سحرهم فى وجود موسى جاءوا منها. حدث أن مر المؤلف على هذه القرية أثناء إحدى رحلاته فى الريف وتحدث الأصدقاء المحليون عن ذلك وكأنه أمر وقع فى زمن قريب.

يصـل الكهنة والشمامسـة وأفراد جوقة الترتيل ورجال الكنيسة كافة إلى الـ استعدادًا للمراسم الدينية.

بعد الاستـراحة قليلاً وتناول بعض المرطبات، تبدأ مراسم العُرس، أو التكليل، والعـادة أن تجرى هذه المراسـم فى المنزل؛ وإن لم يكن هناك ما يمنع من الاحتفال بها فى الكنيسة.

توضع طاولة فى وسـط أكبر قاعـات المنـزل، وتوضع عليها نسخة من الإنجيل المقدس داخل غلاف[1] من الفضة، وتحيط به ستة صلبان من الفضة مثبت على كل منها ثلاث شمعات. ويُستخدم هذا رمزا إلى الثالوث المقدس فى كثير من القُدّاسات القبطية. ويوضع على الطاولة كذلك صليب من ذهب وخاتم الزواج الذهب.

يوضع أمام الطاولة كرسيان ليجلس عليهما العروسان.

فـى غرفـة أخـرى يُلَبَّس العريـس غفارة[2] ثم يقودونه فـى طـواف تتقدمه جوقة الترتيل إلى القاعة. يجلس العريس على الكرسى الأيسر ـ كان من المتوقع أن يجلس على الكرسـى الأيمـن كما يحـدث فى الغـرب حيث إن الشـرق والغرب متضادان باستمرار.

بعـد ذلك يذهب رجال الديـن وجوقة الترتيل لإحضار العـروس التى ترتدى ثوبًا أبيـض وقـد زُينت بزهـور البرتقـال، ووجهها مغطى بخمـار رقيق. وتلبس العروس زينتها من الماس والذهب. ويحمل الشمامسـة الشـموع والأجـراس، ويضرب أفراد جوقـة الترتيل الصنوج، ويغنى الجميع «مبارك الآتى باسـم الرب» و«يا ملك السلام أعطنا سلامك».

فـى الماضـى كان تلبيس الرجل والمـرأة جزءًا من القُـدّاس، حيث كان الكاهن يبارك الملابس ويُلبس العروس والعريس عند الطاولة.

يبدأ الكاهـن القُدّاس بـأن يقـول ثـلاث مـرات: «اجتمعنـا لمباركـة اتحـاد فلان

(1) يسمى البشارة، وهذا معنى كلمة إنجيل. (المترجم).

(2) رداء فضفاض كالعباءة يلبسه الكاهن، ويسمى كذلك حبرية وحبروية. (المترجم).

وفلانة»، حيث يردد بعد كل مرة الصـلاة الربانيـة التـى ينبغـى أن ينضم إليـه فيها الحاضرون جميعًا سرًا.

بعد ذلك يتلو الكاهن صلاة الشكر ويطلق البخور. وتُقرأ أجزاء عديدة من العهد القديم والعهد الجديد تشير إلى الزواج. وهناك ثلاث صلوات جميلة، وصلاة شكر للخطوبة. وهناك صلاة على الزيت الذى يُدهن به العروسان، ثم يأتى طقس التكليل. يوضع تاجان من ذهب على جبهتى العروسين، ويُطلب منهما تبادل الخاتمين وأن يشبكا أيديهما. تقرّب رأسيهما من بعضهما ويغطيان معًا بوشاح مطرز واحد. ويُربط العروسان معًا بشريط، رمزًا لطابع الزواج السرمدى، وأنهما لم يعودا اثنين بل واحد. وفى نهاية القُدّاس يضع الكاهن الصليب على رأسيهما وهو يمنح البركة. والتاجان، وكذلك أثواب العُرس والطرحة من ممتلكات الكنيسة.

فى الموعظـة التى تكون فـى آخر القُـدّاس (الذى يسـتغـرق ثـلاث سـاعات إذا جرى على النحو الصحيح) يخاطب الكاهن العريس قائلاً: «إنى أسـلمك عروسـك فلانـة التى هـى الآن زوجتك. إن لك عليها الآن سـلطان أكثر من سـلطان أبويهـا. ولا بد أن تعاملها بالحب والعطف دائمًا، ولا تهمـل أيًا من احتياجاتهـا»، وهلـم جرا.

ثم يلتفـت إلى العـروس قائلاً لها: «لقد سـمعتِ، كما يقول الكتـاب المقدس، إن زوجك هو رئيسـك، كما أن المسـيح هو رئيس الكنيسـة. ويعنى هذا أن عليك طاعته واحترامه، كمـا كانت سـارة تطيع إبراهيم وتخاطبـه دائمًا بـ«سـيدى». ولا بد أن تحافظى على منزله وتجعلى بيته بهيجًا باستمرار». وهلم جرا.

وأخيـرًا يقـول متحدثًا إليهما معًا: «إذا اطعتما ما سـمعتماه سـوف يبارككما الرب كما بارك إبراهيم وسارة وإسحاق ورفقة».

ويختـم القُدّاس بالترانيـم باللغتين القبطيـة والعربيـة، وتصاحـب النسـاء اللائـى لا يمكنهـن ضبط أنفسـهن التراتيل بالزغاريـد الغريبة، وهى صرخـات مجلجلة تعبر عن الفرح أو الحزن حسبما تقتضى المناسبة.

بعد المراسم تذهب العروس إلى الحرملك، ويذهب العريس إلى مكان الرجال لتناول العشاء وتلقى التهانى من الأصدقاء وسط ابتهاج كبير. وقبل منتصف الليل بساعة تقريبًا يغادر العريس والعروس المكان، ولكن الموسيقى تستمر الجزء الأكبر من الليل.

فى يوم الاثنين يمضى أقارب الجانبين المقربون اليوم فى منزل العريس وتخدمهم العروس بنفسها، ويقدم لها كل ضيف هدية حسب مقدرته. وقد تكون تلك الهدايا حُليًا من الماس أو الذهب، أو مبلغًا من المال يتراوح بين جنيه واحد و١٠ جنيهات؛ ويتلقى كل شخص فى مقابل ذلك منديلاً من تطريز العروس.

جرت العادة فى مناسبة العُرس أن يساعد الأصدقاء المقربون بالإسهام فى الوليمة المقبلة. فقد يرسل أحدهم خروفًا، ويرسل آخر طيورًا، وغيرهما أرزًا أو شموعًا، وهلم جرا.

عمومًا يقوم متلقى الهدايا بكتابة قائمة بكل الأشياء التى تلقاها، وعندما تكون هناك مناسبة مشابهة يعيد شيئًا بالقيمة نفسها إذا كان على نفس القدر من السعة أو أقل من ذلك أو أكثر إن كان أغنى أو أفقر.

وبالرغم من هذه العادة، يبدو أن المصريين لا يمكنهم مقاومة إنفاق أكثر مما يجب من باب التباهى. وليس من غير الشائع أن تعوق الأسر مواردها بهذه الطريقة. وقد حضرت الكثير من الأعراس أنفق على الاحتفالات الخاصة بالواحد منها مبالغ تتراوح بين ألف و١٠ آلاف جنيه، وفى كل حالة تقريبًا كان ذلك يزيد على مقدرة الأسرة المعنية.

ليس الطلاق شائعًا بين الأقباط. وليس الزواج مرة أخرى محببًا، وقد يقوم به فقط الطرف البرئ الذى عند زواج يتقدم للبطريرك للحصول على إذن بذلك. ولا يكلل أحد عند الزواج مرة ثانية.

يُقال: إن أحد أبدع الأعراس فى السنوات الأخيرة، الذى لا مثيل له فى الفخامة الشرقية منذ أيام إسماعيل التى اتسمت بالرفاهية، كان فى أسيوط عند زواج اثنين من

معارفى، وقد جرى بعد مغادرتى مصر بعد آخر زيارة لى فى عام ١٩١٣. وكانت الآنسة إستر فانوس[1]، العروس، قد قرأت لى بعض قصائدها الساحرة التى كتبتها بالإنجليزية، وكثيرًا ما سُررت بسماعها تتكلم عن فرحتها الشديدة بما فى بلدها المحبوب من جمال وتاريخه العتيق الرائع؛ وهى كما رأيتها نموذجًا للمرأة المصرية الجديدة التى تستخدم مواهبها للنهوض بالفلاحين من خلال دعوتها البليغة باسم الصليب. وقابلت الأستاذ ويصا[2]، العريس، وهو خريج كمبريدج وينتمى إلى إحدى العائلات القبطية الكبيرة فى الصعيد.

وأقدم لكم رواية قصيرة عن العُرس أدين بها لصديق قبطى كان حاضرًا، لأنها تلقى الضوء على أشياء عديدة سبق الإشارة إليها، وتبين على نحو خاص كيف أن العادات المحلية تفرض نفسها على تلك المناسبات، بالرغم مما حدث من استخدام لأنماط الحياة الغربية.

«لم يُدخر شىء لجعل الاحتفال ناجحًا على الوجه الأكمل كما كان. فقد امتزج الجمال الشرقى والعلم الغربى فى تناغم داخل السرادق (الصوان) الضخم فى وجود أعداد كبيرة من المصابيح الزيتية القديمة والنجف الكهربائى الحديث الرائع. لم يقل عدد الضيوف الذين استضيفوا فى ذلك السرادق عن ٨ آلاف فى ليلة واحدة. وكانت الرايات الخديوية وأقواس النصر الفخمة تزين الشوارع المؤدية إلى منزل العريس. ويُقال إن تكلفة العُرس بلغت ٢٠ ألف جنيه.

---

(١) إستر فانوس، المعروفة كذلك بإستر ويصا واصف، من النساء اللاتى لم تحصلن على شهرة كبيرة بعد ثورة ١٩١٩ انتُخبت إستر لعضوية «لجنة سيدات الوفد»، وقد وقفت على رأس أول اجتماع كبير للجنة عُقد فى الكنيسة المرقسية فى ٨ يناير ١٩٢٠ أمام حوالى ألف سيدة مسلمة ومسيحية تطالب بضرورة العمل على انتزاع حق المرأة فى كل المجالات وعلى رأسها المجال السياسى والمساواة بين الجنسين حتى فى النضال ضد المحتل الإنجليزى. وسافرت فى عام ١٩٢٣ إلى روما للمشاركة فى المؤتمر النسائى العالمى ضمن وفد من بين عضواته هدى شعرواى وسيزا نبراوى، (المترجم).

(٢) ويصا واصف أحد زعماء ثورة ١٩١٩ وسافر مع سعد زغلول ضمن الوفد المصرى إلى باريس. وهو الذى أمر عندما كان رئيسًا لمجلس النواب بتحطيم السلاسل التى كانت تغلق أبوابه فى وجوه النواب يوم ٢٣ يونيو سنة ١٩٣٠ بعد محاولة الحكومة التى تم فرضها على البلاد من جانب الملك فؤاد منع اجتماع المجلس. وهذا اليوم معروف فى كتب التاريخ باسم يوم «تحطيم السلاسل». (المترجم).

«استمر الترفيه لمدة ثلاثة أيام على التوالى، وكان من بين الضيوف اللذين لبوا كل أنحاء البلاد باشوات وبكوات وعمد ومشايخ وغيرهم من النبلاء، بالإضافة إلى موظفى الحكومات الأوروبية وحشد ممن هم دون ذلك.

«فى اليوم الأول دعا والدا العروس أعيان ثمانمائة قرية إلى الغداء والعشاء على الطريقة التركية؛ وفى المساء عرض عبد الحليم أفندى النحاس، المطرب الشهير، وسامى أفندى الشوا عازف الكمان مواهبهما لإسعاد الجمهور من الأعيان واللواء، وكان يصاحبهما على القانون محمد أفندى عمر، حيث استعاد الجمهور معظم الأغانى مرارًا بابتهاج وفرح.

«فى يوم آخر دُعى الضيوف من القاهرة والإسكندرية، والكثيرون من أسيوط بمن فيهم الموظفون من أبناء البلد والأجانب والمقيمون البارزون وأسرهم إلى الغداء فى منزل ويصا، وفى المساء حضروا حفل استقبال خاصًا دعت إليه والدة العروس، حرم أخنوخ فانوس (1) التى زيّنت منزلها على نحو جميل بالزهور والأنوار الملونة. بدأ وصول الضيوف فى الثامنة مساءً حيث رحبت بهم الفرقة الموسيقية من مدرسة ويصا بألحان عربية وأوروبية؛ وفى الساعة التاسعة تقدم فتحى باشا مدير أسيوط الجمع إلى العشاء، وبعد ذلك انتقل الضيوف إلى منزل ويصا لسماع الأغانى العربية من محمد أفندى السبع بمصاحبة تخت محمد أفندى عمر.

«خُصص يوم آخر للترفيه عن السيدات من الأهالى اللائى تناولن الغداء مع أسرة العروس وشاركن فى موكب إلى منزل العريس، وفى تلك الأثناء كانت أسرة ويصا

(1) من الأسماء الإنجيلية التى لمعت فى سماء الحركة الوطنية المصرية الدكتور أخنوخ فانوس (١٨٥٦ - ١٩١٨) الذى ولد فى أبنوب بمحافظة أسيوط والتحق بالمدرسة الإنجيلية بأسيوط وتدرج فى التعليم حتى حصل على الدكتوراه الفخرية فى القانون وكان الدكتور أخنوخ من أول المهتمين بإنشاء جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) حيث كان أحد أعضاء اللجنة التى شكلت عام ١٩٠٦ خصيصا لهذا الأمر وقد كانت هذه اللجنة تضم سعد زغلول وحفنى ناصف وقاسم أمين وغيرهم. وفى عام ١٩٠٨ أسس أخنوخ فانوس «الحزب المصرى». كما شارك فى المواقف الوطنية فى ثورة ١٩١٩ واشترك مع آخرين فى صياغة دستور ١٩٢٣. (المترجم).



المدخل والجزء الداخلى من كنيسة قبطية، حيث يظهر حجاب الهيكل المطعّم تطعيمًا رائعًا والمنبر القديم. هذه الكنيسة المعلقة التى بُنيت على أحد أبراج حصن بابليون الرومانى فى مصر القديمة.



المدخل والجزء الخارجى من كنيسة قبطية، حيث يظهر حجاب الهيكل المطعَّم تطعيمًا رائعًا والمنبر القديم. هذه الكنيسة المعلقة التى بُنيت على أحد أبراج حص بابليون الرومانى فى مصر القديمة.

تستضيف المئات من الأهالى القرويين، مسلمين ومسيحيين، لتناول طعام تركى.

«فى عصر كل يوم من الأيام الثلاثة كانت تقام عروض رائعة للخيالة أمام منزل العروس يؤديها أفراد العائلات المحلية الكبيرة على خيول ذات سروج على قدر كبير من الزينة، وكان كل عرض ينتهى بموكب حول المنزل، وكان الخيالة يدقون الطبول ويصيحون بعبارات مثل «عمار يا بيت فانوس!».

«وقع حادث لافت للانتباه عندما لمح خيَّال بارز الدكتور فانوس (وهو مقعد) جالسًا فى الشرفة فصعد بحصانه درجات السلم المرتفع ليحييه، وقام الدكتور على قدميه ليمسك يد الفارس، الذى نزل الدرج كما صعده وسط الصيحات المجنونة والهتافات من الحشد الموجود أسفل منه.

«فى الساعة الثامنة مساءً يوم العُرس نفسه، تقدم موكب تتقدمه فرقة موسيقية وحاملو المشاعل وفرقة من بوليس السوارى، وكان يتكون من أكثر من مائة عربة إلى السرادق الكبير. وهناك استقبله أفراد جوقة الترتيل مرتلين ترنيمة ترحيب حيث صاحبوا العروس وصحبتها إلى المنصة التى يجرى عليها مراسم الزواج الأساقفة ورجال الدين الأقباط. أدى تلك المراسم رجال دين من بينهم ممثلون أرثوذكس وبروتستانت، حيث أوفد البطريرك أسقفين لتمثيله، وكتب فى الوقت ذاته اعتذاره الشديد لأن كِبَر سنه وضعف صحته منعاه من الحضور بنفسه. وكان حاضرًا كذلك أساقفة أسيوط والخرطوم وقنا، وكان يصاحب الأخير جوقة مرتلين كاملة من كنيسته.

«جمع رجال الدين الخمسة البارزون ومعهم الأب معوض حنا العروسين بالشعائر الأرثوذكسية والبروتستانية الكاملة، حسب رغبة البطريرك، حيث كانت جوقتا ترتيل أرثوذكسية قبطية وبروتستانتية ترتلان آيات مقدسة ومزامير مختارة. وكان العريس والعروس ينتميان إلى الكنيسة البروتستانتية، وكان الدكتور فانوس أخنوخ رئيس المجلس الملى.

«بعد المراسم التى استمرت ساعة ألقى الشاعر خليل مطران وغيره قصائد وكلمات نثرية جميلة.

«فى الحادية عشرة مساءً قُدِّم عشاء فخم فى البداية لثلاثمائة ضيف،
العشاء بعد ذلك لعدة آلاف من الفقراء، واستمر تقديم الطعام حتى الثانية
وكان الطعام يُقدَّم فى مكان خاص للسيدات المسلمات والمسيحيات
داخل المنزل. ولم تتوقف الاحتفالات إلا فى الساعة الخامسة صباحًا حين
بالغناء والرقص».



أحد أروع الأفراح القبطية التى أقيمت مؤخرًا. وقد جمع الفرح بين عائلتى ويصا وفانوس الكبيرتين. ويظهر فى الصورة السرادق المصرى الضخم الذى يُستخدم فى المناسبات بما فيه من آلاف المصابيح. وقد أقيم الفرح فى أسيوط.

الفصل التاسع

الشرقيون فى أحزانهم، وعادات الدفن القبطية

من بين العادات كافةً التى كرسها طول الاستخدام ليس هناك ما يعامل بقدسية وحب من جانب الأقباط، وخاصةً النساء منهم، أكثر من الممارسات العديدة المتصلة بالموت. فما فعله الزمن للقضاء على بعض الخرافات القديمة فى هذا الأمر أقل مما فعله فى غيره، وبقيت عادات من الديانة القديمة التى يبدو أن مرور القرون والآمال التى أوحت بها المسيحية عجزت عن إزاحتها.

عندما يظن الأقارب والأصدقاء أن شخصًا ما يُحتَضَر يحتشدون فى المنزل، بل وفى غرفة المريض.

يقدَّم القربان المقدس لهذا الشخص، إذا كان قادرًا على البلع. وبما أنه لا يجب إعادة خدمة التقديس، فلا بد أن يقوم الكاهن بتقديس الخبز والخمر فى الكنيسة ثم يذهب فى موكب إلى المنزل؛ ولا بد أن يعترف الشخص المُحْتَضَر.

كان المسيحيون الشرقيون القدماء يضعون القربان فى فم الميت؛ وأصبحت العادة وضع بعض الخبز والخمر فى النعش. وفى السنودس (المَجْمَع الكنسى) الذى انعقد فى مدينة (هِبُّو)[1] وحضره القديس أوجستين أدينت تلك العادة بشدة.

عندما تأتى النهاية يكون هناك انفجار رهيب للحزن الذى لا حد له، وعويل النساء وصراخهن اللائى لا يتورعن عن أى شىء يجعل المشهد محزنًا إلى حد لا يمكن تصوره.

(١) مدينة قديمة تقع فى شمال شرقى الجزائر الحالية إلى الجنوب من مدينة عنابة. (المترجم).

بينما ترقص النساء بجنون حول السرير، بطريقة توحى بالقنوط التام، يلطمن وجوههن، ويناديـن على الميت كى ينهض ويرى الحزن الذى سببه رحيله.

وتصرخ الزوجة «يا جوزى، يا حزنى، يا موتى، يا خيبتي!» منادية على زوجها «يا أسدى وسندى»، «يا جملى اللى شايل كل حمولى» (إذ إن الجمل رمز للقوة والدعم)، «أبو عيالى حبيبى». أما الابنة فتولول على أمها قائلة «يا سندى الغالى ومشاركانى أسرارى». وفى حالة صديقة شابة لنا توفيت بُعيد عمل ترتيبات زواجها، سمعت صرخة مستمرة من الحريم «يا عروسة الموت! يا عروسة الموت!» والواقع أن الخيال الشرقى لا يترك شيئًا يدمى القلب دون أن يقوله.

حتى الرجال، الذين يبدون فى أوقات أخرى على قدر كبير من القدرة على كتم مشاعرهم، يجهشون بالبكاء، ويسلمون أنفسهم للحزن، وبينما يعزى الشرقيون الأصدقاء فإن الكلمة المستخدمة كثيرًا هى «معلهش». والتحية المعتادة لأكبر أهل المتوفى هى «الدنيا على دا الحال؛ الحمد لله إنك لسة عايش لنا».

ويقول مرقس سميكة باشا، وهو قبطى: «عندما يفكر المرء فيما يبديه الأقباط من الاستسلام والجَلَد الذى يصل إلى حد اللامبالاة تقريبًا، وهو ما يشاركون فيه معظم أبناء الشرق، عندما تنزل بهم أية مصيبة أخرى، كفقد البصر أو أحد الأطراف أو ثروتهم، فإنه يعجب من الطريقة التى يسمحون بها لذلك القنوط بأن يسيطر عليهم عند فقد أحد الأقارب».

يزداد هذا العجب عندما تعرف أن المتوفية لم تكن فى حياتها موضع حب خاص من جانب تلك النائحات الحزينات؛ بل ربما كان الأمر على العكس من ذلك تمامًا.

ما أعتقده هو أن ذلك الرعب الشديد الذى يستولى على الشرقيين فى وجود الموت هو فى بعض الأحيان شىء بعيد كل البعد عن صفات المتوفى. فالرعب من الموت يأتى بقوة كبيرة إلى الأشخاص الذين لا يسمحون عادةً للحظاتهم السعيدة بأن يعكر صفوها التفكير أو توقع الشر. إنهم مخلوقات تعيش يومها، لا تتوقع شيئًا أو تمعن النظر فى شقاء الدنيا بطريقة مَرَضيَّة.

فى ابتلاءات الحياة الصغرى يكون أول رد فعل للشرقى هو تجنب التفكير الذى قد يسلبه السعادة التى لا تزال ممكنة بالنسبة له؛ وتقوده هذه الغريزة، يُضاف إليها الإيمان الفطرى بالله، إلى الخضوع الهادئ لما يعتقد أنه مشيئة الله.

من السهل أن تصف هذا بأنه نزعة قدرية، لدى المسلم أو القبطى؛ إذ يستويان فى كونهما شرقيين. وفى تاريخ أى منهما كان لـ«القِسمة» أثرها بالقدر نفسه. والراهب القبطى الأنبا صيصوى (١) _الذى عاش قبل تولى العرب المسلمين السلطة بزمن طويل هو الذى قال: «يمضى الرجل فى الطريق الذى يسير فيه، سواء أكان يؤدى ذلك الطريق إلى الحياة أو إلى الموت».

تلك التجليات المدهشة لا تحدث إلا فى وجود تلك المصيبة العظمى ورعب الموت، الذى لا يمكن تحاشى التفكير فيه بسهولة.

بعد انفجار الحزن الأول، يُغَسَّل الجثمان، بواسطة شخص من الجنس نفسه باستمرار؛ بينما فى العائلات المتدينة يأتى الكهنة ليرتلوا المزامير. وبعد ذلك يُلَبَّس الجثمان الملابس الداخلية الجديدة، إن أمكن من التيل الخالص الذى سبق نقعه فى ماء نهر الأردن؛ ويوضع فوق ذلك أفخم زى يملكه الرجل. توضع اليدان على الصدر، ويلقى على الجثمان ملاءة من الحرير أو الكشمير؛ وفى حالة الفقراء تكون شالاً أحمر.

فى ذلك الوقت يكون الرجال قد نزلوا إلى الطابق الأسفل، ويُترك الجزء الأعلى من المنزل للنساء، ليبدأ من جديد مشهد الإثارة غير المعقولة. لقد ارتدين أقذر الأغطية الزرقاء التى يمكن أن يجدنها، على نحو أشد ما يكون إهمالاً؛ وأسدلن

(١) «القديس صيصوى أو الأنبا شيشوى أو سيصوى أو شوشاى أو شيشاى من أكثر أنوار الصارى المصرية ضياءً ومن مشاهير آباء البرية. «شيشوى» تعنى «ابن العالى». كان مصريًا بالمولد، وفى شبابه ترك العالم والتجأ إلى برية شيهيت سنة ٣٤٠ وهو فى العشرين من عمره تقريبًا، وتتلمذ للقديس مقار. وفى عام ٣٥٦م إذ كان يشتهى حياة أكثر هدوءً اعبر نهر النيل إلى جبل القديس أنبا أنطونيوس حيث تنيح الأنبا أنطونيوس، فكانت حياة هذا القديس وفضائله معينًا ومثبتًا له. انطلق ليمارس حياة الوحدة ومكث إلى عام ٤٢٦م حيث بلغ حوالى ١٠٦ سنة، وبسبب الشيخوخة عاد إلى برية شيهيت حيث تنيح بعد قليل وكان قد اقترب من مائة وعشر سنوات». (قاموس آباء الكنيسة وقديسيها -popekirillos.net/ar/fathers dictionary/index.php) (المترجم).

شعورهن؛ وفى بعض الأحيان يلطخن وجوههن بالنيلة (الزهرة) ويقتلعن شعورهن، ويجرحن جلودهن، أثناء الجنون الذى يتولد.

ككل الأخبار السيئة، فإن الأخبار المتعلقة بالموت تنتشر بسرعة، وسرعان ما يتجمع كل أصدقاء الأسرة ومعارفها، من النساء على وجه خاص، من كل مصر. بل إن التلغراف والتليفون والقطار السريع تزيد كثيرًا من تلك التجمعات.

عندما يصل الرجال يلمسون أيدى كبار رجال أسرة المتوفى، ثم يجلسون فى هدوء على المقاعد المصفوفة فى السلاملك، أو الصالة الكبيرة، وفى عدم وجود ذلك يجلسون فى الخيمة الكبيرة التى تُنصب على الفور؛ وهناك يجلسون «الليلة الوِحدة» الأولى لا ينطقون كلمة، ويدخنون السجائر التى لا تنقطع، ويحتسون من حين لآخر القهوة السادة التى تُحضر إليهم فى فناجين سوداء خاصة تُستخدم فى تلك المناسبات فقط.

يختلف وصول النساء اختلافًا كبيرًا. فعند بلوغ باب المنزل يرفعن أصواتهن بأصوات النحيب، وترد عليهم الانفجارات المتجددة من النساء فى الطابق العلوى.

المنزل من الداخل مغطى كله الآن بالسواد؛ وقد أزيلت كل الأسِرَة أو الكنب، ويقلب السجاد، وتكون أوجه المرايا والصور إلى الحائط، عندما لا تحطَّم إلى ذرات. وتُخرج من المنزل أية قطع أثاث للزينة. وفى فترة غير بعيدة، كان كل الصينى والزجاج، وهى غالبًا أشياء غالية الثمن، يحطَّم ويكنس أكوامًا فى أركان الغرفة.

عرض علىَّ أحد الأصدقاء فى القاهرة قطعتين من الصينى الثمين من مجموعة المرحوم والده أنقذهما من الحطام الذى أحدثته نساء الأسرة عند وفاة والديه.

ومع ذلك فإن الكثير من العائلات المستنيرة، وخاصة فى المدن، تخفف من تلك المبالغات، وقد توقفت عن استخدام الطبول والراقصات الجنائزيات. وفى العديد من المدن هناك فروع لجمعية المرأة القبطية لتنوير بنات جنسهن. حضرت اجتماعاتهن، وردًا على تساؤلاتى علمت أن أحد أولى واجباتهن التى يبحثن القيام بها محاولة التغلب على التعبير المبالغ فيه عن الحزن، وإن اعترفن بأن ذلك هو آخر شىء سوف تتخلى عنه المرأة المصرية العادية.

النائحات المحترفات يأتين باستمرار بلا دعوة لإضافة نبرة جامحة للمشهد الذى يجرى تمثيله حول الجثمان، الموضوع حاليًا على مرتبة على الأرض. وهن يأتين معهن بالطبول الصغيرة التى ينقرنها نقرات منتظمة مستمرة، بينما يشرن بالكلمة والإيماءة النساء التعيسات إلى أن يصبحن بجوارهن.

لدى تلك النساء المستأجرات مخزون من العبارات عن صفات المتوفى؛ ذلك أنهن عندما يجلسن على الأرض وسط الجمع ينشدن ألحانًا موحشة ـ تحكى عن صفاته، الحقيقية والخيالية وعن الإقدام والكرم والشهامة والأدب، بطريقة مبالغ فيها. وأية سيدة قد تتأثر بأى من تلك الجمل التى تجد أنها تنطبق عليها بشكل شخصى تنفجر صارخة مولولة من جديد.

الشىء الغريب هو أنه يبدو أن لأية ضيفة حاضرة الحق فى أن تطلب من النائحات إنشاد أبيات معينة تشير إلى أحزانها الخاصة، فى مقابل أجر بسيط، دون الرجوع إلى سيدة المنزل.

فى حالة وفاة شخص فى سن الشباب تحضر نائحة محترفة من نمط إضافى. ومثل هؤلاء النساء يأتين معهن برِق يضربنه مع نوع أكثر غرابة من الإنشاد. وهن لا يجلسن، كما تفعل الأخريات، بل يقفن، وتقف النساء حولهن؛ ويبدأن من حين لآخر رقصة جنائزية على نحو عنيف. والمأمول أن يختفى هذا الملمح قريبًا.

تلطم هؤلاء النساء وجوههن ويضربن صدورهن، كأنهن كائنات مجنونة، مرات ومرات، ويشددن شعورهن، ولا يتوقفن عن الرقص والصراخ إلى أن يقعن من الإعياء الشديد؛ كى يبدأن من جديد بمجرد استعادتهن لعافيتهن. وتشارك النساء جميعًا من حين لآخر فى صرخة ضخمة.

يستمر ذلك حتى نقل الجثمان، ولحسن الحظ أن القانون يسمح لهذا بأن يستمر لمدة أربع وعشرين ساعة فقط؛ وحتى ذلك الحين لا يفكر أحد فى تناول أى طعام، والراحة الوحيدة بين الصباح الباكر وغروب الشمس هى فترة التوقف من حين لآخر، عندما تدخن النساء السجائر.

فى هذا كله اتباع لعادات مصر القديمة، وكذلك عادات اليهود-النواح بصوت مرتفع، وتلطيخ الوجه، والنائحات المحترفات. عندما استُدعى المسيح إلى بيت نواح على موت ابنة يائيريس أسكت «المزمرين والجمع» الذين «يضحكون» (متى ٢٣). إنها أمور لا تقوم على تعاليم المسيحية، كما أن النبى محمد حرمها تحريمًا صارمًا،(١) ولكن النساء فى أى من العقيدتين لا يعرن ذلك اهتمامًا.

تدخلت الكنيسة، بل وكذلك الحكومة، لمنع النواح المحترف، وصدر ... النائحات على الملأ؛ ولكن لم تكن هناك جدوى من ذلك. وبعد جهود عليها كل ما تحقق هو أن النساء لم يعدن يسوِّدن وجوههن وأيديهن لمصاحبة الجنازة إلى المقابر، وبذلك مُنعت المشاهد الرهيبة التى كن يخلقنها.

عند نقل الجثمان الموضوع فى نعش نُثرت فوقه الزهور-ونُثر عليه ماء الورد وغيره من العطور(٢) لدفنه تصل عاصفة حزن النساء إلى ذروتها.

يصاحب الكهنة الجثمان إلى الطابق الأرضى ويبدأ فى الحال موكب طويل إلى الكنيسة. وفى حالة العائلات التى على قدر من الغِنى بحيث يمكنها تأكيد ذلك، يكون ترتيب المشيعين كما يلى: يسير فى المقدمة عدد من الشاويشية المستأجرين، ثم الكهنة بأوشحتهم السوداء وهم ينشدون القَداسات الثلاثة و«اذكرنى يا رب متى جئت فى ملكوتك»، يتبعهم الشمامسة وأفراد جوقة الترتيل بزيهم الأبيض حاملين الرايات. ويلى ذلك «بساط الرحمة»، وهو قطعة قماش سوداء خيطت عليها صلبان بيضاء يمسكها من أطرافها أربعة من أبرز أصدقاء المتوفى. يلى ذلك حامل النعش، وقد بدأ فى السنوات الأخيرة استعمال عربات الجنازات؛ أما من قبل فقد كان أقرب الأصدقاء يتبادلون حمل النعش.

(١) عن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتى فأجرنى فيها، وأبدل لى بها خيرًا منها». [رواه أبو داود] وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم: أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها، فإنها تلبس يوم القيامة درعا من جرب، وسربالا من قطران. وفى السنن عنه: أنه لعن النائحة، والمستمعة. وفى الصحيح عنه قال: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية». (المترجم).

(٢) فى الوجه البحرى توضع فقط بعض الحلى المفضلة فى النعش؛ فى الصعيد، الأكثر تحفظًا باستمرار، ما زالت العادة هى أن يُدفن مع الموتى كل زينتهم وملابسهم.

تُعتبر المساعدة فى دفن الموتى فى الشرق عملاً جديرا بالتقدير؛ ومع أن جمعية التوفيق القبطية(١) أُنشئت للبدء فى الإصلاح، فإن من أول الواجبات التى فرضتها على نفسها مساعدة الناس فى مسألة الدفن.

يعقب ذلك كل الأقارب والأصدقاء الذين يجب عليهم السير إلى الكنيسة؛ ويلى هؤلاء طابور من العربات الفارغة لنقل الأقارب والأصدقاء المقربين إلى الجبانة.

داخل الكنيسة، يوضع النعش على الحامل أمام باب هيكل الكنيسة، وتُتلى صلاة الموتى. وهى تتكون من صلاة الشكر والصلاة من أجل الموتى، وهى تُرتّل باللغة القبطية، وقراءات بالعربية من الإنجيل و«أعمال الرسل»، وخاصة قراءات معدة إعدادًا خاصًا لذلك.

فى نهاية القُدَّاس يُرفع غطاء النعش، المتصل به صليب كبير (لا يثبت الغطاء إلا بعد انتهاء المراسم)، ينثر رئيس الكهنة التراب على الجثمان قائلاً «من التراب وإلى التراب تعود».

يُحمل النعش ويُدار به ثلاث مرات فى أنحاء الكنيسة، بينما جوقة المرتلين ترتل «القَداسات الثلاثة». وتقام القُدَّاسات الجنائزية القبطية طبقًا لأجبية القديس مرقس، وهى خدمة خاصة تُستخدم أثناء عيد القيامة.

الآن يلمس كل من حضروا القُدَّاس أيدى كبار أهل المتوفى، ويغادر من لن يذهب إلى الجبانة منهم. وإذا كانت العائلة على قدر من الثراء يكون لها فى الجبانة قبو خاص بها يوضع فيه النعش. وللقبو فناء وبيت صغير به غرفتان أو ثلاث غرف مزودة بأسِرَة وأدوات للطهى، كى تستخدمها العائلة عند ذهابها «لزيارة الموتى».

عند عودة أهل المتوفى إلى المنزل يتناولون الطعام لأول مرة منذ حدوث الوفاة، وهو الطعام الذى يقدمه لهم الأقارب لمدة يومين. وأحد أسباب ذلك أنه من المتوقع

(١) تأسست جمعية التوفيق القبطية فى ٢٤ أغسطس ١٨٩١م بالقاهرة وكانت بمثابة ثورة الإصلاح الثانية التى أعقبت ثورة الإصلاح الأولى التى فجرها البابا كيرلس الرابع، البطريرك ١١٠ للكنيسة القبطية. والجمعية ثانية جمعيات الأقباط الأرثوذكس فى مصر، بعد الجمعية الخيرية القبطية التى تأسست فى عام ١٨٨١ باسم «جمعية المساعى الخيرية». (المترجم).

أن خدم المنزل غارقون فى الحزن مع أسيادهم، وبذلك تتوقف كل الأ... المتصلة بمراسم الحداد داخل المنزل.

تواصل النساء المشاهد التى سبق ذكرها حتى اليوم الثالث، حيث ... صديقاتهن اللائى يشاركنهن ما هن عليه من حماس مفرط فى إبداء الحز... الطابق الأرضى لا يزال الرجال جالسين فى صمت، حيث يأتى الأصدقاء ليـ... معهم بعض الوقت ليبدوا تعاطفهم الصامت.

فى عصر اليوم الثالث يأتى الفرج، وسلوى الدين المخففة للحزن، ... الكهنة لأداء قُدَّاس «إبعاد الروح». ويقوم ذلك على اعتقاد لافت للانتباه و... يعود إلى العصور المصرية القديمة، وهو أن روح المتوفى تظل تتردد على ... الأرضى لحين تقديم قرابين معينة، وهو ما يريحها. وقد تبنت الكنيسة الأ... واعطت له معنى مسيحيًا. وكون جزء من قُدَّاس الكهنة هو مباركة الطاولة التى ... يأكل منها ساكنو البيت بعد ذلك يشير إلى الأصل المرتبط بقرابين الطعام.

يبارك الآن الكهنة طعامًا معينًا يقدَّم كصدقة جنازة للفقراء، وتنثر الغر... بالماء المقدس، بينما تتلى صلوات كثيرة مطمئِنة وجميلة. وأثر ذلك الشأ... باستمرار هو علاج الأعصاب المحطمة وتهدئة عقول من يعانون بعد تلك المح... الرهيبة التى مروا بها.

فى مساء ذلك اليوم يرحل ضيوف البيت كافة؛ ويُقرأ القُدَّاس فى الكنيسة، ولكن ليس قُدَّاسًا للميت، فذلك ليس معروفًا للكنيسة القبطية.

والآن ربما يتطلع أهل الميت لقضاء ليلة هادئة. يتذكر الكثير من أصدقائى الأقباط فى منتصف العمر عندما كانت تلك الآثار تستمر أربعين يومًا، وفى الحالات المتطرفة كانت عادات الحداد تستمر بلا توقف تقريبًا لمدة عام كامل.

فى اليوم السابع يُقطع الهدوء من جديد بيوم حداد، وتلتقى النساء من جديد على فترات للتعبير عن الحزن، الذى بات أكثر تقييدًا الآن على مدى أربعين يومًا لا يغادرن فيها المنزل. وكثيرًا ما نسمع عند المرور على مساكن الأهالى أصوات أغانى العديد البطيئة الرتيبة الحزينة الصادرة بنبرات منخفضة عن النساء اللائى تجمعن فى الداخل وقد اختلطت بالبكاء والنشيج. ولم أسمع عن شىء يهز

العواطف على نحو مخيف أكثر من ذلك. وحيثما يكون الحزن أمرًا حقيقيًا جدًا، تسعى الأم سنوات للتخفيف عن قلبها المكلوم بهذه الطريقة. وكانت لدى قدماء المصريين أناشيد حداد مشابهة تُغنى خلال فترة السبعين يومًا التى يجرى خلالها تحنيط الجثمان.

وعادة إحياء ذكرى المتوفى بعد أربعين يومًا عادة قديمة جدًا، وهى شائعة بين المسلمين كما بين الأقباط، مع أنها ممارسة نشأت منذ زمن قديم قبل الفتح العربى. وفى حالة وفاة رجل على أى قدر من الأهمية، يجتمع معارفه هذه الأيام للاستماع إلى خطبة تكريمًا له، بينما تجتمع النساء بمعزل عن الرجال ويضنين أنفسهن بالحزن من جديد.

زمن الحداد بالنسبة للأقباط عام كامل، وفى كل عيد من الأعياد فى تلك الفترة تجتمع النساء ليتحبن ويبكين من جديد. ولا يُفترض أن يغادرن المنزل بالمرة فى أيام الأعياد لمدة عام، إلا من أجل الذهاب إلى الجبانة، بل إنهن قد لا يذهبن إلى الكنيسة فى تلك الأيام. ولا بد أن يلبسن السواد ويخلعن كل حليهن.

هذه العادات فيها مشقة كبيرة على النساء؛ وينبغى للرجال، الذين قد يعودون إلى أعمالهم المعتادة بعد الثلاثة أيام الأولى من العزلة، أن يتذكروا ذلك عندما يميلون إلى القسوة فى الحكم عليهن. وهناك عادة على نحو كبير من المشقة تصر على أنه حين تخرج المرأة من منزل الحداد لأول مرة بعد الأربعين لا بد أن تكون أول زيارة لها إلى منزل آخر وقعت فيها وفاة.

فى أيام الأعياد، وفى عيد العنصرة(١)، تجتمع العائلة فى الجبانة وتمضى الليل هناك، حيث تكون النساء فى الغرف العليا من منازل المقابر والرجال أسفل؛ وهناك

(١) عيد العنصرة هو عيد حلول الروح القدس. ويسمى كذلك عيد البنديقوستى، وأصلها Pentecoste وهى كلمة يونانية معناها الخمسون. ويحل فى سابع خميس بعد عيد القيامة، ويعتبر من الأعياد السيدية الكبرى، حيث حل الروح القدس على التلاميذ والرسل فى اليوم الخمسين. كما صاحب مجىء الأقنوم الثانى من الثالوث القدوس، أى الابن يسوع المسيح، علامات عجيبة من السماء مثل ظهور الملائكة وبشارتهم وأناشيدهم وتحرك النجم الذى أرشد المجوس، هكذا ظهرت آيات مصاحبة لمجىء الأقنوم الثالث أى الروح القدس، فظهرت ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على الرسل. (المترجم)

يوزعون الصدقات والطعام، وهذه عادة قديمة. وتُذبح ثيران أو خروف لروح الميت على الفقراء، وهي عادة ترجع إلى ما قبل العصور المسيحية، حيث كان أقارب الموتى يزورون المقابر زيارات دورية وقد أخذوا معهم القرابين من أجل كا الموتى لإنعاشه في العالم الآخر.

يعتقد الأقباط أن الروح يزنها رئيس الملائكة ميخائيل، الذي يحل محل تحوت(٢) فيما قبل المسيحية. ويعتقد الكل، فيما عدا المتعلمين تعليمًا حديثًا، أن الأرواح تُطلق أثناء الأربعين يومًا التالية لعيد القيامة، من المكان المحجوزة فيه انتظارًا ليوم الحساب العام.

في يوم الأحد الأبيض(٣) تقدم الصلوات للموتى في الكنائس كافة، ويعتبر إطعام الفقراء في ذلك اليوم أمرًا جديرًا بالتقدير إلى حد كبير. وفي الأسبوع السابق لأسبوع العنصرة(٤) يجتمع أفراد كل عائلة على وجبة جنائزية تسمى «السجدة».

(١) كانت للروح عند قدماء المصريين أسماء عدة وصفات شتى. فـ (البا) يمكنها الخروج من القبر والعودة إليها لأنها تريد التمتع بالدنيا وزيارة الأماكن التي كان يتردد عليها المتوفى في حياته على الأرض. أما (الكا)، أو القرين، فهي الجسم الأثيري الذي يصاحب الجسم المادي، وهما متشابهان تمامًا، ويظل القرين حيًا بعد الموت. وهذا هو «الأخ» و«الأخت» في الموروث الشعبي. أما الآخ فهو عنصر إلهي يترك صاحبه ويذهب إلى السماء بعد وفاته ويصبح نجمًا في الليل. (المترجم)

(٢) إله القمر عند قدماء المصريين الذي كان يصور على هيئة طائر أبي منجل. وأصبح إله الحساب والعلوم والآداب ومنفذ العناية الإلهية. وقد جعلته الأساطير باستمرار أمين سر الآلهة الذي يوصف بالحكمة ولا يُستغنى عنه في أي عمل إلهي. كما أنه كان ساحرًا مريعًا يمكنه تحويل أي شيء إلى أية صورة بفضل معرفته بقوة الكلام الخلاقة. وكان تحوت يشرف على عملية وزن قلب الميت ويدون النتيجة في لوح، أما القاضي الجالس على العرش يراقب ذلك فهو الإله أوزيريس وتصاحبه إيزيس أو نفتيس، وأحيانًا يكون الإله رع، وهو القاضي الأعظم. ويوضع قلب الميت في كفة والريشة التي تمثل الآلهة ماعت ربة الحقيقة في الكفة الأخرى، ولا يدخل الميت العالم الآخر إلا بعد نجاحه في هذا الاختبار. أما إذا فشل فيلقيه تحوت إلى «الملتهمة» وهو وحش مخيف فيأكله ولا تكون له حياة آخرة. (المترجم)

(٣) يسمى كذلك «أحد توماء» وهو الأحد الثاني من آحاد الخماسين المقدسة، أي بعد عيد القيامة بأسبوع، وقد سمي بالأحد الأبيض لأن المعمدين الجدد يرتدون الملابس البيضاء حتى هذا اليوم، ويسمى الأسبوع كله «أسبوع البياض». (المترجم)

(٤) الأسبوع الذي يبدأ بالأحد الأبيض. (المترجم)

عند دراسة العادات والمعتقدات القديمة المتعلقة بالموت لا يكون مستغربًا أن الكثير منها ما زال باقيًا في الكنيسة القبطية. ويرى المصري أنه كان على المسيحية أن تقدم نفسها على نحو مختلف عن ذلك الذي ظهرت به للآخرين. فمنذ فجر التاريخ كان المصريون يؤمنون باستمرار الحياة بعد الموت. ومنذ أكثر من خمسة آلاف عام كانوا يحتفلون في وادي النيل بوحدانية الإله(١) وخلود الروح. وكان إله الموتى عندهم إلهًا عاش في يوم من الأيام الحياة الدنيوية، وقد عاد إلى الحياة ليحكم كملك العالم الآخر. وكان أملهم في أن يحيوا من جديد يعتمد على هذا الإله أوزيريس.

ولا بد أنه بدا لهم أمرًا مألوفًا إلى حد كبير عندما جاء المبشرون المسيحيون برسالة القيامة، وأن الميت في المسيح سوف يحيا في المسيح. وليس مستغربًا إذن أن الناس حين تقبلوا المسيحية ظلوا على ممارستهم للشعائر الجنائزية القديمة بطرق معدلة تعديلاً طفيفًا للتوافق مع متطلبات الديانة الجديدة.

بل إن تحنيط الموتى كان يُمارس حتى بداية القرن الخامس الميلادي، حين عارض القديس أنطونيوس، الذي كان يدعو إلى أنه بالاحتقار الشديد للجسد فقط يمكن العثور على الطريق إلى المكافأة الكبرى، أي نوع من حفظ الجسد بعد الموت.

ومنذ عصره أصبحت الصحراء المفتوحة مكان دفن الرهبان، حيث كانوا يرسلون إليها ملفوفين في أكفان فحسب، كي يختفي كل أثر لهم بعد قليل. وكان هؤلاء الذين لهم قدسية غير عادية يُدفنون في الكنائس، وبذلك كانت تُحفظ المخلفات المقدسة.

ومع ذلك ما زالت العادات الجنائزية الأخرى كامنة، وخاصة تلك المتصلة بقرابين الطعام. ففي الجبانة المسيحية بواحة الخارجة، حيث تتبع المقابر التصميم القديم، بوضع الجثمان في نهاية بئر طويلة، توجد عند فتحتها غرفة بها عادةً كوات من أجل القرابين. وقد عُثر على جرار نبيذ وسلال طعام مدفونة مع موتى مسيحيين.

(١) هناك رأي يقول إن الآلهة المتعددة في مصر القديمة لم تكن إلا وجوهًا متباينة، وخصائص متنوعة، وفاعليات متعددة للإله الواحد. (المترجم)

عُثِر على مجموعة مختلفة من بقايا الطعام فى مقصورات المقابر الروم... الهوارة، يبدو أنها تدل على استمرار إقامة الولائم عند مقابر المصريين الق... وكانت الاحتفالات تُقام تكريمًا للقديسين والشهداء عند قبورهم، وهى ... المصرية التى يبدو أن الكنيسة المصرية تبنتها.

وكمثال للطريقة التى كانت تعدَّل بها التمائم القديمة من أجل الاست... المسيحى، بينما يُنسى الاستخدام الوثنى، يمكن أن نذكر أن قطع الزينة مثل العـ... أو رأس الميدوزا كثيرًا ما يُعثر عليها داخل المقابر المسيحية.

قبل أن يعلم الرهبان الناس ضرورة نسيان الموتى، استمر المسيحيون الأوائل فى اتباعهم لعادة الأقدمين الخاصة بتسجيل حياة المتوفى على لوح، أو شاهد قبر، غير أنهم يقللون تدريجيًا من التفاصيل، ثم توقفوا تمامًا عن التغنى بسجايا المتوفى، حيث كانوا يضعون فى النهاية اسم المتوفى والتاريخ الذى «رقد» أو «استراح» مع صلاة قصيرة تريح الروح، مع نص من الكتاب المقدس أحيانًا.

تفلت الروح الوثنية أحيانًا على شواهد القبور تلك فى ذلك التعبير (الذى شاهدته على شاهد قبر إسلامى حديث فى شمال إفريقيا) «لا تحزن، فليس هناك من خالد». ويوجد شاهد قبر قبطى فى المتحف البريطانى يشبه ما عليه عديد إحدى النائحات المحترفات: «ما أفظع هذا الانفصال! أيها الرحيل إلى الأرض الغريبة الذى ينقل المرء إلى الأبد! يا حالة هاديس، كيف السبيل إلى بابك؟ أيها الموت، الاسم المر فى الفم! ...فليأت كل من يحبون البكاء على موتاهم إلى هذا المكان وليندبوا ندبًا شديدًا».

نادرًا جدًا ما يُدفن الأقباط فى كنائسهم، وإن كان هناك استثناء حدث فى حالة البطريرك والأساقفة. وقد أرانى أسقف أسيوط الحالى المقبرة التى أعدها لنفسه فى الأساسات التى تحت الهيكل الرئيسى للكاتدرائية الجديدة التى يبنيها ببطء هناك. وهناك أدلة قليلة جدًا بقيت على قليل من الرجال الذين دُفنوا على هذا النحو، فى حالة بعض البطاركة، يخبرنا التراث وحده عن دفنهم فى كنائس بعينها.

الفصل العاشر

عجائب مقابر القديسين وموالدهم

يحب الأقباط التعبد عند مقابر القديسين. وهم يقيمون، كالمسلمين، موالد كبيرة للرجال والنساء الذين يبجلونهم إلى حد كبير. والشعور الذى لديهم عن تلك العبادة الآن هو نفسه ما عبَّر عنه أب من الآباء الأوائل وهو يتحدث عن مقبرة أمون(1) المبارك: «يحدث الكثير من الأعمال المُعينَة عند قبره لمصلحة من يستحقون العون». وهم لا يعبدون القديسين، ولكنهم يصلون بالقرب من مراقدهم، حيث يظنون، ويظن المسلمون، أن الروح قد تحوم هناك فى بعض الأحيان. وهم يعتقدون أن الرب قد يكون على استعداد لمباركتهم بسبب قدر القديس الذى هو أقرب منهم إلى عرش النعمة.

أحد أغرب الأمور المتعلقة بالولع بالقديسين فى مصر أنه أمر يشترك فيه الأقباط والمسلمون، حيث يبجل كل طرف منهم قديسين وأولياء الطرف الآخر قدر تقديسه لأوليائه. وعند مرور الليدى داف فى قرية ببا(2)، أثناء زيارتها الأولى لمصر، ذهبت إلى الكنيسة القبطية ووجدت عامل بناء يقوم ببعض الترميمات. وقال لها الرجل

---

(1) مؤسس الحركة الرهبانية بنتريا أو برنوج. ولد حوالى عام ٢٧٥ ميلادية بجوار مريوط ونشأ يتيمًا. وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره ألزمه عمه بالزواج رغم رفضه. وبعد الزواج اتفق هو وزوجته أن يعيشا بتولين. وبعد ثمانية عشر عامًا ذهب إلى صحراء نتريا (تبعد مدينة نتريا أو البرنوج حوالى ١٤ كيلو مترًا جنوب غربى دمنهور) ليكون أول راهب يطرق هذه المنطقة. وهناك بنى لنفسه قلاية مكث فيها ٢٢ عامًا. وكان الأب أمون أبًا لأول جماعة ديرية فى نتريا تتلمذ على يديه آباء عظام. لم ينل القديس الأنبا أمون شهرة فائقة كالقديس الأنبا أنطونيوس أو القديس مقار الذى جاء بعده. (المترجم).

(2) هى الآن أحد مراكز بنى سويف، وتبعد عن عاصمة المحافظة مسافة ٢٢ كيلو متر. وهناك عدة تفسيرات لاسم المدينة، لعل أرجحها ما ينسب الاسم إلى الملك المصرى القديم ببى الثانى. وهناك رأى يقول بأن كلمة «ببا» فرعونية وتعنى الزهرة الكبيرة. (المترجم).

بكل فخر إنه مسلم مؤمن من القاهرة زاره القديس المدفون في ك[illegible] متوالية وأمره أن يترك عمله ويذهب إلى القرية البعيدة لترميم كنيسته. ويحكي [illegible] كيفية طاعته للأمر، وعرضه العمل بدون أجر إذا أحضر الأقباط مواد البناء، [illegible] بفخر واضح باعتباره شخصًا تلقى أمرًا سماويًا، وأكد الأقباط جميعًا القص[illegible] أسعدتهم تلك المعجزة. وهي تلقى فيضًا من النور على الطابع العنصر[illegible] يُنسب عـادةً للمسلمين والأقبـاط بحيث لا يصدق أحد بحال من الأحوال [illegible] البنّاء، المعروف بأنه مشغول باستمرار بالعمل، يتلقى هذا الأمر ويطيعه تلك ال[illegible] بينما يحاول الكاهن الحصول على بنّاء ولو من بين الأقباط ولم يفلح في ذلك.

ويوجد بالقـرب من حلوان دير برسـوم العريان(١) الذي تتوافد عليه أعداد ك[illegible] كل عام في يوم المولد. وكان القديس المدفون هناك أحد أوائل النُساك المسيـ[illegible] فقـد أمضـى معظم حياته في قلاية تحت الأرض يمكـن أن يراها الزوار حتى الآ[illegible] كنيسـة أبي سيفين بمصر القديمة. وهنـاك قبة كبيرة فوق صحن الكنيسة حيث [illegible] وفـي هـذا المكـان تتجمع الحشـود في الأحـد الأول مـن النصف الثاني من ال[illegible] الكبير، حيث يصيح الناس باسم القديس أملاً في أن يروا ظله يمر على جدار الق[illegible]

كتـب لـي قبطي شـاب من معارفي بالقاهرة على قـدر كبير من الجدية، وهو [illegible] رجل دين وعلى قدر كبير من التعليم، كما سنرى، وأحد دعاة الإصلاح المتحمسـ[illegible] عـن إيمانه بمسـألة التجليات تلك. وإنني أورد هنا ما قالـه بالحرف، باعتباره أمرًا يهم القارئ الإنجليزي، وبعد قراءته سـيكون من السهل فهم مدى إيمان الحجاج الأقباط إلى القدس بالنار المقدسة(٢) التي تظهر عشية عيد القيامة.

(١) بالمعصرة جنوب القاهرة بين طرة وحلوان. (المترجم).

(٢) جاء في وصف لظهور النار المقدسة داخل كنيسة القيامة: «داخل القبر المقدس، يصلّي بطريرك الروم الأرثوذكس وهو راكع ويذكر الطلبات الخاصّة التي تطلب من يسوع المسيح أن يرسل نوره المقدّس ويغلف المكان سكون وصمت شديد لأن الجميع يترقب خروج النور. بعد صلاة البطريرك يسمع الحاضرون صوت صفير ويخرج برق أزرق وأبيض من الضوء المقدّس يخترق من كل المكان، كما لو أن الملايين من ومضات التصوير الفوتوغرافي تعانق الحاضرين وتنعكس على الحيطان وتضيء كلّ الشموع من هذا النور. في القبر المقدس يخرج النور ويضيء الشمعة التي يحملها البطريرك. ويبدأ الحاضرون في الهتافات والصلاة بينما تنساب دموع البهجة والإيمان من عيون الناس». (المترجم).

«سأذكر كل ما أعرفه، وما شاهدته بنفسي، بشأن كنيسة العريان بالقرب من حلوان.

«كي تذهب إلى هذه الكنيسـة من القاهرة لابد من أخذ قطار حلوان حتى محطة المعصرة. وتقع الكنيسـة في منتصف الطريق بين المحطة ونهر النيل، على مسيرة حوالى ٢٠ دقيقة تقريبًا من المحطة. الكنيسـة نفسها جميلة جدًا، وتحيط بها الحدائق والنخيل والمزارع وغيرها من كل الاتجاهات.

وأقتبس النص التالي من كتاب المواعظ والاعتبار للمقريزي المؤلف المعروف الذي كتب عن الآثار المصرية. وهذا المؤلف مسلم والكتاب باللغة العربية.

«دير الشعران: هذا الدير في حدود ناحية طرا وهو مبنيّ بالحجر واللبن وبه نخل وبه عدة رهبان ويُقال: إنما هـو دير شـهران بالهـاء، وأنّ شـهران كان مـن حكماء النصارى وقيـل بل كان ملكًا وكان هذا الدير يُعرف قديمًا بمرقوريوس الذي يقال له مرقورة وأبو مرقورة ثم لما سكنه برصوما بن التبان عُرف بدير برصوما...».

ويمضي صديقي الشاب قائلاً:

«يُذكر في النص نفسـه أن شـعران هي المكان الذي وُلِد فيه موسـى، وهي المكان ذاته الذي وضعته عنده أمه في الماء.

«الاسـم المسيحي لـ«العريان» هو برسـم ابن التبـان، وكان راهبًا وناسـكًا. وكان يُسمى العريان لأنه اختار العيش عريانًا؛ وقد اضطُهد ومات باسم يسـوع المسـيح. ولا يوجد رهبـان في هذا الدير حاليًا، حيث قتلهم جميعًـا العرب بعـد فتح مصر. والكنيسة فقط هي التي بقيت كما كانت.(١)

(١) «وافق البابا [كيرلس الخامس ١٨٧٤-١٩٢٧] على ترميم كنيسـة الأنبا برسـوم العريـان والدير التابع له في طرة، ثم أقام بجانبهما بيتًا للضيافة، ووجد البابا أن أرض الدير واسـعة جدًا فشجع الرهبان على زراعتها، فأصبحت نزهة للزوار بمجرد امتداد الخضرة على أرضه، وكانت هناك أرض تطل على النيل مزروعة بأشجار النخيل فبنى عليها كنيسـة باسم مار جرجس كما ألحق بها بيتًا لسكنى الكاهن وعائلته، وكان على الضفة المقابلة أرض فسـيحة كانت بها أشـجار نخيل يحيط بكنيسـة دير الشـهيد أبي سيفين، فرمم الكنيسـة والدير ونثر بين النخيل مجموعة من المسـاكن الأنيقة ليرتاح فيها طالبو البركة والشفاء». («موسوعة تاريخ أقباط مصر» www.coptichistory.org) (المترجم).

«يُقام احتفال سنوى فى هذه الكنيسة فى الأحد الخامس من الصوم الكبير، ويذهب إلى هناك عدد كبير من الأقباط، ويُعتبر ذلك اليوم عيدًا عامًا. وهم يذهبون مساء يوم السبت ويبقون هناك حتى يوم الأحد.

«إنهم يخرجون إلى الحدائق وحول المزارع وبساتين النخيل - رجالاً ونساء وفتيان وفتيات - وقد امتلأوا فرحًا وبهجة ليتجولوا فى المكان دون أن يكون لهم أى حديث سوى قدسية المكان، والرؤية التى تظهر فى قبة الكنيسة أثناء القُدَّاس أو قبله بقليل.

«وأظن أنه يمكننى القول، بكل ثقة وتأكد، إن الرؤية تظهر بالفعل فى قبة الكنيسة.

«كنت أظن فى البداية أن حكاية الرؤيـة هذه مجرد خرافة، وأنها تخلو من الصحة تمامًا. وبناء على ذلك الاعتقاد ذهبت إلى الكنيسة فى عيد العريان، مع سبعة من أصدقائى الذين كانوا يعتقدون ما أعتقده. لم نهتم بالتمشية هناك؛ فقد ذهبنا من أجل غرض واحد، وهو الرؤية.

«فى يوم الأحد، وفى الصباح الباكر، صعدنا إلى الطابق الأعلى واتفقنا مع الخدم أن يتركونا وألَّا يسمحوا لأحد سوانا بالصعود. سددنا نوافذ القبة، ثم نزل أربعة منا، أنا منهم، إلى أسفل فى الكنيسة، وبقى الأربعة الأخرون فى الطابق الأعلى لمراقبة القبة.

«اقترحت على أصدقائى أن الأمر سيكون أفضل لو أن كل واحد منا ذهب إلى ركن من أركان الكنيسة لمراقبة جزء معين، حيث قد يكون لدى شخص ما فانوس سحرى أو جهاز ما يعكس الصورة على القبة. ولكن لم يكن هناك وجود لهذا الشىء بالمرة فى الكنيسة.

«كان البطريرك حاضرًا فى ذلك اليوم، وكان هو الذى سيتولى القُدَّاس. وعلى وجه الدقة فى بداية ذلك الجزء من القُدَّاس الخاص بالقديسين، ظهرت الرؤية فى منتصف القبة.

«قد أكون أول من شاهد الرؤية. إنها تشبه كثيرًا جدًا صورة القديس جورج المرسوم على الجنيه الإنجليزى الذهب. توقف البطريرك لبضع دقائق، وانحنى كل

من كانوا داخل الكنيسة للرؤية ورفعوا أيديهم وهو ينطقون بخشوع بأمنياتهم وصلواتهم.

«كان البطريرك يصلى بجد وهمة وقد هزتنى كلماته.

«أرسلت فى طلب أصدقائى الذين كانوا فى الطابق الأعلى فنزلوا على الفور ورأوا الرؤية التى كانت واضحة وضوح الشمس.

«ولا بد أن أقول إن اعتقادهم بأن الرؤية محض خرافة قد تزعزع منذ ذلك الحين.

«فعلت أمى الشىء نفسه منذ عشرين سنة. فهى لم تكن تؤمن بأن الرؤية حقيقية وبأنها أمر معجز.

«لذلك أخذت رداء نوم خاصا بى ووضعته على نافذة القبة، لمنع أى ضوء من اختراق القبة، وظلت فى الطابق الأعلى الوقت كله. ولكن بمجرد بدء القُدَّاس، الذى كان يؤديه البطريرك بنفسه كذلك تلك المرة، شوهد الرداء وهو يحترق فور ظهور الرؤية.

«حدث ارتباك داخل الكنيسة، وعلى الفور أطفأت أمى النار التى فى الرداء، وأخذوها بعد ذلك إلى البطريرك حيث روت له قصتها كلها.

«أخذ بعض الأشخاص البارزين الذين كانوا حاضرين قطعًا من الرداء، ولا يزالون يحتفظون بها حتى اليوم. وأظن أن البطريرك ما زال يحتفظ ببقية الرداء كذلك.

«وعلى أية حال فأنا لا أعرف كيف تؤمن بهذه الرؤية ولا أجد تفسيرًا لها. ولكنى رأيت الأمر، واقتنعت بأن يدًا بشرية لم تقدمها.

«وهكذا يا سيدى يمكنك أن تفهم الأمر كما شئت وتحكم عليه بنفسك.

«والآن اسمح لى أن أحكى لك شيئًا عن كنيسة أخرى يذهب إليها من حين لآخر الأشخاص الذين تتلبسهم الأرواح الشريرة التماسًا للشفاء من عللهم. تسمى هذ

الكنيسة باسم القديس مارجرجس، وهى تقع فى قرية ميت دمسيس التابعة لمـ سمنود بمديرية الدقهلية فى الوجه البحرى.

«يُحتفل بعيد مارجرجس فى هذه الكنيسة فى شهر أغسطس من كل عام، وفى هذا اليوم المحدد يذهب الأشخاص الذين تتلبسهم أرواح شريرة ويتمون إلى الأديان جميعًا إلى هناك وقد ارتدوا أردية بيضاء. وبعد القُدَّاس يسجدون عند الهيكل ثم يأتى الكاهن ويصلى لمدة ساعة أو ساعتين، حيث تُسمع أصوات عالية جدًا من المرضى كافةً الذين ينهضون تدريجيًا الواحد تلو الآخر.

«يمكن بعد ذلك أن ترى على ذيل كل رداء أبيض للساجدين بقعة من الدم على شكل الصليب، وفى بعض الأحيان يكون الصليب واضحًا كل الوضوح.

«وقد شاهدت ذلك بنفسى ولا أشك فى وجود أمر مقدس يتعلق به.

«أهم موالد القديسين جميعًا التى يحتفل بها الأقباط هو مولد الست دميانة، ذلك أنه يجتذب الآلاف من الناس الذين يقيمون مخيمًا كبيرًا حول الكنيسة فى الصحراء. وهنا أظن مرة أخرى أنه من الأفضل أن أترك قبطيًا متعلمًا، من الطائفة الأرثوذكسية، يصف هذا الاحتفال المدهش. السيد فريد كامل الذى كتب لى ما يلى قريب الكاهن المسئول فى كنيسة دميانة وهو نفسه على معرفة وثيقة باحتفالات المولد هناك.

«تتفق كتب التاريخ الموثوق بها على أن القديسة دميانة (أو الست دميانة) كانت إحدى شهيدات الاضطهاد الرهيب الذى مارسه الإمبراطور دقلديانوس ضد المسيحيين فى أواخر القرن الثالث الميلادى وبداية القرن الرابع، حيث يقدر عدد من مات من الأقباط بحوالى ٨٤٠ ألف قبطى.

«كان والد الست دميانة، واسمه مرقس، موظفًا حكوميًا ـ مدير إقليم يسمى بيريليو[1] فى شمال الدلتا. وعندما كانت دميانة فى الخامسة عشرة من عمرها عبرت لأبيها عن رغبتها فى تكريس نفسها بالكامل لعبادة الرب، فى عزلة. وربما كان ما تقصده بذلك هو المبدأ الجديد الخاص بحياة الرهبان.

---

(١) لم أجد بين أقاليم الوجه البحرى العشرين إقليمًا بهذا الاسم الذى كتب هكذا Berrelluo فى النص الإنجليزى. (المترجم).

«حقق لها والدها رغبتها وأمر ببناء بيت منعزل فى مكان يُسمى زعفرانة على بعد حوالى اثنى عشر كيلومترًا شمالى بلقاس.

«وبما أنها ابنة حاكم إقليم، فسرعان ما باتت أخبار ما قامت به معروفة، وتبعتها حوالى أربعين شابة من المنطقة قبلن أن يعشن معها حياة الصلاة فى المنزل نفسه.

«حدث أن أصدر الإمبراطور أوامره بإجبار رعيته على عبادة الأوثان. وأطاعه فى ذلك موظفو الحكومة ومنهم مرقس.

«ما إن وصلت الأخبار إلى ابنته حتى حزنت حزنًا شديدًا وكتبت إلى والدها. ويُذكر كذلك أنها ذهبت إليه ولامته على ضعف إيمانه، وشجعته على عصيان الأوامر الإمبراطورية. واستمع إليها وأعلن عزمه عصيان الإمبراطور؛ وكان مصيره الموت.

«حين سمع الإمبراطور أن ابنة مرقس كانت سبب تماسكه، أرسل بعض حاشيته طالبين منها تأييد عبادة الآلهة. ولكنها رفضت فأمر بإخضاعها لكل صنوف العذاب المستخدمة حينذاك فى اضطهاد المسيحيين، ولكن دميانة لم تنكر قط عقيدتها المسيحية، وفى النهاية قطعوا رأسها ورءوس تابعاتها كافةً.

«عندما استراحت الكنيسة المصرية بعد تلك الاضطهادات الرهيبة، بدأت فى جمع ما يُروى عن شهدائها، وفى تقدير تاريخهم كشهود على قيمة إراقة الدماء للحفاظ على المسيحية فى مصر. ومن بين من اعتُرِف بهم شهداء مسيحيين فى تلك الفترة القديس چورچ (مارجرجس) والقديس برسوم والقديس مينا والقديسة دميانة وكثيرون غيرهم.

«أحسنت الكنيسة صنعًا بتفكيرها فى بناء كنيسة باسمها فى المكان الذى عانت فيه. وعندما كُرِّست الكنيسة فى سنة ٣٥٠ ميلادية تقرر أن يكون ذلك التاريخ عيدًا سنويًا يحل فى العشرين من مايو.

«هُدمت تلك الكنيسة وأعيد بناؤها مرات عديدة. وقد رممها على الوضع الذى هى عليه الآن الأنبا باسيليوس مطران القدس القبطى الذى تنيح فى عام ١٨٩٩.

ويتكون المبنى حاليًا من دير يضم أربعة كنائس، يُفترض أن إحداها فوق قبر الست دميانة، ومنزل يقيم فيه المطران، والعديد من الغرف للزوار.

«وما زال المولد يحضره كل عام فى الفترة من الخامس إلى العشرين من مايو ما بين ٤ و٦ آلاف حاج يأتون من كل أنحاء مصر. وعادة ما ينصبون الخيام حول الدير ويقيمون هناك لفترة لا تقل عن ثمانية أيام ولا تزيد على خمسة عشر يومًا تنتهى بيوم الاحتفال الفعلى.

«تذهب فى العادة أعداد من التجار الذين يقيمون سوقًا يبيعون فيها الطعام والشراب، وأحيانًا الملابس والزينة والعطور والخواتم والمناديل والعصى وغيرها، وخاصة الصلبان الخشبية والنحاسية المستوردة من القدس لبيعها هناك. ويشترى الزوار تلك الأشياء ويأخذونها إلى أقاربهم القرويين، اعتقادًا منهم بأنها تنقل البركة من الست دميانة.

«يعتقد الأقباط أنه بما أن القديسين سمحوا بإراقة دمائهم حبًا ليسوع المسيح، فإن لهم فضلاً عليه، وسوف يقبل شفاعتهم. وهكذا فإنه إذا كان الرجل يعبد الرب، ويصلى له باسم أحد القديسين، فسوف تُقبل صلاته.

«إنهم يلجأون إلى مارجرجس، على سبيل المثال، لقدرته على طرد الأرواح الشريرة؛ ويلجأون إلى الست دميانة لقدرتها على أن تهب الخصوبة للنساء، أو الحياة الطويلة لأطفال المرأة التى فقدت الكثير من أبنائها فى سن الطفولة. ولذلك تقدم لكنيستها هدايا كثيرة من المال والحلى ولوحات كنسية من الذهب والفضة.

«ويذكر الناس العديد من عجائب الست دميانة ومعجزاتها. فمنهم من يقول: إنهم رأوا تلك المعجزات بأعينهم، بينما يدعى آخرون أنهم سمعوها من مصادر وثيقة. ومن بين تلك المعجزات التى وصلتنا أن الست دميانة يمكنها منع اللصوص من السرقة، أو من الهرب بما سرقوه. ويُلجأ إليها باستمرار كوسيلة لاكتشاف الممتلكات المسروقة، ولإعادتها لأصحابها الشرعيين.

«وهذا الاعتقاد من القوة بحيث لا تقع جريمة أثناء مولدها السنوى، وتوجد باستمرار قوة من البوليس هناك دون أن يكون لديها الكثير الذى تفعله.

«الاعتقاد الآخر هو أنه إذا نظر رجل هناك إلى امرأة بنية سيئة يصيب الضرر عينيه، أو أى جزء من جسمه؛ وبناءً على هذا الاعتقاد تختلط النساء بحرية مع الرجال فى هذه المناسبة دون أن يقع أى حادث مؤلم.(١)

«ويصل الأمر ببعض الزوار إلى ذكر أن الست دميانة كانت تظهر فى سنوات مضت فى نافذة صغيرة فى قبة قديمة ما زالت قائمة، ويُعتقد أنها قبة أول كنيسة تُكرَّس باسم الست دميانة. ويُقال إنها ظهرت بعد الصلاة وقُدِّم الشكر والتسبيح لساعات عديدة. ولكن الذين حققوا فى الأمر يقولون: إنه ربما كان انعكاس لبعض الناس الذين يمرون على السور الواقع خلف القبة.

«خلاصة القول هى أن المسلمين وكذلك الأقباط، الذين يعيشون فى تلك الناحية، يحترمون تلك القديسة أشد الاحترام، ويعتقدون أنها وسيلة منحهم أهم الفوائد، عندما يوجهون كلامهم إليها. وعادة ما تسمع المسلمين وهم يتغنون باسمها، حيث يدعونها قائلين «يا ست يا بنت الوالى».

«أول أهداف إقامة تلك الموالد إحياءً لذكرى القديسين هو حث الناس على الاحتذاء بهم وبإيمانهم القوى. وكانت أيام المولد تُقضى فى العبادة والصلاة والمناقشات الدينية، وفى بعض التسالى البريئة. ولكن منذ أن أظلت سُحُب الجهل سماء الكنيسة القبطية، تحولت تلك المراسم الجميلة على نحو كبير إلى لهو ومحض استمتاع. وهذه الأيام هناك زيادة فى الغناء والألعاب والشرب، وفى استخدام الكلمات غير المؤدبة إلى حد كبير فى بعض الأحيان. والأعداد التى تحضر القُدَّاسات فى الكنائس ليست كبيرة جدًا، مع أنه عادةً ما يكون هناك أناس كثيرون يحضرون صلاة اليوم الأخير. وفى رأيى أن بعض هؤلاء الذين يحضرون المولد يهينون القديسة أكثر مما يكرمونها. ويقع اللوم على رؤساء الكنيسة إلى حد كبير فيما يتصل بتلك الأوضاع».

(١) انظر كيف أمَّن هذا الحشد الكبير نفسه دون استعداده بأية دفاعات مادية؛ فالحماية الروحية كافية لمنع السرقات والجرائم وإيذاء النساء.

الفصل الحادى عشر

أصحاب الدكاكين والصُّناع الشرقيون

عندما قال ناپُليون إن المصريين قادرون على صنع البنطلون ولكن لا يمكنهم أبدًا خياطة الزر الأخير كان يعبر عن حقيقة لا تنطبق إلا على هموم الحياة الكبرى. نهم قادرون على وضع تصورات عظيمة، غير أن الإجهاد يصيبهم قبل تحقيق أفكارهم على نحو كامل، سواء أكان ذلك بناء قناطر، أو حفر قناة كبيرة، أو بناء دار واسعة لأنفسهم أو عمل حديقة ريفية. قد يُشَطِّبون المنزل، ولكنهم لا يزيلون من الفناء ركام البناءين؛ وربما يبنون كنيسة ويتركونها منعزلة لعدم وجود بضع ياردات من الطريق الذى يمكن اجتيازه للوصول إلى مدخلها الرئيسى.

لم يكن ذلك هو الحال فى زمن الرِّق؛ فالكثير من أعمال مصر القديمة الضخمة نُفِّذت عن طريق السخرة؛ وحتى فى تلك الأيام التى ألغى فيها اللورد كرومر استعمال السوط، كان حكام البلاد قادرين على أن يأمروا بمشروعات تنسجم مع خيالهم، واستخدام كل ما لديهم من سلطة لتنفيذها، مع تجاهل تام للحياة الإنسانية. وبتلك الطريقة أمر إسماعيل باستكمال الطريق إلى الأهرام، والفندق الذى فى نهايته، ودار الأوبرا العظيمة بالقاهرة خلال ثلاثة إلى أربعة أسابيع من بدء العمل فيها[١].

ليس لدى شك فى أنه لو نجح ناپُليون فى الحصول على السلطة الاستبدادية التى حلم بها لضَمِنَ الضغط الذى كان سيمارسه لاستكمال مشروعاته كافة، ولو بواسطة الشرقيين.

---

(١) استغرق بناء دار الأوبرا ستة أشهر. (المترجم).

بالنسبة للبنطلون الحقيقى، لا يفوق أحد المصريين فى العمل الصغير الذى يُشرَع فيه ويُنهى على الفور؛ أو فى ذلك العمل الدقيق مثل الحفر على النحاس، أو صنع المشربية، أى تلك السواتر الخشبية التى تشبه الدانتيلا (التى ترى من خلالها نساء الحرملك الحياة فى الشارع دون أن يَرَاهُنَ أحد)، أو فى أعمال التطعيم الرقيقة التى تزين المساجد والكنائس. إن العقل الشرقى لا تجهده أعمال كتلك. فالحماس الذى يبدأ به الشرقى المشروعات الكبيرة يستنزفه ضغط استكمال التفاصيل المملة التى تحتاج إلى يقظة دائمة والقدرة على مواجهة المصاعب الجديدة حين ظهورها.

ولكن إذا كانت المهمة واضحة أمام الشرقى فإنه ينجز عمله بصبر لا مثيل له. فهو مثابر مثل أى إنسان، إذا كان يعمل بإرادته؛ وهو يعمل أى عدد من الساعات، إذا كان هو الذى يختار الوقت الذى يعمل فيه؛ وهو يتسم بقدرات فنية ومهارة تفوق غيره فى بعض مجالات الصناعة؛ وهو مجتهد ودقيق فى الأشياء التى يفهمها. ولكنه لن يكون دقيقًا فى مواعيده، ولا يهتم بالوعود أو العقود. والواقع أن الأوروبى وحده هو الذى يمكنه أن يحلم بفرض تلك الاعتبارات على الصانع الشرقى؛ ذلك أنه لكى تحقق ذلك لا بد ألَّا تشغل تفكيره بغرض غير مفيد، وأن تضع نفسك خارج مجال ذلك الاهتمام والتعاطف بالقدر الذى قد يساعد على أن تحصل منه على أفضل عمل يقدر عليه.

قدر كبير من أجمل الصناعات فى مصر قام به أحفاد ذلك الجنس القديم الذى تثير أعماله الجميلة إعجاب العالم الحديث الذى نهب لوحات مقابره الجدارية وتماثيلها، وسرق مومياوات توابيتها وحليها، بل ولفائف الموتى نفسها.

يعرف العالم كله مهارة قدماء المصريين فى صنع أنواع الحلى كلها، وفى تصنيع الجواهر والحجارة. وفى الكتاب المقدس هناك ذكر دائم لتلك الصناعات اليدوية التى لا بد أن تعلمها جرى فى مصر. فهناك صورة فى سفر إشعياء يمكن رسمها اليوم. «فشدد النجار الصائغ الصاقل بالمطرقة الضارب على السندان قائلاً عن الإلحام هو جيد» (٤١ : ٧) وهناك بعض الشك فى أن تلك الفنون بلغت تطورًا كبيرًا فى مصر قبل زمن إبراهيم، وهو أول زائر عبرانى مسجَّل لمصر، ولا بد أنه عاد إلى



من هنا تُشترى شموع الطقوس التى لها دور مهم فى الوظائف الاجتماعية فى حياة الأهالى وفى قداسات الكنيسة.

كنعان بعينات من مهارة البلاد الفنية، ومن بينها أشياء ثمينة من الذهب
مسجل أنه حصل عليها من مصر.

هذا الشكل المحدد من المهارة الفنية ما زال قائمًا فى العمال الموجودين بالأسواق المصرية الذين يُبْدُون مهارة فى صنع أشياء جميلة من المعادن النفيسة بآلات بدائية. ومن المحتمل أن الناس يعملون منذ آلاف السنين فى تلك الأسواق وفى الدكاكين الصغيرة ذاتها، ويرتدون الملابس نفسها، ويحصلون على الأجر الزهيد نفسه الذى يوفر لهم النوعية ذاتها من الطعام التى نراهم يأكلونها الآن.

تتحدث رسالة من القرن الثانى الميلادى، يُقال إن هادريان كتبها، عن الأقباط باعتبارهم جماعة ثرية ومزدهرة لا يعيش منها أحد عاطلاً. «فالبعض ينفخ الزجاج والبعض يصنع الورق، والبعض الآخر الكتان؛ بل إن هناك عملاً للأعرج والأعمى». وهو يشير فى فقرة أخرى إلى أن الرجال البارزين جميعًا، سواء أكانوا يهودًا أو سامريين أو مسيحيين، خبراء فى الرياضيات ومنجمون وعرافون.

عندما فتح العرب مصر استغلوا المهارة التى أعجبوا بها فى الصناعات القبطية لإثراء المساجد والقصور والمقابر التى بنوها؛ وعندما أصبحت السيادة فى مصر للأتراك نقلوا أمهر الصُنَّاع لتجميل الآستانة، مما أفقد مصر تفوقها الرائع فى العمارة والفنون الزخرفية.

تمثلت مهارة المصريين فى أعمال التطعيم والفسيفساء بدايةً فى الكثير من الكنائس القديمة، ثم فى المساجد. ويمكن رؤية استخدام الرخام الملون فى زخرفة الجدران والأرضيات فى الكنائس الموجودة فى العَذْرَا بالقاهرة، وفى مسجدى قايتباى والأشرف، وفى مقابر الخلفاء.

توجد فى كنائس وأديرة كثيرة نماذج شكل آخر من الفن القبطى وهو الفسيفساء الجميل المصنوع من قطع صغيرة من الرخام الملون وحجر السُمَّاق، مع خلطة من الصدف. وتكثر هذه الأعمال الرائعة فى أماكن التكريم الموجودة بلا استثناء فى الكنائس القبطية كافة، وخاصة فى حنيات الجدار الشرقى، وفى المنبر وما عليه من كرسى للبطريك أو الأسقف، ومقاعد شيوخ الكنيسة الاثنى عشر. وأظن أن مكان



سوق النحاسين. هنا يمكنك شراء كل أدوات المطبخ.

المعمودية فى الكنيسة الصغرى يمثل أفضل نموذج مبكر. ويحتوى الأمبون(١) (أو المنبر) فى كنيسة أبى سيفين على أعقد تصميم للفسيفساء. وبالنسبة للطريقة التى طوّع بها العرب هذا العمل، فإن مسجدى الغورى والحكيم بالقاهرة يطولان [illegible] غاية الروعة، وكذلك الحال فى بعض الأضرحة.

ويقال إن جمال حجاب كنيسة أبى سيفين بمصر القديمة، وهو من الأبنوس المطعم بالعاج، يجعله يستحق وحده أن يسافر المرء إلى مصر لرؤيته. وفى البطرخانة القبطية الجديدة(٢) بالقاهرة الشىء الوحيد الذى يستحق اهتمام من يبحثون عن الفن والجمال هو المنجلية(٣) المطعمة بالعاج، التى جىء بها إلى هذا المبنى المميز من إحدى الكنائس القديمة.

أخيرًا بدأت الكنيسة القبطية فى الانتباه إلى كنوزها، وينبغى أن يؤدى عمل مرقس

---

(١) جاء ضمن توجيه لمجمع الكنائس الشرقية: «يأخذ الأمبون فى التقليد الشرقى أشكالاً عديدة لها تعبير متشابهٌ نوعًا ما. ففى التقليد المسيحىّ اليونانىّ، كان بناءً يُعلن منه الإنجيل أو تُلقى العظة، أو يعلو المرنّمون لأداء دورهم. فى تقليد الكنائس السريانية يوازى الأمبون البيما، وهو مصطبة تُبنى وسط الكنيسة تحتوى على مقاعدَ للأسقف والكهنة وعلى مذبح صغير مع الصليب وعلى كتاب الإنجيل رشمعتين، وتدعى «الجلجلة». هنا يتلو الشمّاسُ الإنجيلىُّ الإنجيل، وهنا تُلقى العظة. وكما تدلّ علـى ذلك العبارتـان («أمبون» يذكّر بالارتفاع، و«الجلجلة» بموت الربّ ودفنه)، تذكّر رمزية الأمبون أيضاً بقبر الربّ الفارغ، حيث قام من بين الأموات، والباقى «علامة» حيث «ملاك القيامة»، الشمّاس الإنجيلىّ، يعلن على الدوام إنجيل القيامة». (المترجم).

(٢) هـذه هى التى يُطلق عليها البطرخانة القديمة الآن، وهى كائنة فى شارع كلوت بك. ففى ١٨ بؤونة من عام ١٦٨٤ الموافق الثلاثاء ٢٥ من يونيو عام ١٩٦٨ وفى السنة العاشرة لحبرية البابا كيرلس السادس - وهو المائة والسادس عشر فى سلسلة باباوات الكرسى المرقسى السكندرى احتفلت الكنيسة المقدسة بافتتاح الكاتدرائية المرقسية الجديدة فى موقع دير الأنبا رويس الذى كان يعرف أيضا بدير الخندق. وقد أقيم لهذه المناسبة ولمناسبة عودة رفات القديس مرقس الرسول من روما - بعد أن ظل فى مدينة البندقية بإيطاليا أحد عشر قرنا أى منذ القرن التاسع للميلاد - احتفال دينى كبير رأسه البابا كيرلس السادس وشهده الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة والإمبراطور هيلاسلاسى الأول إمبراطور إثيوبيا وعدد كبير من رؤساء الأديان ومندوبى الكنائس فى كل العالم. ومنذ ذلك الحين صارت الكاتدرائية الأولى تُعرف باسم «البطرخانة القديمة». (المترجم).

(٣) المنجلية مكان قراءة الإنجيل وهو مكان مرتفع وأحيانا يسمونه المنبر. وقديما كان الوعظ هو مكان المنجلية. أما الأنبل فهو مكان الوعظ وهو مكان مرتفع فى صحن الكنيسة إشارة إلى سمو التعليم (وعظ المسيح فوق الجبل). (المترجم).

[illegible] سميكة باشا فى تكوين المتحف اللافت للانتباه فى مصر القديمة الكثير لتثقيف كل من الكهنة والعلمانيين فيما يتعلق بالقيمة الحقيقية لكثير من مقتنياتهم، التى كانوا ينظرون إليها بإهمال فيما مضى. وينبغى أن يصبح قريبًا من المستحيل على سبيل المثال ترك أغلى كتاب فى رعاية خادم جاهل لا يعرف الكثير عن قيمته أرانى إياه والشمعة تُساقط الشحم على صفحاته، وهذا فى القاهرة نفسها؛ أو دليل يخرج سكينًا لينفصل قطعة صدف من حجاب كنيسة لا يقدر بثمن، ظنًا منه أنه يرضى بذلك سائحًا إنجليزيًا بإعطائه تذكارًا لزيارته.

أصل الكثير من الحرف البدوية التى تُمارس فى مصر حاليًا جاء وصفه بوضوح فى الصور والكتابات الهيروغليفية التى تركها قدماء المصريون؛ ولا تزال القطع المعروضة هناك عزيزة على المصرى بحيث لا يمكن إقناعه بالتخلى عنها. وعند بدء حفر قناة السويس جىء بأعداد كبيرة من العربات الصغيرة من فرنسا لاستخدامها فى العمل؛ ولم يستخدم عامل مصرى واحد أيًا منها للغرض الصحيح. فقد استعانوا بها فى إقامة ملاجئ وأكواخ، بينما حملوا آلاف الأطنان من التراب فى مقاطفهم المعروفة المصنوعة من سعف النخيل اللين على الرءوس أو الأكتاف، تمامًا مثلما قد تراه مصورًا على جدران المقابر والآثار القديمة.

ربما كان صنع تلك المقاطف وغيرها من السلال من سعف النخيل هو الأقدم؛ ذلك أنه أكثر المهن شيوعًا فى مصر. وعندما ظن المسيحيون الأوائل أن فرصتهم فى الخلاص هى اللجوء إلى الصحراء والعيش حياة قاسية من الناحية الجسدية، قائمة على التفسير الحرفى لتعاليم العهد الجديد، جرّد الرجال أنفسهم من الممتلكات الأرضية كافة، وعملوا بأيديهم من أجل عيش الكفاف بالكاد. وعن طريق صنع السلال والحصير كان أغلب الرهبان والمتوحدين يجدون طريقة للحصول على الخبز، ومعاقبة أنفسهم على الحياة الناعمة التى عاشوها فى الدنيا، عن طريق تمزيق أيديهم فى العمل.

تُروى قصة عن أحد رهبان القرن الثالث فى مصر، وهو «أخ له ذكرى مباركة». فقد كانت له قلاية منفصلة عن قلايات إخوانه، وكان يعيش على الخبز والملح فحسب، وكان يصنع حصيرة من السعف المجدول كل يوم؛ وغالبًا ما يحدث

أن تصبح يداه مخضبتين بالدم، باستمرار أثناء جدله الحبال التى يُصنع منها الحصير، مما يجعل الحصير نفسه وكانت تكثر بهما الجروح التى تسببها الحبال الخشنة، ولم يكن يستريح الذى يصنعه مبللاً بالدم. ولكنه لم تكن تأخذه الشفقة بنفسه قط، أثناء النهار، ولم يكن يفته قُدّاس فى الكنيسة بالنهار أو فى منتصف الليل. وذات مرة ذهب إليه أخ وعندما رأى يديه تدميان رجاه أن يسمح للإخوة بأن يلبوا له احتياجاته؛ حيث إن من الواجب عليهم رعاية الغرباء والفقراء. ولكنه رد عليه بأنه لا بد أن يستمر فى عمله. فقال له الأخ: «إذا كان يرضيك أن تعمل هكذا، فلتدهن يدك بالزيت فى المساء». وفعل ذلك؛ ولكن لأن يديه باتتا رقيقتين، وربما نعَّمهما الزيت، كان سعف النخيل لا يزال يسحجهما ويجرحهما. ثم زاره رئيس الدير نفسه. وفى ظل إساءة فهم التوجيهات الأخلاقية التى كانت موجودة باستمرار فى تلك الأديرة المصرية، وبخ رئيس الدير الراهب المسكين على هذا النحو: «هل تظن يا تادرس أن للزيت أى أثر مفيد لك؟ من الذى أجبرك على العمل؟ هل وضعت أمل شفائك فى الزيت بدلاً من الرب؟ هل كان لديك شك فى قدرة الرب على شفائك؟ ومع ذلك فإنه حين رآك ترتب أمورك بنفسك تركك فى هذا الألم». تعطى الطريقة التى تحمَّل بها الراهب المسكين ذلك التوبيخ القاسى الذى نراه نحن قاسيًا وظالمًا كذلك، صورة صادقة عن الأرواح المعذبة لمعظم هؤلاء المسيحيين الأوائل الذين لجأوا إلى الصحراء. كان رد الراهب هو: «يا أبت، لقد أخطأت فى حق الرب، وإنى أعترف بخطيتى وأرجو أن يغفر لى الرب». وأمضى عامًا كاملاً حزينًا على ذلك العمل الأحمق الخاص بدهن يديه المسكينتين بالزيت، حيث كان لا يأكل إلا مرة واحدة كل يومين.

كان الرهبان والراهبات يقومون بكل الحرف والمهن التى كانت موجودة فى مصر ما قبل المسيحية. فكان هناك من يعملون فى قلايات منعزلة، وفى الأديرة؛ وكان هناك إخوة علمانيون يجوبون البلاد كباعة جائلين لتصريف منتجات ذلك العمل. وهم لم يكونوا يصنعون السلال والحصير فحسب، بل كذلك الحبال والغرابيل والشِّبَاك والنعال والأحذية والنسيج على أنوالهم. وكان أحد بطاركة الكنيسة قد عمل ذات مرة صانعًا للإبر.

وكان الرهبان يبيعون أقراص الخبز والخمر والكتان الذى نسجوه. وكانوا كتبة عموميين، وعمالاً فى البساتين، وعملوا فى دكاكين الحدادين ومبيضى الأقمشة والخبازين والنجارين. وإذا لم تكن لهم حرفة، كانوا يقدمون الخدمة برعاية المرضى. وكانت صناعتهم رائعة، ويمكن أن تتخيل فقط أنه فى أعقاب إغراقهم الأسواق بالسلع انخفضت ولا شك أسعار سلع الحياة كافة، وكان لتلك السلع تأثير قوى على العلمانيين.

توضح قصة راهب كان يبيع الأحذية المصنوعة فى ديره المبادئ الاقتصادية التى كانت توجه رؤساء الأديرة. كان ذلك الأخ الذى يتجول لبيع الأحذية رجل أعمال ماهرًا وحريصًا على رفاهية مجتمعه. ولكن أفكار رئيس ديره عن النزاهة كانت تعوق استفادته من مواهبه. وفى وقت المجاعة التى أصابت مصر فى زمن باخوم، استغل ذلك الرجل مواهبه التجارية بعثوره على رجل «يحترم الرب ويخشاه» كان باعتباره حاكمًا لإحدى المدن لديه مخزن للقمح، كان على استعداد لبيع جزء منه بسعر منخفض للدير. «إذا أخذت القمح فسوف تؤدى لى معروفًا، وهو أن تصلى لى». وانطلق الراهب بحمولة مركب من القمح. ولكن أخبار صفقته العجيبة كانت قد سبقته بالطبع، وقابل المركبَ رسولٌ من رئيس الدير يحمل توبيخًا رهيبًا. فلا ينبغى أن تدخل حبة قمح واحدة الدير، ولا يدخل الراهب فى حضرة رئيس الدير قبل أن يبعدها. وكانت خطيئته أنه أصبح يثيره حب المكسب!

وفيما يتعلق ببيع الأحذية، أرسل الأخ بتعليمات تتعلق بالسعر الذى يطلبه مقابل بضاعته، ومن الواضح أنه سعر أدنى ما يكون. قال بعض المشترين: «لو كانت هذه الأشياء مسروقة لكانت قيمتها أعلى من ذلك بكثير». وعندما شعر الرجل بالخجل قال إنها ليست مسروقة، وأنه يمكنهم أن يدفعوا السعر الذى يريدونه. ولم يعد النقود، بل أخذها إلى رئيس الدير. ولكن فى تلك الفترة لم يكن هناك وجود لمبدأ «الشُغْل شُغْل» ولم تكن هناك مكافأة للحذاقة. وكان تعليق رئيس الدير هو: «لقد أخطأت خطأ كبيرًا يا بُنى بحبك للزيادة. أسرع وأعِد الزيادة، وتعال وتُب. اجلس فى الدير من الآن فصاعدًا واعمل بيديك؛ فليس من الخير أن تقوم بعمل من هذا النوع مرة أخرى».

يُروى عن بستانى فى أحد الأديرة أنه أمضى خمسة وثمانين عامًا مضنية فى تلك الوظيفة. فقد زرع كل أشجار الفاكهة الموجودة فى حديقة الدير، وكان حتى يوم مماته لم يذق طعم أية فاكهة كانت. ولم يكن يعرف ما هى راحة الجسم، ذلك أنه

كان يَكِدُّ باستمرار بعقل راضٍ؛ ولم يأكل طعامًا مطهيًا قط، بل عاش طوال سنوات عمره على نبات لسان الحَمَل وحده الذى يأكله مع الخل. ولم يرقد قط على ظهره حتى حين لم يعد بإمكانه الوقوف فى النهاية، ولم تكن له وسادة أو أى شىء يريحه. وكانت الدنيا تظلم وهو لا يزال يعمل، حيث كان يجدل الحبال بدون أى ضوء، أثناء تلاوته للكتاب المقدس. وكان له ثوب واحد من الكتان يلبسه حين يذهب إلى الكنيسة للمشاركة فى الأسرار المقدسة، وبعد ذلك يخلعه. وبهذا القدر من العناية بقى معه الثوب خمسة وثمانين عامًا!

كانت الراهبات على القدر نفسه من الضنى والكد. فقد كانت البتول تاؤر(1) التى لم تكن تلبس شيئًا سوى الخِرَق، وترفض حتى وضع غطاء على رأسها، تجلس الساعات كلها تعمل. ويروى پالاديوس (2) أنها اكتسبت بتلك الوسائل مظهرًا يدل على الحصافة والحكمة والتأهب، حتى أن كل رجل اعتاد على بُغض منظر النساء

---

(1) «تربت هذه القديسة على حب الصلاة والعبادة لله فنشبت منذ نعومة أظافرها على حب الحياة الكنسية وكذلك والديها. فلما وصلت إلى سن الزواج أراد والديها أن يزوجاها فرفضت متمسكة بحياة البتولية وذهبت إلى أحد أديرة الراهبات ووضعت نفسها تحت إرشاد وتدبير الأم الرئيسة المسئولة عن الدير وسلكت فى الدير مسلكا من نوع خاص فكانت تتنسك تنسكا شديدا وتلبس ملابس زهيدة. ولم تكن تقبل أن تضع غطاء فوق رأسها مثل زى الراهبات. أو تنتعل صندلا. ولا تخرج خارج أسوار الدير وكانت ترتدى خرقا بالية وتقضى فى العمل اليدوى ساعات طويلة وهى فى حالة صلاة دائمة. وامتلأت من الحكمة الروحية ما فاقت به غيرها من الراهبات. واستمرت على هذه الحالة فى حياتها مدة ثلاثين عاما عابدة الرب بدون كلل أو ملل منتصرة على حروب الشياطين. ولما أراد الله راحتها الأبدية مرضت مرضا بسيطا انتقلت على أثره إلى فردوس النعيم حيث ما لم تره عين وما لم تسمع به أذن وما لم يخطر على قلب بشر.. فذهبت إلى عريسها السمائى». (منتدى مارمينا http://www.mar-mina.com/vb/showthread.php?t=6038) (المترجم).

(2) «يعتبر من أهم مؤرخى الرهبنة القبطية، زار منطقة نتريا والقلالى، وعاش كصديق للقديس مقار السكندرى، لكنه كان بفكره أكثر قربًا للقديس أوغريس البنطى بل يُحسب تلميذًا له، إذ تلاقيا خلال محبتهما لفكر أوريجينوس من جهة الاتجاه العقلى التأملى عوض الحياة الرهبانية البسيطة، فأقاما أشبه بمدرسة رهبانية داخل الحياة الرهبانية المصرية، ضمت أنصار الفكر الأوريجينى، الأمر الذى سبب شرخًا وانقسامًا فى رهبنة نتريا على وجه الخصوص.... وفى حوالى سنة ٣٨٨م أراد أن يلتقى بمتوحدى مصر ويتعرف عليهم ويتلمذ على أيديهم، فذهب إلى الإسكندرية وبقى فيها قرابة ثلاث سنوات.... نفاه الإمبراطور أركاديوس إلى صعيد مصر حيث بقى هناك إلى سنة ٤١٢م يتنقل فى منطقتى طيبة وأسوان». (قاموس آباء الكنيسة وقديسيها) (المترجم).

كان يوشك أن يقع فى الفخ ويسقط عند مرآها، لولا أن الاستحياء الذى هو حارس العفة كان يصاحبها دومًا، وأنها كانت توجه نظرتها بطريقة عفيفة من خلال الخجل والخوف.

حتى يومنا هذا ليس هناك تغيير فى سلع الحياة اليومية التى لا حصر لها المصنوعة من سعف النخيل. وفى صناعات الشرق كافة يفعل الصانع العجائب بمهارة مستخدمًا أدوات بدائية. فلا يحتاج القفاص من الأدوات إلا إلى سكينٍ قطع الجريد ومطرقة خشب يصنع بهما العديد من الأشياء الرخيصة كالكراسى والأسِرة والكنب والمكانس وأقفاص الطيور وأقفاص الخضروات والفواكه.

النجار الذى نراه يعمل فى الأسواق ليس لديه منضدة (بنك) أو ملزمة (منجلة) أو مثقاب (شنيور). وبدلاً من المسطرة يستعمل حبلاً أو جريدة نخل؛ ولكنه يمتاز على العالم الغربى، بما لديه من حقيبة أدوات غالية الثمن، بكونه قادرًا على العمل بأصابع قدميه قدرته على العمل بأصابع يديه، كما كان يفعل المصرى القديم، بالإضافة إلى استعماله أسنانه فى بعض الأحيان.

أداته الرئيسية بلطة صغيرة، ويستخدم للثقب مسمارًا من الحديد مثبتًا فى قطعة مستديرة من الخشب يديرها بواسطة ما يشبه قوس الكمان؛ وهى تعود كذلك إلى العصور المصرية القديمة. ويبدو تشغيلها أمرًا سهلاً جدًا بالنسبة للأوروبى، غير أن أية محاولة لتجربتها كفيلة بأن تقضى على الثقة بالنفس.

أحد أكثر الأدوات المستخدمة فى الأسواق بدائيةً هو منفاخ صائغ الفضة وصانع الأقفال والسمكرى. تُصنع كومة صغيرة من الطين على أرضية الورشة يمر خلالها أنبوب معدنى، هو فى الغالب ماسورة بندقية قديمة. تتصل بأحد طرفى الماسورة قربة من جلد الماعز يفتحها الصبى من أحد طرفيها ليدخل الهواء، وبعد ذلك يضغطها ليدفع الهواء من خلال الماسورة إلى منتصف النار المشتعلة عند الطرف الآخر؛ وتضم كومة الفحم الصغيرة أحجارًا غير متماسكة ببعضها.

إذن فمن الممكن العثور بين الصُناع والتجار الأحياء فى الأسواق على الكثير مما تبقى من حياة مصر ما قبل المسيحية وعاداتها، ومن المؤكد أنه تعيش هنا من جديد

تلك الصور الحية التى رُسِمت لنا فى «ألف ليلة وليلة» بلا أى تغيير. وكما [illegible] مصر الفرعون على نحو طبيعى فى مصر الحاكم المسيحى، فقد انتقلت فيما بعد إلى مصر الخليفة أو السلطان؛ ولا يختلف الناس أنفسهم فى ملبسهم، ناهيك عن أساليب حياتهم، عما كان عليه أسلافهم.

يقتنع عالم الإثنولوجيا الحديث، عند زيارته لأحد الدكاكين فى أسواق أية مدينة مصرية ـ ربما باستثناء المدن الساحلية الكوزموبوليتانية ـ بأنك إذا التقطت بطريقة عشوائية رجلاً ينتمى إلى عامة الناس، وخلعت من عليه الملابس الخارجية الأكثر حداثة التى تشمل قميصًا فضفاضًا وعمامة، وأخذت منه غليونه وقهوته، وحلقت ذقنه، وأجريت تعديلاً على عقيدته المسيحية أو الإسلامية، سيكون واقفًا أمامك أحد أهالى كيمى (١) الأصليين.

من المؤكد أنه سيكون له تلك الأطراف النحيفة، ولكنها قوية، وذلك الصدر العريض، ونمط الوجه نفسه، بوجنتيه العريضتين، وشفتيه البارزتين، وأنفه العريض، وعينيه اللوزيتين؛ وكذلك الرأس الحليق الصلب ذاته، وستجد فى العمق، رغم كل ضربات القدر، تلك الطبيعة الموروثة ذاتها.

ينطبق الأمر نفسه على منتجات الريف الطبيعية المعروضة هنا للبيع. فمعظم الفواكه والخضروات هى نفسها تمامًا كما نجدها على الآثار القديمة. وقد فقد اللوتس، الذى لم يعد نباتًا مقدسًا، مكانته المرموقة فى تقدير الناس، غير أنه من الخطأ القول إنه انقرض تمامًا فى مصر؛ وبالنسبة للبردى القديم، فقد انتهى استخدامه؛ وقصب السكر الذى يمضغه الكل فى السوق دخل مصر فى العصور الحديثة، أحضره الخلفاء؛ أما الأرز والنيلة والذرة الشامى، التى تشكل جزءًا كبيرًا من مخزون أى تاجر غلال، فقد استُوردت فى زمن لاحق.

تختلف مصر الحديثة فى شىء واحد اختلافًا تامًا عن مصر الفراعنة. فمع اقتصار الحرف القديمة المختلفة على أفراد طوائفها، كانت هناك عقوبات شديدة تنتظر من يتركون حرفتهم ويقتحمون حرفة غيرهم. وكان الابن يتبع باستمرار حرفة والده. أما اليوم فكل إنسان حر فى أن يعمل كما يشاء.

(١) اسم مصر فى العصور القديمة. (المترجم).

وتستحق نداءات الشوارع الخاصة بتجار السوق الجوالين فى حد ذاتها الملاحظة. فها هو رجل ألقى بضاعته على كتفيه يعلن أن لديه «موسلين الهند والموسلين الإنجليزى الفاخر يا بنات!» بنبرة جَهْوَرِيَّة. وهو غنى بطلاقة الإعلان المبالغ فيه عندما تستوقفه النساء بالاستفسارات.

يأتى رجل عجوز أسود على رأسه صينية وهو يغنى بنوع من الإيقاع «ملبسية! حمصية!» ويجد على الفور من يشترى منه قطع الحلوى المستديرة والملبس المصنوع من البازلاء المجففة والسكر.

ويصيح آخر «التين، أكل السلاطين!» ويلفت رجل معه زجاجة ضخمة الانتباه بضرب أكوابه ببعضها وغنائه «هنا إللى يروى العطش يا رجالة». وكل تلك الصيحات لها سحر لا يمكن الاحتفاظ به فى الترجمة.

وغالبًا ما تكون الكلمات التى يتمدح بها الرجل بضاعته شعرية على نحو غامض، بحيث يكون من المستحيل تخمين ماذا يبيع. ويبدو فى حالة بعض تجار الشوارع أن الشىء الصحيح هو إطلاق اسم مختلف تمامًا عن البضاعة التى يعرضونها بالفعل وأكثر منها جاذبية. يردد رجل عجوز لا يحمل شيئًا سوى الجزر «عسل وسكر! يا عسل!» وتنادى فتاة بأجمل طريقة «عسل أبيض! عسل صافى يا عنب!» وهى تعرض الجميز، وهو فاكهة رخيصة لها نكهة غير قوية. وتنادى فتاة أخرى تبيع الزهور «روايح الجنة!» ويقول مَثَلٌ يُسمع كثيرًا فى القاهرة «مش كل من شال صينية معاه حلاوة يبيعها».

ينادى السقا «عطية الله» وفى بعض الأحيان «يعوض الله» ويُعرض القصب «بالصلاة على النبى». ويمر بائع الترمس بما قد يكون أكثر النداءات شاعرية «الحقوا! يا إمبابة الحقوا! ترمس إمبابة أحلى من اللوز؛ ما أحلاه ابن البحر الصُّغَيَّر!»(١)

(١) المعروف أن باعة الترمس كانوا يضعون الترمس الجاف فى أجولة يربطونها بحبل ويتركونها فى ماء النيل عدة أيام قبل إخراجه وتمليحه. والمعروف أن مجرى النيل أمام إمبابة أقل عرضًا مما على الطرف الشرقى من الجزيرة، فيسمى «البحر الصغير». وهى التسمية نفسها التى تُطلق على سيالة الروضة، وهى مجرى النيل شرقى جزيرة الروضة. (المترجم).

يتذكر المصرى باستمرار أعياد السنة المختلفة بواسطة البضائع التى يحملها باعة الحلوى. فهناك بعض الحلوى المختارة التى لا تظهر إلا مع العيد الذى ترتبط به على الدوام، وليس هناك ما يغرى البائعين بإنتاجها فى أى وقت آخر.

نحن نمر الآن من عند مدخل مقنطر ويمكننا أن نرى من خلاله مخزن القمح البديع وأمامه جمع صغير من أهل الريف يقومون بأعمالهم، ومنذ فترة بعيدة رأى رحالة عند مدخل أحد تلك المخازن، فى أحد الأسواق، كرسيين على خشبهما حفر جميل، ومن الواضح أنهما كانا قديمين إلى حد بعيد ويشبهان تمامًا من حيث الشكل تلك الكراسى التى نشاهدها مع الآثار المصرية فى المتاحف، وقد عَلَّق قائلاً: إنه ربما كان يوسف يجلس على مثل هذا الكرسى حين كان يشرف على بيع القمح، بينما يقف أبناء يعقوب بجوار حميرهم إلى أن تُعبَّأ أكياسهم، مثلما ينتظر هؤلاء الرجال الآن.

الفلاح الذى نراه يمر فى السوق حاملاً زوجًا من الأوز من جناحيهما، بالطريقة الخاصة بمصر، ربما يكون قد خرج للتو من اللوحة الموجودة على جدار إحدى المقابر القديمة؛ ذلك أن الصورة التى يصنعها مطابقة لها فى كل التفاصيل.

وهذا الشيخ الذى يمر أمامنا ببطء متوكئًا على عصا خاصة بالدراويش ـ مقطوعة باستمرار من شجرة لوز ولها شعبتان ـ تشبه تمامًا العصا التى تظهر كثيرًا فى أيدى الآلهة التى صورها المصريون القدماء.

الحداد الذى يعمل هنا صورة طبق الأصل من صانع العصور القديمة، وهو يصنع أدوات تعود إلى فترة سفر التكوين، مثل الرجل الذى سوف يستخدمها. إنه عارٍ حتى خصره، ويمسك بمطرقته ـ يدها فرع شجر معقد، على النحو الذى كان ينمو عليه ـ ويضغط منفاخه البدائى، ويمكن أن يمثل إلى حد كبير صورة من الحرفى القديم. وسوف يجد المحراث الذى يصنعه طريقه إلى الريف، كى يعمل به فلاح يخلع ملابسه كلها تقريبًا حين يعمل فى الحقل، صانعًا صورة قد تشبه صورة عامل الزراعة القديم. ومن المؤكد أن المحراث هو نفسه تمامًا الذى كان المصريون القدماء يستخدمونه، وكذلك الفأس والمِعْوَل.

نصل فى نهاية أحد شوارع السوق الكثيرة إلى ورش مزدحمة بالعمل، حيث يصنع الرجال الأقوياء من الخشب الخام الراقد عند المدخل أذرعة الشادوف، وهو الأداة التى يُرفع بها الماء فى أماكن كثيرة على النيل باستمرار إلى مستوى الأرض التى يخصبها.

والشادوف معروف بالضرورة لكل المسافرين على النهر الكبير، والمبدأ الذى يعمل به بسيط ويوفر الجهد. فرفع دلو الماء بواسطة ثقل مقابل له من الطين على الطرف الآخر من الذراع المتوازن أحد أقدم مخترعات الإنسان لتوفير الجهد بوسيلة ميكانيكية.

وفى الورش نفسها يصنع الرجال كذلك الساقية لرفع الماء بجهد الجاموسة أو البقرة الصبورة ـ وهى اختراع لاحق؛ إذ لم تكن معروفة فى زمن آخر الفراعنة.

كلما امتدت معرفة المرء بالتاريخ الاجتماعى لمصر إلى الوراء زاد اقتناعًا بأن التغيرات التى حدثت فى النيل تغيرات فى الأخلاق وليس فى العادات والتقاليد.

كانت هناك أيام أبدى فيها أهل مصر نشاطًا كبيرًا فى العلوم والآداب، وفى فنون الحرب الهجومية والدفاعية، وفى دعم القضايا التى يعزونها. وفى أزمنة لاحقة، حين كان الدين يؤثر فيهم بعمق، بحيث يمكنهم تحمل أقسى ما يفرضونه هم على أنفسهم من معاناة وحرمان، عاشوا حياتهم الطويلة وهم يعانون من أجل المسيح الذى تخلوا باسمه عن كل ما يملكون، بالمعنى الحرفى للكلمة.

وفى وقت لاحق حين استولى أتباع النبى على البلاد، كان هناك الكثير من الأمثلة الجديدة لنُبل الطابع، بين الأقباط والمسلمين على السواء؛ وحين بدأت الاضطهادات فى الظهور، وُجِد أن الشخصية المسيحية على استعداد لعصر مجيد من الشهادة.

دعة الحياة الحديثة، وحب الراحة، والهروب من المسئولية، والاختيار المتعمد من جانب القادرين على الارتقاء بواسطة المكر والمداهنة، والتآمر مع

يتذكر المصرى باستمرار أعياد السنة المختلفة بواسطة البضائع التى يُنادى عليها باعة الحلوى. فهناك بعض الحلوى المختارة التى لا تظهر إلا مع العيد الذى ترتبط به على الدوام، وليس هناك ما يغرى البائعين بإنتاجها فى أى وقت آخر.

نحن نمر الآن من عند مدخل مقنطر ويمكننا أن نرى من خلاله مخزن تاجر القمح البديع وأمامه جمع صغير من أهل الريف يقومون بأعمالهم. ومنذ فترة غير بعيدة رأى رحالة عند مدخل أحد تلك المخازن، فى أحد الأسواق، كرسيين على خشبهما حفر جميل، ومن الواضح أنهما كانا قديمين إلى حد بعيد ويشبهان تمامًا من حيث الشكل تلك الكراسى التى نشاهدها مع الآثار المصرية فى المتاحف. وقد علّق قائلاً: إنه ربما كان يوسف يجلس على مثل هذا الكرسى حين كان يشرف على بيع القمح، بينما يقف أبناء يعقوب بجوار حميرهم إلى أن تُعبأ أكياسهم، مثلما ينتظر هؤلاء الرجال الآن.

الفلاح الذى نراه يمر فى السوق حاملاً زوجًا من الأوزمن من جناحيهما، بالطريقة الخاصة بمصر، ربما يكون قد خرج للتو من اللوحة الموجودة على جدار إحدى المقابر القديمة؛ ذلك أن الصورة التى يصنعها مطابقة لها فى كل التفاصيل.

وهذا الشيخ الذى يمر أمامنا ببطء متوكئًا على عصا خاصة بالدراويش - مقطوعة باستمرار من شجرة لوز ولها شعبتان - تشبه تمامًا العصا التى تظهر كثيرًا فى أيدى الآلهة التى صورها المصريون القدماء.

الحداد الذى يعمل هنا صورة طبق الأصل من صانع العصور القديمة، وهو يصنع أدوات تعود إلى فترة سفر التكوين، مثل الرجل الذى سوف يستخدمها. إنه عارٍ حتى خصره، ويمسك بمطرقته - يدها فرع شجر معقد، على النحو الذى كان ينمو عليه - ويضغط منفاخه البدائى، ويمكن أن يمثل إلى حد كبير صورة من الحرفى القديم. وسوف يجد المحراث الذى يصنعه طريقه إلى الريف، كى يعمل به فلاح يخلع ملابسه كلها تقريبًا حين يعمل فى الحقل، صانعًا صورة قد تشبه صورة عامل الزراعة القديم. ومن المؤكد أن المحراث هو نفسه تمامًا الذى كان المصريون القدماء يستخدمونه، وكذلك الفأس والمِعْوَل.

تصل فى نهاية أحد شوارع السوق الكثيرة إلى ورش مزدحمة بالعمل، حيث يصنع الرجال الأقوياء من الخشب الخام الراقد عند المدخل أذرعة الشادوف، وهو الأداة التى يُرفع بها الماء فى أماكن كثيرة على النيل باستمرار إلى مستوى الأرض التى يخصبها.

والشادوف معروف بالضرورة لكل المسافرين على النهر الكبير، والمبدأ الذى يعمل به بسيط ويوفر الجهد. فرفع دلو الماء بواسطة ثقل مقابل له من الطين على الطرف الآخر من الذراع المتوازن أحد أقدم مخترعات الإنسان لتوفير الجهد بوسيلة ميكانيكية.

وفى الورش نفسها يصنع الرجال كذلك الساقية لرفع الماء بجهد الجاموسة أو البقرة الصبورة - وهى اختراع لاحق؛ إذ لم تكن معروفة فى زمن آخر الفراعنة.

كلما امتدت معرفة المرء بالتاريخ الاجتماعى لمصر إلى الوراء زاد اقتناعًا بأن التغيرات التى حدثت فى النيل تغيرات فى الأخلاق وليس فى العادات والتقاليد.

كانت هناك أيام أبدى فيها أهل مصر نشاطًا كبيرًا فى العلوم والآداب، وفى فنون الحرب الهجومية والدفاعية، وفى دعم القضايا التى يعزونها. وفى أزمنة لاحقة، حين كان الدين يؤثر فيهم بعمق، بحيث يمكنهم تحمل أقسى ما يفرضونه هم على أنفسهم من معاناة وحرمان، عاشوا حياتهم الطويلة وهم يعانون من أجل المسيح الذى تخلوا باسمه عن كل ما يملكون، بالمعنى الحرفى للكلمة.

وفى وقت لاحق حين استولى أتباع النبى على البلاد، كان هناك الكثير من الأمثلة الجيدة لنُبل الطابع، بين الأقباط والمسلمين على السواء؛ وحين بدأت الاضطهادات فى الظهور، وُجِد أن الشخصية المسيحية على استعداد لعصر مجيد من الشهادة.

[illegible] الحياة الحديثة، وحب الراحة، والهروب من المسئولية، والاختيار [illegible] من جانب القادرين على الارتقاء بواسطة المكر والمداهنة، والتآمر مع

الحكام الذين يمكنهم دعمهم، مع قليل من الاهتمام بمصلحة بلدهم أو عدم الاهتمام بها، والتخلى الساخر عن دعاوى الحق والأدب، تلك هى تغيرات الأخلاق التى تبعث على الحزن. ومع ذلك فإن الكسل والاسترخاء، الناتج عن تدهورهم، هو الذى حفظ عادات الناس الاجتماعية فى مصر من التغير الذى لا بد أن يحدثه التقدم.

ومن الغريب أن تقرأ فى وثيقة قديمة تعود إلى أيام الرهبان، قبل الغزو العربى لمصر بزمن طويل، وصفًا كتبه أحد الرهبان لـ«شارع المقاهى»، يمكن أن يكون موجودًا فى القاهرة، كان يستخدمه كإيضاح لتعليم من يزورونه فى كهفه فى الصحراء. «فى مواجهة فكرة الزنى كان كالرجل الذى يمر فى شارع أصحاب الحانات ويشم رائحة اللحوم المسلوقة، أو رائحة شىء يُشوى؛ فهناك من يرغب ويدخل أحدها ويأكل، وهناك من يشم اللحوم وهو يمر ويستمر فى سيره. فلتدفع عنك إذن رائحة الأفكار الشريرة المغرية، ولتقف وتصلِّ قائلاً: «فلتساعدنى يا بن الرب!» ويجب أن يُقال الشىء نفسه بشأن الأفكار الأخرى، ذلك أننا لسنا منشأ الأفكار، بل من يجاهدون ضدها».

نرى هنا على الفور مقهى بلديًا من زماننا، حيث يجرى الطهو عند المدخل، كى تنساب روائحه فى الشارع؛ وهو بذلك يختلف تمامًا عن مطاعم الغرب. والغرض الأساسى لهذه العادة هو أنه لا يمكن للزبون رؤية كل صنف من أصناف الطعام الذى يختار أن يأكله قبل طهوه فحسب، بل يمكنه كذلك الحكم قبل دخول المكان على مهارة الطاهى وحالة أدوات الطهى.

أحد أكثر الدكاكين لفتًا للانتباه هو دكان الشَّمَّاع. ويعود استخدام الشموع فى الشعائر الدينية إلى أزمنة بعيدة. ويبدو أن المتفق عليه هو أنه فى القرون الثلاثة الأولى بعد دخول المسيحية لم تكن الشموع تُستخدم فى القُدَّاسات المسيحية فى مصر، ولكن ذكر استخدامها استمر بعد ذلك.



السروجى وعامل فتل الحبال الليف.

يقول چيروم(١): «إن الشموع كانت تُضاء فى أنحاء الشرق عند قراءة الإنجيل، ليس بسبب الظلام، بل كعلامة على البهجة».(٢) والضوء باستمرار دليل على البهجة فى الشرق؛ فلا يمكن أن يكون هناك نوع من الاحتفال فى مصر بدون أكثر الإضاءة تلألـؤا. وفى الشعائر الدينية، سـواء أكانت يهودية أم مسيحية أم إسلامية، نجد أن الكنيسة أو السرادق المزين بزخارف كثيرة مضاء إضاءة مبهرة. ومع أن الكهرباء متوفرة الآن فى المدن، فالشمعدانات الرائعة التى تعود إلى أيام ولت من القيمة بحيث لا يمكن الاستغناء عنها. ولذلك فهى لا تزال توقد بآلاف الشموع.

---

(١) يعتبر القديس إيرونيموس أو إيرينيموس أوجيروم St. Jerome من أعظم آباء الغرب فى تفسيره للكتاب المقدس، له تراث عظيم فى هذا المجال مع مقالات نسكية وجدلية ضد الهراطقة ورسائل. وُلد حوالى عام ٣٤٢م، فى مدينة ستريدون Stridon على حدود دلماطية وبانونيا وإيطاليا، من أسرة رومانية غنية وتقية... ذهب إلى مصر حيث الحياة الرهبانية فى أوج عظمتها. فى مصر التقى بالقديس ديديموس الضرير الذى كان يحبه، وقيل إنه سبق فتتلمذ على يديه لمدة شهور، وسأله عن بعض معضلات فى الكتاب المقدس فوجد إجابات شافية، ومن شدة إعجابه به حينما سبق فطلب منه داماسوس أسقف روما أن يكتب له بحثًا فى الروح القدس، لم يجد أفضل من أن يترجم له ما كتبه القديس ديديموس إلى اللاتينية. زار كثير من الأديرة والتقى بعدد كبير من نساك منطقة الأشمونيين بمصر الوسطى (التابعة لطيبة) ومنطقة وادى النطرون، وسجل لنا كتابه «تاريخ الرهبان» عن آباء رآهم والتقى بهم شخصيًا أو سمع عنهم من معاصرين لهم يعتبر من أروع ما سُجل عن الحياة الرهبانية فى ذلك الزمن، وقد اقتبست الكثير منه فى هذا القاموس المبسط... قام بترجمة الكتاب المقدس «الفولجاتا»، كما قام بترجمة ٧٨ عظة لأوريجينوس، كتب أوريجينوس الأربعة «عن المبادئ»، والرسائل الفصحية للبابا ثاؤفيلس الإسكندرى، ورسالة فصحية للقديس أبيفانيوس، ومقال القديس ديديموس السكندرى «عن الروح القدس»... تنيح القديس فى بيت لحم عام ٤٢٠م فى مغارة المهد، وقد نُقل جسده إلى روما. يُعيِّد له الغرب فى ٣٠ من سبتمبر». المعروف أن هذا هو اليوم العالمى للترجمة الذى يصادف يوم وفاة القديس. (قاموس آباء الكنيسة وقديسيها) **(المترجم)**.

(٢) يقول القديس نيقوديموس الآثوسى: «إننا نضىء المصابيح فى الكنيسة لستة أسباب: ١. لمجد الله، النور الحقيقى المنير كل الناس. ٢. لطرد ظلمة الليل وللتعزية. ٣. كعلامة فرح وعرفان بالجميل. ٤. لإكرام الشهداء والقديسين. ٥. المصابيح المشتعلة تعكس نور أعمالنا الصالحة. ٦. لغفران خطايا= = الذين قدموا هذه المصابيح». ويقول القديس سمعان اللاهوتى الحديث: «المصابيح التى تشعلها تُظهر لك النور العقلى لأنه كما أن الكنيسة تشع كلها لكثرة المصابيح، كذلك أيضًا يجدر بيت نفسك الخاص، والذى هو أثمن من الكنيسة، أن يشع كله عقليًا... وكثرة القناديل المشتعلة تشير إلى الأفكار الصالحة التى ينبغى أن تشرق فيك فلا يبقى مكان للأفكار المظلمة فى بيت نفسك الخاص، بل تكون مشتعلة وتشع بنور الروح القدس». **(المترجم)**.



محل فكهانى فى موسم البطيخ.

والحال كذلك فى كل الاحتفالات الدنيوية، وخاصة فى الأعراس؛ وفى سرادقات العزاء تُتلى النصوص الدينية على ضوء ما لا حصر له من الشموع، بينما يتجمع الأصدقاء لإبداء التعاطف مع أهل المتوفى وتقديم التعازى لهم. وإذا لم يكن لدى الشرقى مكان يجتمع فيه بغيره بعد الغروب حيث توجد الأضواء الساطعة، فإنه يجد دائمًا فى النوم ملاذًا من جِنّى الليل.

ولكن الفقراء وحدهم الذين ينامون بلا ضوء؛ ونادرًا ما يُترك شخص بمفرده ليلاً. فإذا كان الزوج غائبًا عن البيت ذهبت الزوجة إلى الأقارب أو الجيران. وسوف نجد فى دكان الشماع المصابيح الشمعية التى تُضاء فى غرف النوم أثناء الليل حين لا تُستخدم المصابيح الزيتية الصغيرة.

لم أسمع قط أحدًا يتحدث عن أية مشكلة، من تلك التى تحدث للبشر، بذلك القدر من الشفقة الذى يتحدثون به عن الفلاح الذى يُضطر فى موسم معين من البقاء فى حقله بمفرده طوال الليل لحماية محصوله. وعندما يتحرك المصرى فى الظلام يتمتم باستمرار بعبارة «دستور يا أسيادنا» كنوع من التحذير للجن كى يبتعد عن طريقه؛ إذ يخشى أن يؤذى أحدًا منهم فينتقموا منه. والشرقى نادرًا ما يُصَفِّر، أو هو لا يُصَفِّر بالمرة؛ وأحد أسباب ذلك أن فى إصدار مثل هذا الصوت مخالفة للسلوك الطيب. أما السبب الأهم من ذلك فهو أن الجن يجذبه الصفير، وخاصة بالليل.(1)

لا تجلس امرأة على سلم المدخل أو تقف بجوار عتبة باب بالليل؛ ونرى فى القرية على نحو خاص مجموعات من النساء يثرثرن وقت الشفق، حيث يجلسن بعيدًا إلى حد كبير عن مدخل أى مبنى؛ ذلك أنه من الأرجح إن هن جلسن هناك أن يكون جلوسهن فى طريق الجن. وفى أيام الجُمَع، تكون تلك الأماكن خطيرة إلى حد كبير فى تلك الساعة.

الظلام أمر رهيب بالنسبة للرجال الشرقيين، وهو عذاب للنساء الشرقيات. والقيام بأى عمل فى المنزل على ضوء الشموع، وخاصةً أعمال ككنس الأرضية، قد ينطوى على احتمال إيذاء الجن؛ بل إن التحرك فى ذلك الوقت فيه خطورة؛ ومن غير المستغرب أن الفقراء ينامون عند الغروب باستمرار تقريبًا.

---

(1) هناك اعتقاد كذلك بأن الصفير ليلاً يجتذب الثعابين. (المترجم).

يُحظر أن تكون الشموع المستخدمة فى الأغراض الدينية من الشمع الخالص، وليس من الشحم الحيوانى أو غيره من المواد «الشمع المعطر، كد النحلة التى تموت عند اكتمال عملها» له مغزى غامض. فهو مشتق من رحيق الزهور، وكان يُظن باستمرار أن له أعلى قيمة طبيعية كمادة للقرابين.

يُروى فى إحدى القصص القبطية القديمة عن خداع الشيطان الفائق أنه لكى يغوى الراهب ڤالِنز «ذهب فحوَّل نفسه إلى شكل جعله يبدو فى هيئة مخلصنا، وجاء إلى ڤالِنز ليلاً ومعه أشباح وملائكة بأعداد كبيرة كانوا يسيرون لمسافة طويلة حاملين شموعًا من الشمع الخالص».

تُذكر الشموع باستمرار فى سجلات جنازات الرهبان والراهبات فى القرن الرابع. وفى دير الراهبات بطيبة، على ضفاف النيل، وفى عهد باخوم، عندما كانت إحدى الأخوات تموت كانت النساء الأخريات يذهبن بها إلى النهر ويضعنها على الشاطئ ويتركنها. بعد ذلك يعبر بعض الإخوة النهر فى قارب، ويعودون بها مع ترتيل المزامير والشموع المضاءة كى يضعوها فى جبانتهم مع شعائر عظيمة وتكريم كبير.

وتُروى قصة غريبة أخرى عن رجل غنى وشرير دُفِن بأضواء وتكريم كبير. وفى الوقت نفسه عُثر على راهب ميتًا وقد شوهت جثته السباع. طلب رجل فقير شاهد ذلك من الرب أن يفسر له الأمر فجاءه ملاك وقال: «ذلك الرجل الشرير عمل عملاً صالحًا واحدًا وقد كوفئ فى الدنيا بالأنوار والمراسم؛ أما الرجل المقدس فسوف يلقى تلك الأشياء فى العالم الآخر؛ ذلك أنه كان رجلاً يزدان بالفضائل السماوية».

فى الأعراس وغيرها من الاحتفالات تُستخدم الشموع للإضاءة، وخاصةً بواسطة النساء. وكما ذكرت من قبل، يرسل العريس القبطى فى الليلة السابقة للعُرس باقة [...] شمعة إلى عروسه، ويجب أن تكون الشمعة فى طول العروس، لإشعالها فى [...] الليل بطوله. وهذه الشموع الضخمة التى تُباع هنا مخصصة لهذا الغرض.

فى احتفالات الزواج عند المسلمين تُستخدم الشموع نفسها بطريقة مخيفة، [...] تحمل الفتيات المصاحبات للعروس فى مواكب داخل الحرملك مع تجاهل [...] خطر الاحتراق والتقاط طرحهن وأثوابهن للنار، الأمر الذى يجعل المشاهد

الغربى يقشعر. إذ تُعطى شمعة مضاءة لكل فرد من الضيوف عند دخول غرفة العروس.

معروف أن التسوق فى الشرق مهمة تحتاج إلى صبر كبير ووقت فراغ لا حد له ولا حاجة إلى التعليق على نظام المساومة الشرقى، إلا لكى أذكِّر هؤلاء الذين يشعرون بأشد الضيق منه، أنه منذ وقت ليس بالبعيد ـ والزمن يمر ـ كان ذلك هو النمط العام للتجارة فى إنجلترا وفى أنحاء أوروبا. ويعود الفضل إلى جمعية الأصدقاء[1] فى إدخال نظام التسعيرة الثابتة؛ وسرعان ما انتشر نموذجهم فى أنحاء إنجلترا، ومنها إلى الكثير من أنحاء القارة الأوروبية.

إذا كان الرحالة يظن أن التاجر فى مصر جشعًا تمامًا، فإنى أستدعى مناسبات كثيرة وجدت فيها أن رجلاً أغلق دكانه كى ينضم إلى أحد الأصدقاء ليدردشا، أو ليذهب لتقديم التعازى فى أحد السرادقات، أو أداء صلواته الكثيرة فى الكنيسة أو فى المسجد. ومهما كان ما يقود المراقبين العارضين إلى ما يظنونه عن طبع الشرقى، فالواقع أنه آخر إنسان يضحى بكل شىء فى الدنيا كى يكسب.

اللافتات العربية الموجودة أعلى الدكاكين الصغيرة فى غالبها نصوص دينية. «يا فتَّاح يا عليم»؛ «يا الله يا معين». وعندما يفتح صاحب الدكان باب دكانه يتمتم بتلك الكلمات وما يشابهها. وهذه اللافتات تبعد «عين الحسود»؛ ويؤدى التمساح المحنط، أو عظمة الجمل المجففة، أو نبات الصبار، المثبت فوق المدخل الغرض نفسه.

---

(١) تُعرف كذلك باسم طائفة الكويكرز. وقد أنشأها جورج فوكس فى إنجلترا نحو سنة ١٦٥٠م، ولم يكن من أهل العِلم. وقد استخفّ بأمرين، هما المعرفة والاستعداد العقلى لبشارة الإنجيل. ثم انقسمت طائفته إلى «غير مستقيمى الرأى» ويؤمنون أن الديانة لا تحتاج مطلقًا للوحى، وهم فى هذا يتفقون مع العقليين. وإلى «مستقيمى الرأى» لأنهم أقرب إلى الحق، يسلِّمون بأكثر الحقائق الجوهرية فى المسيحية، غير أنهم يهملون أسرار الكنيسة، ويحسبون أن لا حاجة للقسوس (الذين يخدمون الدين لقاء أجرٍ) معتمدين على مخاطبة الروح القدس لهم رأسًا بما يسمّونه «نورًا داخليًا» فيهم، معتقدين أن الروح والنور الداخلى عمودان هاديان، قوتهما كقوة الكتاب المقدس، يرشدان إرشادًا خاصًا فى العبادة والوعظ والتعليم.. وقد اعتمد الكويكرز فى أول أمرهم على المبادئ الباطنية. لكن «مستقيمى الرأى» منهم صاروا الآن إنجيليين فى الجوهريات، يحترمون الكتاب المقدس، ومنهم كثيرون من أهل التقوى وفعَلة الخير وأصحاب الفضائل المسيحية. (المترجم).

استخدم قدماء المصريين النقوش والرموز لجلب الحظ بالطريقة نفسها. وهنا فى شارع مقابل لأحد الأسواق يوجد باب حوله رسوم بدائية تمثل جملاً وقاطرة وسفينة، وهى الوسائل التى يستقلها الحاج المسافر إلى مكة. وأظن أنه من المحتمل جدًا أن القبطى كان يصوِّر حجه إلى القدس بالطريقة ذاتها فى الأيام التى جعله فيها الاضطهاد يؤثر محو كل آثار مسكنه. وفيما بين مصريى الفراعنة، كان من المعتاد رسم سجل لرحلات الحج الدينية على المنازل بنفس الطريقة التى يتبعها المسلم الحالى.

الكتاب الثانى

الناس والكنيسة القبطية
رؤساؤهم الدينيون العظام
وضعهم الاجتماعى والسياسى

الفصل الأول

المسيحى الشرقى داخل كنيسته
الكنيسة نفسها

إذا كان الرحالة الذى يجد نفسه صباح يوم أحد فى كاتدرائية القديسة مريم بالقاهرة، حيث يجرى الاحتفال بالإفخارستيا(١) (القربان المقدس)، يعرف أى شىء عن تاريخ مصر وأصل الشعب القبطى، فسوف يشاهد منظرًا من أكثر المناظر التاريخية التى تلقى الضوء على أمور كثيرة فى بلد يحظى بأهمية تاريخية تجتذب كلًا من المتعلمين والفضوليين من أنحاء العالم كافةً.

سوف يجد حشدًا كبيرًا من الرجال والصبيان وقد اتجهت وجوههم الجادة صوب حجاب الهيكل الكبير الذى يرتل داخله أبونا ليتورجية(٢) القديس باسيليوس.

(١) إفخارستيا كلمة يونانية الأصل تأتى من الفعل «إفخاريستيو» بمعنى أَشْكُر أو أَحْمَد. فالإفخارستيا تعتمد أساسًا على فعل الشكر. (المترجم).

(٢) تتكون كلمة «ليتورجية» من مقطعين هما «ليؤس» أى «شعب»، و«إرجون» أى «عمل» فيكون معنى الكلمة «عمل شعبى». وهكذا استخدمت الكلمة لتفيد أى عمل شعبى من أى نوع، وليس الدينى فقط. ومنذ زمن الترجمة السبعينية للعهد القديم فى القرن الثالث قبل الميلاد، استخدمت الكلمة خصيصًا لتحمل معنى «الخدمات التى كانت تقدم فى الهيكل اليهودى». ويستخدم العهد الجديد كلمة «ليتورجية» مرتين كمرادف للعبادة المسيحية، وفى المرات الأخرى التى وردت فيها الكلمة صارت تعنى «خدمة» سواء كانت خدمة روحية أم جسدية. والقديس بولس الرسول حينما يتكلم عن «خدام الله» أو عن نفسه «كخادم ليسوع المسيح» فهو يستخدم كلمة «ليتورجوس»، ليشير بها تحديدًا إلى الخدمة الكهنوتية. وفى كنيسة العهد الجديد انحصر استخدام الكلمة أساسًا لتشير إلى صلاة الإفخارستيا باعتبارها العمل الشعبى الأساسى فى الكنيسة، فصارت الكلمة بديل لكلمة «قُدَّاس» أو «أنافورا» كما يمكن أن تستخدم الكلمة أيضا لتشير إلى الصلوات الطقسية فى الكنيسة بكافة أنواعها، مثل صلاة السواعى باعتبارها خدمة شعبية.

وفى الكنيسة القبطية ثلاث ليتورجيات هى: =

وسوف يجد أن الكثير من تلك الوجوه ربما نسخها النحاتون الذى زينوا المقابر القديمة.

وفى لحظة معينة من القُدَّاس، سوف تمر جوقة المرتلين من الهيكل، المخفى تقريبًا، إلى داخل الكنيسة، حيث يقومون بالترتيل؛ ويبدو مظهرهم بقلنسواتهم القرمزية الطويلة، التى تذكرنا بغطاء رأس مصر ما قبل المسيحية، وأثوابهم البيضاء وأشرطة الصليب التى عليها، وهى كذلك باللون القرمزى (ومطرزة عليها الصلبان)، وكأنهم يُحيون من جديد بعض تماثيل الفراعنة. ولا تختلف هذه القلنسوة التى تشبه الخوذة عن التاج المستدير الطويل الذى كان الملوك القدماء يلبسونه؛ وبما أن هؤلاء الشبان يلبسونه على نحو ما كان يلبسه الملوك، حيث يميل قليلًا للوراء، فهو يبرز الملامح المعتادة والأنف المستقيم البارز بعض الشىء بمنخريه الكبيرين المشكلين تشكيلا دقيقًا، والشفتين الممتلئتين، وعلى نحو خاص ذلك الوضع الشرقى للعينين. وقد رأيت شبانًا يلبسون تلك البِريتَّات (جمع بِريتًا وهى القلنسوة) بدوا كأنهم أبناء رمسيس الثانى، ذلك الملك المعلومة ملامحه للأجيال التالية أكثر من أى ملك غيره.

عندما يدخل الرجال من شعب الكنيسة أولاً، يبدى معظمهم أمارات الاحترام الشديد تجاه الهيكل، وبعد ذلك يذهبون لتقبيل الأستار المعلقة على باب الهيكل، أو يسجدون ليقبلوا عتبة الهيكل. وفى الماضى كان كل رجل يخلع حذاءه عند دخول الكنيسة، ولا تزال هذه العادة الشرقية متبعة فى المناطق الريفية. وفى أية كنيسة، لا يمكن لأى شخص دخول الهيكل منتعلاً حذاءه.

اللغة التى يتحدثها شعب الكنيسة هذا هى العربية، ولكن الليتورجية لا تزال بالقبطية، وهى اللغة التى انبثقت على نحو طبيعى من كلام الفراعنة[1] وكتابة سجلاتهم الهيروغليفية.

= - ليتورجية القديس مرقس الرسول.
- ليتورجية القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠ ـ ٣٧٩م).
- ليتورجية القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩ ـ ٣٨٩م) (المترجم).

(١) أظن أن الكلام هنا لا يخص ملوك مصر (الفراعنة) وحدهم، ولذلك فالأفضل أن يُقال «كلام قدماء المصريين»، غير أنى التزمت بالأصل الإنجليزى. واللغة القبطية آخر صور اللغة المصرية القديمة، بعد الخطوط الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية، وقد كتبت بحروف مشتقة من الأبجدية اليونانية القديمة والكتابة الديموطيقية وتتكون=

ومع استمرار القُدّاس، وملاحظة الكثير من شعائره، واستخدام أوانيه وأدواته المقدسة، يبدو أن المسيحية القبطية نفسها ربما تكون أثرًا من آثار مصر القديمة. ولا شك بحال من الأحوال فى أنها لا تزال تمثل حياة الأيام الأولى التى أصبحت فيها مصر بالكامل مسيحية. والشىء الوحيد المفقود هو الحماس الروحى والإلهام الحى اللذان كانا يميزان زمن من اعتنقوا عقيدة المسيح فى البداية. فالأمر المؤكد هو أنه ليس هناك مكان تأصلت فيه هذه العقيدة على ذلك النحو من السرعة أو العمق الذى تأصلت به فى تربة مصر المتجانسة روحًا وطبعًا. ونجد فى هذا البلد العجيب أن كتاب التاريخ متصل، حيث تلى الصفحة الأخرى فى ترتيب مثالى تقريبًا؛ وهو ما لا نجده فى بلد سوى مصر.

سوف نفهم هذا القُدَّاس على نحو أسهل إن نحن درسنا المخطط الذى بُنيت عليه معظم الكنائس القبطية. ويمكن وصفه بأنه نصف بازيليكى ونصف بيزنطى. والمدخل باستمرار فى الطرف الغربى، بينما المذبح فى الطرف الشرقى. وإذا كانت قد حدثت استثناءات لهذه القاعدة فقد جرى تصحيحها فى السنوات الأخيرة.

عندما ندخل الكنيسة نجد أنفسنا أولًا فى قسم بينه وبين صحن الكنيسة حجاب. ولهذا الأمر أهميته؛ ذلك أن النارثكس، كما يُسمى، كان يستخدمه فى الأصل الوثنيون الذين تنصروا أو طالبو العماد، الذين لا ينبغى لهم الاقتراب من المذبح إلا بعد تعليمهم أصول الدين وتثبيتهم. وكان لا بد أن يغادر هؤلاء الكنيسة عند جزء معين من القُدَّاس، وما زالت الصلاة الخاصة بانصرافهم باقية. وفى بعض الكنائس تشغل النساء النارثكس فى الوقت الحالى، ولكنه يُعتبر مكانًا مكشوفًا أكثر من اللازم بالنسبة لهن؛ فالنساء بصفة عامة يُخْفَين فى أروقة خلف حُجُب المشربية.

بالنسبة للأطفال، ليس هناك شىء فى الكنيسة القبطية بغرابة الطريقة التى يجرى بها الأطفال هنا وهناك كيفما شاءوا أثناء القُدَّاس، وكأنهم يتصرفون براحتهم داخل

= من ٣٢ حرفا. وظلت اللغة القبطية مستعملة فى دلتا مصر حتى القرن الحادى عشر ثم حلت محلها اللغة العربية. كما أنها استمرت لغة التخاطب الرسمية بين المصريين فى الصعيد حتى القرن السادس عشر حيث بدأت فى الانحسار تدريجيا أيام حكم العثمانيين، وكانت أسيوط آخر الأقاليم التى ظلت تتحدث اللغة القبطية حتى منتصف القرن الثامن عشر. ومازالت اللغة القبطية مستخدمة فى الكنائس كلغة للعبادة. كما دخل العامية المصرية الكثير من الكلمات والعبارات القبطية. (المترجم).

الحضانة. فالذهاب إلى الكنيسة لا يمثل لهم أية مخاوف، بالرغم من طول القُدَّاسات؛ لأن لهم مزايا محروم منها آباؤهم. وهم يتجمعون فى الغالب حول حجاب الهيكل، حيث يجلسون على الأرض، أو يصعدون فوق سياج الخورس، كيفما شاءوا. بل إنهم يغزون الهيكل نفسه. ومنظر جميل جدًا أن ترى الأطفال الصغار يسيرون على أطراف أصابعهم عند المذبح ناظرين بعيون متسعة إلى الأعمال الغامضة التى يقوم بها الكهنة. وقد رأيت طفلين صغيرين وقد أعياهم الفضول فجلسا نائمين فى وداعة داخل الهيكل أثناء الإفخارستيا، دون أن يفكر أحد فى إزعاجهما. فقد قال الرب «دعوا الأولاد يأتون إليَّ».(١) وهكذا يطيع الأقباط الأمر.

هناك ممران وصحن. يجتمع الرجال والأطفال من شعب الكنيسة فى الصحن. وعادةً ما تفصل الممرات عن الصحن أعمدة الكثير منها مأخوذ من المعابد القديمة. وتتحدث كل مرحلة فى تاريخ العمارة عن ديانات جديدة تعيد استخدام أعمدة الكنائس الأقدم: فى مصر قال الكُتَّاب الإنجليز الكثير فى إطار تحيزهم ضد الإسلام عن استخدام المسلمين عند مجيئهم لأعمدة الكنائس القبطية عند بناء مساجدهم.

رأيت كنيسة قديمة فى الريف مقسمة إلى ثلاثة أروقة على طراز قاعات معبد سيتى الأول فى أبيدوس، حيث تبدو كالمعبد تمامًا بقاعتى الأعمدة بها. ويفصل هاتين القاعتين عن بعضهما حجاب خشبى من المشربية فُتِحَت به أبواب، تمامًا مثلما كان يفصل أبهاءَ الأعمدة فى معبد أبيدوس جدارٌ به عدد من الأبواب مساوٍ لعدد الغرف المقباة فى قدس الأقداس. وكان مسموحًا فقط لأبرز أفراد شعب الكنيسة الريفى ذلك بدخول القاعة الثانية، حيث كانت الأرضية مغطاة بالحصير. وكان المصلون من الطبقات الأدنى يجتمعون فى القاعة الخارجية حيث الأرضية عارية. ولا يسع المرء إلا أن يفكر فى كون هدف بناة المساجد منذ البداية هو أن كل إنسان يرغب فى العبادة ينبغى أن يتعبد بمساواة مطلقة - إذ ينبغى أن يقف السلطان والخادم جنبًا إلى جنب أثناء الصلاة.

(١) هذا هو السياق الذى وردت فيه هذه الآية فى إنجيل مرقس: «وقدموا إليه أولادًا كى يلمسهم. وأما التلاميذ فانتهروا الذين قدموهم. فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ وقال لهم دعوا الأولاد يأتون إلىّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله. الحق أقول لكم من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله. فاحتضنهم ووضع يده عليهم وباركهم». (مرقس ١٠: ١٣-١٦) (المترجم).

الهيكل فى الكنيسة القبطية محجوب تمامًا باستمرار عن المصلين الموجودين فى الصحن، كما أن المدخل يغطيه سِتْر يُغلق بإحكام فى أوقات معينة أثناء قُدّاس الإفخارستيا، كى تُحجب «الأسرار» تمامًا عن الناس. وحجاب الهيكل أروع معالم الكنيسة باستمرار؛ وفى بعض الأحيان يكون تطعيمه من العاج من أبدع وأجمل ما تكون الصنعة، بل إنه فى الكنائس الفقيرة كان هدف من بنوا الكنيسة جعل هذا الحجاب تحفة فنية. وهو دائمًا مصنوع من الخشب الصلب، الأبنوس أو الأرز، ومُطعَّم تطعيمًا غنيًا بأشكال هندسية متداخلة من العاج والصدف، حيث يغلب الصليب عمومًا على الشكل الإجمالى.

هناك منجليتان، وهو ما تُسمى به المقرأتان الشرقيتان، واحدة على الجانب الشمالى من الصحن، والأخرى على الجانب الجنوبى. وعندما يستخدم القارئ المنجليتين يتجه ناحية الشرق ويكون ظهره للمصلين. وكذلك تتسم أعمال التطعيم الكثيرة على هاتين المنجليتين بالروعة والإبداع؛ وإحدى أجمل المنجليات موجودة فى كاتدرائية القاهرة، كما وُضعت بعض العينات الممتازة فى المتحف القبطى الجديد.

من المحزن التفكير فى حال رجال الدين بالريف لتخليهم عن تلك الكنوز بسهولة؛ فأحد الذين سمعت عنهم كان كل ما يشغله - عند سماحه لعينة جميلة بمغادرة كنيسته - هو أن يكون فى المقرأة الجديدة الرخيصة التى وعدوه بأن تحل محلها دولاب كالذى فى القديمة، كى توضع فيه كتب الكنيسة. ولا نستغرب كثيرًا من استطاعة السياح فى الماضى القريب العودة بأجزاء من حُجُب الكنيسة مقابل رشاوى تافهة نسبيًا.

كنت أتمنى قول إن البطريرك نفسه لديه أى شىء يشبه التقييم الصحيح للكنوز التى لا تزال باقية فى كنيسته المستنزفة بكل أسف.

فى الكنائس الغنية، الشمعدانات الواقفة بالقرب من المنجليات ذات قيمة فنية عظيمة فى بعض الأحيان. ولا بد من إيقاد الشموع باستمرار أثناء قراءة الكتاب المقدس؛ وتوضع الشموع فى بعض الأحيان حوامل بسيطة مثبتة على جانبى المنجلية.

ويقـوم المنبـر، المسمى أمبون، باستمرار على الجانب الشمالى الشرقى من الصحـن؛ والمنابر الحديثة بشكل عام من الخشب، ولكن العينات القديمة من الحجـر، وهى مزخرفة فى الغالب بسخاء، وتُنسب فى بعض الأحيان إلى الفن القبطى، كما يتضح من الفسيفساء والتطعيم بالصدف، وبعض الأعمدة الحاملة جيدة كذلك إلى حد كبير.

وبالطبع يتبع المنبر قاعدة أن يكون مخالفًا تمامًا لذلك المعروف فى الغرب. فهو من ناحية يمتد باستمرار بالطول من الشرق للغرب وليس بطول الكنيسة؛ ويتضح ذلك أكثر لأن بـه شرفة إلى جانب مكان الوعظ. وفى بعض الأحيان يمكن الوصول إلى المنبر بصعود درجات السلم؛ وغالبًا ما يكون ذلك باستعمال سلم خشبى نقال. وأتساءل عما إذا كان الواعظ يعتبر نفسه باستمرار فى مأمن من أى إغراء من جانب المصلين الذين قد يتركونه معلقًا على المنبر ويسحبون السلم إن عِيل صبرهم، أم لا.

قبل الهيكل تعلَّق باستمرار مجموعة من المصابيح يجب أن تكون من الفضة، ويجب عدم السماح لنورها أن يخبو أبدًا. وفى الكنائس كلها تقريبًا يوجد بيض النعام معلقًا باستمرار مع المصابيح؛ وهذه زينة شائعة كذلك لدى اليونانيين والمسلمين. وكان قدماء المصريون يعلقون بيض النعام فى معابدهم وقدس أقداسهم. ومن الصعب اكتشاف تفسير لهذه العادة؛ بل إن الصديق القبطى الشاب الذى تحمَّل هو نفسه مشقة إحضار بيض النعام من الحبشة لتزيين كنيسة أبرشيته بالقاهرة، لم يمكنه أن يفسر لى بدقة لماذا فعل ذلك. ومع ذلك فإنى أعتقد أن هناك فكرة غامضة تقول «إن بيضة النعامة رمز لرعاية الرب التى لا تتوقف لأبنائه». وهناك اعتقاد بأن هذا الطائر أكثر يقظة من أى طائر آخر؛ كما يشيع اعتقاد بأن البيض لا يُترك للحظة واحدة كى لا تتوقف عملية خروج الصغار إلى الحياة.(١)

(١) هناك رأى يقول: «إن هناك خطأ شائعًا، وهو أن النعامة بعد أن تبيض تظل دائمة النظر إلى بيضها حتى تفقس» وهذا الكلام أنكره الكتاب المقدس ووصف النعامة بأنها طائر غبى وبأنها قاسية على صغارها، وأن تعبها باطل. وهذا الكلام ثابت فى سفر أيوب، ٣٩ : ١٣ و١٤ و١٥. أما لماذا يُستخدم بيض النعام فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية؟ فهذا راجع إلى القديسة مريم المجدلية التى استخدمت البيضة كوسيلة إيضاح لتثبت بها حقيقة القيامة لطيباريوس قيصر، وذلك بعد أن ظهر لها رب المجد يسوع المسيح. فكلما نظر إلى البيضة فى الكنيسة نتذكر حقيقة قيامة رب المجد، ونتأكد من أنه قائم فى وسطنا لحراستنا ولرعايتنا، فتطمئن قلوبنا ويسكن فيها السلام الذى هو أغلى عطية من ملك السلام». (موقع همسة قلب http://khairynb.jeeran.com/categorie) (المت[illegible]

خلف الحجاب الكبير هناك ثلاث مقصورات فى كل منها مذبح، والوسطى هى الهيكل وتحتوى على المذبح العالى. وشرط الكنيسة القبطية الغريب هو ضرورة استخدام هـذا المذبح وحده فى احتفال «صيام» الإفخارستيا؛ ولا يمكن الاحتفال بالأسرار المقدسة مرتين فى يوم واحد على مذبح واحد، وينطبق هـذا على كل الأوانى وملابس الكهنة. بل إن الأساقفة يُحرَمون من المشاركة الكنسية لانتهاكهم هذه القاعدة.

يبدأ الصوم من أجل الإفخارستيا منذ صلاة غروب اليوم السابق. ويقول الرهبان الكبار: «لا تُعطِ لجسمك طعامًا حتى تكون قد أعطيت لنفسك قوتها الروحى». وبالإضافة إلى هذه القاعدة، فممنوع أكل أى شىء قبل ترتيل المزامير المحدَّدة لقداسات الصباح. والمقاصير مكرسة للقديسين، وفى يوم القديس يُحتفل بالإفخارستيا باستمرار على مذابحها.

الهيكل على شكل قبوة باستمرار، وتوجد فى الجدار الأوسط دومًا حنية مزخرفة، وتُستخدم الفسيفساء الجميلة فى تزيين بعض الحنيات، والبعض الآخر مرسوم عليه صور يسوع المسيح يمنح البركة، أو صورة العذراء والطفل.

وهناك أدلة على أن العرب كيَّفوا الحنية القبطية مع استخدامهم؛ ذلك أن هناك نماذج فى مساجد القاهرة من المحراب، وهو الحنية التى تبين اتجاه القبلة، التى لو كان عليها الروح القدس على هيئة حمامة لكانت تمامًا مثل الكثير من الحنيات فى الكنائس القبطية.

حول نهاية حائط الهيكل يُبنى دَرَج يؤدى إلى العرش فى الوسط. وهذا هو المنبر القديم وهو ملمح من ملامح الكنائس القبطية. والكرسى مخصص للبطريرك، أو كبير الأساقفة، الذى يجلس عليه محاطًا باثنى عشر رسولًا، وظهورهم للجدار الشرقى يشاهدون احتفال الإفخارستيا. وفى الحنية التى تعلو المنبر يوقد باستمرار مصباح جميل تصميمه فى الغالب. وفى أفضل أيام الفن القبطى كان الكثير من العمل يجرى لتزيين المقصورات، بالموزاييك والتطعيم.

يقـوم المذبح العالى باستمرار فى وسط الهيكل. ولا بد من بنائه بالحجر، ولا يُرفع فـوق أية منصة، بل يقـوم على الأرض. ولـه دائمًا قبة خشبية، أو بلتكانة، تقوم


حجاب فى كنيسة أبى سرجة بمصر القديمة. يُقال إن العذراء

على أربعة أعمدة خشبية. والسطح الأسفل لهذه المظلة مرسوم عليه باستمرار صورة يسوع المسيح يمنح البركة، والأربعة حيوانات غير المتجسدة(1) فى أركانه الأربعة. وفى وقت من الأوقات كان يخيم جو من الغموض الشديد على الاحتفال بالإفخارستيا، لأن البلتكانة كانت عليها أستار تُسدل لتخفى الكاهن نفسه تماما فى أجزاء معينة من القُدَّاس. ولا بد من تغطية المذبح بالحرير الثمين المطرز بالذهب والفضة.

يوجد فى الجانب الأيسر من كل مذبح مدخل صغير فى مستوى الأرض يكشف عن تجويف كبير فى الداخل. وهناك بعض الشك فى أن هذا التجويف يشير إشارة رمزية إلى رؤيا القديس يوحنا: «رأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التى عندهم». وفى العصور الأولى كان من المعتاد دفن أجسام الرؤساء الدينيين العظام، وخاصة الشهداء، تحت أرضية الهيكل، بل وفى المذبح نفسه.

---

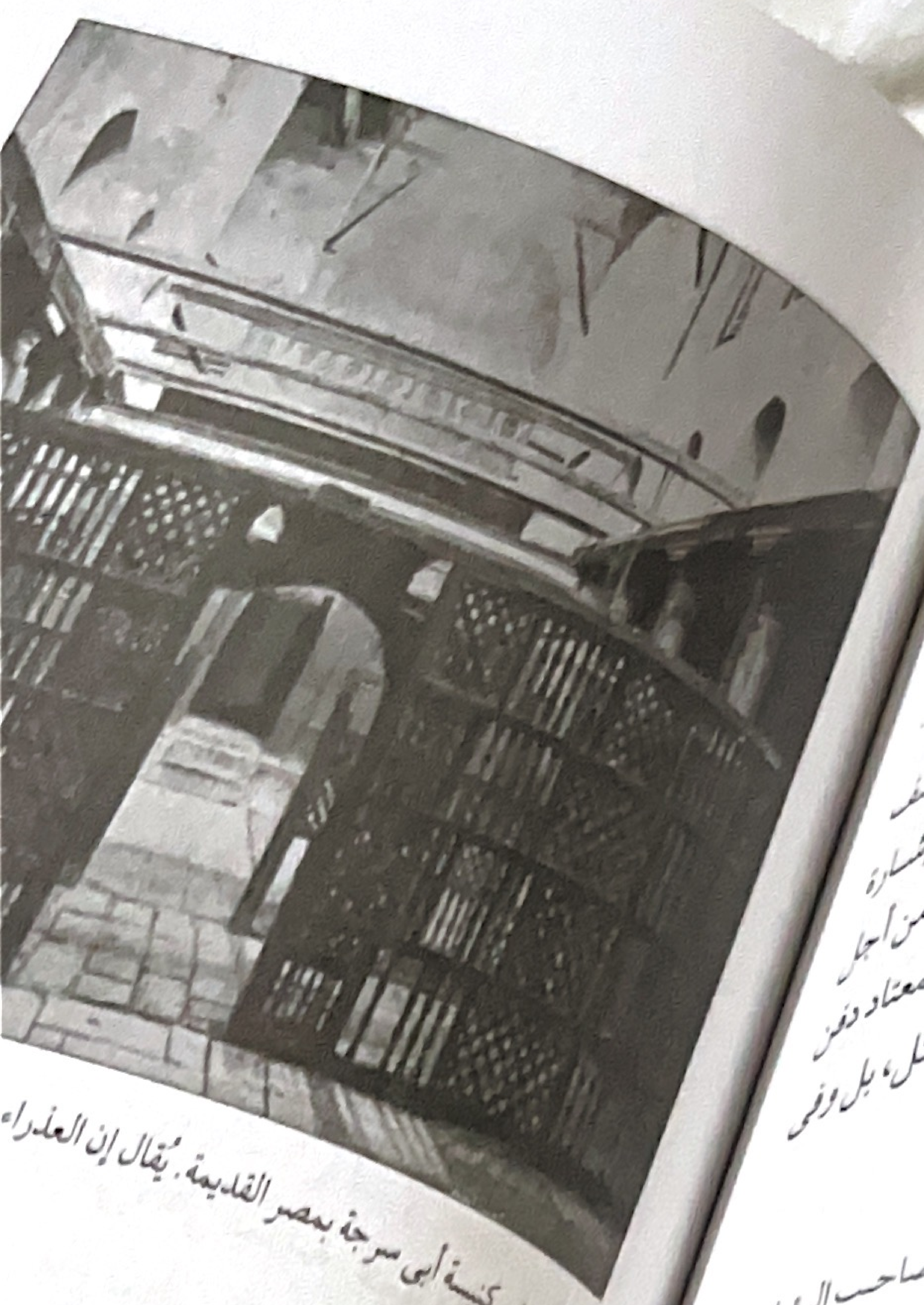
(1) الحيوانات الأربعة غير المتجسدة حاملة مركبة الإله، كما يذكر الشاهد بذلك صاحب الرؤيا بقوله «وللوقت صرت فى الروح وإذا عرش موضوع فى السماء وعلى العرش جالس، وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد، وفى وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء، والحيوان الأول شبه أسد، والحيوان الثانى شبه عجل، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان، والحيوان الرابع شبه نسر طائر، والأربع حيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها، ومن الداخل مملوءة عيونا ولا تزال نهارا وليلا قائلة: قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شىء الذى كان والكائن والذى يأتى» وقال إشعياء النبى «رأيت السيد جالسا على كرسى عالٍ مرتفع وأذياله تملأ الهيكل، والسيرافيم واقفون، ولكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطى وجهه، وباثنين يغطى رجليه، وباثنين يطير، وهذا نادى ذاك وقال: قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض»، وقال حزقيال النبى «فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال، سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار، ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها، لها شبه إنسان، ولكل واحد أربعة أجنحة، وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول»، وقال يوحنا الإنجيلى «وبعد هذا سمعت صوتا عظيما من جمع كثير فى السماء قائلا هللويا، الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا، وخر الأربع حيوانات وسجدوا لله الجالس على العرش قائلين «آمين هللويا، فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شىء، لنفرح ونتهلل ونعطيه المجد»، وقد جعلهم الرب بقربه ليسألوه فى الخليقة، فوجه الإنسان يسأل عن جنس البشر، ووجه الأسد يسأل فى الوحوش، ووجه العجل يسأل فى البهائم، ووجه النسر يسأل فى الطيور، وقد ثبت معلمو الكنيسة تذكارهم وبنوا لهم الكنائس. (Coptic Orthodox Church Network, copticchurch.net/classes/synex.php?lang) (المترجم).

على أربعة أعمدة خشبية. والسطح الأسفل لهذه المظلة مرسوم عليه باستمرار صورة يسوع المسيح يمنح البركة، والأربعة حيوانات غير المتجسدة(١) فى أركانه الأربعة. وفى وقت من الأوقات كان يخيم جو من الغموض الشديد على الاحتفال بالإفخارستيا، لأن البلتكانة كانت عليها أستار تُسدل لتخفى الكاهن نفسه تمامًا فى أجزاء معينة من القُدَّاس. ولا بد من تغطية المذبح بالحرير الثمين المطرز بالذهب والفضة.

يوجد فى الجانب الأيسر من كل مذبح مدخل صغير فى مستوى الأرض يكشف عن تجويف كبير فى الداخل. وهناك بعض الشك فى أن هذا التجويف يشير إشارة رمزية إلى رؤيا القديس يوحنا: «رأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التى عندهم». وفى العصور الأولى كان من المعتاد دفن أجسام الرؤساء الدينيين العظام، وخاصة الشهداء، تحت أرضية الهيكل، بل وفى المذبح نفسه.

---

(١) الحيوانات الأربعة غير المتجسدة حاملة مركبة الإله، كما يذكر الشاهد بذلك صاحب الرؤيا بقوله «وللوقت صرت فى الروح وإذا عرش موضوع فى السماء وعلى العرش جالس، وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد، وفى وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء، والحيوان الأول شبه أسد، والحيوان الثانى شبه عجل، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان، والحيوان الرابع شبه نسر طائر، والأربع حيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها، ومن الداخل مملوءة عيونا ولا تزال نهارا وليلا قائلة: قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شىء الذى كان والكائن والذى يأتى» وقال إشعياء النبى «رأيت السيد جالسا على كرسى عالٍ مرتفع وأذياله تملأ الهيكل، والسيرافيم واقفون، ولكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطى وجهه، وباثنين يغطى رجليه، وباثنين يطير، وهذا نادى ذاك وقال: قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض»، وقال حزقيال النبى «فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال، سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار، ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها، لها شبه إنسان، ولكل واحد أربعة أجنحة، وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول»، وقال يوحنا الإنجيلى «وبعد هذا سمعت صوتا عظيما من جمع كثير فى السماء قائلا هللويا، الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا، وخر الأربع حيوانات وسجدوا لله الجالس على العرش قائلين «آمين هللويا، فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شىء، لنفرح ونتهلل ونعطيه المجد»، وقد جعلهم الرب بقربه ليسألوه فى الخليقة، فوجه الإنسان يسأل عن جنس البشر، ووجه الأسد يسأل فى الوحوش، ووجه العجل يسأل فى البهائم، ووجه النسر يسأل فى الطيور، وقد ثبت معلمو الكنيسة تذكارهم وبنوا لهم الكنائس. (Coptic Orthodox Church Network, copticchurch.net/classes/synex.php?lang) (المترجم).



حجاب فى كنيسة أبى سرجة بمصر القديمة. يُقال إن العذراء

وُضِع جثمان القديس مرقس تحت مذبح الكنيسة القديمة فى الإسكندرية؛ وقد نقل أهل البندقية الرفاة المقدسة عنوةً حيث يضم هيكل كنيسة القديس مرقس فى ڤينيسيا هذه الرفاة الآن. (١)

الاستخدام الأساسى من جانب الأقباط لتجويف المذبح حاليًا فى يوم الجمعة الحزينة، حين تُدفَن صورة للصليب داخله فى ورق الورد وتُستعاد فى صباح يوم عيد القيامة. (هناك وصف لهذه المراسم ضمن الملاحق فى آخر الكتاب.)

الأدوات الموضوعة فوق المذبح شديدة الأهمية. ففى الوسط يقوم كرسى كأس العشاء الربانى. وهو عبارة عن صندوق مصنوع من الخشب ارتفاعه قدم تقريبًا، وبه فتحة مستديرة تُوضع فيها الكأس بحيث تختفى تمامًا. وجوانب الصندوق الأربعة مرسوم عليها مناظر مقدسة مختلفة.

الكأس نفسها مصنوعة من الفضة الخالصة، ولكن هناك عينات من الذهب وكذلك من الزجاج. وجسم الكأس مخروطى إلى حد ما، أما ساقها فطويلة، ولها باستمرار قاعدة مستديرة.

وتوجد أمام كرسى كأس العشاء الربانى، على المذبح، صينية القربان، وهى صينية مستديرة من الذهب أو الفضة أو الزجاج المطلى بالمينا لها شفة مرتفعة تحيط بها. تتكون قبتها من نصفى عروة متقاطعين بزاوية قائمة. وعند احتفال العشاء الربانى توضع القبة على الخبز المقدس الموضوع على الصينية؛ ويُفرد فوق القبة مربع صغير من الحرير فى وسطه صليب يسمى لفافة، كى لا يلمس الخبز. وهناك لفافتان أخريان، إحداهما للكأس وأخرى تُسمى الإبروسفارين (٢) لتغطية الصحن والكأس معًا. (٣)

---

(١) فى يوم ١٥ من بؤونة من عام ١٦٨٤ الموافق السبت ٢٢ من يونية لسنة ١٩٧٨، وفى السنة العاشرة لحبرية البابا كيرلس السادس، تسلم الوفد الرسمى الموفد من قبل البابا كيرلس السادس رفات القديس مارمرقس الرسول كاروز الديار المصرية والبطريرك الأول للكرازة المرقسية، من يد البابا بولس السادس بابا روما فى القصر البابوى بمدينة الفاتيكان. وكان الوفد مؤلفا من عشرة من المطارنة والأساقفة (بينهم سبعة من الأقباط وثلاثة من المطارنة الأثيوبيين) وثلاثة من الأراخنة. والمكان الذى يوجد فيه مزار رفاة القديس مار مرقس رسول المسيح إلى أرض مصر أسفل الكاتدرائية المرقسية بأرض الأنبا رويس بالقاهرة. (المترجم).

(٢) كلمة يونانية معناها «ستر الغطاء». (المترجم).

(٣) يرمز ذلك إلى تكفين جسد المسيح حين أنزلوه من على الصليب.



المنبر والحجاب الأوسط فى كنيسة أبى سرجة. وتوضح الصور الكثير من التفاصيل الأخرى اللافتة للانتباه المشار إليها فى النص.

وها هى الملعقة، ذات البطن العميق، التى تقدم بها العناصر المقدسة للمتناولين. خلف الصندوق يوضع صندوق محفوظ فيه الأناجيل الأربعة باللغة القبطية. وعادة ما يكون صندوق الأناجيل هذا من الفضة أو الفضة المذهبة، وإن كان منها ما هو مصنوع من الحديد، وفى بعض الأحيان يكون مزينًا بأحجار كريمة. وهو مقصور على الأقباط، حيث لا توجد حتى فى الكنائس المصرية الملكانية(1) الأخرى. وهناك نماذج فى غاية الجمال فى المتحف القبطى بالقاهرة. والكثير منها مرصع بزخارف متداخلة، مع وجود صلبان ونقوش بارزة باللغتين القبطية والعربية.

وربما يقود مغزى أغلفة الأناجيل تلك، التى لم يُفتح معظمها قط منذ إغلاقها أول مرة ويعود بعضها إلى ما بين أربعمائة وخمسمائة عام، إلى أكثر فترات التاريخ القبطى لفتًا للانتباه، حيث ترتبط ارتباطًا وثيقًا بصيغ الكتاب المقدس التى أثرت فى القرون الأولى على الكنيسة المسيحية ككل. وكان آخر ما يدل عليها فى بريطانيا هو أداء القَسَم على العهد الجديد، والإيمان الكامل بين المسيحيين بـ«الغمس» فى الكتاب المقدس، وهو المعتقَد الذى كان شائعًا على نحو كبير فى يوم من الأيام.

فى تجربتى الخاصة قابلت فى إنجلترا الكثير من الأمثلة ـ غير المقصورة على أهل الريف ـ التى كانت تسعى إلى اكتشاف ماهية إرادة الرب فى بعض الأمور الطارئة من خلال «الغمس» أو وضع الإبهام فى الكتاب المقدس. وأعرف امرأة ذات مكانة اجتماعية مرموقة وذات أملاك كثيرة تلجأ باستمرار إلى «الغمس».

يروى الراحل الدكتور باركر فى Tyne Child، وهو كتاب ذكرياته، كيف أن أمه كانت تمارس ذلك باستمرار.

---

(1) سُمى الملكانيون كذلك لأنهم أيدوا القرار الذى نصره قسطنطين فى المجمع الذى جمعه، وقيل لأنهم أيدوا القرار الذى اتخذه مجمع خلقدونية عام ٤٥١م، ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية القائلة بطبيعة واحدة للمسيح. وهم يقولون إن يسوع المسيح إله تام كله وإنسان تام كله، ليس أحدهما غير الآخر وإن الإنسان منه هو الذى صُلِبَ وقتل، وإن الإله منه لم ينله شىء من ذلك، وإن العذراء مريم ولدت الإله والإنسان وهما معًا شىء واحد. (المترجم).

فى مصر لم تُمس هذه المعتقدات بعد، بالنسبة لعدد ضخم من الناس؛ بل إن الكنيسة نفسها تشجعها، حيث يلجأون إلى «الغمس» فى قُدَّاس الكنيسة القبطية بانتظام.

لا يشك أحد فى الاعتقاد الذى يؤيد الأسطورة الرهبانية التى تقول: «إن الراهب الذى انتابته رهبة شهوانية جسدية تمكن من مقاومة الإغواء بتعليق الإنجيل بحبل حول رقبته». وما زال الكتاب المقدس طلسمًا عجيبًا يحمى من الألم والكوارث. وتُستخدم الصلاة الربانية فى المناسبات كافةً، الدنيوية والدينية على السواء، بواسطة الكهنة والرؤساء الدينيين بالكنيسة على النحو الذى ظننت أنه يشير إلى فكرة التعويذة السحرية القديمة.

وهنا فى صندوق الأناجيل (البشارة)، نرى أكثر الرموز الدالة على تلك المعتقدات إجلالًا وتوقيرًا؛ فهذه الأناجيل هى صورة المسيح ذاتها، ودليل على وجوده، ورمز لقدرته المعجزة. وفى كل القُدَّاسات المهمة يُحمل صندوق الأناجيل فى طواف يلف الكنيسة، مع المباخر والشموع والصلبان.(1)

فى يوم خميس العهد يُغطى الصندوق بكومة كبيرة من بتلات الورد على المذبح.

يوضع على كل مذبح صليب صغير فى وضع أفقى، وهو كذلك ما تختص به الكنيسة القبطية وحدها، وما يفصح بكل وضوح عن الطريقة التى حُفِظَت بها ممارسات العالم المسيحى المبكرة جدًا. ولا يعرف الأقباط شيئًا عن الصليب الذى يحمل صورة المسيح مصلوبًا، لسبب بسيط وهو أن هذا الشكل من الصلبان لم يكن معروفًا حتى القرن السابع، وهو الوقت الذى كانت فيه الكنيسة الغربية تأتى بالكثير من البدع التى لم يكن المسيحيون الأقباط يعرفون عنها شيئًا، ولم تكن لديهم الرغبة فى معرفتها؛ ذلك أنه من بين كل أشكال الكراهية، كانت كراهية بابا روما وكل أساليبه هى الأشد مرارة، ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا.

---

(1) يشير رفع الشماس للصليب والبشارة والطواف بهما إلى انتشار البشارة بقوة المسيح المصلوب إلى كل العالم. (المترجم).

يوضع الصليب الذى يمسك فى اليد باستمرار على المذبح منذ سنة ٨٥٥ ميلادية عندما منع الحاكم المسلم الأقباط من إظهار الصليب فى قُدَّاساتهم العامة. وبصورة عامة تحمل تلك الصلبان التى يصل طولها إلى تسع بوصات نقشًا ما.

والصليب القبطى أذرعه كلها متساوية؛ وكان تبنى روما الصليب ذا الأذرع غير المتساوية كافيًا إلى حد كبير لأن يقتصر استخدام الكنيسة القبطية على الشكل الحالى وحده؛ ذلك أن الكنيستين كانتا تستخدمان الشكلين بلا تفرقة فى البداية. والصليب المحمول باليد غير معروف بالمرة فى العالم المسيحى الغربى.

وهو يُستخدم باستمرار لمنح البركة، وله مكان فى الشعائر كلها. ويعتقد العامة أن لهذا الصليب قدرات سحرية؛ فهو يُستخدم فى طرد الأرواح النجسة، ويُنظر إليه عند مسح المرضى بالزيت ومباركتهم على أنه جزء من العلاج. وأعرف أن أسقف الفيوم المرسوم قديسًا، الذى زرته،(١) كان هو نفسه يظن أن قدرات خاصة تمر من خلال الصليب الذى كان يستخدمه باستمرار. وقد حكى كيف أنه حدث ذات مرة، حين كان يسعى لإخراج روح نجسة أبدت قدرًا كبيرًا من العناد، أنه كان يمسك بالخطأ صليب أحد كهنته؛ وعندما استعاد صليبه تم طرد الروح النجسة. وكل كنيسة بها صلبان الطواف الخاصة بها، وهى بصورة عامة من الفضة.

كان الإيمان بـ «رمز الفضل»، كما تسمى علامة الصليب، وما زال، متأصلاً بعمق فى عقل المسيحى الشرقى، وخاصة فى مصر حيث أخذ الصليب على نحو طبيعى إلى حد كبير علامة عنخ السحرية الخاصة بالديانة القديمة. وقال أحد الآباء الأوائل: «حيثما يكون خاتم الصليب لا يكون لشر الشيطان القدرة على الإيذاء». وقيل إنه حين كان القديس أنطونيوس (٢) يرشم علامة الصليب كان الشيطان يرتعد. وكان

(١) انظر الفصل الفصل السادس، الكتاب الثانى. (المترجم).

(٢) «وُلد أنطونيوس سنة ٢٥١ مسيحية، فى مدينة كومان فى مصر العليا القريبة من الصعيد، من والدين مسيحيين تقيين من أشراف البلد وأغنيائها. لم يتعلّم أنطونيوس لا القراءة ولا الكتابة. ولكنّ الله قد حباه بذكاء طبيعيّ؛ بنوع أنه كان يحفظ عن ظهر قلب كل ما كان يتلى عليه من نصوص الكتب المقدّسة وحياة الآباء القديسين وأخبار النساك... فعزم نهائيًا على ترك العالم الزائل وله من العمر ثمانى عشرة سنة... دُعيَ القديس أنطونيوس أول النساك وأبا الرهبان لكن هذا لا يعنى ويجب ألا يُفهم أنه لم يكن من نساك قبله. فقد حقق العلماء المؤرخون أن الحياة النسكية كانت قبل المسيح وبعده، وأن مصر =

أحد رهبان تلك الفترة يرشم الطعام بدلاً من الزيت؛ وكان راهب آخر يفتح باب القلاية بعلامة الصليب بلا مفتاح.

لا يزال الصليب الحماية الأكيدة للمسيحى من العفاريت والجن، التى ترعب كل الشرقيين؛ وبينما يذكر المسلم اسم الله، يرشم المسيحى علامة الصليب. وهو فعَّال على الماء الملوث، وعندما يُستخدم ثلاثًا يكون فعالاً فى علاج المرض؛ ولا شىء غيره يحمى من أذى «عين الحسود» بذلك القدر من التأكد.

وفى هذا المغزى يجب البحث عن تفسير لحرص الآباء الأقباط الشديد على عمل وشم الصليب على رسغ كل طفل من أطفالهم، مع أنه ينبغى الثقة بهم؛ ذلك أنهم كانوا فى أيام الاضطهاد على قدر من الشجاعة جعل لديهم الرغبة كذلك - بواسطة هذه الوسيلة - فى جعل إنكار صليب المسيح مستحيلاً عليهم وعلى أطفالهم. ويضع كل راهب وكل كاهن على جلده مجموعة تضم أربعة عشر صليبًا منسوجة بخيوط من الجلد بطريقة تجعل كل صليب يحمى جزءًا حيويًا من جسمه. وهو يلبس هذا الحزام سرًا عند رسامته، ولا يخلعه أبدًا. ولم أرَ قط ذِكرًا لهذه الحقيقة من جانب أى كاتب غربى؛ وقد اكتشفتها بالصدفة فى زيارة غير متوقعة لدير الراهبات الذى يُصنع فيه هذا الحزام. وكنت قد حصلت على واحد، بواسطة الإلحاح الغربى الذى يتغلب باستمرار على التأدب الشرقى، قبل أن أدرك دلالته المقدسة؛ فبينما أشعرنى التروى فى التفكير بالخجل، كان الوقت قد فات كى أتخلى عن تطفلى، أو أرد الرمز المقدس.

عند أركان المذبح الأربعة، تقف على الأرض أربعة شمعدانات كبيرة من الفضة أحيانًا، كما فى الكاتدرائية، ولكنها فى الغالب من الخشب، ولا بد أن تحمل

=كانت مهد الحياة النسكية بإجماع المؤرخين قبل أنطونيوس وبعده... شاع خبر قُدَّاسته فى بلاد الصعيد وكل مصر، فتقاطرت الناس إلى مغارته من كل حدب وصوب لمشاهدته وطلب بركته والاستفادة من إرشاداته الروحيّة». (من كتيب «حياة القديس أنطونيوس الكبير» للأب أنطونيوس شينا ww.ayletmarcharbel.org/StAntoineAra.htm - 19k) (المترجم).

الأضواء أثناء القُدَّاس. ومسموح بوضع شمعتين لا أكثر على المذبح نفسه، وإن كان بالإمكان إضاءة أى عدد من الشموع أو المصابيح حوله. ويقف الشمامسة حول المذبح حاملين الشموع الموقدة فى أيديهم فى أجزاء مختلفة من قُدَّاس الإفخارستيا؛ وهم يدورون حول المذبح مرارًا بالأضواء، وكثيرًا ما يمسكونها فوق المذبح.

هناك ثلاثة مفارش صغيرة مستديرة من القش المنسوجة بالحرير على المذبح تسمى حُصْر الإفخارستيا، وتنفرد بها الشعائر القبطية. وفى وقت مبكر من الاحتفال يرفع الكاهن تلك الحُصْر عاليًا، فيما يبدو تقديسًا لها من أجل استخدامها اللاحق فى القُدَّاس.

وأثناء إحياء ذكرى «الخلاص» يأخذ الكاهن حصيرة حمراء بيده اليمنى وحصيرة خضراء بيده اليسرى ويمسكهما بذراعين مفرودتين. ويرشم الشعب بإحدى حصيرتى الإفخارستيا اللتين فى يديه.

يوضع الصليب على تلك الحُصْر ومعه الثلاثة أرغفة الصغيرة المستخدمة. وبما أن رقائق القربان المقدس غير مستعملة فى الكنيسة القبطية، فلا تُتخذ أية تدابير لها فى صورة أى شكل من أشكال حُق القربان المقدس.

توجد باستمرار على المذبح مروحة يعود استخدامها إلى أقدم العصور. وبعض تلك المراوح مصنوع من الفضة المطروقة، وتكون على شكل قرص متصل بمقبض؛ والبعض الآخر من ريش الطاووس، أو الجلد، أو الكتان. ولا شك فى أن استعمالها الأصلى، الذى أصبح ضروريًّا فى الشرق شديد الحرارة، كما تقول ليتورجية القديس كليمنت هو «لإبعاد الذباب والباعوض كى لا يسقط فى كأس العشاء الربانى». ولا يزالون يحركون المراوح فوق العناصر المقدسة فى لحظات معينة من القُدَّاس ضمن الشعائر، إلا أنه يُنظر إلى المروحة بصورة عامة على أنها نوع من الزينة. وعندما يؤخذ صندوق الأناجيل إلى الخورس، تؤخذ المروحة معه فى بعض الأحيان. وعندما يكون المقبض من الخشب فإنه يوضع فى أحد مسامير الشمعدانات وتلصق عليه شمعة.

لا بد أن يكون بكل مذبح صندوق بخور من الفضة؛ أما المجمرة، المصنوعة من الفضة المطروقة والزخارف المفرغة، فتتأرجح فى سلاسل غالبًا ما تشبك بها أجراس صغيرة.

فى الجانب الشمالى من المذبح يوجد حامل خشبى صغير عليه طست يغسل فيه الراهب يديه. وكان الطست والإبريق يصنعان فى يوم من الأيام من المعادن الثمينة، وقد ضاعت النماذج القديمة منهما. وتُستخدم فى الغالب الآن صحون من الصفيح، وتكفى القلة الفخار العادية لتكون بمثابة الإبريق. ويقال إن كاتدرائية القاهرة بها إبريق من الفضة، ولكن لم أر سوى قلة عادية.

الفصـل الثانـى

الشعب فى تعبـده

بعد تلك التفسيرات يمكننـا العودة إلى جمـوع المصلين فـى الكاتدرائية، حيث يمكننا أن نفهم إلى حد ما القُدَّاس الذى تشـارك فيه تلك الجموع. والشـىء الذى قد نلاحظه هو أنهم لا يحملون كتبًا مطبوعة من أى نوع؛[1] فالقُدَّاس كله يُرَتَّل من كتب مخطوطة.

الملمح الواضح الآخر هو أنـه بالرغم من طول القُدَّاس (الذى يشـمل فى صباح يوم الأحـد رفع بخور باكر، قبل الإفخارستيا)، حيث يستمر حوالى أربع سـاعات، فليس هناك أى ترتيب لتوفير أماكن لجلوس الرجال. ومع أنه لا يوجد من بين هؤلاء الرجال من ينـوى التناول، فلا بد أن يأتـوا جميعًا وهم صائمـون، حيث يصلون فيما بين السـاعة السابعة والثامنة صباحًا وهم يعرفون أن القُدَّاس لن ينتهى إلا بين الحادية عشـرة والثانية عشـرة. بل إن معظم الصلوات الطويلة تكون باللغة القبطية، وهى لغة لا يفهمهـا النـاس بحـال من الأحـوال؛ والواقـع أن هناك شـكًا فى معرفـة الكثير من الكهنـة لمـا يزيد عـن تلك الأجـزاء من القُـدَّاس التـى يرددونهـا غيبًا باللغـة القبطية والمضطرون لحفظها.

إنـه أمـر غير عادى أن يكون هناك تشبث على مر تاريخ الكنيسـة القبطية بالإيمان بميزة الوقـوف أمام الـرب. وقـال أحد الرهبـان كبار السـن إن الوقـوف علامة على

---

(١) تولى الكنيسـة فى الوقت الحالى بعض الاهتمام لطبع كتب القُدَّاس، ولكنها ليست مسـتخدمة بكثـرة. ولا تزال نسخة الكتاب المقدس باللغة القبطية تكلف ٤٠ جنيهًا استرلينيًا.

خضوع الإنسان البدائى. وهكذا أصبح للوقوف ميزة كبيرة فى الأيام التى كان فيها الجسد محتقرًا تمامًا، حتى أن التنافس على التميز الروحى بلغ حدًا دفع بعض الإخوة إلى الوقوف ليالى بكاملها وهم يصلون، ولم يتفوق عليهم إلا غيرهم ممن استمروا فى الصلاة لمدة أربعين ليلة دون أن يثنوا ركبهم. بل إن هناك من تجاوزوا ذلك إلى التعهد للرب بألَّا يجلسوا أو يرقدوا فى أى وقت، وكانوا بذلك يسعون إلى الفوز برضاه، وبالشهرة لديرهم. وظل الإخوة فى أحد الأديرة أربعين عامًا لا يتكئون على أى شىء أو يرقدون.

بهذه الطريقة أصبح الوقوف عند الصلاة أسلوب حياة مقدس، جعله مجمع نيقية (سنة ٣٢٥ ميلادية) قاعدة للكنيسة، حيث أمر بأنه «فى كل مكان تقدم الصلوات للرب فى وضع الوقوف».

فى السنوات الأخيرة أُدخلت بعض المقاعد، ولكنها غير مفضلة من الرجال المتبعين للطريقة القديمة أصحاب العادات شديدة التدين. والمتقدمون جدًا فى العمر أو أصحاب الأمراض هم فقط الذين يُفترض أن يستفيدوا منها، مع أننى رأيت ميلًا من جانب الرجال الذين تلقوا تعليمًا غربيًا إلى الجلوس أثناء بعض القراءات الكثيرة من الكتاب المقدس فى القُدَّاسات.

يمكن القول إن العكاز الذى كثيرًا ما يُشاهَد فى الكنائس القبطية قد يدل على صفحة أخرى فى تاريخ الكنيسة. فعندما كانت آلام الجسد تصل إلى حد عدم قدرة الحماس الدينى العميق على تسكين تلك الآلام التى سعى إليها، ويفتر عزم الرجال تجاه الرب، كانوا يظنون أنه يمكنهم بالحيلة الهروب من المعاناة مع الاحتفاظ بعهدهم معه. إذ لم تكن لديهم الشجاعة لرفض إجهاد الكنيسة بالجلوس؛ أما إذا استندوا إلى عكاز فحسب «فكيف للرب أن يعرف» إنهم لم يعودوا واقفين كما كانوا؟

القُدَّاس المستخدم عمومًا للإفخارستيا هو ليتورجية القديس باسيليوس أسقف قيصرية كبادوكية، وإن كان قد عانى معاناة شديدة بمرور الوقت على أيدى المترجمين والجامعين. وتختلف النسخ القبطية عن بعضها البعض، وعن ليتورجية القديس باسيليوس التى يستخدمها اليونانيون. وتُستخدم ليتورجية القديس

غريغوريوس فى أعياد المخلِّص وغيرها من الأعياد المقدسة؛ بينما تُستخدم ليتورجية القديس مرقس أثناء الصوم الكبير (وفى شهر كيهك).

الليتورجية عامرة بالجمال، حيث تتميز الصلوات بروعة التعبير والهمة الروحية للنص. واعتبر العميد ستانلى(١) أن هناك «عرضا لرؤية لاهوتية رفيعة المستوى للثالوث»، ثم يمضى ليشير إلى غياب أية دقة فى العبارة فيما يتعلق بالتأمل أو الخلاص. وقد اعتمدتُ على رأى العميد هذا، الذى جاء بلغة أقل مرونة مما تقتضيه الحقائق، أحكامٌ تتسم بالمبالغة الزائدة من جانب الكُتَّاب الغربيين. صحيح أنه يبدو أن قدماء المصريين لم يعبّروا عن أى شىء يخص الإحساس بذنب الخطيئة والشعور العميق بالندم والتوبة، وهما ما يميز الديانة العبرية أو المسيحية. ولكن إذا كانوا لم يعترفوا بالذنب، فقد كانوا يتبرأون منه باستمرار تبرأً تامًا. ونجدهم على الآثار يتبرأون نيابةً عن المُتَوَفَّى من كل ذنب كان على علم به - «لم أوذِ طفلًا؛ ولم أضطهد أرملة» هى الكلمات التى وجدت على جدران مقبرة من الأسرة الثانية عشرة فى بنى حسن، وهى كلمات مميَّزة. وكان الأكثر شناعة عند المصريين تلك الخطايا مثل الاستيلاء على ماء الرى بطريقة غير أمينة. وكثيرًا ما كانت النقوش تتبرأ من هذا العدوان نيابةً عن المُتَوَفَّى. وأمثلة التبرأ من الكثرة وسعة الانتشار بحيث يكون من المستحيل تصديق أن الرعايا يمكن أن يكونوا على ذلك النحو من البراءة من الذنوب الذى تمنوا هم أو أقاربهم أن تظنه الأجيال التالية.

من المدهش مقدار ظهور هذه السمة التى تبدو عميقة فى العقل الشرقى فى مصريى هذه الأيام، أقباطًا كانوا أم مسلمين. وبصورة عامة، ربما يكون المرء متأكدًا إلى حد كبير من أن المصرى الحديث سوف يعتمد فى ظل كل الظروف على التماس العذر لنفسه لعدم ارتكابه أى خطأ، بغض النظر عما قد يكون هناك من أدلة.

بالنسبة لذلك النوع من الغرور الطفولى الذى يتسم به أهل الشرق، فهو ليس مقصورًا على شعب من الشعوب الشرقية، تمامًا مثلما أنه لا علاقة له بالدين. «إنكم

(١) آرثر پنرين ستانلى (١٨١٥-١٨٨١) عميد جامعة ويستمنستر بلندن منذ ١٨٦٤ حتى وفاته. وقد زار مصر فى عام ١٨٥٢ وسجل مشاهداته فى كتاب Sinai and Palestine in Connection with Their History الذى ما زال يُعاد طبعه حتى الآن. (المترجم).

أفضل شعب»،(١) هكذا يقول القرآن، وهو ما يؤمن به المسلمون. «إنى أملك الفضائل كافة»، هذا ما يعلنه راهب من قبل أيام الإسلام، حين كان الإخوة المسيحيون، كما يقول مصدر موثوق به، «يحبون تحقيق رقم قياسى فى التقشف، وكانوا يتباهون جهارًا بمنجزاتهم، وكانت تملؤهم روح التنافس فى الزهد وقهر الجسد لخلاص النفس».

توجد الرغبة فى الاستحسان عند أصغر الأطفال. وعندما كانت ميس واتلى تدرّس فى يوم من الأيام، حاولت التأكد من ذلك. انطلاقًا من أمثولة «الفريسى والعَشَّار»(٢) بدأت ميس واتلى تبين للصغار خطيئة الغرور والتباهى، قائلة: «إن الرب لا يحب من يمدحون أنفسهم، ولكن العَشَّار كان على حق لأنه كان متواضعًا». فى صباح اليوم التالى بدأت طفلتان أو ثلاث طفلات يتباهين بأنفسهن كالمعتاد لما لهن من ميزات مفترضة، حين قالت لها فتاة قبطية صغيرة، وكانت طفلة طيبة جدًا فى جوانب كثيرة: «ستى أنا وحشة خالص!» (بنبرة انتصار واعتباط). «أنا مش نافعة فى حاجة! أنا حلوفة!» وعند تلك الذروة تخلت المعلمة عن وقارها وانفجرت ضاحكة.

---

(١) الآية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ آل عمران، الآية ١١٠. الواقع أن هناك سوء فهم لهذه الآية. ذلك أنها لا تقر خيرية الأمة على الإطلاق، بل إن الخيرية هنا جواب لشرط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. أى أنكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فستكونون خير أمة أخرجت للناس. وإذا كان هذا الخطأ يقع فيه المسلمون، فالمؤلف الإنجليزى معذور. (المترجم).

(٢) «قال لقوم واثقين بأنفسهم إنهم أبرار ويحتقرون الآخرين هذا المثل. إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصليا واحد فريسى والآخر عشار. أما الفريسى فوقف يصلى فى نفسه هكذا اللهم أنا أشكرك أنى لست مثل باقى الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار. أصوم مرتين فى الأسبوع وأعشر كل ما أقتنيه. وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلا اللهم ارحمنى أنا الخاطئ. أقول لكم إن هذا نزل إلى بيته مبررًا دون ذاك» (لوقا ١٨: ٩-١٤) لقد كان محور صلاة الفريسى هو ذاته، فكانت فى نفسه ومن نفسه وعن نفسه ولم يذكر اسم الله إلا مرة واحدة، لكن سرعان ما رجع إلى التحدث عن بره الذاتى وحسناته. لقد شكر الله بلسانه، ليس لإحسان من الله وصل إليه، بل لبره هو وصومه وعشوره. لقد ذكر الناس فى صلاته، لكنه لم يكن مصليًا لأجلهم، بل مُحتقرًا إياهم. وكانت مليئة بالإعلان عن نفسه. أما الفريسى فاتضاعه وانكسار قلبه وإحساسه بنجاسته أمر شديد الوضوح. وهو يشعر بالندم والشعور بأنه يستحق كل قصاص من الله. والدرس المستفاد من هذه الأمثولة هو «مَنْ يرفع نفسه يتضع، ومَنْ يضع نفسه يرتفع». (المترجم).

[...] الكبرياء الذى يحاكى التواضع» مضت الطفلة فى كلامها معلنة: «أنا مش [...] أنا مش نافعة فى حاجة؛ أنا حلوفة!»

من المؤكد أنه لا توجد فى النصوص الهيروغليفية كلمة تعنى «الندم» أو «التوبة»، وعندما كُتبت النسخة القبطية من العهد الجديد، اضطر المترجمون إلى استخدام الكلمة اليونانية التى تعنيها. ولكن فى الوقت نفسه هناك الكثير من الأدلة التى تبين أن المسيحية الأولى تغلبت على تلك العادة الذهنية المتوارثة إلى حد كبير شيئًا فشيئًا. كان أكثر الرهبان ورعًا يبكون باستمرار على خطاياهم ويصلون من أجل المغفرة؛ وكان البعض منهم يقضى سنوات معاناة عديدة فى الكفارة والحزن، وإن لم يغب قط النصح بالتوقف سريعًا عن اليأس. ولكن بما أن الروحانية ماتت فى الكنيسة، فقد فرضت الغرائز الطبيعية القديمة نفسها من جديد. وبين الرهبان، كانت الفكرة التى تسيطر عليهم جميعًا فى البداية هى إنقاذ أرواحهم؛ وهى الرغبة التى كانت لدى أجدادهم ما قبل المسيحيين.

ولكنى ما زلت أظن أن فكرة الندم والتوبة وفكرة الخلاص أكثر تعمقًا فى الشعائر مما يشير ستانلى. فسوف نجد طوال تاريخ هذه الكنيسة أنه عندما كانت تخترق دعوة روحية بحق الحياة التى شابها الفساد، فعندما كان الناس يغرقون فى التصور النفعى للأخلاق والاعتماد على الشعائر الشكلية، كانوا يعودون إلى التوبة والندم ويصرخون طالبين العفو؛ وقد ثبت من جديد أن تعاليم المسيحية لديها القدرة ليس على تغيير القلب فحسب، بل كذلك العقل الذى شوهته بسهولة الغريزة الموروثة من زمن بعيد، وذلك من خلال تعاليم كنيستهم. وإنى على ثقة من أن الشىء نفسه سيحدث مرة أخرى، عندما يظهر نبى الزمان الجديد.

يبدأ كبير الكهنة رفع بخور باكر بالوقوف عارى الرأس أمام باب الهيكل وظهره للشعب ويقول «نسجد لك أيها المسيح مع أبيك الصالح والروح القدس لأنك أتيت وخلصتنا» «كيرياليسون. يارب ارحم. يارب ارحم». ويرتل هو نفسه ومعه الصليب باسم الآب والابن والروح القدس، ثم يغنى الشعب مع يده اليمنى بالطريقة نفسها.

تلفت الملابس الكهنوتية التى يرتديها هـذا الكاهن الذى يؤدى واجبات خدمة القُدَّاس الانتباه، وهى تعود بنا، مثل كل شىء آخر تقريبًا فى الكنيسة القبطية، إلى مصر القديمة. وينطبق هذا بشكل خاص على العصا التى يتكئ عليها الأسقف، وهو موجود فى هذا القُدَّاس. والمصطلح العربى الذى يشير إليها يسميها «عصا الرعية»(١)؛ وهى ليست معقوفة، ولا تتصل بها أية فكرة خاصة بالرعاية الرعوية. ففى نهايتها فرعان صغيران على هيئة رأس الثعبان ورقبته، وفى وسطهما نتوء صغير مستدير يعلوه صليب. وهناك أدلة على أن هذه العصا هى الخليفة المباشر للعصا التى لها رأس ثعبان التى كانت مستعملة فى العصور الفرعونية، فى الطقوس السرية، حيث كان للثعبان مكان فى رمزية بعض الطوائف القديمة.

التونية(٢) كما ترتديها الكنيسة الكاثوليكية كلها هى الرداء الأبيض الذى كان كهنة إيزيس يلبسونه؛ وحلق أعلى الرأس مأخوذ من الكهنوت المصرى القديم.

وكاهن اليوم، الذى يرتدى ملابس كهنوتية مضافةً إلى التونية الأصلية، هو فى الواقع شرقى حسن الثياب يعود إلى ألفى عام، زُينت ملابسه بالتطريز من أجل قُدَّاس الكنيسة الخاص. وكما يشير الدكتور بتلر(٣)، فإن الزى الشرقى لم يتغير كثيرًا، ويمثل

(١) تسمى «عصا الرعاية» أو «عصا الرعوية» وكذلك «العكاز». وهى عصا طويلة من المعدن أو الخشب تعلوها حيتان يتوسطهما صليب صغير وتبدى حقوق الأسقف الرعائية وسلطته الروحية. وهناك من يرى أنها تشير إلى عصا موسى التى تحولت إلى حية وأكلت حية كهنة فرعون. وكذلك إلى الحية النحاسية التى رفعها موسى فى البرية. (المترجم).

(٢) التونية كلمة أصلها يونانى ومعناها «امش بترتيب» وهى تشير إلى ثوب المسيح الذى أُلقيت عليه قرعة وقت الصلب. وهى دائمًا بيضاء، واللون الأبيض يشير للنقاوة، كما أنه يشير إلى الملائكة الذين ظهروا كرجال لابسين لباسٍ أبيض (لو٢٤: ٤) وفتحة التونية دائمًا من فوق عند الأكتاف وليس من الوسط لئلا تكون كثوب قيافا رئيس الكهنة الذى شق ثيابه وقت محاكمة المسيح. ويشترك فى لبس التونية كل خدام المذبح. وهى واحدة بالنسبة للكاهن والشماس والاختلاف الوحيد هو أن تونية الشماس يرسم عليها صليب واحد من الأمام، أما تونية الكاهن فلها صليبان من الأمام والخلف ووجود الصليب من الأمام لكى يذكر الكاهن بالبكاء الدائم على خطاياه، والصليب الخلفى لكى يذكره بالبكاء على خطايا غيره التى يحملها على ظهره بصفته ممثل عن الشعب أمام الله. (المترجم).

(٣) المؤرخ البريطانى الفريد ج. بتلر مؤلف كتابى «فتح العرب لمصر»، وترجمه إلى العربية محمد فريد أبو حديد، و«الكنائس القبطية القديمة فى مصر»، وترجمه إبراهيم سلامة إبراهيم. (المترجم).

أى ابن عرب ينتمى إلى طبقة ميسورة تراه فى أسواق القاهرة، وهو صورة لأصل الثياب الكهنوتية المسيحية أصح من كل تماثيل أثينا وروما.

والثوب الكهنوتى الأبيض المطرز ذو الأكمام الذى يرتديه الكهنة الأقباط هو تمامًا الرداء الذى تخلت عنه روما منذ خمسة عشر قرنًا.

هؤلاء الكهنة الذين يدخلون الهيكل لا بد أن يرتدوا غطاءً فضفاضًا من الحرير على الرأس يسمى الطيلسانة؛ حيث يبدون فيه كابن العرب ميسور الحال الذى يحمى رأسه ورقبته بمثل هذا الرداء ـ والفرق هو أن غطاء رأس الكاهن مطرز بعدد كبير من الصلبان. وبالطريقة نفسها فإن الرداء الخارجى الذى يرتديه الكاهن هو البرنس الذى يرتديه العرب، ليس فى مصر وحدها بل فى شمال إفريقيا. ويرتدى الكهنة البطرشيل (١) وهو يختلف من حيث طوله وطريقة لبسه، باختلاف الرتب. وإذا كان البطريرك حاضرًا هذا القُدَّاس وشارك فيه كان لا بد من ارتدائه ملابس كهنوتية خضراء.

ربما يكون من الواجب الإشارة إلى الزُّنَّار (٢) (الحزام) القبطى الشهير، مع أنه لا يُلبس فى احتفال الإفخارستيا. وهو يعود إلى أقدم عصور التاريخ، ولا بد أن له معنى خاص لدى مسيحيى مصر باستمرار. فعندما سعى الخلفاء المسلمون الأوائل إلى إذلال الأقباط أمروهم بأن يتمنطق كل رجل منهم بزُنَّار لتمييزه عن فاتحى بلاده. وفيما بعد، كان الغربيون بزعامة أهل البندقية المغيرين يشيرون إلى الأقباط بـ«المسيحيين ذوى الزُّنَّار». وقد يكون علىَّ أن أذكر هنا أن زى الخروج العادى للكاهن القبطى هو الثوب الأسود والعمامة السوداء التى تعود إلى أيام الاضطهاد،

(١) قطعة نسيج طويلة وعريضة يلبسها الكاهن أو الأسقف على العنق وتتدلى على الصدر وينتهى إلى الأسفل بشراريب. ويدل البطرشيل على النعمة الإلهية المستقرة على لابسه ويشير إلى تحمل الأسقف أو الكاهن مسئولية الرعية. وبدونه لا يستطيع الكاهن القيام بأية خدمة كنسية. (المترجم).

(٢) هناك رأى يقول: إن الزُّنَّار يتمنطق به الكاهن والأسقف يشير إلى العفاف اللازم لمن تمنطق به ويرمز كذلك إلى السياط التى جُلِد بها المسيح. ويشد الكاهن والأسقف حقويه (خصره) بالزُّنَّار متهيأً للقيام بالخدمة المقدسة الإلهية بكل ضبط لشهواته؛ ولذلك هو يرمز إلى القوة التى تمنطق بها السيد فى ملكوته بحسب الرؤيا. ويقول الكاهن والأسقف حينما يتمنطق بالزُّنَّار: «تبارك الله الذى يمنطقنى بالقوة ويجعل طريقى بلا عيب مقومًا رجلىّ كالأيائل ورافعًا إياىّ على المعالى». (المترجم).

حينما كان محظورًا على مسيحيى مصر كافة لبس الألوان الزاهية. وقبل الفتح العربى، وبناءً على ما تشير إليه الأيقونات والصور، يبدو أن الكهنة كانوا يلبسون عند الخروج أردية بيضاء تشبه كثيرًا ما كان يرتديه كهنة المعابد القديمة، وإن لم تُستبعد الألوان.

أثناء رفع بخور باكر هناك ترنيمة للعذراء، «الحمامة الحسنة[١] التى حملت لنا الرب الكلمة»، ولـ«الرسول المبتهج مرقس» والرسل والقديسين والشهداء والآباء المقدسين.

فى تلك اللحظة، وبعد تقبيل العتبة، يخلع الكاهن نعليه،[٢] ويدخل الهيكل، ويمضى إلى المذبح فيقبله. وبعد ذلك، ومع رشم علامة الصليب والصلوات والبركات، يقدّس البخور. ويبخر بعد ذلك المذبح مرارًا وتكرارًا عند كل نقطة، ويدور حوله ثلاثًا مقبلًا إياه عند كل ركن.

عند نزوله من الهيكل (حيث يبتعد عن المذبح ووجهه ناحيته) يبخر الشعب ثلاثًا، ثم يستدير ناحية صورة العذراء المباركة ثلاثًا، مُحيِّيًا إياها مع الملاك غبريال، بينما تُبخَّر الصور الأخرى مرة واحدة فحسب. ويقوم الكهنة والشمامسة - والشمامسة أولاد صغار يرتدون قمصانًا بيضاء طويلة غير ممنطقة - بمصاحبة الشعب، الذين يبدى أفراده حرصهم الشديد على أن يُبَخَّروا، وهو ما قد يشير تقريبًا إلى أن الاعتقاد فى الفائدة السحرية للبخور لا يزال حيًّا، بطواف فى الكنيسة ثم يعودون إلى أبواب الهيكل.

---

(١) «السلام لك أيتها العذراء مريم الحمامة الحسنة»، وتشبّه العذراء بالحمامة فى بساطتها وطهرها وعمل الروح القدس فيها، وتشبّه بالحمامة التى حملت بشرى الخلاص بعد الطوفان، لأنها حملت بشرى الخلاص بالمسيح. (المترجم).

(٢) وذلك بناءً على التوجيه الصادر إلى موسى حين تجلى له الرب فى الشجرة المحترقة. [فى القرآن الكريم نجد الآية الكريمة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ طه، الآيتان ١١ و١٢. ونجد فى العهد القديم من الكتاب المقدس الآية «فقال لا تقترب إلى ههنا. اخلع حذاءك من رجليك. لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة». سفر الخروج ٣: ٥. (المترجم).]

وهنا نرتل طِلْبة (صلاة) جميلة أقدم مقاطع منها، مع حذف صيحة الشعب المستمرة «كيرياليسون»:

«نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر،
اذكر يا رب مرضى شعبك... اشفهم؛ انزع عنهم كل مرض وكل سقم وروح
المرض اطرده،
واشفِ من طال رقادهم فى المرض وقوهم،
وهؤلاء الذين فى السجون أو فى الحبوس أو فى النفى أو الرِّق.
يا رجاء من ليس له رجاء،
ومعين من ليس له معين،
وعزاء صغيرى النفوس،
وميناء الذين فى العاصف.
امنح الأرواح المبتلاة والمقيدة كلها،
الرحمة، وامنحها الراحة، وامنحها القوت وامنحها العون.
امراض نفوسنا اشفِها والتى لأجسادنا عافِها.
أيها الطبيب الحقيقى الذى لأنفسنا وأجسادنا، يا مدبر كل ذى جسد، تعهَّدنا
بخلاصك».

يعود الآن إلى المذبح، وتزداد كمية البخور المحروق وتُقال صلاة من أجل «الذين قدموا القرابين، والتقدمات، والخمر، والزيت، والبخور، وأوانى المذبح، عسى أن يعوضهم يسوع إلهنا فى أورشليم السماوية»، مع أدعية وترانيم كثيرة أخرى، تؤدى إلى دستور الإيمان.

أثناء ترتيل دستور الإيمان، يقف الكاهن عند الباب ممسكًا فى يديه صليبًا عليه ثلاث شمعات مضاءة يرشم به الشعب. وبينما لا يزال الصليب ذو الشمعات المضاءة فى يد الكاهن اليمنى يتجه ناحية الشرق، يفرد يديه ويتلو صلاة بإيقاع بطىء جدًّا للرب الأب، بينما ترد جوقة المرتلين بالصنوج. وبعد المزيد من الصلوات وتبخير المذبح على نحو كبير، ورشم الشعب، يأخذ الأسقف الإنجيل ويغادر

الهيكل. يُبخَّر الكتاب المفتوح، ثم يقبله قائلًا «قبّلوا إنجيل يسوع المسيح، ابن الرب الحى، المجد له فى الأعالى»، ثم يقدمه للكهنة جميعًا كى يقبلوه بالطريقة نفسها. وعندما يغادر الكهنة المذبح بالإنجيل يصيح الشماس بصوت مرتفع «قفوا خوفًا من الرب، لسماع الإنجيل المقدس».

يقرأ الأسقف الإنجيل، حيث إن هذه باستمرار مهمة الشخص الرئيسى الذى يؤدى واجبات خدمة القُدَّاس. وبما أن القراءة باللغة العربية - بعد القراءة الأولى باللغة القبطية - يبدى الشعب كل ما يدل على الاهتمام العميق؛ فأهل الشرق جميعًا يحبون الاستماع إلى القراءة، وهم كالأطفال لا يملون تكرار الأشياء التى يقدرونها.

ومن لم يسمع الكتاب المقدس يرتَّل ترتيلاً جيدًا بهذه اللغة العجيبة لا يمكن أن تكون لديه فكرة عن قدرتها على التأثير على الشعب وتحريك مشاعره بعمق. وفى أحيان كثيرة يتأثر القارئ نفسه، دون وعى تقريبًا كما أتخيل، وينتقل الشعور من خلال اللغة القادرة إلى حد كبير على إثارة العاطفة الإنسانية.

تحدثت مع أقباط شبان كانوا يبدون من خلال حياتهم أنهم أدركوا النداء إلى الحياة الروحية، وأخبرونى أن قراءة الإنجيل المقدس هى التى دفعت بهم من حالة اللامبالاة إلى الحماس المقدس، بينما لم تؤثر فيهم الموعظة، وكان احتفال الإفخارستيا مجرد شكليات.

وهكذا نجد فى التاريخ المسيحى المصرى أن معظم المناقشات الكبرى كان مصدرها قراءة الكتاب المقدس بلغة الشعب، وهى ملمح بارز من ملامح القُدَّاسات القبطية.

كان أوريجينوس العظيم والنبيل، أول قديسى مصر المسيحية الرائعين، يكافح لتبنى مدارك الكتاب المقدس بمعانيها الحرفية، بينما كانت إغراءات الشباب تلح عليه. فقد رفض رداءين أُهديا إليه، وكان يسير حافى القدمين باستمرار، ولا يأكل إلا الخبز وطعام الفلاحين الأخضر غير المطهو. وسمع بعد ذلك فى أحد الأيام كلمات معيَّنة فى السفر التاسع عشر من إنجيل متَّى ظن أنها تعطيه أمل فى الانتصار على الجسد؛ وعلى الفور وضع تلك الكلمات موضع التنفيذ. فى البداية كان الحرمان عنده يصل به إلى حد ترك الدراسة، لأنه كان يجد فيها متعة؛ مثلما توقف

الرجال المقدسون بعد ذلك بقليل عن الاغتسال بسبب المتعة التى فى استعمال الماء، وخاصة فى ذلك المناخ الحار.

تلقى القديس أنطونيوس أول رهبان الصحراء فى مصر نداءه إلى العمل العظيم، الذى لا يزال له أثر مهم حتى يومنا هذا، من خلال قراءته للكتاب المقدس. فقد كان فى الكنيسة يتأمل بعض الأمور حين لفتت انتباهه كلمات الإنجيل «قال له يُعْوِزك أيضًا شىء.. بع كل مالك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز فى السماء».(١) كانت تلك بمثابة رسالة مباشرة من الرب له؛ وحين تردد أنطونيوس خوفًا؛ لأنه كانت له أملاك كثيرة، جاءه النداء الواضح مرة أخرى من الإنجيل وهو يقرأ فى الكنيسة: «فلا تهتموا للغد».(٢) وفى تلك الساعة وُلِدت الرهبانية بكل تعاليمها الخاصة بالتخلى التام عن الدنيا، ومعاناة الرهبانية الجسدية وتقشفها.

وكثيرة تلك القصص التى تحكى عن الرهبان ذوى الاتجاهات الدنيوية الذين أُبعدوا عن أخطائهم بتلك القراءات نفسها؛ بل إن قلب العاهرة انفتح عندما سمعت الأنبا سرابيون يردد «آيات من كتب الرسل».

وليس مستغربًا أنه عندما بدأ الإلهام الرهبانى يقل أصبحت قراءة الكتاب المقدس تميمة ذات صفات سحرية، وصار الناس يظنون أن هناك فضلًا فى مجرد ترديده. وحينذاك انشغل الرهبان فى مسابقات الترتيل باعتبار أنها تدل على قوة التحمل. فقد قال أحدهم متفاخرًا: «أستطيع ترديد أربعة عشر سفرًا من الكتاب المقدس، ولكن لو سمعت كلمة واحدة صغيرة أسمعها من خارجه تجعل خدمتى غير مفيدة لى».

ولنعد إلى قُدَّاس الكاتدرائية. يُبخَّر الإنجيل مرة أخرى ويُعطى للكهنة كافة ليقبلوه، كما يقبله الأسقف نفسه. وعندما لا يكون الأسقف موجودًا، ينيب عنه الكاهن أحيانًا أحد العلمانيين البارزين ليقرأ الإنجيل. وأشهد أن المقدرة الدرامية التى يُلقى بها الكلام الخطابى العربى بعد ذلك لا ينقصها شىء.

(١) لوقا ١٨ : ٢٣ (المترجم).

(٢) متى ٦ : ٣٤ (المترجم).

الملمح المؤثر الآخر في القُدَّاسات القبطية هو قراءة حياة القديسين باللغة العربية، اتباعًا لعادة قديمة جدًا وُضِعت أسسُها في القرن الرابع. وأعلم أن هذا أكثر ما يكون تشويقًا لبعض الشبان، حيث يجتذب اهتمامهم على نحو خاص في الساعة التي يكون القُدَّاس فيها قد بدأ يصبح ولا شك رتيبًا. والقصص مسجلة في كتاب موجود في الكنائس وحدها؛ وكما هو متوقع من المرء من تلك السجلات القديمة، فهي تحافظ على حياة التقاليد المعجزة التي ما زال الشعب القبطي يقدرها ويوقرها توقيرًا لا ريب فيه.

السمة شديدة الشرقية التي تتسم بها الصلوات التي تعقب ذلك هي أن يكون الدعاء بالتخلص من الجبروت، ومن سيف الغريب، ومن فتنة الهراطقة، وبأن تُباد عبادة الأوثان من العالم، وأن تحدث تغيرات جوية في الهواء، وثمار الأرض. ومن شهر يونيو إلى شهر أكتوبر تتضمن الصلوات صلاة خاصة بفيضان النيل. وهناك صلاة أخرى بأن يُبارَك الشعب ألف ألف مرة، وعشرة آلاف عشرة آلاف مرة. ويحب الشرقي باستمرار ذلك الأثر الذي يحدثه في الخيال تجميع الكلمات والحسابات بهذه الطريقة.

تبين إحدى الصلوات التي في هذا القُدَّاس نفسه (مترجمة لي من القبطية مباشرة) هذه الصفة بطريقة أخرى:

«أيها السيد الرب، أيها الرب القادر على كل شيء، يا أبا سيدنا وربنا ومخلصنا يسوع المسيح: نشكرك على كل الأحوال، ورغم كل الأحوال، وفي كل الأحوال، لأنك حميتنا... وأوصلتنا إلى هذه الساعة».

وهذه كلمات صلاة أخرى:

«كذلك، أيها السيد، أيها السيد، الذي وهبنا القوة على دوس الحيات والعقارب وعلى قوة العدو كلها، حطِّم رءوسه تحت أقدامنا بسرعة، وشتت لنا كل مصاعب قوة العدو الشريرة».

تنهي صلاة الغفران، التي يؤديها الأسقف، حيث يقولها سرًا مع رشم نفسه والكهنة والشعب، رفع بخور باكر وتؤدي إلى الإفخارستيا. وهناك صلاة بخور عشية التي تختلف اختلافًا طفيفًا عن بخور باكر.

صلاة الإفخارستيا الأولى هي صلاة إعداد المذبح التي تُرفع أثناءها اللفافة من الكأس، وتُرتب الصينية والملعقة واللفائف والحُضُر. وبعد ذلك تُرتل المزامير.

يذكرنا الموضع الذي يشغله الشماس الآن عند المذبح بالتاريخ القديم. فهو لا يقف في الموضع الذي قد نفترض أنه ينبغي له الوقوف فيه، أي بجانب الكاهن الذي يتولى خدمة القُدَّاس - حيث يقف عند الطرف الغربي من المذبح وظهره للشعب - بل على الجانب الشرقي حيث يمكنه رؤية الكنيسة بطولها حتى الباب الغربي. فقد أصبحت الخلافات المذهبية القديمة بين قسمي الكنيسة القبطية من الشدة بحيث أنه لم يكن أمرًا غير عادي بالنسبة لغوغاء الملكانيين(١) أن يندفعوا إلى داخل الكنيسة أثناء تعبد اليعاقبة(٢) ويذبحون الكاهن على المذبح ويبعثرون العناصر المقدسة. ولذلك كان الشماس يوضع في موضع يمكنه من رؤية الباب ولإنذار الكاهن؛ وظل موضعه على ما هو عليه، رغم مرور ألف ومائتي عام على انتهاء الحاجة إليه.(٣)

يأتي الشماس للكاهن بإحدى حُضُر المذبح وثلاثة من الأرغفة الصغيرة، التي سوف أصفها فيما بعد، حيث تظهر ظهورًا غريبًا بين الشعب نفسه قرب نهاية القُدَّاس. يختار الكاهن رغيفًا من بين تلك الأرغفة ويمسكه بيده، ويقبّله، ويضعه

---

(١) الملكانيون هم أتباع أريوس الذين قالوا بأن المسيح مخلوق وليس مولودًا من الأب، ولذا فهو لا يساويه في الجوهر. (المترجم).

(٢) اليعاقبة هم من يرون أن يسوع المسيح شخص واحد ذو طبيعة واحدة. فهم يؤمنون بأن أقنوم الابن من الله تجسد من روح القدس ومريم العذراء فصيَّر هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية، أي صار الله (الابن) المتجسد، طبيعة واحدة من أصل طبيعتين، ومشيئة واحدة وشخصا واحدا. فيسوع المسيح الذي ولدته مريم هو الله، أما بشريته فهي مجرد لباس فانٍ في إلهيته. وبذلك تكون العذراء مريم والدة الله، والله نفسه هو الذي عُذِّب وتألم وصلب ومات! ثم قام بعد ثلاثة أيام من قبره حيا. (المترجم).

(٣) كان الملكانيون يضطهدون أقباط مصر في عهد الروم ويسلبون كنائسهم، حتى إذا فتحت مصر رد المسلمون إلى الأقباط كنائسهم وأنصفوهم، وتطاول الأقباط بعد ذلك على الملكانيين انتقاما مما فعلوه بهم قبل الفتح العربي، فشكوا ذلك إلى هارون الرشيد فأمر باسترداد الكنائس التي استولى عليها القبط بمصر وردها إلى الملكانيين بعد أن راجعه في ذلك بطريرك الملكانيين. (نحو حضارة إسلامية مستقبلية أساسها الدين والعلم، الدكتور عجيل جاسم النشمي www.islamset.com/arabic/ahip/alalom/agel.html) (المترجم).

على المذبح. وبعد ذلك يفحص الخمر، ويشمه، أو حتى يجعل أحدًا يتذوقه ليتأكد من صلاحيته.

والآن يأتون بالطست والإبريق، ويغسل يديه ثلاثًا وهو يقول، مع عبارات أخرى: «أغسل يدىَّ بالنقاوة وأطوف بمذبحك يا رب لكى أسمع صوت تسبيحك»(١) وبعد أن يرتل المزمور الخامس والعشرين يجفف يديه قليلًا ثم يدعك الخبز من فوقه ومن تحته، مشيرًا إلى تعميد يسوع المسيح.

بعد أن يأخذ الخبز فى لفافة من الحرير يمشى حول المذبح وقد أمسك به فوق رأسه، يسبقه أحد الشمامسة حاملًا وعاء الخمر، حاملًا إياه على رأسه كذلك، وشماس آخر حاملًا شمعة مضاءة، بينما ترتل جوقة المرتلين التراتيل.

هناك شىء غريب، إن لم يكن همجيًا فى أداة جوقة المرتلين القبطية. فيبدو أن الفتيان يُختارون لا لشىء سوى قدرتهم على حفظ الترانيم والردود، بلغة لا يكادون يفهمونها، وليس لأية قدرات أو معلومات صوتية. فالبعض منهم أطفال ذوو أصوات سليمة، والآخرون فى مرحلة متوسطة حيث لا يكون الصوت من طبقة السوبرانو أو الباص، وغيرهم يدمدمون بنبرات أواخر سنى المراهقة غير المحكومة. والنقطة الوحيدة التى اتفقوا عليها هى أن واجبهم هو إصدار ضجة عالية؛ وتدل تعابير وجوههم على تمتعهم بالدور الذى يؤدونه فى القُدَّاس. وردود الشعب يقودها رئيس جوقة المرتلين، وهو أعمى باستمرار تقريبًا.

وبالطبع إذا كانت الموسيقى شيئًا يزيد على الرتابة اللحنية الشرقية، أو كانت الآلات المصاحبة شيئًا أصفى من صليل الصنوج وضرب المثلثات والأجراس(٢)،

(١) عندما يغسل الكاهن يديه ثلاثًا، يقول:
فى المرة الأولى: «تنضح علىَّ بزوفاك فأطهر تغسلنى فأبيَض أكثر من الثلج» (مزمور ٥٠: ٧).
وفى المرة الثانية: «تُسمعنى سرورًا وفرحًا فتبتهج عظامى المتواضعة» (مزمور ٥٠: ٨).
وفى المرة الثالثة: «أغسل يدىَّ بالنقاوة وأطوف بمذبحك يا رب لكى أسمع صوت تسبيحك» (مزمور ٢٥: ٦-٧).
وهذه الغسلات ليست لنظافة الأيدى إنما لتذكر الكاهن بالنقاوة الداخلية والطهارة من الخطية، وذلك لأن اليدين تشيران دائمًا إلى عمل الإنسان. (المترجم).
(٢) الأجراس باستمرار بلا ألسنة، وهى تُضرب من الخارج بقضيب قصير من الحديد.

قد تكون مؤلمة، ولكن الأثر العام، الذى هو شرقى بحق، يبدو مناسبًا للوضع؛ وهناك شىء مؤثر بقوة ومثير بشدة فى صياح المديح والابتهال الذى ينطلق مرتفعًا.

يبدو أن الصنوج أثر آخر من آثار التراث الوثنى؛ فهى من أصل شرقى وتشير إلى الطقوس السرية الماجنة التى كانت تُقام فى المعابد القديمة. ويزعم الأقباط أن هناك مبررًا فى الكتاب المقدس لـ«تسبيح الرب بصنوج التصويت»(١)، وتروى إحدى حكاياتهم أن نوحًا هو الذى صنع أول جرس، أو ناقوس، كالذى يستعملونه.

وبعد أن ينهى الكاهن الدورة يتوقف أمام المذبح وظهره للشعب، ويمسك الخبز بيد بالقرب من وعاء الخمر الذى لا يزال الشماس ممسكًا به. ويقول وهو ينحنى إلى الكهنة الآخرين «هل تباركون؟» فيردون عليه «هل تبارك؟» ويرشم الخبز والخمر بالصليب ثلاثًا.

وبينما يوضع الخبز فى الصينية والخمر فى الكأس، مع إضافة القليل من الماء، تعقب ذلك صلوات وردود عديدة، بينما يُرشم الشعب والمذبح بالصليب فى كل اتجاه.

بعد أن تصيح جوقة المرتلين «خُلِّصنا بحق، وبروحك»، يصل القُدَّاس إلى أوشية التقدمة التى أقتبس منها، حيث إنها دليل على الاعتقاد القبطى فى الحضور الحقيقى للمسيح فى القربان فى أشد ما يعنيه ذلك من حرفية مادية.

«نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر أظهر وجهك على هذا الخبز [يشير إلى الخبز] وعلى هذه الكأس [يشير إلى الكأس] هذين اللذين وضعناهم على هذه المائدة الكهنوتية. [يرشمهما ثلاثًا وهو يقول] باركهما، قدسهما، طهرهما وانقلهما لكى هذا الخبز يصير جسدك المقدس، ويصير هذا الخمر المخلوط بالماء هذا الكأس دمك الكريم، وليكونا لنا ارتقاءًا وشفاءًا وخلاصًا لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا».

(١) «سبحوه بصنوج التصويت سبحوه بصنوج الهتاف». المزمور ١٥٠: ٥. (المترجم).

بعد صلاة الشكر يرتل الشعب ترنيمة قصيرة باللغة اليونانية. والآن يعطى الكاهن الخبز والخمر، كلًا على حدة، ثم يغطيهما معًا؛ وبعد الركوع يقبِّل المذبح ثم يدور حوله مُقدِّمًا الشكر على ندائه إلى هذا المنصب، ويفعل الشماس الشىء نفسه.

فى تلك اللحظة يخرج الكهنة والشمامسة من الهيكل، حيث يجب أن نفهم أن الشعب يلمح فقط ما يجرى من خلال باب صغير فى الحاجب. ولم أتمكن أنا شخصيًا من متابعة الطقس بوضعى فى مكان مميز جدًا أمام الباب مباشرة.

عند ظهورهم، يجلس كل الشعب، الموزع بشكل مشوش على الكنيسة، على الأرض وقد أحنى رأسه متجهًا ناحية الشرق، بينما يرتل المساعدون طَلَبة المغفرة سرًا أحد الكهنة المساعدين الذى يبرّئ على نحو خاص هؤلاء الذين يساعدونه فى الاحتفال. وتسمى طَلَبة المغفرة هذه طَلَبة مغفرة الابن.

النقطة الغريبة التى تصر عليها الإرشادات هى أنه عند مغادرة الهيكل يجب أن تكون القدم اليمنى آخر ما يخرج، كما أنها يجب أن تكون الأولى عند العودة إليه. وتعتبر اليد اليمنى والقدم اليمنى مفضلة فى أرجاء الشرق، وبالأخص عند المسلمين والمسيحيين، بينما اليد اليسرى والقدم اليسرى عكس ذلك. والملاك الحارس الوحيد عند الأقباط على اليمين باستمرار: أما المسلمون فعندهم ملاكان، أحدهما على اليمين والآخر على اليسار (١). الذى على اليمين يسجل الخير والذى على الشمال يسجل الأعمال السيئة. ولا تُستخدم اليد اليسرى أبدًا فى الأكل أو فى إعطاء أى شىء لشخص آخر؛ واستخدامها فى التحية يُعتبر إهانة. وليس هناك ما يكشف فى الحال الرجل الغربى الذى كان يمكن أن تحسبه شرقيًا مثل استعمال الأيدى.

(١) نقرأ فى سورة «ق»، الآيتين ١٧ و١٨: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وقال الأحنف بن قيس: «صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك، فإن استغفر العبد ربه نهاه أن يكتبها، وإن لم يستغفر كتبها». (المترجم).

بعد أن ينهض الشعب، يقبّل الكاهن عتبة الهيكل ويدخل، ويبخر المذبح، بينما جوقة المرتلين ترتل: «هذه المجمرة الذهب الحاملة العنبر التى فى يدى هارون يرفع بخورًا على المذبح. هذه المجمرة الذهب هى العذراء(١)؛ بخورها الحلو هو مخلِّصنا؛ هى ولدته؛ وهو خلَّصنا؛ ليغفر لنا خطايانا».

بعد تبخيرات عديدة، يغادر الكاهن الهيكل مرة أخرى، حيث يبخر الصور والكهنة. ويقرأ الشماس أو أحد الرجال العلمانيين درسًا من القديس بولس باللغة القبطية، وفى تلك الأثناء يبخر الكاهن جوقة المرتلين. بعد ذلك يطوف بالكنيسة مبخرًا الشعب، حيث يكرر مرارًا «يسوع المسيح هو أمس واليوم وإلى الأبد فلنعبده ولنمجده».

يعود بعد ذلك إلى المذبح ويقدم صلاة سرية، بينما يُردَّد الدرس باللغة العربية.

يُقرأ الآن درس من «الرسائل الكاثوليكية»(٢)، بالقبطية أولًا ثم بالعربية. وبعد ردود جوقة المرتلين، يُقرأ درس من «أعمال الرسل» باللغتين. يقسِّم الشعب نفسه الآن إلى أربعة أقسام ويرتل التقديسات الثلاثة، حيث ترتل كل مجموعة آية. والنص محفوظ فى شكله اليونانى الأصلى.

يجرى من جديد داخل الهيكل اجتياز المذبح الذى يُقَبَّل فى كل ركن منه؛ وتُبخَّر الصور مرة أخرى، بينما تستمر القراءة. يرتَّل أحد المزامير ويُبخَّر الإنجيل، ويعطيه الأسقف للكهنة ليقبلوه، ثم يقبله هو نفسه. ولا بد أن يقرأ المحتفلون الإنجيل من أجل الإفخارستيا باللغة القبطية، ثم يقرأه الشماس بالعربية.

(١) تسمى العذراء «تى شورى» أى المجمرة بالقبطية، وأحيانًا «شورية هارون». أما الجمر الذى فى داخلها، ففيه يرمز الفحم إلى ناسوت المسيح، وترمز النار إلى لاهوته، حيث جاء فى الكتاب المقدس «إلهنا نار آكلة» (عبرانيين ١٢: ٢٩). وترمز المجمرة إلى بطن العذراء الذى كان فيه اللاهوت متحدًا بالناسوت. وكون المجمرة من ذهب يدل على عظمة العذراء ونقاوتها. ونظرًا لطهارة العذراء وقدسيتها، فهى تُسمى فى ترنيماتها بالمجمرة الذهب. (المترجم).

(٢) رسائل يعقوب وبطرس ويوحنا ويهوذا الموجودة فى العهد الجديد. وهى تسمى كذلك لأنها للمسيحيين عامة وليس لأية كنيسة بعينها أو أى شخص فى حد ذاته. (المترجم).

عند هذه النقطة تلقى الموعظة. ومنذ سنوات قليلة مضت فقط كانت المواعظ القديمة تُلقى برتابة، ولكن هناك رغبة متزايدة فى مواعظ جديدة، ويقوم بعض الكهنة الأقباط الأكثر تعلمًا بعمل عظيم من أجل الارتقاء بكنيستهم عن طريق الاستفادة من قدراتهم على المنبر، بل إننى سمعت فى الريف رجالاً لديهم مواهب وعظ لا بأس بها، حيث يتوافد عليهم الشعب لسماع رسالتهم. ومن حسن الحظ أن لغة الموعظة هى العربية. وعندما أتذكر أمارات التأثر التى كانت تخلفها بعض المواعظ والخطب التى سمعتها فى مصر - فى المسجد كما فى الكنيسة - أشعر مرة أخرى أنه لو ظهر نبى جديد فى أرض الأنبياء تلك فقد نرى إصلاحًا يجتاح الكنيسة كلها فى أنحاء البلاد كافةً؛ فالمسلم والقبطى على السواء سريع التأثر بجاذبية الكلمة المنطوقة، وعلى استعداد لإبداء التبجيل لأى رجل يعتبره تقيًا ورِعًا. فالشيخ، وكذلك الكاهن، الذى يتمتع بالفصاحة ويُبجَّل من أجل الحياة المقدسة، لا يعدم أبدًا العدد الكبير ممن يتوافدون لسماع خطبه.

هناك مساجد بعينها فى القاهرة تزدحم بالمصلين فى صلاة الجمعة قبل موعد الصلاة بكثير، بسبب شهرة الشيخ، كما أن هناك كنائس تمتلئ حتى الأبواب عندما يكون معروفًا أن كاهنا معينًا هو الذى سيعظ.

بعد الموعظة، هناك الكثير من الصلوات والردود، والكثير من التبخير، مع ترديد «القانون الإثناسى»(١)، وفى نهايته يغسل الكاهن يديه ثلاثًا من جديد عند الركن

---

(١) نسبة إلى القديس أثناسيوس السكندرى الذى عاش فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ولُقِّب كذلك بـ«الرسولى». وهو البابا العشرون. ويمكن تلخيص القانون فى النقاط التالية، كما أوردها كتاب «شخصية المسيح فى الإنجيل والقرآن» بقلم إسكندر جديد www.servant13.net/almasih/almasih9.htm:

١ - كلّ مَن ابتغى الخلاص وجب عليه قبل كلّ شىء أن يتمسّك بالإيمان الجامع للكنيسة المسيحيّة.
٢ - هذا الإيمان الجامع هو أن نعبد إلهًا واحدًا فى ثالوث، وثالوثًا فى توحيد.
٣ - لا نمزج الأقانيم ولا نفصل الجوهر.
٤ - إنّ للآب أقنومًا، وللابن أقنومًا، وللروح القدس أقنومًا، ولكنّ الآب والابن والروح القدس لاهوت واحد، ومجد متساوٍ وجلال أبديّ معًا.
٥ - كما هو الآب، كذلك الابن، وكذلك الروح القدس.
٦ - الآب غير مخلوق، والابن غير مخلوق، والروح القدس غير مخلوق، ولكن ليسوا ثلاثة غير مخلوقين بل واحدا غير مخلوق.=

الجنوبى من المذبح؛ وبعد ذلك يتجه ناحية الغرب ويعصر يديه اللتين يقطر منهما الماء أمام الشعب، كأنه يحذر أى فرد ليس أهلاً للاشتراك فى هذا السر الإلهى من أن يجرؤ على ذلك دون أن يكون طاهرًا، ثم يجففهما.

وبعد المزيد من الصلوات نصل إلى صلاة قُبلَة القديس باسيليوس - تسمى أحيانًا «صلاة المصالحة مع الآب» - التى يقول الشماس فى نهايتها «حيّوا بعضكم بعضا بقبلة مقدسة»(١)، وحينذاك يُقبّل الكاهن والشعب قُبلة السلام بلمس أيادى بعضهم البعض، ثم يُقبّل كل منهم يده صائحًا «كيرياليسون» ويرتل ترنيمة تسمى «أسباسموس»، أو التحية(٢). وهذا مشهد يثير العواطف على نحو كبير.

---

٧ - الآب غير محدود، والابن غير محدود، والروح القدس غير محدود، ولكن ليسوا ثلاثة غير محدودين بل واحدا غير محدود.
٨ - الآب سرمد، والابن سرمد، والروح القدس سرمد، ولكن ليسوا ثلاثة سرمديّين، بل سرمدا واحدا.
٩ - الآب ضابط الكلّ، والابن ضابط الكلّ، والروح القدس ضابط الكلّ. ولكن ليسوا ثلاثة ضابطين الكلّ، بل واحدا ضابط الكلّ.
١٠ - الآب إله، والابن إله، والروح القدس إله، ولكن ليسوا ثلاثة آلهة بل إلها واحدا.
١١ - الآب ربّ، والابن ربّ، والروح القدس ربّ. ولكن ليسوا ثلاثة أرباب بل ربّا واحدا.
١٢ - وكما أنّ الحقّ المسيحى يأمرنا بأن نعترف، أنّ كلاً من هذه الأقانيم بذاته إله وربّ هكذا الدين الجامع ينهانا عن القول بوجود ثلاثة آلهة وثلاثة أرباب.
١٣ - فإذالنا آب واحد لا ثلاثة آباء، وابن واحد لا ثلاثة أبناء، روح قدس واحد لا ثلاثة أرواح قدس.
١٤ - ليس فى هذا الثالوث مَن هو قبل غيره أو بعده، ولا مَن هو أكبر أو أصغر منه. ولكن جميع الأقانيم سرمديّون معًا ومتساوون.
١٥ - لذلك فى جميع ما ذُكِر يجب أن نعبد الوحدانيّة فى ثالوث، ونعبد الثالوث فى وحدانيّة.
١٦ - الإيمان المستقيم، هو أن نؤمن ونقرّ بأنّ ربّنا يسوع المسيح هو إله من جوهر الآب، مولود قبل الدهور، وأنّه إنسان من جوهر أمّه مولود فى هذا الدهر.
١٧ - وهو وإن يكن إلهًا وإنسانًا إنّما هو مسيح واحد، لا إثنان. وقد صار إنسانًا ليس باستحالة لاهوته إلى جسد، بل باتّخاذ الناسوت إلى اللاهوت. (المترجم).

(١) يصلى الكاهن قبل ذلك قائلًا: «يا الله، املأ قلوبنا من سلامك، طهرنا من كلّ غش، ومن كلّ شر يؤدى إلى الموت، واجعلنا قادرين أن ننزع عنّا كلّ خصام، وأن نقبل بعضنا بعضًا قبلةً مقدسة، لكى نستحق مواهبك المحيية السمائية، بالمسيح يسوع ربنا». (المترجم).

(٢) كلمة يونانية الأصل معناها «القُبلة». وتعنى كذلك السلام أو الصلح. (المترجم).

فى تلك اللحظة الجليلة يدفع الكاهن الغطاء عن رأسه ويرفع اللفافة الكبرى(1) عن الخبز والخمر قائلاً «لنقف حسنًا، لنقف بخوفٍ لنُصْغِ، لنقدّم بسلام القربان المقدس انظروا إلى الشرق؛ رحمة سلام، ذبيحة تسبيح». ومع رفع راحتى يديه لأعلى وهما مغطاتان بقماش، يبدأ ليتورجية القديس باسيليوس أسقف قيصارية إلى الله الآب.

لابد هنا أن يقف الشعب كله ولا يركع. وهناك صلوات وردود كثيرة وترانيم، وحين يرفع الكاهن اللفافة عن الكأس يترنم هو نفسه، ومعه الكهنة الآخرون والشمامسة والشعب.

وبعد التكريس يمسك الشماس المجمرة التى يضع بها المزيد من البخور، ثم يضع يديه للحظات فى الدخان، ثم يمدهما فوق الخبز والخمر.

بعد ذلك يأخذ الخبز فى يده اليسرى ويغطيه بيده اليمنى قائلاً: «أخذ الخبز بيديه المقدّستين، الإلهيتين، الطاهرتين الكريمتين»، ثم يرشمه ثلاثًا ممسكًا إياه بيده اليمنى؛ ويكسر الخبز كسرًا طفيفًا فى جانبه مستخدمًا الكلمات نفسها التى تستخدمها الكنيسة الغربية(2). إلا أنه يجب ألّا يكسر الجزء الأوسط من الخبز الذى يسمى إسباديقون(3).

يضع الآن الحَمَل على الصينية وينحنى انحناءة شديدة تكريمًا. واعتبارًا من هذه اللحظة يجعل إبهامه وسبابته متلاصقتين إلى ما بعد غسل اليدين، إلا عندما يكون عليه لمس الحَمَل.

(1) تشير اللفافة إلى ختم القبر الذى كان المخلِّص مدفونا فيه، ومعنى رفع هذه اللفافة هو حل الأختام عن باب القبر، ويمسك بها الكاهن بين أصابعه مثلثة الشكل وأمام وجهه، أى على نفس الوضع الذى كانت عليه فوق الأبروسفارين حتى نهاية الصلح. (المترجم).

(2) يقول مع الرشمة الأولى «وشكر» ومع الثانية «وباركه» ومع الثالثة «وقدسه»، وذلك كما فعل السيد المسيح فى ليلة تأسيس سر الشكر «أخذ خبزًا وشكر وكسر» (لوقا ٢٢: ١٩) «أخذ خبزًا وبارك وكسر» (مرقس ١٤: ٢٤) وقد قدسه السيد المسيح بقدرته وبتلاوته كلمات التقديس وفى تقديسه له صيره جسده المقدس. وفى نهاية كل رشم يقول الشمامسة والشعب آمين. (المترجم).

(3) كلمة يونانية تعنى «سيدى». وهى هنا تعنى الصليب الكبير الذى يتوسط الحَمَل وحوله اثنا عشر صليبًا صغيرًا إشارة إلى المسيح وتلاميذه. ويثقب الحَمَل أثناء إعداده خمسة ثقوب إشارة إلى آلام السيد المسيح وجراحه الخمسة. (المترجم).

يرفع الآن اللفافة عن الكأس ويلمس حافتها بإبهام وسبابة اليد اليمنى وهما متلاصقتان، ثم يرشم الخمر ثلاثًا، بنفس صيغة الكنيسة الغربية،(1) إلى أن يصيح الشعب الساجد أفراده، «آمين، آمين، آمين. مرة أخرى نؤمن، ونعترف، ونمجده».

يلمس الكاهن حافة الكأس مرة أخرى بالطريقة نفسها، ثم يميلها قليلًا على مثال الصليب. وبعد أن يغطى الكأس ينحنى مرة أخرى تكريمًا للدم الثمين، بينما يقول الشعب «آمين. هكذا نؤمن به حقًا. آمين».

بعد الصلاة والرد، يقول الشماس للشعب «اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعدة»، ومرة أخرى يسجدون جميعًا. تقول صلاة «ليحل روحك القُدُس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة ويطهرها لنا». وأعتقد أن الترجمة ينبغى أن تكون Thine Holy Angel (ملاكك المقدس)، وإن كنت لا أستطيع تحمل مسئولية هذه القراءة.(2) وكان الأمر موضع شك بالنسبة لواحد أو اثنين من المراقبين الغربيين الذين كانوا مهتمين بالطقس القبطى، وأشار بعض الأقباط إلى أنه ينبغى فهمها بمعنى القُدّاس الرومانى، «ذلك أن هذه الصلوات ربما تكون قد وُلِدت على أيدى ملاكك المقدس على مذبحك فى الأعالى أمام وجه جلالك المقدس... كى نمتلأ بكل البركة السماوية والصفح». ويبدو أن ابتهالًا مميزًا إلى الملاك يلى فى وقت لا حق من القُدّاس يؤكد ذلك.

يعقب ذلك العديد من الطلبات والردود، وكيرياليسون، مع الصلوات (وقد غطى الكاهن يديه باللفافة) من أجل الكنيسة، ومن أجل رئيس كهنتنا البابا المكرّم الأنبا كيرلس، بابا وبطريرك مدينة الإسكندرية العظيمة، ومن أجل الأساقفة والكهنة والشمامسة والأسرار السبعة(3) فى كنيسة الله، ومن أجل بركات الماء

(1) يرشم الكأس ثلاثة رشومات وهو يقول «واشكر» «وباركها» «وقدسها» على مثال ما فعل بالخبز. (المترجم).

(2) المؤلف غير محق فى اعتقاده هذا؛ فما يُقال هو «روحك المقدس». انظر الخولاجى المقدس، جمعية أبناء الكنيسة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٠، ص ٢٣٠. (المترجم).

(3) تؤمن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بسبعة أسرار لازمة تمامًا للكنيسة العامة وبعضها لازم لجميع المؤمنين للخلاص. وهذه الأسرار هى: سر المعمودية، وسر الميرون، وسر القربان، وسر التوبة والاعتراف، وسر مسحة المرضى، وسر الزيجة، وسر الكهنوت. (المترجم).

والمحاصيل الدنيوية جميعًا، ومن أجل الفقير، والأرملة، واليتيم، والغريب والضال.

يُذكر القديسون، ذلك أنه من خلال صلواتهم سوف يرحم الرب. وتُقرأ الأ[illegible] أسماء البطاركة السابقين، مع الكثير من التبخير، ويُتلى العديد من الصلوات من أجل الراقدين، فى ترنيمة شديدة الحزن وقد رفع الكاهن يديه، كى يُطعموا فى مزارع خضر، بجوار مياه الراحة، فى فردوس النعيم فى الموضع الذى هرب منه الحزن والكآبة والتنهد، فى ضياء القديسين».

يأخذ الكاهن اللفافة فى يده اليمنى، وبينما يده اليسرى على المذبح يدور نصف دورة إلى الشعب، وبعد بضعة ابتهالات، يرشم الشعب بلا كلام. وبعد المزيد من الابتهالات والردود وكيرياليسون، يركع الكاهن أمام القربان المبارك؛ وبينما ينهض يأخذ الحَمَل، يكسر جزءًا ثالثًا، ويكسر من ذلك الجزء الجزء الصغير (الإسباديقون)، حيث يعيد الكل إلى الصينية. وهناك طقس معقد جدًا لكسر الخبز أورده فى الملحق.

الآن يردد الشعب جميعًا «آبانا»، وهناك صلوات سرية عند المذبح، مع الابتهال، يرد عليها الشعب حتى بلوغ صلاة الغفران للآب.

فى تلك اللحظة يسجد الشعب على الأرض، بينما يمسك الكاهن، ورأسه عارٍ، الإسباديقون بين إبهامه وسبابته، ويرفعه إلى أعلى ما يمكن وهو يقول بصوت مرتفع «القديسات للقديسين».

بعد ذلك يأخذ اللفافة الصغيرة من جديد بيده اليمنى ويقف، فى نصف استدارة مرة أخرى إلى الشعب، ممسكًا اللفافة مفرودة ناحيته. إنه يُحيِى ذكرى الرجال الأحياء ـ حسب تقديره ـ ثم يصلى سرًا من أجلهم جميعًا، ومن أجل راحة من سقطوا وهم نيام، ومن أجل من هم أحياء؛ كما أنه يصلى لنفسه «لا تدع خطاياى ورجس قلبى تحرم شعبك من رضا روحك القُدُس».

يكشف الكاهن الكأس، بينما يصيح الشعب «كيرياليسون»؛ بعد ذلك يرشم الكأس بالقطعة التى فى يده من الحَمَل؛ ثم يغمس إصبعه فى الكأس ويرشم القطعة، وبعدها يلمس بقية الحَمَل بالقطعة وهو يقول ويردد الكلمات على الكأس: «جسد يسوع المسيح المقدس ابن ربنا ودمه الغالى، آمين».

بعد ذلك يسقط الكاهن قطعة الخبز فى الكأس ويغطيها ويرفع الحَمَل ويقول «الجسد ودم عمانوئيل إلهنا. هذا هو بالحقيقة». ويقول الشعب «آمين. أُصَدِّق»، وبعد ما يضيف إليه الكاهن يردد مرارًا «آمين، آمين، آمين، أُصَدِّق، أُصَدِّق، أُصَدِّق، وأعترف حتى النَفَس الأخير، أنه هذا هو الدم الواهب للحياة الذى أخذه ابنك الوحيد، سيدنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح من سيدتنا وملكتنا الكلية، أم الإله المقدسة، مريم المباركة، وجعله دمًا بألوهيته بدون اختلاط ولا امتزاج ولا فساد، ويشهد الشهادة الحسنة أمام بيلاطس البُنطى»، وهلم جرا.

بعد ذلك تُحرِّك الصينية على شكل الصليب ثم تُعاد إلى مكانها، ويقبل الكاهن المذبح ثلاثًا. وترتل الجوقة الآن «المجد لك» وهنا نجدهم بالقول والفعل «يسبحوه بصنوج التصويت... بصنوج الهتاف».

بعد الصلوات السرية، يتناول الكاهن الجزء الثالث من القربان المقدس، حيث يستريح برهة مركزًا تفكيره على العشاء الربانى. وبعد ذلك يكشف الكأس، ويرفعها، ويحركها على شكل الصليب أمامه، ثم يشرب جزءًا منها بالملعقة، ومعه قطعة الخبز، بينما يقف على جانبيه اثنان من الشمامسة يمسك كل منهما بشمعة مضاءة. ومرة أخرى يستريح برهة متأملًا قبل أن يأخذ الصينية ويدور دورة كاملة فى اتجاه الشعب. يكشف الشعب كله رأسه ويركع صائحًا: «مبارك الآتى باسم الرب».

عند هذه النقطة، يبدو لى باستمرار أن الفقر الروحى فى الكنيسة القبطية يتبدى على نحو أشد ما يكون حزنًا. يقف الكاهن هناك داعيًا الشعب للتناول، ويقف هو بلا جدوى تقريبًا؛ ذلك أنه بينما يتزاحم الرجال لرؤية أداء الأسرار المقدسة فإنهم لا يكونون قد أعدوا أنفسهم بالصوم والاعتراف كى يتناولوا. وحتى الأقباط المتدينين يتناولون مرة واحدة فحسب سنويًا. والغريب إلى حد كبير أن ذلك يحدث فى الصوم الكبير؛ مع أن الاعتراف مطلوب مرتين فى العام على أقل تقدير. وهنا فى الكاتدرائية الكبيرة بالقاهرة، بما هى عليه من ازدحام حتى الأبواب، يكون على الشماس التعويض عن غياب المتناولين الحقيقيين، بدفع أفراد جوقة الترتيل، وهم من الأطفال، بل وبعض الأطفال الصغار الذين يلعبون فى الهيكل، للتناول.

من المحتمل أن يكون الاعتراف هو العائق أمام ذلك؛ فأنا لا أظن أن أى مصرى سوف ينظر إلى الصوم الضرورى ابتداء من مساء يوم السبت على أنه أمر غير مرغوب فيه.

أتخيل أنه لا بد أن يكون الاعتراف، ماديًا كان أم ذهنيًا، تجربة مؤلمة فى نظر الشرقى الذى يكره «التجاهل». ومن المؤكد أنه لكون الاعتراف قد انحدر روحيًا، فهو من أول الواجبات التى أُهملت.

تُفترض البراءة العمادية أثناء فترة ما قبل سن الرشد، ولذلك لا يُشترط الاعتراف، ولذلك فما يحدث هو أن يؤتى بالأطفال الذين فى هذه السن إلى المذبح. وكثيرًا ما رأيت أمًا تأتى برضيعها بين ذراعيها، ويناول الكاهن الطفل نقطة خمر واحدة من الملعقة.

الأطفال الذين يتناولون يقودهم الشماس، ويُعطى لكل منهم فوطة، يمسكها تحت ذقنه بإحكام إلى أن يتم التناول، حيث يضعها على فمه لكيلا يسقط أى شىء من العناصر المقدسة.

يمر الأطفال أمام الكاهن الذى يتولى القُدَّاس ويتلقون منه، وقوفًا، قطعًا من الخبز، حيث توضع فى أفواههم، بينما يُعطى لهم الخمر المخلوط بالماء بالملعقة التى توضع داخل الفم؛ ويطوفون حول المذبح مرارًا ويتلقون من الراهب فى كل مرة إلى أن تنفد العناصر.

بعد ذلك يحرك الكاهن الصينية على شكل الصليب فى اتجاه الشعب، ويدور ويعيدها على المذبح. يستهلك ما يتبقى من الحمل فى كل نقطة من التنظيف قائلًا: «هذا جسد ودم عمانوئيل إلهنا. هذا هو بالحقيقة». وبعد تنظيف الصينية والملعقة فى الكأس، يستهلك ما تبقى. يرفع الشماس الكأس لأعلى ويصب فيها بعض الخمر الذى يشربه الكاهن. ثم يُصَب الماءُ والخمرُ على أصابعه فى الكأس، ويشربه ويمسح الكأس. وبعد ذلك يُصَب بعضُ الخمر فى يده فينثره لأعلى قائلًا: «يا ملاك هذا القربان، الذى يطير لأعلى بهذه الترنيمة، تذكرنا فى حضرة سيدنا كى يغفر لنا خطايانا».

هناك عادة قبطية قديمة جدًا، وهى إعطاء الملعقة لأى شخص يطلبها فى نهاية [illegible] ويلمس به هذا الشخص عينيه لمسًا خفيفًا ويقبلها، ويعيدها إلى الكاهن، وقد شعر بالشفاء والراحة.

بعد الصلاة السرية يذهب الكاهن إلى باب الهيكل، ويحدث فجأة مشهدٌ على قدر غير عادى من الإثارة فى الهيكل. يندفع الرجال والصبيان اندفاعًا شديدًا نحو باب الهيكل؛ حيث من المعتاد أن يؤذوا بعضهم إيذاءً خفيفًا؛ وبما أننى حُشرت وسط ذلك العراك، فقد سألت نفسى كيف خرجت منه سالمًا. وعند الباب، يغسل الكاهن يديه أخيرًا، ويلقى الماء الذى يصبه الشماس على يديه من القلة على الشعب، والإثارة سببها الرغبة الشديدة فى الحصول على بعض ذلك الماء. والمشهد الغريب هو رؤية حشد كبير من الرجال الشرقيين وقد كشفوا رءوسهم، حيث يخلعون طرابيشهم الحمراء كى لا تعترض سبيل وصول قطرة من الماء السحرى إلى أجسامهم.

يقف الكاهن الآن ليرشم جباه من يقتربون منه، بينما يتلو صلاة منح البركة. وبعد ذلك يوزع قطعًا صغيرة من القربان، وهو الخبز المقطع لهذا الغرض.

وبعد ذلك يتلو الجميع الصلاة الربانية سرًا، ويرشمهم الكاهن جميعًا مرة واحدة ويعود آخذًا معه الكأس والصينية إلى داخل غرفة الأوانى المقدسة والكسوة الكهنوتية.

ليس هناك قُدَّاس آخر فى يوم الراحة والعبادة. إلا أن الأمر الذى يحيِّر الإنجليز هو سماع الأقباط يتحدثون عن قُدَّاسهم المسائى، إلى أن يدركوا أن يوم الأحد يبدأ عند مغرب يوم السبت، وأن القُدَّاس بذلك يُقام مساء يوم الراحة.

سوف ترون أن الصلاة الربانية تُستخدم مرارًا فى كل قُدَّاس فى الكنيسة القبطية، ويستخدمونها فى أى وقت يصلون فيه؛ وفى كل ساعة من أسبوع الآلام، تكشف الصلاة التالية التى يتلوها المتدينون باستمرار الأهمية المرتبطة بالصلاة الربانية: «لك القوة والمجد والبركة والعزة إلى الأبد، آمين. عمانوئيل إلهنا وملكنا. لك القوة والمجد والبركة والعزة إلى الآبد، آمين. يا ربى يسوع المسيح، اجعلنى أستحق قول «أبانا الذى فى السماء»... إلخ.

الفصـل الثالـث

عن الخبز والخمر، وعن الماء المقدس، وأشكال الصوم غير العادية

لا تستخدم الكنيسة القبطية الماء المقدس بالمعنى العادى، مع أنه لا تخلو صفحة من صفحات تاريخها من الإشارة إلى اشتراكها مع الديانات القديمة جميعًا فى التبجيل الشديد للماء. ولا يزال مغطس عيد الغِطاس مَعْلَمًا من معالم كل كنيسة فى مصر، ولا أعرف عدد الآبار المقدسة التى لها قوة سحرية الموجودة داخل الكنائس.

فى الأزمنة القديمة جدًا كان الرهبان يأخذون الماء ويباركونه من أجل أغراض علاجية. وكان يُنظر إليه نظرةً خاصةً باعتباره أداةً للسحر.

فى أحد الأديرة كان الإخوة يغتسلون بالماء فى الكنيسة، وكان استعمال ذلك الماء يشفى الراهب المريض. وكان يُقال إنه حيثما كان أنطونيوس الكبير يصلى كان الماء ينبثق من الأرض. وإذا كان المسلم يذهب إلى البئر المقدسة فى مكة للحصول على الماء ليبعد به الشر، وليبارك به كفنه، فإن القبطى يذهب إلى نهر الأردن للسبب نفسه على وجه الدقة. ويُنظر إلى الحج إلى القدس والاستحمام فى النهر المقدس نظرة إجلال، حتى أن الحجاج الأقباط الذين يستحمون معًا فى نهر الأردن يصبحون إخوة بحق، لدرجة أن أبناءهم وبناتهم لا يتزوجون بعضًا.

نهر النيل نفسه مبارك فى المناطق المسيحية، وتُرتجى فوائد عظيمة فى موسم الغطاس من الغمر فى النهر.

من المهم أن نتذكر أنه فى عام ١٨٩٠ فحسب كان هناك ما أغرى روما على إلغاء التعابير الوثنية فى قُدَّاس مباركة المياه عشية عيد الظهور؛ وكانت التعاويذ التى تلقى حينذاك، لإعطاء قوى سحرية للماء، تعود بالكامل تقريبًا إلى العصور ما قبل المسيحية فى روما القديمة، حيث عرَّافوها وطيورها وأحشاؤها وأرواحها فى كل مكان.

وفى مصر ما زلنا نجد آثار عبادة إيزيس فى قُدَّاس عيد الغِطاس، الذى يُستخدم لعرض معنى ومجد تعميد يسوع المسيح، وإن لم يكن وثنيًا فى تضرعه مثل قُدَّاس روما الذى أُلغى. وإليكم بعض التعاويذ التى لا تزال تتلى على المغطس:

لقد قدست مياه نهر الأردن، حيث أنزلت عليها من السماء روحك القدس، وكسَّرت رءوس التنانين التى كانت مختفية فيها. يا ربنا يسوع المسيح، يا محب البشر، فلتأتِ الآن مرة أخرى بنزول روحك القدس،

بارِك هذا الماء، وامنحه نعمة نهر الأردن.

اجعله ينبوع بركة،

وعطية تطهير،

ومحوًا للخطايا،

ونزعًا للمرض.

اجعله مرعبًا للشياطين،

ولا تدع كل قوى العدو تقترب منه.

اجعله مليئًا بكل القوى الملائكية،

لكل من ينهلون منه، أو يتناولون منه، عسى أن يكون تطهيرًا للنفس والجسم والروح،

وشافيًا للآلام،

وتقديسًا للبيوت.

وعسى أن يحقق المنافع من كل نوع.

كان الأقباط الذين يحضرون قُدَّاس عيد الغِطاس يصبحون على قدر كبير من الإثارة والفرح، ومن العزم على عدم إضاعة أى من البركة الموعودة، حتى أنهم كانوا يخلعون ملابسهم كلها فى الكنيسة ويندفعون على نحو غوغائى بهياج إلى داخل المغطس. وأظن أن هناك بعض الشك فى أن الجهلة كانوا يظنون أنهم بذلك يغتسلون من ذنبهم. ومنذ سنوات قليلة فقط أدت فضيحة المناظر التى كان يخلفها ذلك إلى منعهم من القيام والتصرف على ذلك النحو، على الأقل فى المدن المصرية الكبيرة. ولا بد أن الناس الآن يكتفون بما ينثره عليهم الأسقف أو الكاهن من الماء المقدس.

ومع ذلك لا يزال أحد السعف المناسبة التى تُقام فيها قُدَّاسات غريبة كثيرة يكون للماء دور فيها. فبعد الإفخارستيا يوضع العديد من أحواض الماء أمام حجاب الهيكل، ويقف الكاهن أمامها بينما يُتلى الإنجيل. وبعد ذلك يقدِّس الكاهن الماء بالصلاة عليه. وفى اللحظة التى يتم فيها ذلك التقديس يندفع الشعب بقوة ناحية الأحواض بغرض غمس أكاليلهم المصنوعة من سعف النخيل فيها. ويا له من منحى غريب يدخل فيه القُدَّاس حين يُضطر الكاهن، كى يستعيد النظام، إلى ضرب الشعب بعصا يحملها فى حالة الضرورة. ويرتدى الأقباط قطعًا من تلك الأكاليل التى غُمِست فى الماء تحت طرابيشهم على مر السنة كلها؛ ذلك أن لها قيمة خاصة باعتبارها تعويذة ضد «العين الشريرة» ولدغة الأفعى ولسعة العقرب.

يوجد المغطس فى النارثكس (القسم الخارجى من الكنيسة) بالقرب من المدخل الغربى، وعمومًا هناك مغطس أصغر فى صحن الكنيسة، يُستخدم بالطريقة نفسها فى خميس العهد، وقد أعقبه نثر الماء.

لا ينقص شىء لإعطاء أهمية لتلك الطقوس، وللإشارة إلى أن هناك شعيرة سحرية. فلا بد أن يكون رجل الدين مرتديًا ملابسه كاملةً، ولا بد أن يرتدى الأسقف أو البطريرك الملابس الكهنوتية الكاملة قبل منح البركة الفعلى. يُبخَّر الماء ويُحرَّك على شكل الصليب بعصا الرعاية ويرشم بصليب خاص من الحديد.

ما زال الرحالة الذين يذهبون إلى الحبشة يتحدثون عن مناظر ليلية وحشية فى الكنائس القبطية هناك فى هذا الطقس. فالمسيحيون فى كل مكان من الشرق يعتقدون أن نعمًا خاصة تتساقط فى عيد الغِطاس؛ حيث يَخْمُر العجين دون وضع الخميرة فيه.

وبينما أميل إلى الظن أن الشرق يعيش فى ظلام دامس، فإنى أتذكر ما تؤمن به النساء اللائى على قدر كبير من التعليم فى إحدى الأبرشيات القريبة من لندن نفسها، حيث أكدن مرارًا وبقوة أن البيض الذى يضعه الدجاج يوم الجمعة الحزينة لا يتحلل حتى اليوم نفسه من العام التالى.

«فيما يتعلق بالجَمْع» - تؤخذ هبة ثلاثية فى قُدَّاس يوم الأحد طبقًا لقاعدة قديمة جدًا. إذ يدور ثلاثة رجال، الواحد تلو الآخر، فى الكنيسة وقد حمل كل منهم صحن الصدقات، أثناء القُدَّاس، حيث يُتوقَّع أن يضع كل فرد من الشعب إسهامًا فى كل صحن. وأحد الصحون لرجال الدين، والثانى لمصروفات الكنيسة، أما الثالث فللفقراء.

بما أن الوقت اقترب من الظهر ولم تنته الإفخارستيا، ربما يمكننا تخيل أن الشعب داخل الكنيسة يشعر بجوع شديد. فهناك منظر غريب، وهو رؤيتهم يخرجون من جيوبهم لحظة إعلان منح البركة أرغفة صغيرة تشبه تمامًا تلك المستخدمة على المذبح ويبدأون فى أكلها. بل إن بعض الأولاد الصغار لا ينتظرون انتهاء القُدَّاس كى يبدأوا فى قضم أرغفتهم.

بعد انقضاء ثلثا القُدَّاس تقريبًا، ظهر أحد خدم الكنيسة وسط الشعب ومعه كيس كبير ملىء بتلك الأرغفة القربانية ووزعها يمينًا ويسارًا على كل من يرغب فيها، وكان يتلقى مقابل ذلك قرشًا أو قرشين. ويعترض الأقباط الإصلاحيون على هذه العادة لتشتيتها الأذهان فى تلك اللحظة المهيبة من القُدَّاس.

بما أن أى أجنبى يُعطى باستمرار واحد من تلك الأقراص فى أية كنيسة قبطية، فقد تلقيت عددًا منها فى أنحاء مختلفة من البلاد؛ ومع أننى أعرف الآن أنه لا يجرى تقديسها أبدًا، فلم أهتم قط بأكلها.

كل كنيسة بها الفرن الخاص بها لخبز الأرغفة القربانية التى لا بد أن تُصنع من أنواع دقيق القمح الذى يُشترى بشكل خاص من أموال الكنيسة. [illegible] خادم الكنيسة الذى يوزع الأرغفة خصيصًا من أجل صنعها، ولا بد أن يرتل [illegible] بصنعها أجزاءً محددة من المزامير بطريقة تتسم بالوقار والإجلال. ولا بد من عجن العجين وخبزه صباح احتفال الإفخارستيا. ولا بد أن تكون الأرغفة كاملة الاستدارة ويُختم على سطحها الأعلى فقط بقالب به صلبان ترتبط بها أسطورة مقدسة. ومحظور على النساء بشكل خاص إعداد خبز القربان.

بذل الصديق مرقس سميكة باشا جهدًا كبيرًا للحفاظ على التصميم الصحيح للختم، إذ وجد أن هناك إهمالًا تامًا لذلك الأمر من فترة طويلة، وخاصة فى الريف. فحين اهترأت القوالب وتكسرت، تُرِك أمر إصلاحها للجهلاء، ولم يشغل الكهنه أنفسهم بذلك. وفى كثير من الكنائس تدهور التصميم ليصبح مجرد شبيه لا معنى له للأصل.

تبين بعض الأرغفة التى بحوزتى انحرافات كبيرة، ولكن البطريرك رأى مؤخرًا حكمة جعل مرقس سميكة باشا يشرف على إرسال قوالب جديدة من القاهرة إلى الكنائس كافة، حيث يجرى تدمير القوالب القديمة بمرسوم رسمى من قُدَّاسته.

الخمر المستخدم مصنوع كذلك داخل الكنيسة، وبعض الكنائس لديها معاصر الخمر الخاصة بها، والبعض الآخر يشتريه من كنيسة بالقاهرة فى حارة الزويلة، حيث يُصنع بانتظام ويوزَّع على أنحاء البلاد فى جِرار مغطاة بالخوص المجدول يحتوى كل منها على ثلاثة أو أربعة جالونات.

كانت هناك باستمرار صعوبة فى الحصول على الخمر منذ الفتح الإسلامى، حيث كانت فكرة استخدامه منفرة بحق (دعونا نسلِّم بذلك إلى حد كبير بكل إنصاف) لكل أتباع الرسول المؤمنين.

كان استخدام الخمر باستمرار نقطة الهجوم الأولى فى حال وجود اضطهاد للمسيحيين. وفى القرن العاشر تقريبًا دُمرت مزارع العنب كلها، وحُظر صُنع الخمر أو استيراده حظرًا مطلقًا، بغرض منع الأقباط من استخدام الخمر.

ونتيجـة لحاجـة الرؤسـاء الدينيين الشديدة إلى الخمـر، كانوا يستوردون الزبيب ويصنعون الخمر سرًا داخل الكنائس. ومع أن خمر الزبيب كان محظورًا فى قوانين الكنيسة الأولى، فلم يتغير الاستخدام. فهو لا بد ألا يكون مخمّرًا، وبذلك يكون حلوًا على نحو مميز، كما أنه يخلو من أى أثر للنكهة الحمضية.

يعتبر استخدام الزيت المقدس، الميرون، على نفس القدر الكبير من الأهمية. ومع ذلك فمن الغريب أن نجد أنه رغم إبداء ذلك التشبث فى الحفاظ على الطقوس القديمة، فقد عُلّقت خدمة تقديس الميرون لمدة مائتى عام. وكان البطريرك يوحنا الذى كُرّس فى عام ١٦٧٦ هو الذى أعادها(١).

إعداد الميرون عملية شديدة التعقيد، وأهم مكوّناته البلسم المزروع فى حديقة بجوار بئر العذراء بالمطرية بالقرب من القاهرة، حيث استراحت العائلة المقدسة أثناء هروبها إلى مصر، كما تقول الأسطورة.

هناك العديد من عمليات الغلى للتوابل والزهور والمواد العطرية النادرة، حيث ترتب ترتيبًا دقيقًا، بينما الزيت هو زيت الزيتون الصافى من فلسطين. وتقديس الميرون طقس يتسم بقدر كبير من الأبهة والعظمة، ومن الممكن أن يشارك فيه البطريرك وأكبر عدد ممكن من الأساقفة والكهنة بحضور عدد كبير من شعب الكنيسة. وفى فترة من الفترات كان ذلك طقسًا سنويًا، ولكن الفترات أخذت تطول وتطول، إلى أن صار الآن مرة كل ثلاثين أو أربعين سنة، حيث يجرى تقديس كمية كبيرة منه. ويتضح من الصلوات المستخدمة أنه يُنظر إلى الميرون على أن له ميزة سحرية تقاوم عبادة الأوثان والسحر، وقدرة على التصدى للشيطان وخُدّامه، وقدرة على شفاء النفس والبدن.

---

(١) حين وجد هذا البابا أن هناك حاجة ملحة إلى تقديس الميرون، بعث بدعوة الأساقفة ليحضروا تقديس الميرون، فلبى دعوته ٢٠ أسقفًا اشتركوا جميعًا فى الصلوات التى بها يتقدس الميرون فى دير الأنبا مكارى. (المترجم).

ويؤكد البطريرك الحالى (١) أن الميرون يُستخدم فقط للتثبيت، وعند تكريس كنيسة جديدة أو مذبح أو صورة أو وعاء. وأظن أنه لا شك فى أن القَدَاسة التى كان يُنظر بها إلى الميرون فيما مضى قد تضاءلت إلى حد ما.

أما زيت العلاج العادى (ويجب ألا نخلط بينه وبين الميرون المقدس) فيؤخذ من أحد المصابيح المقدسة.

الصور، أو الأيقونات كما يسمونها، التى تزين حجاب الهيكل فى الكنائس القبطية كافة، ذات أهمية كبيرة، حيث إن بعضها من روائع الفن المقدس القديم. والصور جميعها التى لها أى أهمية مرسومة على ألواح خشبية؛ أما اللوحات القماش فقد استُخدمت لأول مرة منذ مائتى عام، ولم يظهر رسّام له قيمته منذ ذلك الحين.

ليست هناك صور أقدم من القرن الثالث عشر. ويعود إلى تلك الفترة صندوق المذبح الجميل جدًا الموجود فى كنيسة أبى سيفين ويعود إلى سنة ١٢٨٠ ميلادية. وتعليق الدكتور بتلر هو أن هذا العمل الفنى الفريد يكفى وحده دليلاً لتأكيد وجود مدرسة من الرسامين فى مصر أرقى كثيرًا من الفنانين المعاصرين لهم فى إيطاليا.

ومن المهم الإشارة إلى أنه منذ أقدم العصور ظلت الهدايا المقدمة للكنيسة مجهولة المصدر. وهناك شعور واضح فى الشرق، يشارك فيه المسلمون كذلك، بأنه من غير اللائق أن يفرض الإنسان اسمه تحت أى ادعاء فى دار العبادة. وفى الكنيسة القبطية كان الاسم يُطمس، حتى فى حالة مدفن أحد البطاركة أو الأساقفة. ومع أن هذه العادة أدت إلى ما يشعر به المؤرخ من شك وخلط، فربما لا نزال نمتدح هذا المبدأ.

ليست هناك تماثيل فى الكنائس القبطية ـ فهى محرمة ـ ذلك أنه فى القرن الرابع حقق ثيوفيليوس (٢) نجاحًا باهرًا فى حملته الكبرى فى كل مدينة من مدن مصر ضد عبادة الأوثان، حتى أنه لم يعد هناك من يعبد أعمال النحاتين فى الكنائس.

---

(١) البابا كيرلس الخامس. (المترجم).

(٢) هو البابا ثيوفيلس بطريرك الإسكندرية الذى تنسب إليه بعض المصادر قيادته فى سنة ٣٩١ ميلادية لمجموعة من المسيحيين عند مهاجمة معبد السرابيوم بالإسكندرية، حيث حرقوه وهدموا بقية المعابد واستخدموا أحجارها فى بناء المعابد الكنائس. (المترجم).

ولكن لم يكن بالإمكان اجتثاث الشوق إلى الأمر المُعجِز الكامن خلف توفير تماثيل مصر القديمة، وبسرعة كبيرة ظهرت الحكايات المريحة المتعلقة بالقدرة السحرية لبعض القديسين.

يصف جيميه[١] الصورة المقدسة التى عُثر عليها فى الدير البحرى وتبين كيف تفرض الأفكار القديمة نفسها. فبيد القديس «رُسمت كأس نبيذ وسنابل قمح يظهر تحتها المسيح، وقد رُسِم على ثوبه الكهنوتى ناصع البياض وفى موضع القلب مربع بنى به أربعة حزوز تجعل منه صليبًا معقوفًا، صُمم لاجتذاب حضور الآلهة. وتحت الرسم صُوِّر مركب إيزيس وابنا آوى الأسودان[٢] اللذان يحرسان المقابر المصرية منذ ستة آلاف سنة».

وشيح[٣] ابن الخليفة المسلم جعلته معجزة القديس ماركوريوس يتنصر، حيث أخذ على نفسه عهدًا بأن يسلك حياة الرهبانية أمام صورة القديس فى كنيسة أبى سيفين حيث جعلت العناية الإلهية ذلك القديس يجذبه إليها. وليس مستغربًا أن الشعب كله يبدى تبجيلًا كبيرًا لا حد له لتلك الصور حتى يومنا هذا.

أخذونى لرؤية صور كثيرة، بعضها فى القاهرة، تُنسب لها قدرات مدهشة؛ ليس من جانب غير المتعلمين والجهلة باستمرار.

كثيرًا ما شاهدت فى كنيسة حارة الزويلة بالقاهرة صورة للعذراء مريم موجودة فى وسط مقصورتها الصغيرة وتحظى بقدر كبير من التبجيل، حيث يلتف حولها الناس

---

(١) رجل الصناعة والرحالة ومتذوق الفنون الفرنسى إميل إيتيان جيميه (١٨٣٦-١٩١٨). أنشأ متحفًا لمقتنياته فى ليون عام ١٨٧٩ ثم أهداه إلى الحكومة الفرنسية فى عام ١٨٨٥ حيث نُقِل إلى باريس. (المترجم).

(٢) يقصد الإله أنوبيس حامى الجبانات. (المترجم).

(٣) ورد هذا الاسم هكذا Vasheh فى النص الإنجليزى. وللأسف لم أعثر فيما توفر لى من مصادر تاريخية على هذا الاسم. وبناءً على ذلك وعلى عدم ذكر المؤلف لاسم ذلك الخليفة والد هذا الشخص أو تاريخ حدوث تلك الواقعة، أو حتى الفترة التاريخية التى حدثت فيها، فإننى أجد نفسى مضطرًا إلى القول بأنها ربما لم تكن واقعة تاريخية وكانت حكاية من حكايات الفولكلور التى يرددها العامة. (المترجم).

مصلين من أجل المساعدة فى المرض، ولا يمكننى كتم الابتسامة عند سماع هؤلاء القوم يعلمون، عندما يُسألون، أن «الكنيسة الرومانية خادمة للأوثان».

يُقام هنا فى أيام بعينها قُدَّاس من أجل المرضى، حيث تُضاء الشموع عند المقصورة. ويذكرك الشعب، بعلله وأوجاعه الجسمانية، بمكان الانتظار فى أحد المستشفيات الكبرى؛ إلى أن يبدأ الكهنة فى الترتيل، على موسيقى الصنوج والأجراس والمثلثات الصاخبة، والناس الذين يتدافعون بشغف إلى الأمام من أجل دهن الأيدى.

من بين أقسام الكنيسة المسيحية كافةً، الأقباط هم القسم الوحيد الذى لا يصوِّر بحال من الأحوال أشكال الرعب أو العذاب من أى نوع. فهم لا يؤمنون بالمَطْهَر، أو التكفير عن الخطية بالمعاناة، ولا ينشغلون برعب الأبدية.

جاء الأنبا صيصوى يومًا ثلاثة شيوخ متوحدين، فسأله الأول: «ماذا أفعل يا أبى لأتجنب نار جهنم؟» فلم يجبه القديس. وسأله الثانى: «كيف أهرب من صرير الأسنان والدود الذى لا يموت؟» ثم سأل الثالث: «ماذا سيكون حالى؟ فإنى كلما أفكر فى الظلمة الخارجية أكاد أموت رعبًا». أجابهم القديس: «أعترف لكم أن هذه أمور لا أفكر فيها أبدًا، ولعلمى بأن الله رحيم فإنى أثق أنه سيرحمنى». وأجاب أحد الآباء الأوائل عن تلك الأسئلة بقوله «ألم يرث السارق مملكة الرب من خلال كلمة؟».

هذا هو الشعور العام للشرقى، والإيمان الثابت للكنيسة القبطية على نحو خاص. ولذلك فالواقع هو أنه ليست صورة واحدة كى نقارنها بتلك التى لا تزال موجودة فى الكنائس الإنجليزية القديمة، بما فيها من جماجم وهياكل عظمية، ونيران وشياطين تضحك، وأساليب ماهرة فى التعذيب. وكثيرًا ما كان يوم القيامة يُصَوَّر على قوس الهيكل فى إنجلترا، ولا تزال هناك نماذج موجودة تحفظ تفاصيل تلك المناظر المثيرة للاشمئزاز.

يعرف الرحالة جميعًا عربات صقلية المصورة؛ وهى الأكثر شيوعًا من بين الصور التى تمثل الجحيم المزدحم، حيث يُحرق الشيطان فى قدر كبير؛ والشىء المفصل الآخر هو ذلك الخاص بأحد الشهداء وهو يُسلخ حيًا وقد رُبِط فى عمود.

هذه الأشياء لا مثيل لها فى الكنيسة القبطية: فهناك تجاهل إلى حد كبير للشيطان، ومعه أعماله كلها؛ ويصوِّر الشهداء وهم فى حالة من الهدوء والسكينة. وحين يهاجم القديس چورچ (مارجرجس) التنين، فذلك يحدث فى معركة عادلة، والضربة القاتلة حادة ورحيمة. والأقباط بذلك هم وحدهم من ظل يَصْدُق عليهم ما يتحدث عنه الدكتور بتلر باعتباره الشعور الأكثر صفاءً ورقةً الذى تميزت به الكنيسة القديمة، التى كانت تجد متعة فى رسم يسوع المسيح ممجدًا وقد أحاط به القديسون المنتصرون، إلا أنها تركت مصير الأشرار لصمت الخيال.

إحدى فوائد انفصال الكنيسة القبطية الكامل عن الكنيسة الغربية فى مَجْمَع نيقية، فى القرن الرابع الميلادى، هو نجاتها من الرغبة المبتذلة فى الواقعية الفنية التى وجدت فيما بعد تعبيرًا عنها من خلال الذوق الفاسد والخيال المريض الذى شاع فى عصر الخرافة.

ومع ذلك يعارض الإصلاحيون الأقباط المُحْدَثون استخدام الصور، ظنًا منهم أنها ما زالت توفر مبررًا لعبادة الأوثان. وفى عام ١٨٥١ أصدر البطريرك الإصلاحى كيرلس أمرًا بإحضار لوحات الكنائس من كل أحياء القاهرة، حيث أضرم فيها النار ومعها تلك التى جىء بها من البطرخانة القديمة، الأمر الذى أهلك الكثير من الصور الجيدة. وفى كلمته التى ألقاها عن الحرق استخدم تعبير «الصور الخشبية» المشئوم قائلًا: «إنكم تستخدمون هذه لتوقيرها، بل ولعبادتها. وهى لا تنفع ولا تضر».

رغم القسوة التى اتسم بها العلاج فهو لم يكن ناجعًا. ذلك أنه فى عهد البطريرك الحالى وضعت لوحات جديدة مرسومة على القماش فى الكاتدرائية الجديدة خطوط فظيعة غير متقنة تصرخ بأعلى صوت من جراء محطمى الأيقونات.

حكوا لى فى أسيوط عن حماس المعتنقين حديثًا لتعاليم البعثة التبشيرية المشيخانية الأمريكية هناك الذين اقتحموا الكنيسة ليلاً ونزعوا الصور وحطموها، لعدم قدرتهم على تحمل فكرة التبجيل الذى تحظى به تلك الصور داخلها؛ وفُعِل الشىء نفسه فى أماكن أخرى حيثما أذكت البعثات التبشيرية الأمريكية نار الحماس الإصلاحى.

توجد فى بعض المنازل القبطية صور للقديسين تُضاء أمامها الشموع وتتلى الصلوات. ورغم تحريم الصلاة أمام القديسين، فالمعروف أن نساء كثيرات يصلين من يردنهن أمام صور العذراء مريم والقديس ميخائيل، ومارجرجس، والقديس مارقوريوس.

ممارسة الصلاة الخاصة أمر يلتزم به القبطى المتدين. وكما هو الحال بالنسبة لليهود، فهو يصلى سبع مرات فى اليوم - وهو مثال آخر على الطريقة التى تبنى بها الأقباط كلمات الكتاب المقدس حرفيًا؛ ويكفى أن داود يقول فى مزاميره: «سبع مرات فى النهار سبحتك». (مزامير ١١٩: ١٦٤). وعلى عكس صلوات المسلمين الخمس التى تقتضى القيام بحركات محددة من ركوع وسجود، فغالبًا ما تردد الصلوات القبطية أثناء المشى أو الركوب أو أداء الأعمال. أما الأقباط الأكثر تدينًا وشكليةً فيغسلون أيديهم ووجوههم وأقدامهم قبل الصلاة، والبعض منهم يتلو سفر المزامير كاملًا أثناء «المرات السبع»؛ ويستخدم آخرون المسبحة لعد مرات ترديد الصلاة الربانية وكيرياليسون اللتين يعتمدون عليهما اعتمادًا حصريًا.

وساعات الصلاة القبطية هى:

منتصف الليل

الفجر - السادسة صباحًا

الساعة الثالثة - التاسعة صباحًا

الساعة السادسة - منتصف النهار

الساعة التاسعة - الثالثة عصرًا

الساعة الحادية عشرة - السادسة مساءً

الغروب - السابعة والنصف مساءً

تُقام القُدَّاسات فى الكنيسة مساء كل جمعة وسبت. وهناك قُدَّاسات أيام الأربعاء، وهى تستمر بصفة عامة لمدة أربع ساعات تقريبًا. وأثناء الصوم الكبير، هناك قُدَّاس كل يوم؛ وهناك قُدَّاسات فى أيام القديسين كلها وأيام الأعياد.

فى ثلاث مناسبات فى السنة هناك قُدَّاسات خاصة تُقام فى منتصف الليل، وهى قُدَّاسات طويلة جدًا - إذ تبدأ عند الغروب وتنتهى فى الساعة الواحدة صباحًا. وأثناء مجىء المسيح(١) هناك قُدَّاسات تستغرق الليل كله، وتتكون بصورة كبيرة من ترانيم إلى مريم وابنها.

الآثار المقدسة الخاصة بالكنيسة القبطية، وتتكون فى معظمها من رفاة القديسين، محفوظة داخل الكنائس فى صناديق أسطوانية مغطاة بالحرير الثمين وغيره من الأقمشة، فيما يشبه مسند الكنبة المسمى «مدفع». وبصورة عامة قد توجد تلك الصناديق داخل دولاب فى جدار الكنيسة تحت الصور الرئيسية، حيث تُتاح لكل من يريد إخراجها.

المنظر المؤثر هو رؤية نساء محجبات بإحكام يجلسن باحترام شديد بجوار صناديق الآثار تلك، ولديهن اعتقاد قوى بأن الصلوات اللاتى ينطقن بها، وهى تتعلق فى الغالب بعلل شخصية، سوف تُجاب. ومن حين لآخر يتوقفن ليثرثرن، وهن يناولن الصناديق لبعض، حيث تصلصل عظام القديسين داخلها على نحو مخيف.

والاعتقاد العام هو أن كل كنيسة بها آثار القديس راعيها. ومع أن عبادة تلك الآثار ممنوعة، فإنه يشيع إيمان بقدراتها المطلقة.

وكما هو الحال بالنسبة لصور القديسين، فإن الإيمان القديم الشائع فى الكنيسة المسيحية بقدرة الآثار على تحقيق المراد ما زال قائمًا، وهو الأمر الذى نشأ فى الكنيسة الرومانية التى لم يتبعوها - بحال من الأحوال - من إجلال وثنى وإفراط فى إقامة الأضرحة.

فى أيام المسيحية الأولى أصبح هناك اعتقاد بأن كل قديس لديه قدرة حمائية وشافية، وكان هناك شعور بالتوقير الشديد لمقابر القديسين والشهداء. ويزخر التاريخ القبطى على وجه خاص بقصص المعجزات والعجائب التى حدثت هناك.

(١) أيام الآحاد السابقة لعيد الميلاد فى ٧ يناير، وتسمى آحاد التهيئة الأربعة (الفريسى والعشار، الابن الضال، الدينونة، الغفران) **(المترجم)**.

وقد قامت معظم الأديرة على مواقع منحها قدسيتَها ورعُ القديسين. وبعد قليل كان هناك تبجيل للآثار، أو أجزاء من الجسم أو حتى الملابس، أو أى شىء لمسه القديس. وكانت إحدى أوائل القصص التى رواها پالاديوس حوالى سنة ٣٨٦ ميلادية عن زميله الراهب الذى كان لديه أحد آثار القديس يوحنا المعمدان المباركة التى كان يطرد بها الشياطين.

وتتميز الكنيسة القبطية بالأصوام الكثيرة وطول فتراتها. وقد اتبعت فى ذلك، كما فى أمور كثيرة أخرى، ممارسة المصريين القدماء. ففى الشرق هناك باستمرار تبجيل لفائدة الصوم الروحية والمادية. وكثيرًا ما كتبوا فى الغرب عن صوم رمضان السنوى، حيث استنكروه بصورة عامة باعتباره تظاهرًا بإنكار الذات، وذلك من جانب مراقبين معرفتهم بالإسلام من السطحية بحيث لا تسمح لهم ولو بالشك فى مدى ممارسة المسلمين المتدينين فى كل مكان للصوم، وحتى نوافل الصوم فى غير رمضان. وأعرف رجالًا كثيرين من أتباع هذه العقيدة، منهم من بلغ من العمر عتيًا، يصومون بانتظام يومًا كل أسبوع(١)، ويصومون شهر رمضان بحماس شديد، لا يجبرهم على ذلك سوى الدوافع الدينية الحقة.

بالنسبة للأقباط، لا بد أن يكون الصوم واحدًا من أهم الواجبات الدينية. فهو أرضية العفو، وطريق للخلاص. ويصوم الأسقف أسبوعًا بعد تكريسه، بينما يلى ترسيم الكاهن شهر من الصوم؛ وذلك ضمن عدد من مواسم الامتناع عن الطعام والشراب الخاصة.

والصوم الكبير هو أطول الأصوام، وأهمها بالطبع. ويستمر هذا الصوم ٥٥ يومًا. ويُحظر أثناء تلك الفترة تناول الزبد أو اللحم أو البيض أو الدجاج وشرب الحليب أو القهوة أو النبيذ؛ ولا يؤكل أى طعام فيما بين الشروق والغروب.

ولكى يحيى الأقباط أسبوع الآلام الإحياء الصحيح لا بد أن يصوموا الثلاثة أيام الأولى منه صومًا دائمًا مع الصلاة المستمرة؛ ثم ينبغى عليهم صوم يوم الخميس من العصر حتى مساء يوم الجمعة، حيث يقطعون الصيام بشرب منقوع المر فى الخل.

(١) المعروف أن صوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع سنة عند المسلمين. **(المترجم)**.

ومن عادة بعض المناطق أن تخبز كل الخبز اللازم فى بداية الصوم، وتصبح الأرغفة المستديرة من الصلابة بحيث يجب بلها بالماء فترة طويلة جدًا قبل أن يصبح مضغها ممكنًا.

يبرر طول الصوم الكبير أنه ضُمَّ إليه ذلك الصوم القائم على أسطورة هيراكليوس (هرقل).(1) فبينما كان الإمبراطور يسير فى فلسطين وعد بحماية اليهود؛ ولكنه فى القدس لبى طلب المسيحيين الانتقام من اليهود على أعمالهم الوحشية، وعلى نهب المدينة المقدسة. ووعد المسيحيون الإمبراطور بأنه إذا نقض عهده مع اليهود فسوف يصومون له أسبوعًا كل عام. وأمر الإمبراطور بالمذبحة وما زال صوم هرقل متبعًا حتى الآن.(2)

يستمر صوم مجىء المسيح أربعين يومًا تسبق عيد الميلاد، وهو أقل شدة من الصوم الكبير، حيث يُسمح فيه بأكل السمك.

يسمى الصوم الرئيسى الثالث فى الكنيسة القبطية صيام الرُّسُل، ويبدأ مع عيد العُنصرة(3)، ويستمر حوالى أربعين يومًا؛ وإن كان هناك تفاوت قليل فى طوله.

---

(1) الإمبراطور الرومانى الذى هزم الفرس فى سنة ٦١٧ ميلادية وأعاد مصر من جديد إلى الحكم البيزنطى وحاول توحيد عقيدة الأقباط مع عقيدة الروم. وتقول إحدى الروايات أنه نفى بطريرك الأقباط فى ذلك الوقت البابا بنيامين. وتشير رواية أخرى إلى أنه عندما أحس البابا بخطورة الصدام مع السلطة الحاكمة ترك الكرسى فى سنة ٦٣١ ميلادية واختبأ بدير صغير فى الأقصر. وعندما فتح المسلمون مصر، كتب عمرو بن العاص عهدًا يقول فيه: «الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمنًا مطمئنًا ويدير حال الكنيسة وسياسة طائفته». (المترجم).

(2) جاء فى كتاب قطمارس «الصوم الكبير حسب طقس الكنيسة القبطية» ما يلى: «والأصوام الزائدة المستقرة فى البيعة القبطية منها ما يجرى مجرى الصوم الكبير فى التأكيد وهى جمعة هرقل التى صارت مقدمة للصوم الكبير وذلك أنه لما رجع هرقل ملك الروم على بيت المقدس فوجده خرابًا وقد هدم اليهود الكنائس والقبر المقدس وغيرها وأحرقوا النصارى بالنار، فطلب منه أهل القدس قتل اليهود فاعتذر لأنه أعطاهم الأمان واليمين أى أقسم لهم، فقالوا له: أما الأمان فقد علمه كل أحد منهم احتالوا عليك فيه، وأما اليمين فنحن وجميع النصارى بكل الأقاليم نصوم عنك أسبوعًا فى كل سنة على مر الأيام وإلى إنقضاء الدهر....!! وكتب البطاركة والأساقفة إلى جميع البلاد بصوم هذا الأسبوع الأول من الصوم الكبير..». (أصوامنا بين الماضى والحاضر، القس كيرلس كيرلس راعى كنيسة مار جرجس بخمارويه وتقديم لنيافة الأنبا أثناسيوس، طبعة أولى سنة ١٩٨٢) (المترجم).

(3) سابع خميس بعد عيد الفصح. (المترجم).

قبل الأربعين تقريبًا من الصوم الكبير، يأتى صوم نينوى ويستمر ثلاثة أيام.

فى بداية شهر أغسطس يُكَرَّم صعود جسد السيدة العذراء بصوم يستمر خمسة عشر يومًا(1). وهناك صوم حتى الغروب عشية عيد الميلاد وعشية عيد الغِطاس.

لا يزال هناك اعتراف عام بفرضية تلك الأصوام، وإن تزايدت المرونة فى هذا الأمر فى ظل الأفكار الغربية الأكثر إجهادًا الخاصة بأوقات العمل الثابتة التى تزداد انتشارًا. والكثير من أصدقائى يفرقون بين الأصوام التى يعتبرونها الأكثر إلزامًا وتلك التى يجب أن يتركوها بالضرورة. إلا أن الكثيرين من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية يحافظون على صيام يوم الجمعة حتى الظهر؛ وجميعهم يصومون يوم الأحد حتى انتهاء قُدّاس الإفخارستيا، سواء أكانوا سيتناولون أم لا.

ولا أتفق بالمرة مع الكلام الذى أسمعه أحيانًا فى الدوائر القبطية عن أن تدهور حال رجال الدين يمكن أن تفسره شدة تلك الأصوام. فقد كان العمالقة الروحيين فى الكنيسة القديمة هم الرجال الأشد قسوة على أنفسهم فى مسألة الطعام، ونادرًا ما كانت هناك إشارة إلى أن قواهم تضاءلت على هذا النحو. ويقابل المرء مرارًا سجل الناسك والراهب الذى عاش منذ شبابه، فى احتقار متعمد منه للجسد، على كميات صغيرة وفقيرة من الطعام، مع النوم لفترات محدودة جدًا، وهو يحتفظ بقواه الجسدية والعقلية حتى سن تكاد تكون غير معقولة. وبالطبع كان الإعياء والتعب يؤكد نفسه من حين لآخر؛ ولكنى أتخيل أن ذلك لم يكن بقدر يزيد عما يُعزى فى المجتمعات العادية إلى الإفراط فى الأكل.

بالإمكان ذكر البطريرك الحالى، وكذلك أسقف الفيوم، باعتبارهما دليلًا على إثبات تلك النظرية فى زماننا هذا. فالواقع أن اعتقادى هو أن الشرقى يجد باستمرار الطريق إلى تحقيق أفضل قدراته من خلال فرضه قيودًا على نفسه. وقد بلغ اثنان من أكثر الرجال كبار السن الذين قابلتهم جاذبية فى الشرق عامهما العاشر بعد المائة. وكانت يقظتهما أمرًا مفرحًا، حيث أصرا فى كلامهما معى على أنهما يدينان بكل

---

(1) يسمى «صوم العذراء». (المترجم).

شىء لرحمة الله، ولمواظبتهما على الصوم الذى ازدادت أيامه وشدته مع زيادة سنوات عمرهما.

هناك سبعة أصوام تحتل المكانة الأولى من حيث أهميتها: عيد الميلاد، ويأتى باستمرار فى السابع من يناير؛ وعيد الغِطاس؛ وعيد الفصح؛ وعيد الصعود؛ وعيد العُنصرة، حين تذهب النساء جميعًا إلى الكنيسة فى العصر ويوزعن الطعام على الفقراء، ويوزع الكاهن البخور إحياءً لذكرى الراقدين؛ وأحد السعف؛ وعيد إحياء ذكرى دخول السيد المسيح أرض مصر.

ليست هناك أجراس كنائس [1] تدعو المسيحيين المصريين إلى العبادة؛ فقد مُنع منذ القرن التاسع فى مصر دق الأجراس، الذى كان باستمرار أمرًا كريهًا لدى المسلمين منذ زمن محمد. وقد نُقل الكثير من الأجراس القديمة إلى الأديرة حيث لا تزال موجودة. وفى سجلات الحياة الرهبانية القديمة التى وصلتنا، هناك باستمرار ذكر لدعوة الإخوة للصلاة بواسطة «دق اللوح». وترتبط كراهية الأجراس من جانب المسلمين إلى حد ما بحكم دينى مسبق يقوم على حديث يشير إلى كراهية الرسول لها. [2] وأعلم أنه حتى يومنا هذا أنه حين يزور المسلمون أوروبا يجدون فى قرع أجراس الكنائس محنة مادية، فضلًا عن النفور من العادات المسيحية. ولا يضع مسلم من الطراز القديم جرسًا فى بيته؛ فهو يستدعى خادمة بالتصفيق. كما أن إهداء ابنه لعبة حديثة تتصل بها أجراس عن جهل يعد زلة فى السلوك الاجتماعى؛ أما تقديم مثل هذه اللعبة عن علم فإهانة.

الكنائس مهمَلة، وليست هناك محاولة كبيرة للحفاظ على نظافتها، وخاصةً فى ـيف. وإذا كان الكهنة غير الحاصلين على قدر كاف من التعليم، ولا يتلقون أجرًا

انتهى هذا الوضع وصار بالكنائس أبراج للأجراس. (المترجم).

قال صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه جرس» صحيح [صحيح الترغيب ٣١٢٠] وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب أو جرس» صحيح [صحيح أبى داود ٢٢٢٨] قال صلى الله عليه وسلم: «الجرس من مزامير الشيطان» أخرجه مسلم [رياض الصالحين ١٧٠٠] قال صلى الله عليه وسلم: «الجرس مزمار الشيطان» صحيح [أبى داود صحيح ٢٢٢٩] وقال صلى ـه عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه جلجل ولا جرس، ولا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس» ـن [صحيح النسائى ٤٨١٨] وفسر بعض العلماء الجلجل بأنه هو نفسه الجرس. (المترجم).

مجزيًا، يجهلون تاريخهم، ويهملون ممتلكاتهم، فماذا يمكن أن يُقال عن مرتادى الكنائس؟ وبالنسبة للرهبان فى الأديرة، تبدو عقولهم فارغة عند سؤالهم عن النقاط الكثيرة التى تهم الزائر؛ وعدم كون هذا الجهل مظهرًا خادعًا شرقيًا تثبته الطريقة التى تخلوا بها عن كنوزهم التى لا تقدر بثمن التى جمعتها القرون فى خلواتهم النائية، أو باعوها بثمن بخس. بل إنهم سمحوا فى بعض الحالات بأخذ حُجُبهم فريدة الروعة المصنوعة من خشب الأرز ومطعمة بالعاج. فقد اشترى رجل فرنسى زوجًا جميلًا من الأبواب كى يزين بهما منزله من الكنيسة المعلقة الموجودة داخل حصن بابليون خارج القاهرة؛ ولكن من حسن الحظ أن المتحف البريطانى حماهما من الضياع. وسوف يكون من الكرم والحكمة إعادتهما الآن إلى الكنيسة وقد أدركت السلطات ثمنهما. والكاهن الذى باع هذين البابين لم يكن ليمنع سائحًا يقطع جزءًا من حجاب الهيكل بمطواة إن هو عرض عليه بقشيشًا قليلًا فى البداية. وكان من المحتمل إلى حد كبير أن يعلن لى العلمانيون الأقباط الأذكياء منذ بضع سنوات، آسفين على فقد كنيستهم لكل كنوزها تقريبًا، بأن أملهم ضعيف فى وجود أية رعاية ذكية لتلك الكنوز بالوضع الذى كانت عليه فى ذلك الحين. فقد كانوا يشعرون بأن متحفنا القومى هو المرفأ الأكثر أمنًا الذى يمكن أن تأوى إليه تلك الكنوز. ومع ذلك فإنه حتى وقتنا الراهن يتعثر المرء أحيانًا فى أشياء كهذه، مثل الحُجُب الجميلة، بل ومعدات المذبح، أو أحد الصناديق القديمة، أو أحد أوعية آثار القديسين التاريخية، فى غرف الأخشاب داخل مبانى الكنائس.

أنجز مرقس سميكة باشا القدر الكبير فى سبيل بيانه للقيمة التى يراها العالم الغربى فى تلك الكنوز المنسية لأبناء وطنه، وذلك من خلال المتحف القبطى اللافت للنظر إلى حد كبير الذى أقامه مؤخرًا فى القاهرة، ومن خلال طرق أخرى كثيرة كذلك.

يوجد الآن قدر أكبر من الاهتمام بكثير من كنائس القاهرة الأثرية من خلال ما يتسم بالحكمة من إصلاح وترميم، ولم تعد مضرب المثل فى القذارة والحاجة إلى المرافق الصحية كما كانت منذ سنوات معدودات فحسب، عندما عرفتها لأول مرة.

وهناك الكثير مما نأمله من امتداد أثر ذلك العمل إلى مدن الريف وقراه. ويبدو أنه لا توجد أية فكرة لدى كنائس الريف عن مجرد العناية بالمذبح نفسه؛ فالحالة التى يوجد عليها بصورة عامة أشد ما تكون إيلامًا.

وعندما نجد أن المذبح يُنظر إليه طبقًا لتعاليم الكنيسة على أنه قبر المسيح وعرش الرب، فمن المدهش أن الكهنة والشمامسة يرون غطاءه ممزقًا وملطخًا بالشحم المتساقط من الشموع ورماد المجمرة وغبار مصر الذى لا يُنسى، حيث يؤكد الغبار وجوده فى كل مكان؛ بينما تتكوم الكتب الممزقة على نحو مشوش وقد أُلقيت عليها الثياب القذرة بإهمال؛ بينما انقلب بيت القربان على جانبه: ويعطى هذا كله انطباعًا بوجود كنيسة ميتة ومهجورة ـ وهو الانطباع الذى يزول جزئيًا فحسب حين توقد الشموع ويُحرق البخور، ويظهر الكهنة والشمامسة فى ثيابهم الكهنوتية أثناء قُدَّاس الإفخارستيا المهيب.

إلا أن الإصلاح مستحيل فى أى من تلك الأمور قبل إصلاح الكهنوت نفسه، من حيث أساليب اختياره وكذلك تدريبه.

الفصل الرابع

معتقدات الأقباط

كيف فصلوهم عن العالم المسيحى الغربى، وكيف أثروا على شخصيتهم

ينتمى الأقباط إلى الكنيسة الأولى الثابتة بلا تغيير التى أقرها مَجْمَع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية. وقد رَفَضَت الكنيسة القبطية المذاهب اللاحقة كلها، وهى تزعم أنها لم ترفض الاعتراف بأى بابا سوى بطريركها فحسب، بل ظلت كذلك ثابتة على مذهبها وتنظيمها.

وأثناء حركات التاريخ الضخمة، التى تمثلها مائتا عام من الحكم البيزنطى، مرورًا بغزو العرب المسلمين فى القرن السابع، وكل أشكال المعاناة وإسقاط الأهلية التى اتسمت بها تلك الهيمنة التى استمرت ما يزيد على اثنى عشر قرنًا، لم تتغير الشخصية الأساسية للكنيسة القبطية.

ولذلك فإنه لكى نفهم وضع هذه الكنيسة الشرقية، لا بد لنا من القيام بما يزيد قليلًا على مجرد تتبع تاريخها بإيجاز منذ قدوم القديس مرقس، حوالى سنة ٤٥ ميلادية، حتى ظهور أثناسيوس الكبير، الذى لازم البابا الكسندروس إلى مَجْمَع نيقية.

وقد ربط التراث العالمى، الشرقى والغربى، القديس مرقس الإنجيلى بتأسيس كنيسة الإسكندرية. ويقول التراث المصرى إن القديس مرقس كان أحد أبناء بنتابوليس[1]،

(١) بنتابوليس أو المدن الخمس هو الاسم القديم لليبيا فى عهدها اليونانى الرومانى. (المترجم).

وكان واحدًا من السبعين (١)، وهناك اعتقاد قوى لدى الأقباط بأنه كان خادمًا فى الوليمة التى أحال فيها المسيح الماء خمرًا، وأنه الرجل الذى قابله الرسل قبل العشاء الأخير حاملًا دورق ماء، وقد احتفل يسوع فى بيته بعيد الفصح (٢)، وفيه كذلك اجتمع الرسل بعد القيامة سرًا خوفًا من اليهود، حين ظهر لهم المُخلّص.

ومن الغريب أنه حتى وقت قريب جدًا كان وجود حصن بابليون فى مصر منسيًا تمامًا فى الغرب، ولذلك اختلط علينا الأمر حين ظننا أن الكُتّاب المسيحيين الأوائل لجأوا إلى بابل (٣) الآسيوية.

ومن المحتمل أن القديس مرقس فى رحلته إلى مصر حتى بابليون ـ تُسمى الآن خطأ مصر القديمة ـ كان يصاحبه القديس بطرس، أُرّخت رسالته الأولى من تلك المدينة. ومن الواضح أنه حين يتحدث عن الكنيسة «التى فى بابل المختارة» (رسالة بطرس الرسول الأولى ٥: ١٣) كان يقصد الإشارة إلى تلاميذ صديقه وكاتبه (٤) القديس مرقس. وليس من غير المرجح أن جزءًا كبيرًا من إنجيل القديس مرقس

(١) يعتقد الأقباط أن القديس مرقس كان أحد السبعين رسولًا الذين عينهم «وأرسلهم الرب اثنين اثنين أمام وجهه إلى كل مدينة أو موضع حيث كان هو مزمعًا أن يأتى» (لوقا ١٠: ١). ولذلك فهو يلقب بـ «ناظر الإله الإنجيلى» باعتباره أحد الذين شاهدوا الرب وسمعوه، أحد شهود العيان. (المترجم).

(٢) أول ما يذكر القديس مرقس باسمه يذكر كابن للسيدة التى كان بيتها مقرًا لاجتماع يسوع المسيح وتلاميذه ورسله فى أورشليم، وهى التى كانت كذلك إحدى المريمات تلميذات يسوع (لوقا ٨: ٢، أعمال الرسل ١: ١٤). (المترجم).

(٣) يُكتب اسم مدينة بابل فى بلاد ما بين النهرين (العراق) فى اللغة الإنجليزية بالطريقة نفسها التى يُكتب بها اسم الحصن الموجود فى مدينة الفسطاط (مصر القديمة) وهو Babylon. (المترجم).

(٤) «هناك رأى غريب منتشر فى الأوساط الغربية، مؤداه أن بطرس الرسول بشر فى رومه، ومعه مارمرقس (تلميذه، أو كاتبه، أو سكرتيره، أو ترجمانه كما تقول تلك الروايات!)... وأن بطرس الرسول لم يكتب إنجيلا، فتوسل أهل رومه إلى مارمرقس فكتب لهم العظات التى سمعها من القديس بطرس، أو كتب ما أملاه عليه بطرس. ولذلك يسمون إنجيل مرقس مذكرات بطرس!!... وأصحاب هذا الرأى يحاولون تأييده بشهادات من الخارج منسوبة إلى بعض الآباء فى القرون الأولى، وبأدلة من داخل الإنجيل نفسه، الذى يقولون إنه أظهر ضعفات بطرس، وأخفى ما يمجده، تواضعا من القديس بطرس صاحب الإنجيل الحقيقى... لا شك أن مارمرقس قد وصف كثيرا من الأمور كشاهد عيان، رأى بنفسه وسمع، وكتب بتدقيق. وبالإضافة إلى كل هذا لقد كان بيته محط رحال السيدة العذراء وجميع الرسل، ففيه علية صهيون المشهورة التى كانوا يجتمعون فيها (أع١٣،١٤:١) وهو أول كنيسة مسيحية فى العالم، كان يجتمع فيها المؤمنون (أع١٢:١٢). وكان يقال فى هذا البيت كل ما يختص بالسيد الرب وأعماله وأقواله..» (قداسة البابا شنودة الثالث، «هل إنجيل مرقس هو مذكرات بطرس؟»، جريدة «وطنى») (المترجم).

كُتب أثناء الإقامة فى بابليون مع القديس بطرس؛ حيث كانت نية الرسول استخدامه فى التبشير بالإنجيل فى مصر.

كان أول من أدخلهم مرقس فى المسيحية بالإسكندرية رجلًا اسمه أنيانوس، وكان إسكافيًا. وهذا الرجل هو الذى كُرّس فيما بعد أولَ أسقفٍ للكنيسة الجديدة، مع ثلاثة من الكهنة وسبعة شمامسة كمساعدين.

يتحدث الكُتّاب الأوائل جميعًا عن مرقس على أنه عاش فى مصر منذ ذلك الحين حتى وفاته. وربما كانت السنة ٦٢ ميلادية هى التى ضحى فيها بروحه شهيدًا، حيث قتله الوثنيون الذين أغضبهم باحتجاجه على عيد سيرابيس (١). وقد دُفن فى أول كنيسة مسيحية بناها فى بوكاليا (٢) بالقرب من شاطئ البحر فى الإسكندرية. وطوال قرون لاحقة كان اختيار بطاركة الإسكندرية يجرى عند مقبرته. وإذا كان هناك اعتراض على أن التراث يُروى كما لو كان تاريخًا، فلا بد من القول بأن كل تجربة تبين فى النهاية احتمال أن لتراث الشرق هذا أصلًا فى الحقيقة التاريخية.

خلال قرن من الزمان، اتخذت مدرسة مسيحية كبرى (٣) مكانها بين المؤسسات التعليمية التى جعلت من الإسكندرية المدينة الأولى فى العالم وهى المدرسة التى

(١) إله أدخل مصر فى عصر بطليموس الأول، وكان هدف من أدخلوه أن يشترك المصريون واليونانيون فى عبادته. وقد استعار بعض خصائصه من الإله المصرى أوزيريس، إلا أن أهم صفاته كانت يونانية، حيث أخذ من زيوس وإسكليبيوس وديونيسوس. وانتشرت عبادته من الإسكندرية إلى بلاد البحر المتوسط. (المترجم).

(٢) ذكر استرابو المؤرخ أن البقعة المذكورة كانت قبل ذلك مرعى للماشية، ومن ذلك اشتق اسم المكان الذى يعنى «مرعى الأبقار». (المترجم).

(٣) تعتبر مدرسة الإسكندرية المسيحية أول مدرسة من نوعها فى العالم. فبعد نشأتها حوالى عام ١٩٠م، على يد العَلاّمة المسيحى بانتينوس، أصبحت أهم معهد للتعليم الدينى فى المسيحية. وتعلم الكثير من الأساقفة البارزين من عِدّة أنحاء فى العالم فى تلك المدرسة، مثل أثيناغورَس، وكليمنت، وديديموس، والعلامة أوريجانوس، الذى يُعتبر أبا عِلم اللاهوت، وكان نَشِطًا كذلك فى تفسير الكتاب المقدس والدراسات الإنجيلية المُقارنة. وقد كتب أكثر من ٦٠٠٠ تفسيرًا للكتاب المقدس، بالإضافة إلى كتاب «هيكسابلا» الشهير. وزار العديد من العلماء المسيحيين مدرسة الإسكندرية، مثل القديس «جيروم» ليتبادل الأفكار ويتصل مباشرة بالدارسين. ولم يكن هدف مدرسة الإسكندرية مقصورًا على الأمور اللاهوتية، لأن علومًا أخرى مثل العلوم البحتة والرياضيات والعلوم الإجتماعية كانت تُدَرّس هناك. وقد بدأت طريقة «السؤال والجواب» فى التفسير فى تلك المدرسة. (المترجم).

حظيت بتكريم لا ينتهى نتيجة لارتباطها بالترجمة الأولى للكتاب المقدس إلى اللغة اليونانية(١) التى كان لها دور كبير فى معرفة الأمم الأوروبية به. وقدمت الإسكندرية للكنيسة الأولى واعظها البليغ أپولوس.

ومن خلال رجال مثل پانتينوس(٢)، وتلميذه الأكثر شهرة منه كليمنت السكندرى، أصبح للكنيسة المصرية أهميتها على نطاق واسع. وپانتينوس هو الذى حمل الإنجيل إلى الهند استجابةً لطلب أُرسل إلى البطريرك.

وفى الجو الفلسفى والمتسامح إلى حد ما الذى تميزت به المدينة الشرقية الكبيرة، تطورت الكنيسة فى سلام نسبى حتى بداية القرن الثالث، حين واجهت أولى محاولات اختبارها الكبرى، وهى اضطهاد سيڤيروس(٣). واستُثيرت روح الشهادة؛ ومن بين من قدموا أرواحهم من أجل العقيدة ليونيدس والد ذلك الرجل العظيم أوريجينوس.

فى تلك الفترة كانت الكنيسة المصرية قائدة العالم المسيحى، وكانت هرطقة نوڤاتيوس(٤) ـ الارتداد عن الإيمان خطيئة لا تُغتفر ـ يُرجع فيها إلى البطريرك لتسويتها.

وقد يمكن القول بأن تباعد قوى الحياة المسيحية الكبرى بدأ فى الاتجاه الشرقى الذى حددته تعاليم أوريجينوس المتأملة فى طبيعة الرب؛ بينما حدد الخط الغربى

---

(١) المعروف أن أسفار العهد الجديد كُتبت باللغة اليونانية، وإن كان بعضها بلغة السيد المسيح وهى الآرامية. أما هذه الترجمة فهى للعهد القديم. وسميت هذه الترجمة بالسبعينية بناء على التقليد المتواتر بأنه قد قام بها سبعون (أو بالأحرى اثنان وسبعون؛ ستة من كل سبط من أسباط بنى إسرائيل) شيخًا يهوديًا فى مدينة الإسكندرية فى أيام الملك بطليموس الثانى فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق. م). (المترجم).

(٢) صاحب أول ترجمة قبطية للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. (المترجم).

(٣) الإمبراطور الرومانى ماركوس أوروليوس سيڤيروس إسكندر الذى اشتهر باسم سيڤيروس إسكندر وحكم فى الفترة من ٢٢٢ إلى ٢٣٥، ودامت فترة الاضطهاد فى عهده إحدى عشرة سنة. (المترجم).

(٤) نوڤاتيوس الهرطوقى قس كنيسة روما الذى كان يرفض توبة من جحد الإيمان أثناء الاضطهادات. أوضح البابا كيرلس الأول فساد هذا المعتقد، وأمام إصرار أتباع نوڤاتيوس على رأيهم، اضطر البابا أخيرًا أن يطردهم من الإسكندرية. (المترجم).

فى وقت لاحق أوجستينوس(١) الذى ثبّت فكرة الكنيسة الخاصة بالخطيئة والكفارة؛ وذلك بعد أن صارعت روما من أجل السيادة فى المَجْمَع الشهير بين الشرق والغرب فى سرديكا [سنة ٣٤٧].

آذن القرن الرابع بما صار عصر الشهادة، بالنسبة لمصر على وجه الخصوص. وبلغت قصة اضطهاد الكنيسة القبطية بواسطة الأباطرة الوثنيين ذروتها المرعبة فى إعمال القمع القاسية والانتقامية فى عهد دقلديانوس. فقد دُمِّرت الكنائس كلها، وأُحرقت الكتب المقدسة جميعها، وطُرِد كل مسيحى يتولى وظيفة رسمية من وظيفته، بينما حُوّل الكل إلى عبيد. وتكاد تغطى المعاناة التى أُخضِع لها الشهداء طوال سلسلة من السنوات على أى شكل من أشكال التعذيب التى حفظها سجل التاريخ.

وكان التأثير الذى وقع على عقل الكنيسة من العمق بحيث يحسب الأقباط الزمن منذ ما يسمونه عصر الشهداء، مستخدمين فى ذلك السنة الأولى من عهد دقلديانوس (٢٨٤ ميلادية) باعتبارها نقطة البداية الفعلية؛ وبهذا يكون العام ١٩١٤ هو العام ١٦٣٠ فى تقويمهم.

كان تولى قسطنطين العرش فى عام ٣٢٤ هو ما خفف عن الكنيسة المصرية المعذّبة. ومنذ ذلك الحين كانت المسيحية الديانة السائدة فى وادى النيل. وقد ظلت لقرن آخر الكنيسة التى توحّد المسيحيين جميعًا فى جسد واحد، إلى أن عُقِد مَجْمَع خلقدونية. وقد أخطأت القسطنطينية بظنها أنه لا أهمية كبيرة للنزاع، وهو النزاع الذى شمل فى النهاية الإمبراطورية كلها. وكما يقول البروفيسور فلاندرز پترى، فقد «أدى إلى الإطاحة بتلك السيادة القوطية التى ربما كانت ستجنب العالم بربرية العصور الوسطى».

---

(١) بعد خلافات كنسية حادة استمرّت ثلاثة قرون من قبل، كان أوجستينوس هو الذى أقرّ صياغة عقيدة التثليث التى تبنّتها الكنيسة من بعد، ومحورها «المسيح إله إنسان وإنسان إله فى وقت واحد»، وأضيف لاحقًا عليها اعتبار الروح القدس هو الأقنوم الإلهى الثالث، واستمرّت الخلافات الكنسية على التفاصيل بضعة قرون أخرى، وهى فى مقدّمة أسباب تعدّد الكنائس المسيحية، كما أنها من بين أسباب أخرى من وراء ما وقع من حروب دينية طاحنة آنذاك، كحرب المائة عام وحرب الثلاثين عاما وغيرها. (المترجم).

باختصار، فإنه ما تحول إلى أكبر النزاعات في مجال العقيدة كان يقوم على مسألة ما إذا كانت القبل الزمانية تعني اسقاط الأزلية أم لا. وربما كان بإمكان الإمبراطور إلى حد كبير أن يصبح بذلك تلك الحرب جانبًا، وهي التي بدت في أول الأمر وكأنها لا تزيد كثيرًا عن كونها معركة بالكلمات لمنع المزيد من تشتيت انتباه الكنيسة.

ومما يفوق الشرقيين جميعًا، ما زال الأقباط حتى يومنا هذا يحبون الجدل الذي كان المصريون القدماء يجدون متعة فيه، وهو الجدل الذي أطل من عصر العصور المسيحية الأولى في الكتابات التأملية للآباء الأوائل. فقد احتج القديس أنطونيوس نفسه على ذلك العيب المحزن، وهو يقول إن الشياطين التي توسوس للإنسان تجلب الفوضى والشقاق. وقد ورد عن أخ من ذلك الزمان أنه سأل أبًا عجوزًا تقيًا قائلًا «إذا كان لا بد من وقوع الإنسان في إغواء يأخذ من الرب لمصلحة نفسه، فما الذي يصح أن يفعله هؤلاء الذين يُدفعون إلى التعرض للإغواء ذاته؟».

كان ذلك سؤالًا مميزًا للشرق ولن يندهش أي شخص يعرف الأقباط حين يسمع في القاهرة الآن وبعد خمسة عشر قرنًا، التساؤل نفسه على وجه الدقة. فعندما ذهب المبشر المورافي الكبير دالكه إلى مصر في عام ١٧٨٦ لم يتمكن لفترة طويلة من العثور على مدخل لرسالته، بينما كان الأقباط يشغلون أنفسهم بوضع الأسئلة اللاهوتية العويصة له، وهي الأسئلة التي تبدو لنا أقل من تافهة. وفي عام ١٨٤٠ كان على المستر لايدر، الذي ذهب إلى القاهرة مبعوثًا من جمعية الكنائس التبشيرية، أن يحرث الثلم العنيد نفسه. وكان الأقباط الذين يأتون إلى اجتماعاته يبعثون اليأس في قلب ذلك الرجل الطيب بإصرارهم على الجدل طوال سبعة أيام ثمينة، بشأن مسألة ما إذا كانت للملائكة أجنحة في الواقع أم لا».

كان ما يسمى الجدل الآريوسي الكبير في القرن الرابع هو ما أثار الاضطراب في العالم المسيحي بكامله، وعلى نحو أخص في الكنيسة القبطية التي بدأ فيها. فقد كان هناك كاهن شاب اسمه آريوس معروف عنه أنه رجل يتسم بالتقشف والاستقامة، ولكنه ببراءة واضحة، وفي معرض حرصه على الدفاع عن معتقداته ضد الاتهام

بأن عقيدة التثليث المسيحية تعلم تعدد الآلهة، وقع هو نفسه في حبائل … التي كان يُعتقد أنها توحي بإنكار ألوهية المسيح.

… البطريرك بأن تلك التعاليم سوف تؤدي إلى ما بات يسمى بالتوحيدية … فقد بذل كل ما في وسعه لاستعادة الشارد، وعندما وجد أنه لا فائدة … المشاركة الكنسية. وأهاج ذلك العمل نار الجدل الكبير الذي يبرز … أثناسيوس الذي أصبح بطريرك الإسكندرية كأوضح ما يكون دفاعًا عن ألوهية المسيح.

… المنفيين الكبيرين اللذين عانوا من هذا الأب العظيم والمقدس للكنيسة … السنوات الست والأربعين التي شغل خلالها الكرسي السكندري (انتهت سنة ٣٧٣ ميلادية) تسهم وحدها في توضيح التشويش الذي مزق الكنيسة في تلك الفترة.

أصبح الجدل مركز التآمر السياسي من خلال الحقيقة المؤسفة التي تقول إن … القسطنطينية يؤيد آريوس. وعندما دعا الإمبراطور مجمع نيقية (أول المجامع المسكونية[1]) [2] وكان قرار المجمع مخالفًا لرغباته، استغل سلطاته في الحصول على ما … بالجدل، وأعاد آريوس بعد ذلك للكهنوت، وعندما قاوم أثناسيوس … بطريركًا آريوسيًا.

… ولما كان … الكنيسة الكبير في مصر ليعترف بالتعيين الإمبراطوري، وكان يؤيد أثناسيوس بشراسة، الأمر الذي تساوت أسبابه تقريبًا بين الشعور الوطني والأهمية الدينية.

في تلك الفترة قامت في مصر الكنيسة المنافسة (وما زالت قائمة حتى الآن) التي تسمى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية.

---

(١) أي الشاملة (المترجم).

(٢) من المهم أن نتذكر أن قانون الإيمان الصادر عن مجمع نيقية قد جرى توسيعه ليصبح الشكل الذي تستخدمه كنيسة إنجلترا (بالاشتراك مع العالم الكاثوليكي كله) في قداسات العشاء الرباني، وذلك في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١ ميلادية. وتختلف الكنيسة القبطية فقط في حذف عبارة «الإله من الإله» وفي التأكيد على انبثاق الروح القدس من الأب فقط.

دمرت الصراعات السياسية مع الإمبراطور القوة الروحية للكنيسة القبطية على نحو سيئ، وأدى التنافس الشديد بين الكنيسة المصرية والكنيسة فى القسطنطينية إلى تسريع التدنى. ويبدو الأمر وكأن الحماس الوحيد الذى تبقى حينها للكنيسة المصرية هو الحفاظ على التفوق الكنسى.

وإذا كان مَجْمَع نيقية تسبب فى حدوث التباعد فى المذهب الذى فصل فرعى العالم المسيحى، فهو كذلك الذى وجّه الضربة التى حرمت الإسكندرية من مكانتها، وهى المكانة التى كان معترفًا بها عالميًّا حتى ذلك الوقت باعتبارها السُّدة العليا. فقد كانت الإسكندرية حتى تلك الفترة هى التى تحدد للعالم المسيحى كله تاريخ عيد الفصح؛ وفى نيقية تقرر اتباع التاريخ الغربى. وبالإضافة إلى سلطة الكنيسة، فقد كان معترَفًا بالعلوم الفلكية المصرية فى هذا الشأن. وتحتفظ مصر حتى الآن بالنمط القديم لحساب عيد الفصح، وما زالت مدينة الإسكندرية محافظة على مكانتها فيما يتعلق بحق أسقفها فى تحديد ذلك التاريخ للكنيسة القبطية. ومن الغريب إلى حد كبير أن عيد الفصح احتفال يحييه بالبهجة الأقباط والمسلمون على السواء. وهى تحدد للناس جميعًا فى مصر متى ينتهى الشتاء، واليوم الذى يحتفلون فيه بالربيع، حين يحتفل أهل مصر جميعهم بالخروج إلى الريف «لشم النسيم».

ظهرت نزاعات لاهوتية أخرى نتيجة للنزاعات الأولى، إلى أن نشأ آخر النزاعات الشرقية الذى لم يكن للكنيسة الغربية دور فيه حين عزلت روما، نتيجةً للمكانة السامية التى اكتسبتها بحلول منتصف القرن الخامس، الكنيسة المصرية للأبد بواسطة الحرمان وقطع أية صلة بها.

سُمى ذلك هرطقة «الطبيعة الواحدة»، وهو خلاف أساسه أتفه من أى خلاف سبقه، من حيث الكلمات، فهو من الناحية العملية يدور حول استخدام كلمة «فى» أو «لـ».

وكان نسطوريوس قد أكد من قبل أن طبيعتى المسيح، البشرية والإلهية، منفصلتان ومميزتان بالقدر الذى يمنع أيًّا منهما من تقييد أفعال الطبيعة الأخرى. وقد أُدين ذلك فى المَجْمَع وكان هناك تأكيد للطبيعتين.

أكد الراهب العجوز يوتيخس، فى إطار تحمسه لما تَصَوَّره الموقفَ القويمَ، أنه بما أن المسيح إله وإنسان (وهو ما اتفق الكل عليه)، فلا بد للكنيسة المصرية من القول بأن الطبيعتين متحدتان فيه، وليستا متعايشتين فيه؛ ولذلك فليس من الأدب التحدث عن طبيعتين، حيث يوحى ذلك باتحاد غير كامل، بينما هو اتحاد ليس فيه نقص، وذلك لكون الطبيعتين إلهًا-إنسانًا واحدًا على نحو مطلق.

أصر اليونانيون والرومان على حرمان يوتيخيس؛ ولكن البطريرك القبطى ديسقورس رفض الامتثال لهذا القرار الصادر عن مَجْمَع خليقدونية الشهير. وعندما نفكر فيما اتسمت بها قرارات ذلك المَجْمَع من مشاغبة، لا يصعب علينا تصديق أن الرومان كانوا يستغلون الأمر برمته كسلاح يسحقون به مطالب الإسكندرية أكثر منه أداة لتنقية العقيدة المسيحية من الخطأ. وقد اتخذ ماركيان (زوج الإمبراطورة)(١) القرار ذريعة ليس لعزل البطريرك فحسب، بل كذلك لمصادرة أملاك كنيسته.

ومع ذلك فقد كانت أقلية صغيرة هى التى أصبحت حائزة للكنائس المستولَى عليها؛ ذلك أن ولاء الأقباط ظل صادقًا لبطركهم، وتجاهلوا سلطة البطريرك الملكانى، أو الإمبراطورى، الذى تولى رسامته بأوامر من الإمبراطور أربعة من الأساقفة المصريين كانوا قد فروا إليه.(٢)

أثار العمل الذى قام به الإمبراطور الأجنبى نزعة وطنية أكثر حماسًا فى قلوب أفراد الكنيسة الوطنية (أو اليعقوبية)، كما صارت تُسمى.

وكان ذلك هو ما أدى إلى تلك النزاعات الشديدة التى تشين تلك الفترة، حين لطخ الرجال المذبح نفسه بدم الكاهن الذى يتولى القُدَّاس، وهو الذى وقع ضحية للصراع الذى لم تكن له صلة كبيرة بالاعتبارات الدينية.

(١) كان ماركيان قائدًا لجيش الإمبراطورة بولكاريا، التى كانت فى فترة من حياتها راهبة ثم تركت الحياة فى الدير. وتزوجت بولكاريا وجعلت منه إمبراطورًا حكم فى الفترة من ٤٥٠ إلى ٤٥٧ ميلادية. وكانا الاثنان يدينان بالمذبح النسطورى. (المترجم).

(٢) البطريرك الذى عزله الإمبراطور الرومانى هو البابا ديسقورس، أما من عينه الإمبراطور بطريركًا للإسكندرية فاسمه بروتيروس. (المترجم).

إنى على اقتناع بأن النزعة الوطنية المزدوجة، التى تولدت نتيجة لذلك، هى ما يجب علينا النظر إليه للعثور على جزء من سر ذلك الولاء العميق والباقى لتلك الكنيسة، الذى ظل رغم احتمال خبوه لفترة طويلة يحتفظ باستمرار بشرارة حية جاهزة لأن تلهب حماس أية حركة يكون لها فى يوم من الأيام القدرة على تحريك الغرائز المبهمة التى خلَّفها ذلك الانفعال فى عقول الشعب القبطى.

وحين حاول هرقل، فى القرن السابع، المصالحة بين الفصيلين، لم تعر الكنيسة القبطية الأمر أى اهتمام؛ فقد أُجِّجت النار القديمة فى هيئة تصميمهم على الاحتفاظ بكنيستهم باعتبارها تجسيدًا لغرائزهم الوطنية، التى حاربوا من أجلها فى مَجْمع نيقية.

لقد بات المذهب الذى اتُخِذ ذريعة لاضطهادهم شعارًا لطموحاتهم الأكثر تقديرًا. وأصبح بطريركهم فى نظرهم أكثر من مجرد رئيس دينى؛ فقد كانوا ينظرون إليه على أنه ملك الأرض التى وُلِدوا عليها. وكانوا قد أُجبروا على القتال والمعاناة من أجل حريتهم الدينية على نحو ينطوى على الدفاع عن وجودهم القومى. وصار ذلك نموذجًا أدى الدفاع عنه إلى تحديد مسار تاريخهم كله.

كان الاضطهاد الذى تعرضوا له مرارًا وتكرارًا من جانب الحكام البيزنطيين رهيبًا جدًا، حتى إنه حين تدفق عليهم العرب، الذين لم يقف فى وجههم شىء، وجدوهم قد ثبطت همتهم؛ بل إنه لم تكن لديهم أية رغبة فى أى نوع من التطور السياسى. وبوحى من دعوة نبيهم إلى ترك عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الأحد، بدا أن الغزاة فى تلك الأيام المبكرة من إيمانهم قد تملكتهم أسرار العنفوان الأول الذى مكنهم من اجتياح كل ما يقف فى وجههم.

بالنسبة لتناقص عدد السكان الأقباط، بعد ذلك العدد الكبير الذى كانوا يتحدثون عنه فى أيام المسيحية الأولى، يُهيأ لى أنه فى هذه النقطة كذلك يميل التحامل الغربى كثيرًا إلى تبنى الرأى الذى يُسَلِّم الأقباط بأنه غير متناقض، وهو أن الاضطهاد الدموى والإغراءات الدنيوية المقدمة من الإسلام تسببت كلها معًا فى ذلك التناقص.

رأى الكُتَّاب المسيحيون الأوربيون أنه من المناسب الإسهاب فى الحديث عما ألحقه طغيان الغزاة العرب وظلمهم واضطهادهم من خراب ودمار بالكنيسة

المصرية، وهو الأمر الذى من المؤكد أنه تلقى نتائجه ترحيبًا من جانب جمهورهم الكاره للمسلمين داخل بلادهم. وقد تأصل ذلك بعمق فى التحامل الغربى حتى أنه يكاد لا تكون هناك فائدة من الإشارة إلى الأدلة الخاصة بقرون من التسامح الإسلامى، وبالسيل المنتظم من الارتدادات القبطية التى لم تكن تقوم على شىء أكثر من المزايا الدنيوية الناشئة عن اتباع عقيدة الإيمان بالله وبرسوله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

لم يكن هناك قط حصر كافٍ للمدى الذى بدأت به الأمة القبطية فى القرن الرابع السير من خلال الرهبانية على الطريق الذى بدا لزمن طويل وكأنه لا يمكن أن يؤدى إلا إلى ما لا يمكن وصفه إلا بالإبادة القومية. ففى سوهاج وحدها كان هناك فى وقت من الأوقات عشرة آلاف راهب وعشرون ألف راهبة. وفى أحد الأماكن قيل إن السكان جميعًا نذروا التبتل. وحول طيبة، بلغ عدد «أبناء الدير» التابعين لباخوميوس المبارك أكثر من ثمانية آلاف. وكان الرجل المقدس الأنبا ثور يرأس فى ديره الصحراوى أكثر من ألف راهب؛ ولكن غطت عليه واحدة من المدن الكبيرة فى طيبة؛ ذلك أن جماعات الرجال والنساء المتدينين، الذين نذروا جميعًا التبتل، قد زاد عددها إلى حد أنه قُدِّر عددهم بعشرة آلاف راهب وعشرين ألف عذراء؛ وكان ذلك كله يسبق بلوغ الحركة ذروتها بكثير.

نقرأ بلا اندهاش أن «مصر كانت زاخرة بالرهبان»؛ وكان فى هذه الجملة إعلان موت كل ما كان من الممكن أن ينقل الشعب القبطى إلى وضع أمة من أنبل الأمم فى تاريخ العالم اللاحق.

فى بلد على ذلك القدر من الضعف، شق العرب طريقهم؛ وقد رأوا على الفور ضرورة تحويل ذلك السيل الكبير من الهجرة المتدفق من الجزيرة العربية إلى مصر، حيث استمر سنوات عديدة، إلى إنقاذ هذه الأرض الغنية والخصبة التى يرويها النيل من النضوب.

لا شك فى أنه فى أيام الفتح الأولى اعتنقت أعداد كبيرة الإسلام. وعندما نبحث الأمر على نطاق واسع نجد أن هذا الاختلاط بالعرب هو الذى جعل من شعب مصر أمة واحدة، قريبة من بعضها فى المظهر العرقى قربها فى الأخلاق والعادات.

وكان قبطيًا، وهو الدكتور فانوس ذلك الرجل المثقف وربما يكون أعظم خطيب حى فى مصر، هو الذى أعلن أمام حشد كبير من أبناء بلده المسيحيين فى أسيوط أن الأقباط والمسلمين «قُسِّموا بالفعل، ومع ذلك فالواقع أنهم شعب واحد وموحَّد، والاختلاف الوحيد هو اختلاف العقيدة. ومن وجهة النظر هذه ليس من الإنصاف النظر إليهم على أنهم عنصران مميزان. فمهما كانت تسميتهم، فالمسلمون والأقباط أحفاد شعب مصر الذى عاش قبل سبعة آلاف سنة».

عندما كان لين يكتب، قبل ثمانين سنة، كان تقديره هو أنه ليس هناك سوى مائة وخمسون ألف قبطى فى مصر كلها؛ أما فى الوقت الحالى فقد زاد هذا العدد ليتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة ألف.

الميزة المادية الوحيدة الباقية الآن لجر الأهالى المسيحيين إلى جانب الأغلبية المسلمة[1] هو الاعتقاد القوى بأن المسلمين يتمتعون بحظوة الحكام الإنجليز وعطفهم؛ وأظن أنه ليس لهذا وزن كبير لدى أحفاد من صمدوا سنوات عديدة أمام كل الإغراءات للتخلى عن إيمانهم بالمسيح.

يزداد عدد أفراد الجماعات القبطية فى المدن الكبيرة والصغيرة بما يتناسب مع الزيادة المذهلة فى عدد السكان ككل؛ وفى القرى يرى الأقباط المتأملون فى الوقت الحالى خطر الانقراض التام لجنسهم من خلال الاستيعاب التدريجى وغير المُدْرَك تقريبًا فى العقيدة الإسلامية.

الأسباب التى تشجع على زيادة عدد الأقباط فى المدن هى نفسها التى تؤدى إلى اختفائهم فى الريف. فالمئات من القرويين ليس لديهم كنيسة، بل لا يزورهم أى كاهن. وفى الأيام التى كانت فيها المعارضة تثير كبرياء رجل من رجال الدين المسيحى كان يبذل جهودًا للحفاظ على العقيدة التى يفاخر بها.

وفى هذه الأيام العمل الدينى الوحيد المتبقى الذى يجهد فيه القبطى القاطن فى الأماكن النائية من الريف نفسه هو أن يحمل أطفاله إلى كنيسة بعيدة من أجل التعميد، مهملًا الأسرار الكنسية الأخرى كافة. وهو يعيش فى كل ناحية من نواحى

(١) إجمالى عدد المصريين الآن حوالى عشرة ملايين.

الحياة نفسها التى يعيشها جيرانه المسلمون، ولم يعد هناك ما يدل على وجود خلاف بينهم. فهل من المدهش، حين لا تفعل الكنيسة له شيئًا، أن تتضاءل معرفته المسيحية أكثر وأكثر إلى أن يصبح ما يلزم لا يزيد على إقناع من جانب شيخ يحترمه كى ينضم إلى صفوف من يعتمد عليهم فى الحصول على خدمات ـ المجتمع والجيرة وولاء الرجال الذين يراهم يوميًا فى صلاتهم، حيث يذهبون بانتظام ورضا عميق لعبادة الله فى المسجد.

هذه نتيجة غريبة للاحتلال المسيحى لمصر المسلمة. فقد اتجه بعض أصدقائى الأقباط إلى إنجلترا غير الرسمية متوسلين، على أمل أن يأتى عون من بلد له ذلك الاهتمام الشديد بالعمل التبشيرى. إلا أنه من الصعب رؤية إمكانية أى عون، ما لم تُتح الفرصة لإحياء الكنيسة القبطية بالكامل، كى تنطلق هى نفسها للبحث عن خرافها الشاردة وترعاها.

أود تذكر صورة ميس واتلى قبل سنوات، فى الأوقات التى كانت تفصل بين عملها المدرسى بالقاهرة؛ حيث كانت تذهب إلى القرى حاملةً ضياء الكتاب المقدس إلى الفقراء والجهلة. وبينما كانت جالسة فى يوم من الأيام فى قرية سكانها جميعًا من المسلمين، جاءها اثنان من البدو فى الصحراء المجاورة، كانت تقرأ لهما الكتاب المقدس من قبل، بصديق قائلين إنه جاء لـ «يسمع كتابك». كان الرجل قبطيًا يعيش هو وعائلته فقط وسط المسلمين فى قرية نائية كان البدو يمرون خلالها. وكانوا قد حكوا له عن قراءة ميس واتلى، وتمنيا أن يستمتع بهذه القراءة باعتباره قبطيًا، مثلما يجدان هما متعة فى سماع قرآنهما. سُحر الرجل بسماعه الكتاب المقدس بلغة يمكنه فهمها، واعترف بشعوره بالخجل من نفسه بسبب جهله التام بالكتاب المقدس.

وصل المعلمون المحليون الذين تولت البعثات التبشيرية الأمريكية تدريبهم إلى عدد لا بأس به من القرى، وبُنى العديد من الكنائس الصغيرة، حيث تلتقى تجمعات صغيرة المسيحيين. وينطلق من المراكز القبطية كأسيوط عدد من المعلمين الجوالين من الكنائس الصغيرة إلى العِزَب للوعظ.

لم أكن يومًا أكثر اهتمامًا مما كنت عليه حين صاحبت إحدى بنات عائلة قبطية



القرية المصرية قنا، وهى قرية قبطية إلى

مصرية بارزة فى الصعيد فى واحدة من تلك المهام عصر يوم أحد. فقد عبرنا النيل الذى كان يلمع تحت السماء الزرقاء الذهبية فى يوم من أوائل أيام فصل الربيع داخل قارب بمجداف متجهين إلى قرية تتوارى وسط بساتين النخيل البعيدة.

هل تلك هى مصر المرأة المحجبة والمعزولة، ومصر الكفرة والمتعصبين المرعبين، ومصر المسيحى المنكمش الخائف من الكشف عن نفسه؟ كانت تلك هى الأسئلة التى سألتها لنفسى. وعندما وصلت فرقتنا الصغيرة إلى القرية استقبلتنا السلامات الحارة من المسلمين والمسيحيين على السواء ونحن نسير فى الطرق المتربة نحو المكان غير المهم الذى سيعقد فيه الاجتماع. وبالطبع سبقنا خبر مجيئنا. انضم إلينا بضعة أشخاص فى الطريق، وعندما مرت المبشرة على الأكواخ الطينية كنت أرى هنا وهناك وجه امرأة تحملق كى تحظى بنظرة منها وتجتذب ابتسامتها الجذابة، ذلك أنها كانت محجبة فقط للحماية من الشمس ولم تكن مخفية بحال من الأحوال.

أمسكت امرأة مسلمة عجوز برداء الفتاة وهى تمر وقبلته، وقالت متمتمة «سيدة يسوع»، وهو ما وجدت أنه الاسم الجميل الذى كنت قد أطلقته عليها.

ما إن وصلنا إلى الشونة المتربة التى كان القُدَّاس سيقام فيها حتى بدأ الناس فى التجمع.

بالطبع حُجب جزء من الشونة من أجل النساء، ولكنى كنت أستطيع أن أرى من المكان الجالس فيه مجموعة صغيرة خلف الحجاب، كانت واحدة أو اثنتان منهن مجرد فتاتين صغيرتين، وقد حملن أطفالهن فى صدورهن وجلسن على الأرضية المتربة المصنوعة من الطين يستمعن على نحو تواقٍ حزين لكلمات عجيبة العجائب، تلك المتحدثة التى من بلدهن. ولأننى إنجليزى، لم يكن هناك اعتراض على جلوسى فى ذلك الموضع؛ بينما لم يكن مسموحًا لرجل من الأهالى بأن يلمح مثل ذلك الحريم.

على الجانب الآخر من الحاجز كان هناك حوالى ثلاثين رجلًا وصبيًا كان كل تعبير على وجوههم يتحدث عن سرورهم بالقصة التى ترويها الفتاة المصرية، فى



القرية المصرية قنا، وهى قرية قبطية إلى حد كبير، وفيها أُصنع القلل

ضفاف النيل الجميلة

الصلاة والحديث، بذلك القدر الكبير من الحماس والجاذبية وهو سرور يكفى لجعلهم ينسون الفروق الدينية بين أتباع محمد والمسيح.

ما أغرب أن تسمع صوت الفتاة الجميل وهو يترنم بترانيم إنجليزية معروفة بلسان عربى. ولو كان هناك أى نوع من التعصب، وهو ما أظن أنه أمر مشكوك فيه، فقد طردته تعويذة ما تميزت به الفتاة من فصاحة بسيطة. تحدثت الفتاة ساعة كاملة، وحتى حينذاك كانت تميز ختام حديثها تنهيدة إحباط.

لا أعرف إن كان المقصود بهذا العمل تنصير أى مسلم أم لا؛ فالمستقبل وحده هو الذى سيخبرنا إن كانت مصر ستتحول إلى العقيدة المسيحية بواسطة حماس يُحيىَ من جديد داخل أتباعها من أهل البلاد.

ولكن لا شك فى ذلك، فمثل هذه الدعوة إلى حياة أفضل لا يمكن أن تضيع تمامًا وسط شعب متدين بطبعه، كالمصريين، ويتميز بتقديره العميق لذلك التدين الذى يؤدى به إلى احتقار مباهج الدنيا بالقدر الذى يجعله يوقر الزاهد فى كل مكان ويستمع إلى تعليمه، بغض النظر عما قد تكون عليه طبيعة عقيدته.

يتضح هذا الاتجاه كأشد ما يكون فى تجارب تلك المبشرة من أسيوط. فكثيرًا ما يتناقش معها شيخ كبير ذو علم، بأدب جم وصراحة تامة، فى أمر ذلك الذى يتحدث عنه المسلمون والأقباط على السواء باعتباره «سيدنا عيسى، عليه الصلاة والسلام»، ويقارنان معًا بصبر قصص القرآن والكتاب المقدس عن المسيح.

لم ينطق الشيخ قط بكلمة قد يُظن منها أنها تشير إلى رغبته فى ترك النبى العربى؛ ولكنه اعترف بأن قصة الصليب، كما روتها تلك الفتاة، تتسم بما لم يتراءَ له من جمال ومغزى عند قراءة روايتها الإسلامية.

فى يوم من الأيام وصلت تلك الفتاة إلى قرية نائية لم يكن قد جُهز لها فيها ولو شونة. وبينما كانت تبحث عن ظل تحت نخلة تأتى إليه بجمهورها مرت على خيمة كبيرة تدل على أن هناك عُرسًا أو عزاءً. وبما أنها كانت خالية فى ذلك الوقت، فقد دخلتها واعتلت تلك المنصة الصغيرة التى يجلس عليها المغنون أو قارئو القرآن، تبعًا لما عليه الحال من فرح أو حزن. وعلى الفور أحاط بها جمع من أهل القرية الفقراء.

فى وسط خطبتها ظهر شيخ مسلم. قال الشيخ متسائلًا «هل علمت أن هذه خيمة عزاء سوف يُتلى فيها القرآن الكريم للمعزين فى وقت لاحق؟».

«نعم» لقد ظنت أنها قد تكون مثل هذه الخيمة. ولكنها سألت «أليس هذا مكانًا سوف يأتى إليه الناس لسماع ما عند الله من سلوى وعون لمن يعانى من أبنائه؟».

فرد عليها الشيخ «نعم».

لقد كانت هى كذلك تحمل رسالة من الله، ذلك أنها ممسكة بكتابه فى يدها، وكانت تريد أن تخبرهم كذلك بكلمات الرب يسوع التى تبعث على السلوى والعزاء.

سألها الشيخ الذى لم يكن يعرف غير العربية «هل هذا هو بالفعل الكتاب، ومكتوب باللغة العربية؟» فإحدى أعظم الهدايا التى قدمتها البعثة التبشيرية لمصر نسخة عربية رخيصة من الكتاب المقدس.

كان الشيخ، مثله مثل النبى «عليه الصلاة والسلام»، يوقر كتاب المسيحيين. وكل ما فى الأمر أنه كان يتمنى لو يقرؤه بنفسه.

تحدثت الفتاة من جانبها باحترام عن القرآن، الذى درسته دراسة متأنية، وعن محمد، الذى تعتبره معلمًا عظيمًا.

قال الشيخ «إذن فسوف تقرأين كتابك وتشرحينه لأهلى بعد أن تنتهى من هؤلاء الناس الفقراء» ـ أهل القرية الذين كانوا قد تجمعوا فى الخيمة فى ذلك الوقت.

وكان لذلك تأثيره على المسلمين الذين تجمعوا فيما بعد، بحيث سُمح لصديقتى المسيحية الشابة بقراءة القصة وشرحها، وهو ما استهلته بالترنيمة الإنجليزية التى نُقلت إلى العربية، ورُكبت على لحن شرقى رتيب ـ «قصة قديمة قديمة عن يسوع وحبه».

الفصل الخامس

صورة سريعة للبطريرك القبطى المسن

كيرلس الخامس

كنت قد سمعت قبل زيارتى لمصر عن الرجل العجوز المدهش كيرلس الخامس خليفة مائة من الباباوات وحامل اللقب الذى حمله رأس الكنيسة المسيحية بينما كانت روما لا تزال مدينة لها أهميتها الثانوية فى مجامعها. وقد يثير الأمر ابتسامة فحسب الآن عندما أشير إلى المرة التى أصدر فيها بابا الإسكندرية حرمانًا لبابا روما. وكان اللورد كرومر قد تحدث معى فى إنجلترا عن البطريرك باعتباره أكثر القوى رجعيةً فى مصر؛ حيث أشار إلى أنه «كان يحكم هناك عندما ذهبت لأول مرة إلى مصر؛ وعندما غادرت كان يتمتع بسلطة كاملة، وما زال يحكم». دُعى اللورد كرومر إلى عمله الرائع فى مصر عام ١٨٧٧ وكان قد مضى عامان على اعتلاء البطريرك الحالى لكرسيه. وبما أنه لا يحق لمن هو دون الخمسين تولى هذا المنصب، فمن المرجح إلى حد كبير أن يكون كيرلس قريبًا من إكمال قرن من عمره(١)، كما أكد لى بعض الأصدقاء الأقباط.(٢)

---

(١) وجدت ثلاثة تواريخ لميلاد البابا كيرلس الخامس فى قرية تزمنت التابعة لبنى سويف باسم يوحنا؛ وهذه التواريخ هى ١٨٢٤ و١٨٣٠ و١٨٣١. وتنيح البابا فى عام ١٩٢٧ بعد أمضى على كرسى البابوية ٥٢ عامًا و٩ أشهر و٦ أيام. وجاء على غلاف عدد مجلة المصور الصادر فى ١٢ أغسطس ١٩٢٧: «وافت المنية فى صباح يوم الأحد الماضى عظيمًا من عظماء مصر ورئيسًا دينيًا كبيرًا لعب فى حياته دورًا هامًا فى تاريخ هذه البلاد وهو مثلث الرحمات الأنبا كيرلس الخامس بطريرك الأقباط الأرثوذكس» وبعد أن أوردت المجلة موجز تاريخه قالت: «ويعود إليه رحمه الله الفضل فى اتحاد العنصرين اللذين تتألف منهما الأمة المصرية. فقد وقف أثناء الحركة الوطنية موقفًا أطلق الألسنة بالمديح والثناء، وكان صاحب الدولة الزعيم الجليل سعد زغلول باشا يجله ويحترمه والبلاد تنظر إليه نظرها إلى زعيم من زعمائها الدينيين والسياسيين». (المترجم).

(٢) كل المصريين الذين تجاوزوا مرحلة منتصف العمر ليست لديهم معرفة واضحة بعمرهم على وجه الدقة؛ وليس معروفًا كم يبلغ عمر البطريرك ـ فهو يلغى بدعابته الجادة عدد سنين وهو يتقدم فى العمر.=

كنت شديد الاهتمام بحيث استفدت من تلك المقابلة التى رُتبت لى مع هذا الرجل غير العادى، «شريطة أن تسمح له صحته باستقبال زائرين عندما تحين الساعة المحددة». كان الوقت صبيحة يوم أحد حين أخذونى إلى المنزل الملحق بالكاتدرائية فى القاهرة. كان الظهر الوقتَ المختار، حيث يكون قُدّاس الإفخارستيا قد انتهى، ويكون لدى بعض الكهنة الوقت لحضور الاستقبال، وخاصة أحد الكهنة القليلين الذين يعرفون قدرًا من الإنجليزية، وهو ابن شقيق البطريرك. وتسمى غرفة البطريرك «القلاية»، كى تذكره بحياة الدير والواجبات والأهداف السامية التى وضعت أمامه فى صلاة الترسيم. ولا بد أن يحافظ على قواعد ديره، ويجب أن يضيف إليها بعض القواعد المقصود بها الحفاظ على طهارة البدن.

المنزل، الذى هو فى واقع الأمر المقر الإدارى للكنيسة القبطية أكثر منه مقر إقامة، واسع ونظيف، وبه صالة واسعة ودَرَج، حيث توجد الغرف الرئيسية فى الطابق الأول. وغرفة الاستقبال الصغيرة مشمسة ومضيئة، وبها القليل جدًا من الأثاث، غير أنها تحوى العديد من البورتريهات الملونة على جدرانها. وكان اثنان من تلك البورتريهات لاثنين من عاهلينا الإنجليز، الملك إدوارد والملك جورج، وقد أراهما لى الأصدقاء الأقباط برضا. وكان هناك بورتريه آخر مطبوع بالحجر للبطريرك نفسه حيث يسجل وجهًا زاهدًا وسيمًا؛ وقد رُسم بالملابس الكهنوتية الكاملة وقد لبس تاجًا ضخمًا أهداه إليه مينيليك ملك الحبشة.

لم يكن فى الغرفة ما يفترض وجوده من أى نوع من الفخامة والأبهة؛ فالواقع أنه طُلب منى التخلى عن كرسى صغير من النوع العادى، عند النافذة، كنت قد جلست عليه، حيث قيل إن البطريرك عادةً ما يجلس هناك وظهره للضوء بسبب ضعف عينيه.

بعد قليل دخل الرجل الذى يحمل لقب «قداسة البابا بطريرك الإسكندرية وسائر بلاد مصر والنوبة والحبشة وبنتابوليس، وسائر الكرازة المرقسية» وبمصاحبته ثلاثة أو أربعة كهنة. كان يرتدى الثوب الأسود القبطى السادة والعمامة، وقد بهت لونها

= وعندما زرته أبلغ صديقى الذى كان معى أن عمره ثمانون عامًا؛ ومن الواضح أن تلك كانت مزحة، لأنه كان قد قال للصديق نفسه أنه فى التسعين قبل ذلك بعام أو عامين.

وتهلهلت. كان رجلاً طويلاً نحيلاً، أكثر نحافة مما عليه فى البورتريه، مع نظرات طيبة لا تزال باقية لم تنل منها الشيخوخة، وكان يتحرك بلا تثاقل فى المشى كذلك الذى يفرضه التقدم الشديد فى العمر؛ وكانت عتامة العين وحدها هى ما يجعلك تشعر بوطأة السنين، ولولاها لبدا أنه لم يعبأ بوطأتها.

بعد التعارف قَبّلتُ اليد المعروقة، حيث لاحظت أنها خالية من أى خاتم أسقفى. قبل أن ينطق الرجل العجوز بما يزيد عن عبارات الترحيب الشرقية المعتادة رفع يديه فى مستوى صدره وتلا الصلاة الربانية اتباعًا للعادة المسيحية الشرقية؛ باعتبارها تقديمًا حاميًا، كما ظننت.

بعد ذلك استدار ناحيتى وسألنى عن الصحة والبيت والأصدقاء، مبديًا الاهتمام ومقدمًا المجاملات، بذلك اللطف والجاذبية التى يحتفظ الشرقيون وحدهم بسرها. وقد تحدث بحماس عن إنجلترا وكل ما فعله بلدنا لإقرار الأمن والحرية الدينية فى مصر؛ وأشار إلى اللورد كرومر باحترام عميق، وربما أعمق احترام، لأنه عندما كان هذان الرجلان القويان يتصارعان فى أحيان كثيرة صراعًا مضنيًا على ما كان كل منهما يعتبره صوابًا، كان البطريرك هو المنتصر - بصورة عامة - وذلك بواسطة الاستراتيجية الشرقية الماهرة، ومعرفة الطريقة التى تعمل بها عقول الشرقيين، وهى المعرفة التى من العمق بحيث تتغلب على السلطة التى كان المعتمد البريطانى ممثلًا لها.

ردًا على سؤالى، شكا من أنه ليس على ما يُرام. ومع ذلك لم يمكن إقناعه بالجلوس، ولذلك ظل الجميع واقفين طوال المقابلة كلها.

عندما كنا على وشك الانصراف أشار إلى أحد الكهنة كى يحضر اثنتين من التمائم النحاسية التى يهديها باستمرار للزوار، اتباعًا للعادة الشرقية الخاصة بتقديم الهدايا لمن يشرفون المرء بالزيارة. بارك التميمتين وأعطاهما لنا مع التعبير عن تمنياته الطيبة لرفاهنا الروحى. ورغم القيمة البسيطة للتميمتين فى حد ذاتهما، فإن لهما تقديرًا كبيرًا باعتبارهما تذكارًا لمقابلة مع شخصية تاريخية.

علمت الكثير عن حياة كيرلس الخامس وآرائه من الرؤساء الدينيين والعلمانيين البارزين، ومن المجموعة الإصلاحية الشابة، وكذلك ممن يحترمون التقاليد القديمة التى يكافح من أجلها البطريرك، ويؤيدون عمله المحافظ.

يتفق الجميع على أن الحياة الخاصة لبطركهم حياة تتسم بالطهر والبساطة الشديدة وإنكار الذات. فالرجل الذى له سلطة مطلقة على إيرادات البطريركية، التى قد تصل إلى ٣٥ ألف جنيه فى السنة ـ وهو المبلغ الذى لو شاء لأنفق الجزء الأكبر منه على رفع شأن منصبه ـ وما له من سلطة كبيرة على إيرادات الأديرة التى تزيد على ٨٠ ألف جنيه فى السنة، يختار أن يعيش وجودًا مقتصدًا فى حدود نفقات شخصية لا تزيد على ٦٠ جنيهًا فى السنة. وهو يبنى المدارس ويرمم الكنائس والأديرة، وبنى مؤخرًا ديرًا للراهبات فى مصر القديمة ـ وقد زرته ـ وما زال حتى الآن فى حالة سيئة جدًا من حيث إسكانه. وهو يدعم بالمال كل القضايا، وخاصةً قضايا الفقراء، وهو الأمر الذى يروق لـه. أما بالنسبة للفخامة، أو التباهى الذى يروق للشرقى بصورة عامة عندما تتاح له فرصة تأكيد منزلته، فهو يبدى قدرًا عاليًا من اللامبالاة تجاه ذلك.

ولكـن ليس هناك شك فى أن ما يسمى إصلاحًا لا يروق كثيرًا ـ أو لا يروق بالمرة ـ لقداسة البابا كيرلس الخامس. فالمجموعة التى تود فى ظل نفوذ الحكم الإنجليزى الإسراع بالكنيسة إلى تغييرات جذرية تجد فيه باستمرار صخرة دفاعية؛ وفى بعض الأحيان تثير مهارة حيلته، وعبقرية التكتيكات التى تؤدى باستمرار إلى النجاح أمام كل نوع من المعارضين، وبطرق غامضة فى كثير من الأحيان، امتعاضًا يزداد حدة فى أوقات الأزمة لعجزه أمام هذه القوة غير الطبيعية المروعة.

سوف يقول من يؤيدون البطريرك إنه شديد الإخلاص فى إيمانه بأن واجبه ومسئوليته هما باستمرار أن يحمى الكنيسة من التغير الانشقاقى وأن يتركها لمن يخلفه كما وجدها. وهو يشك فى الواقع فيما تسمى بالإصلاحات التى يحثونه على القيام بها، كما يرتاب فى تلك المجموعة الموالية للإنجليز من الأقباط التى يمكن أن تقود الكنيسة الكاثوليكية إلى الهرطقات البروتستانتية. وهو يرتاب كذلك باستمرار فى التعاطف المقدم من رجال الدين الإنجليز، الذين يتوقون إلى إصلاح كنيسته؛ حيث يشك فى أن ما يسعون إليه فى الواقع هو إبعاد خرافة عن العقيدة الحقة. ويعرف أيضًا أن هؤلاء المصلحين الأجانب حين يتحدثون إلى الشعب الإنجليزى فى بلادهم عن الحاجة إلى عمل مثل عملهم، فهم غالبًا ما يشيرون إلى «هرطقة الكنيسة القبطية التى تدمر النفس»؛ وهو النقد الذى لم يعجز عن الرد عليه

ردًا مؤثرًا؛ ذلك أنه يكون فى موقف أكثر أمانًا من كنيسة إنجلترا عندما يتعلق الأمر بتلك الإشارات الخاصة بالهرطقة. فقد أنكرت الكنيسة القبطية منذ يوم انفصالها المبكر عن الكنيسة الغربية لقب «أرثوذكس» ليس على كل كنائس الغرب فحسب، بل كذلك على كنائس الشرق، ما عدا الكنائس المونوفيزية(1). وقد يثير هذا النزاع ابتسامة ساخرة؛ ولكن ينبغى أن نتذكر أن هذا الافتراض لم يكن مرجعه فى الأصل إلى التكبر، بل إلى احتجاج الكنيسة الوطنية المصرية على بِدَع القسطنطينية. ليس بناء على افتراض، وإنما على إخلاص الأقباط لعقيدة أسلافهم وعاداتهم.

فيما يتعلق بالإصلاحى القبطى الشاب فى وقتنا هذا، فقد قطع شوطًا أبعد من ذلك الذى قطعه آباؤه على الطريق الذى جعل ما وفره الاحتلال الإنجليزى من ثبات وأمان متزايد أكثر إغراءً. وهو غالبًا ما ينسى أن رجالًا مثل البطريرك تربوا على كراهية شديدة للإصلاح الإنجليزى وعدم التسامح مع ما قامت به البعثات التبشيرية الغربية المبكرة التى هاجمت الكنيسة القبطية فى القرن الماضى من تحطيم الأيقونات.

قالت الليدى داف جوردون فيما كتبته قبل خمسة عشر عامًا إن الأقباط يفضلون الحاكم المسلم على الحاكم الهرطوقى، وبالأخص اليونانى البغيض؛ ولا يرغبون فى أن تكون السلطة فى يد مسيحيين آخرين سواهم. «ينظر القبطى إلى الإنجليزى على أنه ضرب من المسلم ـ فهو رجل يغتسل، وليس لديه صور فى كنيسته، ولديه أساقفة متزوجون، وفوق هذا وذاك لا يصوم عن كل ما فيه روح لمدة نصف العام». الواقع أن هرطقة الإنجليزى من الشدة بحيث يُنظر إليها على أنها شىء لا يجب ذكره، ما لم تلفت الانتباه إليه محاولات تغيير عقيدة الأقباط. ما كان لسلف هذا البطريرك المباشر أن يأكل مع الليدى داف جوردون، بل إنه كان فظًا معها؛ فقد كان يكره البروتستانت «الذين يأكلون اللحم طوال العام كالكلاب». وقد أعلن أن المسلمين على أقل تقدير أبناء ديانة قديمة! وفى الفترة التى كانوا يؤمنون فيها بتلك الآراء كان البطريرك الحالى كيرلس الخامس رجلًا يقترب من منتصف العمر.

(1) الكنائس «المونوفيزية» هى تلك التى تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح. (المترجم).

ويظن معارضو كيرلس أن عناده مبعثه الجهل، وأنه لا يتقيد بمبادئ الأخلاق فى سعيه للحصول إلى مبتغاه؛ وهم يدينون القاعدة الكنسية التى تقضى بإرسال رسالة إلى الدير البعيد كى يختار بطريركًا من بين رجال غير متعلمين ولم يروا الدنيا ويكونون فى الغالب من أصول وضيعة. ولكنهم حين يواجهون المشكلة التى يودون حلها مواجهةً مباشرة فإنهم يجدون أن الأرثوذكسية هى آخر شىء يمكن إزالته من مكانه، وأن سلطة هذا الحاكم الشرقى المستبد ذات جذور عميقة فى عاطفة التعلق السائدة داخل قلوب الناس الذين إذا ما وُضِعوا فى الاختيار النهائى فسوف يؤيدون المنصب القديم وكل ما يمثله، قبل أى اعتبار آخر.

يتحرق صديق قبطى من أصدقائى شوقًا لإصلاح كنيسته، وينظر إلى الرجل العجوز من أحد الجوانب بمشاعر تكاد تصل إلى حد الكراهية، ومع ذلك فهو يحدثنى بعينين متوهجتين عن النشوة التى يشعر بها (يقول مستخدمًا التعبير العامى «شعرى بيقف») حين يسمع البطريرك يتلو صلوات الإفخارستيا. ومن المهم إلى حد بعيد أن نكتشف فى تاريخ الكنيسة الشرقية عن عدد المرات التى غيَّر فيها التأثير الذى يكاد يكون منوِّمًا لصلاة البطريرك مجرى التاريخ نفسه فى مناسبات كبيرة.

يختار مجلسٌ من رجال الدين والعلمانيين البطريركَ من بين الرهبان الذين يرشحهم رئيس دير القديس أنطونيوس بالقرب من خليج السويس.[1] ويُختار الأساقفة باستمرار من الأديرة كذلك، بحيث لا يمكن نقل أسقف من أسقفية إلى أخرى. ولكى يكون الرجل أهلًا للاختيار، لا بد أن يكون قد وُلِدَ حرًا، من أبوين حرين، وأن يكون ابنًا من زواج أمه الأول، أو «من أمٍ مُكَلَّلَةٍ»، ذلك أن الإكليل غير مسموح به للأرامل. ولا بد ألا يكون قد سبق للأسقف ذبح حيوان بيده، أو إراقة دم. (أظن أن سبب عدم سماح يَهْوَه لداود ببناء الهيكل هو أنه أراق دمًا). ولا بد أن

(١) يقع الدير على سفح جبل الجلالة القبلى جنوب الزعفرانة على بعد ٥٥٠ كيلومترًا شرق القاهرة. تأسس الدير فى القرن الرابع الميلادى [illegible] الدير ٩ آباء ليصبحوا بطاركة للكنيسة القبطية. (المترجم).

يكون طابعه الأخلاقى كما وصفه القديس بولس لتيموثاوس وتيطس؛[1] ولا بد ألّا تكون أرثوذكسيته موضع شك. ويُشترط أن يكون قادرًا على تلاوة القُدَّاسات باللغة القبطية، وعلى معرفة باللغة التى يتحدثها الشعب، ولم يكن مطلوبًا فى يوم من الأيام أن يكون البطريرك أو الأسقف على قدر كبير من العلم. فقد كان هناك بطاركة لا يعرفون القراءة.

إذا لم يكن هناك مرشحًا مقبولًا بالإجماع قُلِّص عدد أسماء من لهم الحق فى أن يُختاروا إلى ثلاثة من خلال عملية التصويت؛ حيث يُلجأ إلى طقس مهيب للقرعة بغرض ترك الأمر فى النهاية للرب نفسه - داخل الهيكل - ذلك أنه هو من اختار القديس ماتياس.[2] تُعد رقاعٌ تحمل كل منها اسم واحد من الثلاثة المرشحين، مع لفافة أخرى تحمل اسم يسوع المسيح. توضع تلك اللفافات داخل جرة توضع تحت المذبح. وبعد ذلك يُحتفل بالإفخارستيا، وتقدم الصلوات على نحو مستمر ليوم وليلة على أقل تقدير، وفى بعض الأحيان أكثر من ذلك. يؤتى بطفل صغير ويسحب لفافة من الجرة. فإذا كانت تحمل اسم أحد المرشحين يتم انتخابه فى الحال؛ أما إذا خرج اسم يسوع المسيح فيكون معنى ذلك أن الرب غير موافق على أى من الثلاثة، وتُعاد العملية من جديد.

لابد من الاعتراف بأن قاعدة الإرسال إلى الأديرة لإحضار كل الرجال الذين سيحكمون الكنيسة أكبر عائق محتمل فى سبيل التقدم، حيث نرى أن تلك المؤسسات الصحراوية هبطت منذ زمن بعيد إلى مستوى منخفض من الحياة

(١) أوصى القديس بولس تيموثاوس قائلًا «وأما غاية الوصية فهى المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء». (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ١ : ٥). كما قال لتيطس «لأنه يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله غير معجب بنفسه ولا غضوب ولا مدمن الخمر ولا ضرَّاب ولا طامع فى الربح القَبِح، بل مضيفًا للغرباء محبًا للخير متعقلًا بارًا ورعًا ضابطًا لنفسه، ملازمًا للكلمة الصادقة». (رسالة بولس الرسول إلى تيطس ١ : ٧-٩). (المترجم).

(٢) كان هناك ٧٠ شخصًا مرشحًا للحلول محل التلميذ المنفصل يهوذا، وقع الاختيار على ثلاثة من بين هؤلاء السبعين. وقد اعتمد الرسل فى اختيار التلميذ البديل على الصلاة وإلهام الروح القدس وأتوا بطفل ليتمم القرعة، واختير ماتياس واعتبر التلاميذ أن هذا تم بإلهام الروح القدس. (المترجم).

الروحية، وإلى فقر فكرى مزرى. فالإلهام والحماس اللذان أوجدا الأديرة، وجعلاها لفترة طويلة موئل الرهبنة القديسية الحقة ومراكز التعلم، قد تضاءلا منذ زمن بعيد، ولا يبدو أن هناك محاولة تُجرى لوقف سيل النزعة الشكلية والجهل واللامبالاة الذى اجتاحها.

الأمر الذى يدل على ذلك ويدعو للأسى هو الطريقة التى بُعثِرت بها كنوز مكتبات الأديرة الغنية على يد حكامها الذين لم يدركوا قيمتها. فالمتحف البريطانى يمتلك الآن من الكتب القبطية القديمة أكثر مما تمتلكه الأديرة فى مصر؛ والرحالة الذين اشتروا تلك الكتب أو سرقوها وجدوا أنه فى بعض الأحيان يُنظر إلى زجاجة الخمر على أنها مقايضة كريمة، أو يُظَن أن الوعد بوسائد محشوة بالقش تُستخدم للجثو عليها عند الصلاة، لتحل محل المجلدات الضخمة الفريدة التى كانت أجيال من الرهبان تقف عليها فى الكنيسة لحماية أقدامهم من تيار الهواء، صفقة جيدة بالنسبة للدير.

وليس هناك الآن ما هو أكثر تثبيطًا للهمم بالنسبة للقبطى الذكى، الذى يرغب فى رؤية الحياة الروحية فى كنيسته وقد انتعشت، مثل تأمل حياة الأديرة التى ما زالت تحتفظ بوظائف مهمة وإيرادات كبيرة. وهو يعلن بمرارة أن تلك ليست سوى ملجأ للجهلة ذوى الأصول الوضيعة الذين يسعون إلى حياة تتسم بالكسل وتخلو من المشاكل. وهناك اعتراف بأنه ليس هناك رئيس واحد من الرؤساء الدينيين فى الكنيسة القبطية يمكنه ادعاء انتمائه إلى عائلة طيبة.

عند تَذَكُّر البُعْد والرتابة المتصلة، إلى جانب الأصوام الطويلة، وملاحظة أن البطريرك ومعظم الأساقفة يعيشون حياة تتسم بالشدة الرهبانية لفترة طويلة بعد أن يكون كل شىء قد أزيل إلا سَوْط الضمير، أظن أن هذا يكون حكمًا أقسى مما يجب. فلا بد أنه لا يزال هناك نوع ما من النداء الروحى يشد الرجال إلى تلك الملاذات الهادئة بعيدًا عن الدنيا.

نقطة ضعف هذا النظام هو أنه لا أهمية فى الكهنوت للشخصية والمقدرة التى ثبتت جدارتها، وكثيرًا ما يُضطر الرجال ذوو المواهب والخبرة فى عمل الكنيسة

للخضوع لحكم مبتدئ جاهل ـ أو حتى أمى فى سلك الرهبنة. وتكون النتيجة أن يصيب الشَلَلُ جهودَ الكاهن والعلمانى على السواء، وتكون هناك نكسات متكررة، حيث يخلف ناسك صحراوى ناسكًا آخر، كبطريرك أو كأسقف، دون الاستفادة مما قد يكون خلفاؤه قد تعلموه فى مدرسة مسئولية الحياة العملية.

يأمل المهتمون بمستقبل الكنيسة أن تتمكن توليفة قوية وحكيمة من الأقباط المثقفين على ضرورة الإصلاح فى اللحظة المناسبة من تحقيق الإصلاح السلمى، بدءًا بجلوس الأسقف الذى أثبت أنه الأصلح لذلك المنصب الرفيع على كرسى البابوية.

ولا شك فى أن الضرورة الكبيرة التالية هى تمهيد الطريق للكهنوت المتعلم، كى يُدَعَّم التدعيم اللائق بما هو متاح من أموال. وبالنسبة للبطريركية فإنه لا تُعْوِزها سابقة التغلب على القواعد التى تقف فى سبيل تقدم الكنيسة. فمن المؤكد أنه جرى تجاهل الحكم الرهبانى مرة أو مرتين فيما مضى؛ بل لقد أُختير رجل متزوج وكان تاجرًا وليس راهبًا، حيث حقق أفضل النتائج. وينبغى أن يفيد تذكير النزعة المحافِظة الشرقية بذلك فى تمهيد الطريق للإصلاح.

هناك شىء على قدر كبير من الرومانسية بشأن القصة المضطربة الخاصة بكيرلس الخامس بعد دعوته إلى البطريركية. فربما يخشى الرجال هذا المنصب خشيةً شديدة لدرجة أنهم يأتون باستمرار وحتى يومنا هذا بالبطريرك مكبلًا بالسلاسل من الدير الهادئ إلى مقره المضطرب فى القاهرة، وذلك من بقايا اليوم الذى كان يُجر فيه جرًا إلى منصبه الجديد بالمعنى الحرفى للكلمة.

منذ قرون مضت كانت الأم العجوز العزيزة عندما ترى ابن قلبها يُجر من الملاذ الذى كانت تأمل أن يحميه من عواصف الحياة إلى أن يدخل الجنة المرادة، لتولى تلك المنزلة المخيفة، تتعجب بمرارة الشك والريبة قائلة «كنت أُفَضِّل رؤيته فى قبره!».

كان الرهبان فيما مضى يقطعون آذانهم كى لا يكون من حقهم تولى منصب البطريرك. وفى الزمن الذى كان فيه أثناسيوس بطريركًا، كان هناك تآمر فج على رجل كان قد رُفِع إلى مثل هذه المكانة الرفيعة. فقد أقنع زعيمُ الانشقاقِ أسقف

هيبسيليس(١) ارسينيوس بالاختباء كى يُتهم أثناسيوس أمام قسطنطين بقتله، وقُدِمت يدٌ محنطة دليلًا على الجريمة. وقد يكون التآمر هذه الأيام أقل فجاجة بعض الشىء، ولكن ممارسته لا تزال تحظى بتقدير العقل الشرقى.

كان كيرلس الخامس، الخليفة رقم مائة وعشرين للقديس مرقص، فى شبابه راهبًا بدير البراموس فى وادى النطرون، حيث تميز بقدسية حياته. وكان سلفه رجلًا جاهلًا ومتعصبًا، يُقرأ استياؤه من تبشير البعثة الأمريكية كأنه قصة للاستبداد الشرقى وانتقام من العصور الوسطى.

وحين تنيح فى عام ١٨٧٣ تشاور عدد كبير من العلمانيين الأقباط فيما بينهم ووضعوا خطة للإصلاح تقوم على قانون كنيستهم الذى جرى تجاهله لفترة طويلة ويعلن ضرورة أن يستشير البطريرك الرجال المتدينين والمتعلمين، الكهنة والعلمانيين، فى الأمور المهمة كافة. وقد أصروا على حصول موافقة أى بطريرك جديد قبل انتخابه بشكل نهائى لتولى منصبه.

بعد تأجيل الانتخاب، والعمل بموافقة مطران الإسكندرية [ووكيل الكرازة المرقسية](٢) الذى يلى رئيس الكنيسة من حيث سلطته، ويقوم عند خلو المنصب مقام البطريرك، شكلوا مجلسين - مجلس يضم الإكليروس للتعامل مع الشئون الكنسية، ومجلس آخر من العلمانيين للمسائل المدنية(٣)؛ وتشكل مجلسان مشابهان فى كل أسقفية.

---

(١) شطب الحالية بمحافظة أسيوط. (المترجم).

(٢) أصبح فى عام ١٩٢٨ البطريرك الثالث عشر بعد المائة باسم يؤنس التاسع وظل على كرسيه حتى نياحته فى ٢١ يونيو ١٩٤٢. (المترجم).

(٣) هذا هو المجلس الملى الذى «نشأ... لشئون الأقباط فى سنة ١٨٧٣ بوصفه هيئة يرأسها البطريرك وينتخب سائر أعضائها ووكيلها من أهل الحل والعقد الأقباط المدنيين، وهو يتولى الجانبين المالى والإدارى من شئون الكنيسة والإشراف على المنشآت والمؤسسات الخيرية والتعليمية والأوقاف وغير ذلك، وبهذا ظهرت الصيغة التعددية فى إدارة هذه الشئون وصارت الأنشطة التى يقوم بها القبط متعددة الوجوه ومتنوعة الأشكال وهى لا تؤول فى نهايتها إلى هيئة واحدة تملك عليهم القبض والبسط... لذلك كان تشكيل المجلس الملى ضرورة، ليس فقط لإدارة الشئون القبطية على نظم حديثة أكثر رشدا ولكنه كان ضرورة لإدارة علاقات التوازن والتعايش فى إطار الجماعة الوطنية، وهذا التعدد أفسح للمزيد من الأنشطة التعددية، فظهرت الجمعيات مثل جمعية التوفيق القبطية وغيرها، ثم ظهرت مشاركات الأقباط فى وجود الأنشطة المصرية العامة فى النقابات المهنية والنقابات العمالية والجمعيات والهيئات...» (المستشار طارق البشرى، «الحقيقة الغائبة»، صحيفة «الأسبوع»، ١ يناير ٢٠٠٥) (المترجم).

قبل الأساقفة الخطة وأصدر الخديو الموافقة اللازمة.(١) وقد مُنح الوقت الكافى لاختبار عمل الخطة، وعندما اتضح أنها مُرضية، اتخذ الأساقفة الخطوات اللازمة لاختيار البطريرك.

فى أيام كيرلس الأولى، أُنشئت كلية للاهوت فى القاهرة بإدارة قديرة. وأثناء تعامل مع هذه الكلية أبدى البطريرك الجديد لأول مرة ذلك التصميم الشرقى على التمتع بسلطة لا منازع لها، وهو الأمر الذى يؤكد نفسه باستمرار تقريبًا فى الشرق عند الرجال الذى يكتشفون أنهم يملكون سلطة كبيرة، ويتمتع هؤلاء بالطبع بقدرة تتسم بالفطنة فى سيطرتهم على القوى التى تنازعهم سلطانهم.

ويبدو فى الواقع أن السلطة العليا فى الشرق تجد طريقها باستمرار إلى أيدى الرجال الذين يتمتعون بمهارات فى التآمر؛ وهذا هو الذى وفر باستمرار تلك الإمكانيات لرجال ذوى ذكاء حاد، بغض النظر عن أصلهم، كى يرفعوا أنفسهم فوق كل عائق طبيعى فى طريق تقدمهم. وهو ما يعطى نكهة للعبة الحياة الكبرى بالنسبة للرجال الذين يعرفون كيف يلعبونها. وهو كذلك ما يجعل الحياة العامة فى مصر غير ذات جاذبية للرجال أصحاب المبادئ الثابتة.

إذا وَعَى من يفوزون بجوائز هذه اللعبة المتغيرة الأمر لأدركوا أنهم يحبطون غاياتهم باستمرار. وأظن أنه يمكن القول بأنه ما دامت بريطانيا تحكم فسوف يؤدى النفور الذى سوف يثيره مجرد التآمر إلى تقليص الملعب الذى يمكن أن تمارَس عليه تلك اللعبة المخزية. ومن المحتمل أن يكون ذلك الجزء الثابت والأقل مكرًا واحتيالًا من الأمة فى يوم من الأيام على استعداد للعودة من الغياب الذى فرضه عليه الخوف من حيل الحاوى الأمثل الذى يشغل المناصب العليا.

كان أول إجراء يتخذه البطريرك هو إلغاؤه بلا رحمة للكلية التى لم يتمكن من السيطرة عليها سيطرةً مطلقة. ولاقت منه احتجاجات المجلس الملى أذنًا من طين وأخرى من عجين؛ ولم تنهكه طلباتهم الملحة، بل أنهكتهم هم.

---

(١) صدر الأمر العالى من الخديو توفيق بلائحة المجلس الملى للمرة الأولى فى يناير سنة ١٨٧٤م. (المترجم).

وكما فعل البطاركة فى أكثر الأحيان من قبله، اتخذ كيرلس لنفسه أصدقاء بمال الظلم؛ فقد تذكر سلفه المصلح الذى لم يكن قد مضى وقت طويل على سعيه لإقامة اتحاد بين الكنائس اليونانية والإنجيلية،[١] حيث أثار بذلك شك السلطات المسلمة، حتى أنه يُقال: إن فنجان القهوة التقليدى وضع حدًا لحياة نبيلة.

سلم كيرلس الخامس نفسه فى هدوء إلى السلطة الحاكمة كى يحتمى بـ«سيف الكفر» تحسبًا لأيام الشدة. وبعد ذلك استقر على مساره الثابت من السكون البارع؛ وما من شك فى أن سياسته كانت محسوبة على نحو جيد، وكان ما يرغب فيه هو خدمة كنيسته على طريقته.

الشرقى لا ينسى أبدًا؛ والذكرى، وخاصة ذكرى الكبرياء المجروح، يمكن أن تبقى قرونًا. ولم يتخل البطاركة عن شكهم فى المسيحيين الغربيين منذ إنشاء كنيسة «يونيات» التى كانت تضم هؤلاء الذين سُمِح لهم باتباع مذاهب كنيستهم الوطنية وطقوسها شريطة أن يعترفوا بسيادة بابا روما ويرفضوا سلطة بطركهم.

وصل الأمر بالإصلاحيين الذين كانوا يأملون الكثير من الموافقة على كيرلس إلى تلك الحالة من الشلل بسبب أساليبه، ولم يحدث قبل عام ١٨٩٠ أن أكدت خميرة التمرد وجودها فى الجيل الجديد الذى شب عن الطوق. وبعد ذلك تكونت «جمعية التوفيق» بهدف تحقيق إصلاح الكنيسة وطرح العديد من القضايا من أجل مصلحة الشعب. وحققت تلك الحركة ما يكفى من المكاسب فى مصلحة الشعب لإثارة البطريرك الذى ذهب إلى الخديو - كان توفيق هو الذى يحكم حينذاك - لإقناعه بأن أهداف الجمعية تنطوى على الخيانة. إلا أن الخديو لم يكن بالذى يتأثر بهذه الطريقة؛ فقد كان الأكثر حكمة، وكان صاحب الأخلاق الأسمى من بين أفراد عائلته، وعندما قام بتحرياته الدقيقة نصح البطريرك بالاستسلام.

كان الحرمانُ الكنسىُ السلاحَ المخيفَ فى الكنيسة الكاثوليكية؛ وكان البطريرك القبطى يعرف باستمرار أن هذا الأمر ذروة الرعب واليأس. وقد أذاق أثناسيوس

(١) كيرلس الرابع ١٨٥٤-١٨٦١.

مطران صنبو، الذى أيد الجمعية الجديدة، مرارة الحرمان الكنسى،[١] وأثارت قسوة ذلك القرار الجماعة الإصلاحية كلها ودفعتها إلى تمرد شرس، واتباعًا منهم لما سار عليه البطريرك، ارتكبوا مرة أخرى خطأً خطيرًا بلجوئهم إلى الحكام المسلمين - حيث طالبوهم بتحطيم الإرادة البابوية.

نظمت الجماعة الإصلاحية مظاهرة شعبية كبيرة فى القاهرة، حيث جاء مندوبون من التجمعات القبطية الرئيسية فى مصر. وعُيِّن وفد لزيارة البطريرك لحثه على إعادة تشكيل المجلس الملى وإبلاغه بضرورة الإصلاح.

قوبل الوفد ببيان يشير إلى أن كيرلس لا يرى أية ضرورة لوجود المجلس. وعندما أبدى الوفد تصميمًا على موقفه، بكى الرجل العجوز - يشك البعض أنها دموع دبلوماسية - وانسحب تاركًا إياهم لحالهم.

كان هناك اقتراح بعقد اجتماع فى باحة البطريركية؛ وبناءً على ذلك أرسل كيرلس إلى محافظ القاهرة المسلم يرجو حماية البوليس له.

دعا البطريرك إلى اجتماع حضره كل الأساقفة ورؤساء الأديرة وكبار الكهنة. وقُدِّمت لهم ورقة يوقعون عليها موجهة ضد الإصلاحيين؛ وقد وقع معظم الأساقفة على الوثيقة دون قراءتها، ولكن إجلالًا للكنيسة رفض بعض الكهنة القديرين والمستنيرين التوقيع ويكمن أمل الكنيسة فى وجود مثل هؤلاء الرجال. وصدر قرار بقراءة تلك الوثيقة فى الكنائس.

من الواضح أن البطريرك كان قد عقد العزم على القتال بمفرده استنادًا على السيادة المطلقة التى لا ينازعه عليها أحد. وكانت نتيجة ذلك إثارة غيظ الجماعة الإصلاحية، مما جعلها هى الأخرى تعمى عن رؤية أية مصلحة سوى أن تكون لها الكلمة العليا؛ وفى النهاية لم يصل النزاع بين الطرفين إلى شىء سوى المؤامرات والمؤامرات المضادة المبتذلة.

(١) نص قرار الحرمان على أن أثناسيوس «تجرأ على ارتكاب إثم لا تزيله مرور الأيام واقترف ذنبًا لا يمحى من تاريخ الكنيسة مدى الحدثان». كما أنه «تعدى حدود وظيفته وقبل إدارة شئون الطائفة بدلًا عنا، حالة وجودنا، وبغير إرادتنا، ونبذ طاعتنا». (المترجم).

تصادف أن وقعت تلك الأزمة فى الوقت الذى تولى فيه الحكم الخديو عباس الشاب خلفًا للخديو توفيق. واضطرت السلطات لمراقبة المعركة، وأيد رئيس النظار فى ذلك الوقت مصطفى باشا فهمى آراء الإصلاحيين الذين حصلوا حينها على مراسيم خديوية ضد بطركهم المسيحى. إلا أن كيرلس تحداهم، وكان المشهد الغريب هو رؤية السلطات المسلمة تطالب بدخول الكاتدرائية لفرض إرادة الحكومة ولكنها وجدت الأبواب مغلقة فى وجوهها.

ومع ذلك فقد وقع انقلاب مذهل نُفى بمقتضاه البطريرك إلى دير البراموس، وأُرسل أسقف الإسكندرية أسيرًا إلى أحد الأديرة الصحراوية الأخرى(1).

لا شك فى أن الأمر الذى أجبر اللورد كرومر على إعطاء كلمة حاسمة على ذلك القدر من الأهمية، حين كان مبدؤه الثابت هو الوقوف بعيدًا عن النزاعات الدينية كلها، هو روح التمرد التى أبداها البطريرك ضد المرسوم الخديو الذى يقر انتخاب المجلس الملى.

فقد أرسل قداسته إلى الخديو تلغرافًا بلغةٍ غير متروية وتفتقر إلى الأدب والكياسة أعلن فيه أنه لن يعترف بالمجلس الملى؛ وكتب إلى سلطان تركيا، باعتباره الأمر الناهى للخديو، شاكيًا له ما قام به سموه؛ كما لجأ إلى فرنسا باعتبارها القوة المستعدة على الأرجح فى ذلك الوقت لإثارة القلاقل لإنجلترا؛ وسعى بمكر إلى إقناع القنصل الروسى بأن هناك فرصة لدق إسفين دبلوماسى ربما من المفترض أنه يبحث عنه.

تغير الوضع السياسى المحلى مرة أخرى. وهو يتغير دائمًا فى مصر، حيث يماثل المقاتلون المهرة هنا بصورة عامة بعضهم إلى حد بعيد. ومهما كان التآمر الشرقى فهو لا يمكنه الاعتماد على أى شىء أقوى من تغير الظروف.

أصبح المسلم المحافظ رياض باشا رئيسًا للنظار، حيث كان يمثل جماعة لا تؤيد الإحياء القبطى بحال من الأحوال، وقد أصابتها صدمة من التمرد ضد السلطة الهيراركية الشرعية. وكان رياض يرى أن الغالبية العظمى من الشعب القبطى، بغض النظر عما

(1) دير الأنبا بولا بالصحراء الشرقية. (المترجم).

يطلبه الإصلاحيون، شعرت بالتعاسة لنفى الرجل الذى كان لا يزال رئيسها. وفى ذلك الوقت كذلك أدت صواعق الحرمان الكنسى الذى أصدره كيرلس(1) قبل رحيله إلى جعل الكنيسة فى حالة من التوقف التام تقريبًا، حيث جُفِّفَت آبارُ الغفرانِ ومَنْحِ البركة التى تبعث على الارتياح، وحرمت الشعبَ من الأسرار المقدسة السبعة كلها، بما فى ذلك سر المعمودية وسر الزواج، ما لم يكن على استعداد لمخاطرة الاحتفال غير الذى لا يحظى بالموافقة وغير المشروع.

كان هناك شعور بجوع لا يقاوَم لاستعادة الهيراركية؛ وشعر حينذاك الرجل الوحيد الذى يمكنه منع إعادة البطريرك، وهو المعتمد البريطانى، أنه قطع شوطًا كافيًا فى المعركة، كما أسماها، «بين السلطتين الدنيوية والروحية لعقيدة ليست عقيدته».

أظن أنه من الواضح أن البطريرك، الذى نُفى بكلمة من المعتمد البريطانى، أثبت أنه سيد الموقف، وأُجبِرت الحكمة الدنيوية لحاكم مصر السياسى على الانحناء أمام هذا النفوذ الكهنوتى المتسم بالدهاء.

لا يذكر أحد أن القاهرة كانت من قبل مسرحًا لمثل ذلك الترحيب الشعبى الحماسى الذى قوبل به البطريرك عند عودته. فقد ملأت الجماهير شوارع المدينة، وأزال بحر الحماس الضخم كل فكرة ما عدا فكرة الابتهاج الشديد بعودته، حيث احتفلت الجماهير المسلمة بهذا الحدث الكبير جنبًا إلى جنب مع الأقباط! وبكى الناس من الفرح وغنوا مادحين المنفى، كأن إلهًا قد أُعيد إليهم، وكان الأعداء التقليديون لقرون يتعانقون مهنئين بعضهم بعضًا.

إذا كانت هناك حاجة إلى دليل على عمومية عاطفة حب البطريرك، فإن الرحلة المظفرة التى قام بها كيرلس فى وادى النيل حتى السودان فى عام ١٩٠٩ فيها الإقناع بذلك. فقد زار كل مدينة، وفى كل مكان تكررت مشاهد كمشاهد القاهرة. لم يغب شىء يمكن أن يفعله شعبٌ لإظهار الإجلال والإخلاص؛ والواقع أنه شىء كاد

(1) ...شر البطريرك بيانًا بعنوان: «انقضاض الصواعق الكنسية» بتاريخ الأربعاء ٣٠ أغسطس ١٨٩٢ أوضح ...الأسانيد القانونية القوية المستقاة من التعاليم الرسولية التى انبنى عليها حكم الحرمان. (المترجم).

يصبح همجيًا، من جانب المسلمين والمسيحيين على السواء، فى المدن النائية. وفى أسيوط كان هناك حادث مهم. فقد قُدِّم التماس لقداسته يرجو منه الإصلاح. وفى لحظة تقديم الالتماس صاح أسقف الدير المحرَّق «مزقه، مزقه!» ووافقه البطريرك وألقى بالقصاصات إلى الوفد.

كان انتصار البطريرك تامًا ودائمًا. فلن يغامر المعتمد البريطانى مرة أخرى بفرض أفكاره عليه؛ ولن تكون للمجلس الملى، أو الوفد، تلك الجسارة عند مواجهته بمطالب معترَض عليها. لقد عاد إلى السلطة كأنه عملاق استعاد نشاطه، واستغل سلطته كعملاق.

لم يعترف بالمجلس الملى ولم يسمح له بالاستمرار فى عمله. كما شجع الإكليروس الثابتين على تأييدهم له، وفى النهاية سامح على مضض الأسقف والكهنة الذين رفضوا أن يربطوا أنفسهم به.

اتجه البطريرك من جديد، بتقدير ودى، إلى السلطات المسلمة التى ردت عليه بأن أوصت السلطان التركى بالإنعام عليه بنيشان؛ وقَبِله! وإذا بدا أنه يتنازل، باختياره أربعة من العلمانيين البارزين لتشكيل لجنة استشارية، فقد أظهرت التجربة أنه لم يكن ينوى سوى أن يفرض عليهم رأيه - فأى وعد بالإصلاح، تحت الضغط، كان مصيره النسيان؛ وإذا كان قد وافق على فتح كلية اللاهوت، فقد أصر على أن يتولى المسئولية فيها رجال المدرسة القديمة غير المتعلمين، بل إنه كان يُرَسِّم أيًا من تلاميذها المساكين بعد تردد شديد.

أما جمعية التوفيق فهى لا تزال تعمل، حيث تقوم بعمل ممتاز، وخاصةً بالنسبة للتعليم، وهى تتمسك فى هدوء وصبر بدعايتها الخاصة بالإصلاح، بينما تعد السنوات الطويلة للرجل العجوز العجيب الذى كبح جماح حماسها المبكر.

اختفت بعض المرارة من الجدل. فمن ناحية، تخفف حياة البطريرك العداء عندما يتركونه يمارس سطوته على نحو سلمى دون أن ينازعه عليها أحد؛ ذلك أنه لا شك فى اتباعه السيد الذى أقسم على خدمته، ولكن بطريقته الغربيَة والشرقية.

ومن ناحية أخرى فقد ترَفَّع الرجال الممتازون - الذين هم أشد اهتمامًا بأن يروا كنيستهم متقدمة - على توقعهم الشديد فى البداية إلى تسجيل انتصارات دبلوماسية فحسب. فهم يُبدون رغبة فى السلام؛ كما أنهم يُبدون صبرًا يثبت ولاءهم المسيحى، وربما جرى ذلك بعقول معذَّبة ومتكدرة.

ومن حين لآخر يمكن إقناع البطريرك بالمضى قليلًا فى سبيل الإصلاح، وذلك من خلال الإقناع الرقيق واللبق من رجل مثل مرقص سميكة باشا. إلا أنه بالرغم من كِبَر سنِّه فليس هناك منفذ لمن قد يفكرون فى تسجيل أهداف على حساب الذاكرة التى أصابها الضعف أو قوة الإرادة التى تتضاءل. فسرعان ما يكتشف هؤلاء الرجال أنه ليس فى مصر ذاكرة على ما عليه ذاكرة بطركهم من قوة، حتى بالنسبة للتفاصيل التافهة، وما زالت «نعم» التى تصدر عنه هى نعم، و«لا» هى لا. وكانت إرادته على قَدْرٍ كافٍ من القوة، بحيث يتلقى مقترحات اللورد كتشنر الخاصة بتشكيل المجلس الملى الجديد على نحو يحدث تعديلًا فى سلطاته، فيما قد يبدو إذعانًا من جانبه، ثم يبدى قليلًا من الاهتمام بتلك المقترحات، أو لا يفعل حيالها أى شىء بالمرة.

للبطريرك وحده سلطة رِسامة كل من الكهنة والشمامسة. ولا تتم الرِّسامة بوضع الأيدى، بل بالنفخ. وهو صاحب السلطة الوحيدة على الكنائس كافة، وعلى الايرادات كلها؛ وهو إذا ظن أن من المناسب تعيين أمين صندوقه على أية أبرشية، فإنه يُعَيِّنُه لجمع الايرادات كلها وإرسالها إلى البطريرك الذى يدفع مبلغًا صغيرًا جدًا للكاهن المسئول، ثم يوجه الفائض إلى أغراض الكنيسة العامة حسب تقديره.

لابد أن تظل هذه السلطة الكبيرة موضع نقاش مستمر؛ وبما أن الخديو، باعتباره رئيسًا لرجال الدين المسلمين فى مصر، قد حُرِم من السيطرة على الأوقاف (فى عام ١٩١٤)، فقد قُدِّمت مرة أخرى مقترحات جادة بحرمان البطريرك على النحو نفسه، من خلال تعيين لجنة أو إنشاء مصلحة حكومية. فترك تلك الأوقاف فى يد رجل واحد مسئولية أكبر من اللازم. وقد يكون بالإمكان تشكيل مجلس قبطى قادر على التعامل معها بكل السبل؛ ذلك أن هناك رجالًا مستنيرين ذوى مقدرة مالية كبيرة، ومشهود لهم بالنزاهة.

ما يطلبه هؤلاء القادة الأقباط فى المقام الأول هو باختصار استخدام الأوقاف الغنية فى التعليم وتحسين أحوال الإكليروس، وتأسيس المدارس فى الأديرة، والإدارة الجيدة والحكيمة للأوقاف لضمان قدر أكبر من الايرادات لإنفاقها حسب رغبات هؤلاء الأتقياء الذين وقفوا الأوقاف، وعمل الحسابات المدققة تدقيقًا صحيحًا. وهم يريدون رؤية الأديرة وقد أُصلِحت، والإكليروس وقد أُعلى شأنه، والفقراء وقد أُفيدوا؛ وهم على ثقة من أن هذا كله سوف يؤدى إلى الإصلاح الاجتماعى والأخلاقى، وإلى إصلاح روحى فيه صحوة الكنيسة كلها.

الفصل السادس

زيارة لأسقف الفيوم المبجل الأنبا إبرام(١)

هناك رجل فى مصر اسمه غير معروف لدى الطبقة الحاكمة، ومع ذلك فهو أكثر من يتكلمون عنه ويحظى بأكبر قدر من التبجيل فى وادى النيل كله. ومع أنه أسقف مسيحى، فهو قديس من السماء عند المسلم مثلما هو عند المسيحى؛ والمسيحيون الذين ينضمون إلى ذلك الجمع اليومى الذى يلتمس عونه الروحى وبركاته يشملون الأقباط واليونانيين والروم ولا يقتصر هؤلاء الأخيرون بحال من الأحوال على الأهالى المصريين.

قبل التفكير فى السعى لمقابلة هذا الرجل العجوز الرائع، كنت قد سمعت الكاثوليك حتى فرنسا يتحدثون عن أسقف الفيوم والجيزة فى مصر باعتباره زاهدًا

---

(١) وُلد هذا القديس فى دلجة التابعة لإيبارشية ديروط عام ١٨٢٩ ميلادية من أبوين تقيين، وكان اسمه بولس غبريال، وقد حفظ المزامير ودرس الكتاب المقدس منذ طفولته، وإذ التهب قلبه بحب الله دخل دير السيدة العذراء مريم «المحرق» حيث رُسم راهبًا باسم بولس الدلجاوى عام ١٨٤٨م. ولما دعاه الأنبا ياكوبوس أسقف المنيا للخدمة حوّل المطرانية إلى مأوى للفقراء، وبقى أربعة أعوام رُسم فيها قسًا عام ١٨٦٣. ولحبه فى الرهبنة عاد إلى ديره حيث اختير رئيسًا للدير، فجاءه شبان كثيرون للتلمذة على يديه بلغ عددهم أربعون راهبًا. لكنه إذ فتح باب الدير على مصراعيه للفقراء وسكب كل إمكانيات الدير لحساب إخوة المسيح ثار البعض عليه وعزلوه عن الرئاسة وطلبوا منه ترك الدير. طُرد أبونا بولس وتلاميذه بسبب حبهم للفقراء فالتجئوا إلى دير السيدة العذراء «البراموس» بوادى النطرون، وهناك تفرغ للعبادة ودراسة الكتاب المقدس. وفى عام ١٨٨١ رُسم أسقفًا على الفيوم وبنى سويف والجيزة باسم الأنبا إبرام. (منتدى القديس الأنبا إبرام، stabraammonastery.com) (المترجم).

تأكدت فى قدراته كل الآيات التى قال يسوع المسيح إنها ينبغى أن تتبع المؤمنين «يخرجون الشياطين باسمى... ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون».

هذا القديس العجوز، المعروفة قدرته فى أنحاء العالم الشرقى، سليل مباشر وغير منقطع لهؤلاء المسيحيين الأوائل الذين يتكلمون - حسب كلمات الرب - بألسنة جديدة؛ ويحملون الحيّات؛ وإن شربوا شيئًا مميتًا لا يضرهم. هذه الكلمات فُهِمت فى الشرق فحسب. وعندما يُعلّق المسيحيون الغربيون على تجليات المسيحية الشرقية، لا بد من تذكر أن هذه «الآيات» كلها متضمَّنة فى الوعد الأول للمسيح عندما ظهر للمؤمنين (مرقس ١٦: ١٧ و١٨).

مهما كان المكان الذى ذهبت إليه فى مصر، فقد كنت أسمع مرارًا وتكرارًا عن أسقف الفيوم؛ وكانت تُروى لى قصص لا يصدقها أحد عن إنكاره لذاته، وأصوامه، وحكمته الروحية، وقدرته على التنبؤ، وقدرته على إخراج الأرواح النجسة وعلاج كل شكل من أشكال المرض؛ والراحة التى تُحدِثها الكلمات التى يقولها لمن أصيب فى نفسه أو بدنه؛ وعندما يجزل عطفه على الفقراء الذين يساعدهم من خزانة كانت أشبه بكوار الدقيق الذى لا يَفرُغ(١)؛ وكيف أنه يكتشف بإضاءات البصيرة الآثم الذى يظن أنه يخدعه؛ ويبدو أن القوة الروحية التى داخله تحل بهم حتى بعد أن يكونوا قد انصرفوا من عنده. وكما هو الحال بالنسبة لكل القديسين الشرقيين، تنسب إليه بالطبع قدرته على الإيقاع باللصوص بواسطة نوع من الموهبة البوليسية الروحية.

تُروى قصص كثيرة عن بعده عن كل نوع من المطالب الدنيوية، وعن احتقاره لاحتياجات الجسد، حيث يشبه فى ذلك قديسى الزمن القديم. وبما أن عمره الآن يقترب من القرن، فإن الشعور المستمر بتبجيله يزداد عمقًا حيث بقى حيًّا وقد مضى الجيل وراء الجيل ممن شعروا بتأثيره.

ومع ذلك فقد كان قرارى السعى لمقابلة القديس شيئًا، والصبر فى تحمل الطريق عبر كل العقبات التى تخلقها شكوك المسيحيين الشرقيين، الذين يمكنهم وحدهم

(١) انظر سفر الملوك الأول، ١٧: ٨-١٩، حيث قصة إيليا وأرملة صِرفة التى فيها «كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص». (المترجم).

ساعدنى شيئًا آخر؛ وبينما كانوا على درجة رائعة من الأدب وبدوا على استعداد لتحقيق ما طلبت، فقد كانوا يسألون أنفسهم طوال الوقت إن كان من مصلحة الأقباط أو لا أن يتخطى شخص إنجليزى الحجاب الشرقى الذى يخفى الحياة التى يخفون عدم فهمها أو إقرارها على نحو واقعى فى ضوء معيار يختلف عن معيارهم.

كما نعرف فإن القبطى يفاخر على استحياء باشتراكه مع الإنجليزى فى المسيحية؛ ولكنه لا يكتفى بذلك؛ فهو يريد من الزائر الغربى أن يرى فقط تلك الأوجه من المسيحية التى تكاد تكون قريبة من مسيحية إنجلترا. ولذلك فهو يبتعد فى معظم الحالات بالمستفسر بمهارة الشرق المهذبة عن كل شىء جعله الشرقى الذى فى داخله أمرًا لا ريب فيه. غير أنه لا يدرك أن هذا الأمر هو الاهتمام الأساسى للمستفسر الغربى، كما أنه آخر شىء يمكن إخفاؤه أو التخلص منه.

لم يكن هناك ما هو أرق من كلمات الدعوة التى تلقيتها لزيارة عاصمة مديرية الفيوم الجميلة، والإقامة هناك عند إحدى الأسر القبطية المعروفة. غير أنى كنت على معرفة بالحياة الشرقية تكفى لإدراك أنه فيما يتعلق بالأسقف فقد أسافر ولكن ربما لا أصل إليه أبدًا. وحتى حين قابلنى كل كبار رجال مدينة الفيوم، الذين غمرونى بالوعود بأنه ما من شىء أتمناه إلا وسيحدث، وأنه لا رغبة لهم سوى إرضائى، فقد كنت لا أزال أعرف أن الصراع بين الصبر والفطنة ما زال فى أوله.

بالنسبة لما حدث فى الأيام التى كنت أنتظر فيها استدعاءً من الأسقف، يمكننى الآن، حين أعود بالذاكرة إلى الوراء، تجميع قصة من مصادر عديدة لم تكن واضحة فى ذلك الحين بحال من الأحوال.

كانت هناك اجتماعات خاصة من جانب أصدقائى والكثير من المقترحات الذكية فيما يتصل بالخط الذى يتبعونه معى. كانوا جميعًا فخورين بشهرة الأسقف، ولكن هؤلاء الذى سافروا إلى أوروبا منهم شعروا، لأمر ما، أن الشخص الإنجليزى سوف يُحبط عندما يجد أمير الكنيسة يعيش متجردًا من أى مظهر يدل على مكانته السامية. فقد زار أحد هؤلاء، على الأقل، أسقف لندن فى قصره الجميل فى لامبث، ورأى العديد منهم ذلك القدر الكبير من الحُسن المحيط حتى بأحد أساقفة الكنيسة الإنجيلية الإقليميين.

كان إجراؤهم السرى الأول هو زيارة رجل علمانى قبطى ثرى كان لمنزله طابع القصر فى المدينة، لإقناعه بالسماح للأسقف بشغل مقره هناك ليكون بمثابة خلفية مناسبة لمقابلتى.

وبعد الحصول على الموافقة كانت الزيارة الثانية للأسقف نفسه. ولكن حلم أن يكون القصر المكان الذى تتم فيه المقابلة المهيبة اختفى على الفور؛ فلم يكن الرجل العجوز قد غادر غرفته الخاصة منذ بعض الوقت، ولشعوره بالقيود البدنية الخاصة بسنواته المائة، لم تكن لديه نية مغادرتها مرة أخرى بحال من الأحوال، إلا حين يساعدونه من حين لآخر على دخول الكنيسة التى كان مسكنه ملاصق لها بالفعل. وعندما ضغطوا عليه غضب معلنًا أنه لن يغادر غرفته تحت أى ظرف من الظروف إلى أى نوع من المنازل الأخرى، وبالذات إلى قصر من قصور الأغنياء. عاد الوفد بشعور من اليأس الذى يقود الشرقى بسهولة كبيرة إلى حالة من التعب والإجهاد يتخلى فيها عن مشروعاته.

بعد ذلك زارونى ليؤكدوا لى أنهم وجدوا أن صحة الأسقف تحول، للأسف، دون أية إمكانية لاستقباله لى. إلا أننى قاومت ذلك الاقتراح على نحو مؤدب بقدر الإمكان، حيث كنت أعلم أنه يفد إلى الرجل العجوز العشرات من الأهالى كل يوم. وقد قطعت تلك المسافة الطويلة بغرض رؤيته؛ ألن يخبره أحد بذلك؛ وكنت متأكدًا من أنه لن يردنى عن مرادى غير مَرضِى.

فى ذلك الحين كشفوا لى لمحة من الحقيقة، يأسًا منهم؛ فغرف الأسقف رديئة لأنه لا يهتم أبدًا بوسائل الراحة؛ ولعلم الذين يقومون على خدمته بأنه لا يطالبهم بشىء، فهم يهملون نظافة المنزل. بل إن هناك روائح تقابلك على الدَّرَج المؤدى إلى غرفته.

لم أكن جاهلًا بكون الكنائس القبطية، التى كانت تُخفَى فى عصور الاضطهاد عن العالم الخارجى داخل أسوارها، بما عليه ذلك من كل أنواع المبانى غير المناسبة، قد أصبحت فى حالات كثيرة كريهة الرائحة نتيجة الحاجة إلى وجود مرافق صحية. وقد خطر ببالى وصف مستر سومرز كلارك لمدخل كنيسة قبطية ريفية: «مدخل عادى صغير فى حارة ضيقة، باب صغير، سميك مرصع بمسامير

[illegible] ووجدنا أنفسنا فى قاعة استقبال». أعلنت بجدية شديدة أننى لا [illegible] الأمور، فأنا أريد رؤية الأسقف والتحدث معه.

[illegible] آخر إلى مسكن الكنيسة. قالوا للأسقف إن إنجليزيًّا رفيع الشأن (لم تكن [illegible] هذا الخداع الصارخ) لديه رغبة شديدة فى لقائه؛ فهل من الممكن أن يحدد [illegible] وقتًا لا يُدخِلون عليه فيه حشد الأهالى؟

يبدو أن الرجل العجوز لم تستهوه فكرة أن يسعى إلى لقائه الرحالة كأنه أحد المشاهير، فلم يكن ذلك عملًا من أعمال الرب. فإذا كان الرجل الإنجليزى فقيرًا [illegible] حزينًا أو مريضًا لديه حاجة من أى نوع إلى الخدمة الروحية، أو الاستشارة، [illegible] فقط سوف يراه، ولا شىء غير ذلك.

[illegible] مرة أخرى قيل لى ما ليس بِرَدِ الرجلِ العجوزِ، بل أخبرونى بأن انتكاسة خطيرة [illegible] بصحة الأسقف فى ذلك اليوم جعلت من المستحيل عليه تحقيق رغبته الملحة فى رؤيتى.

ومع ذلك لم يكن البريطانى المشاغب ليرضى أو يقول «معلهش»، كالشرقى المؤدب الذى يَسْهُل رَدُّهُ عما يطلب. من حسن الحظ أن المصريين يغفرون للإنجليزى فظاظته، باعتبار أن تلك هى عاداتنا الوطنية التى تتسم بالغرابة، وأنه لا يجب محاسبتنا عليها بالمرة. وكثيرًا ما يغطى الأدب الشرقى على وقاحة الضيف الأوروبى، باعتبار ذلك عذرًا كافيًا؛ فالمضيف يستمر فى السعى لخلق شعور من الرضا فى نفس ضيفه، ما دامت الفرصة قائمة لتحقيق رغباته. كان علىَّ أن أقول «معلهش»، ولكن كان بإمكانى ألا أبدى ذلك الأدب فتركت أصدقائى فى مشكلة كانوا لا يزالون يكافحون من أجل التغلب عليها، باعتبارهم مضيفىَّ.

بدا هؤلاء الرجال مهتمين اهتمامًا جادًا عندما ظللت على احتجاجاتى، مع إبداء عناد مفترض كنت أعلم جيدًا أنه سوف يجعلهم يحاولون مرة أخرى إزالة الشىء الأكثر فظاعة بالنسبة لهم، وهو عدم رضا الضيف.

خطرت لصديق قبطى عرفته منذ فترة فى القاهرة فكرة رائعة. ألم أكن أعانى من تعب فى الزور؛ ألم أبقَ فى مصر منذ عامين لأسباب صحية صرفة؟ كان ذلك يكفى.

وبسرعة أخبروا الأسقف أن إنجليزيًّا يعانى من اعتلال فى الصحة يسعى للحصول على بركاته.

قال الأسقف على الفور «أحضروا لى الرجل المسكين». وحدد الخامسة من عصر اليوم التالى موعدًا للزيارة.

عندما عاد الوفد بهذا الخبر (نسوا حينها أن يبدوا مقتنعين ظاهريًّا بشأن صحة الأسقف) ابتسمنا جميعًا فى وجوه بعضنا وقد استعدنا ذلك الشعور الطيب، كأننا مجموعة من الأطفال غمرتها الفرحة لـ«تعويض ما فات» بعد وجوم طال كثيرًا.

تذكرت ما كنت قد قرأته عن القديس القبطى القديم أنطونيوس الذى كان له رد واحد على الأشخاص ذوى الجاه الذى يسعون عبثًا إلى إخراجه من صومعته، فى حين أنه «مثلما تموت السمكة خارج الماء، يموت الراهب خارج قلايته». وكانت الفرصة الوحيدة لمقابلة القديس أنطونيوس القديم هى طلب تدخله من أجل شخص ما فى ضائقة.

الشىء الأخير الذى أعاق سعادة الجمع القبطى الكبير من الأصدقاء فى ذلك المساء هو الشكوك والظنون، التى تجمعت من جديد، بشأن ما قد أتصوره عن الحالة التى سوف أجد الأسقف يعيش فيها. فقد حاولوا بكل نوع من الإشارات والاعتذارات الرقيقة إعدادى ذهنيًّا للزيارة، وذلك لكى أفسر الأمور التفسير الأكثر قبولًا قدر الإمكان.

فى اليوم التالى انطلقنا فى عربات مضيفى، حيث سرنا فى المدينة جميلة المنظر (بتلك السرعة الكبيرة التى يحبها المصريون) إلى منطقة بعيدة عن الطريق بيوتها سيئة البناء تختبئ وسطها الكنيسة.

كانت مضيفتنا إحدى السيدات القبطيات «المودرن» اللائى سافرن كثيرًا إلى أوروبا ويتحدثن الإنجليزية على نحو جيد جدًا، ولم يخلعن الحجاب فحسب، بل كل ما يشبه تلك العباءة السوداء وكان المقصود بها أن يجعل النساء الشرقيات غير ملحوظات خارج البيت.

وبما أن زوجتى كانت ستزور الأسقف كذلك، فقد صاحبتنا مضيفتنا، وإن لم تتوقف منذ البداية عن التمتمة باعتراضاتها الرقيقة على ذلك الإجراء؛ فهى تفكر فى رعب القذارة المنزلية الذى تعلمته جيدًا فى إنجلترا؛ ذلك أنه ما من سيدة مصرية علمت ما يعنيه حبنا للنظافة إلا وتبنته. وهى تعود إلى وطنها الأم باستياء مفيد يجرى من خلاله القليل من الإصلاح المطرد على نحو سوف تتجه به الأمور كافةً نحو التقدم الحقيقى فى مصر ـ أى تحسن الحياة المنزلية السعيدة التى تتسم بالكفاءة.

أحدث ظهور موكب عرباتنا رد فعل مثير فى الشوارع الرديئة فتجمع حشد صغير عند مدخل الكنيسة، حيث كان ينتظرنا كاهنان أو ثلاثة ليرحبوا بنا الترحيب الرسمى. وهناك ما يدل على القيام بمحاولة لتنظيف الفناء الصغير والدَّرَج، غير أن قرونًا من القذارة تتحدى بسهولة ذلك الهجوم العارض. أما الرائحة التى على الدَّرَج المؤدى إلى غرف الأسقف، فلا أظن أن شيئًا أقل من إزالة المبنى من أساسه يمكنه نزع هذا الشىء «الراسخ منذ القدم».

حينذاك خيم الصمت على مرافقىَّ من جراء ما يشعرون به من ضيق عندما تذكروا أن مؤامراتهم للحفاظ على السر غير المقبول سوف يُتغَلب عليها لا محالة، إلا أن الشىء الذى شعرت به هو أنهم يميلون إلى الإخفاء أكثر منهم ميلًا إلى العلاج. وقد أعطانى أحدهم، وقد تخرج حديثًا من جامعة أكسفورد، بستيلية فورامنت وحصَّن نفسه خفيةً.

وصلنا إلى غرفة خارجية، وكانت مظلمة وخالية كأنها عِلِّية فى بيت خَرِب، وكانت الأرضية سوداء بسبب السُّخام، والجدران عارية، كما تركها البَنَّاء منذ زمن بعيد، إلا من أكاليل العنكبوت المحملة بالغبار. وكانت النوافذ معتمة من جراء ما عليها من قذارة، وكان جزء كبير من الزجاج محطمًا. انتظرنا فى تلك الغرفة بينما دخل كبير الكهنة غرفة ملحقة وخرج منها مرة أو مرتين وهو يهمس بتعليقات بالعربية لمجموعتنا لم أتبينها.

هـا نحـن نتلقى الإذن بالدخـول، حيث قادونا إلـى قاعة تبدو أكبر إلـى حد ما من الغرفة الأمامية؛ وكان حالها من حال سابقتها، وكانت عارية مثلها، إلا من سرير مربع وكرسيين من الواضح أنه جيء بهما من أجل هذه المناسبة.

علـى السـرير، جلـس الأسـقف بجسـمه الضعيـف شـديد النحافة فـى الوضـع الشـرقى، وقـد تدثـر بـرداء أسـود نُحلت خيوطـه، وكانت على رأسـه عمامة سـوداء مجدولة.

كانـت التعليمـات أن الرجـل العجـوز يريـد أن يعرف بشـكل خـاص وعلى نحو صحيـح أسـماء من هـم غريبون عنـه. وقـد أمسـك بيـد كل زائـر فـى دوره، ولكنـه أبقـى يديـه طوال الوقت مختفيـة جزئيًا داخـل كم رداءه الواسـع. والأمـر الغريزى لـدى كل شـرقى هـو تقبيل يـد أى رجل يُكِن لـه إجلالا شـديدًا، ولكنـى وجدت أن الأسـقف إبرام لا يسـمح لأحد بأن يقبل يده؛ فهو يتحاشـى ذلـك بتغطيتها على ذلك النحو.

نظرت بحب شـديد فى وجه هذا القديس المعاصر. وكان من المسـتحيل الشك فى استحقاقه لهذا اللقب، إذ جعلت قدرة الروح النقية والجميلة نفسها محسوسة فى الحال، بقوة تكاد تكون طاغية.

بـدت العينـان من وجـه هادئ جـاد تَحُفُّه لحيـةٌ صغيرةٌ بيضـاءُ لم تُغَـطِّ بحال من الأحـوال الفـم الحسـاس. وكانت العمامـة قد أُرجعت أكثـر من المعتاد إلـى الوراء، تاركـةً الجبهـة العريضة الخالية من التجاعيد توحى بأن الزاهد فى تلك الحالة يحكمه ذكاء لطيف.

بدت مسـألة كون الأسـقف مئويًـا أمرًا يصعب تصديقـه؛ فهو قد يبـدو ضعيفًا لما يبدو عليه جسـمه من وهن، ولكن ليس فيه ما يشـير إلى أن العمر أصاب عقله بشىء؛ وعندمـا تلمح نظرة عينيه الثابته، وتسـمعه يتحدث، تنسـى القيـود البدنية التى جعلت بالضـرورة مـن سـريره الكرسـى الـذى يحكم منـه أسـقفيته ويرعـى عالمًا أكبر من الإنسانية التى تعانى.

وُضِع الكرسـيان بجوار السـرير، كى نكون أنا وزوجتى قريبين من الأسـقف. بعد ذلك سـألنى بجد وهمة عن كنيسـة إنجلترا، وعن أسـقف لندن الذى كان يزور مصر

فى ذلك الوقت، فقد سمع عنه، وقال لى إنه يعرفنى، وأنه سبق أن التقينا فى الخرطوم. ثم انتقل إلى أمور أكثر شخصيةً وكان مهتمًا بحالتنا العامة.

وبناءً على طلبى بأن يهبنا الأسقف بركاته، طلب هو بصوت هادئ جدًا من أحد الكهنة الحاضرين أن يأتى له بصليبه اليدوى. وكنت قد سمعت من قبل عن هذا الصليب بعينه الذى أمسك به عند مباركة عشرات الآلاف من المصريين، وكان معظمهم يعتقد أنه فى حد ذاته يتميز بقوى روحية. إنه صليب الأسقف الذى استخدمه فى حياته الإكليروسية كلها، وأنا أعرف أنه هو نفسه يعتبر أن قدراته سوف تضطرب إذا ما أصاب هذا الصليب شئ أو ضاع.

أعتقد أنه من المعتاد فى كل كنيسة أن يركع الشخص على ركبتيه كى يباركه الأسقف؛ ولكن الأنبا إبرام لا يسمح بحال من الأحوال لأحد بأن يركع أمامه، فهو يقول إنه للرب وحده يكون ذلك الانحناء. ولم يكن مرتاحًا حين شعرت أنه من الواجب علىَّ أن أركع، ولكن عندما أوضحت أن إجلالى الأول للرب، ثم لخادمه، استسلم برقة.

بعد أن أخذ الأسقف الصليب بيده اليمنى، وأمسكه فوق رأسينا، تدفقت صلوات وتبريكات كنيسته المدهشة، باللغة القبطية فى أغلبها، وبنبرات تنم عن الإخلاص الشديد.

تعرفت على القليل من الكلمات المجردة، ما عدا «كيرياليسون» (رب ارحم) التى تكررت مرارًا. ومع ذلك فقد انتشيت من الهمة التى كان ينطق بها الرجل وهى كهمة الأطفال؛ فلم أسمع من قبل صلاة بدت وكأنها تقيم صلة مع عرش النعمة بهذا الأمن الفورى؛ وبدا الأمر وكأن الأرض تضاءلت تاركةً هذا الرجل يتحدث فى الحضرة الجَلِيَّة للرب نفسه.

كان شكل المباركة شديد الشرقية حتى أننى طلبت بعد ذلك من كاهن يعرف القبطية والإنجليزية معرفة جيدة أن يفرغها لى؛ وها أنا أقدمها لكم هنا بعد حذف الفقرات التى اتسمت بأمور شخصية تخصنى أنا وزوجتى. وإذا كان لا بد لى من ذكر الجهود المطولة التى حصلت بها على هذه الترجمة، فينبغى علىَّ أن أروى قصة

المثابـرة المبدعة التى دامت شـهورًا عديدة من جانب الأصدقـاء الأقباط المخلصين ومن جانبى، وهى القصة التى سوف يقرؤها أى شخص يعرف «أُبْكُرَة» (غدًا) الشرقية معرفـةً جيـدةً. والصيغة القبطية للصـلاة الربانية مهمة. وها أنا أقـدم الصيغة كلها كما كتبها الكاهن.

بسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد. آمين.

أبانـا الذى فـى السـموات، يتقدس اسمك، يأتـى ملكوتك كما فى السماء كذلـك علـى الأرض. خبزنا كفافنـا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنـا كما نغفر نحـن أيضًـا للمذنبيـن إلينـا، ولا تدخلنـا فـى تجربة، لكـن نجنا من الشرير بالمسيح يسوع ربنا إلى الأبد. آمين

صـــلاة الشكـــر

فلنشكر صانع الخيرات الرحوم الله، أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، لأنه سترنا وأعاننا، وحفظنا، وقبلنا إليه وأشفق علينا وعضدنا، وأتى بنا إلى هـذه السـاعة. هو أيضا فلنسـأله أن يحفظنا فـى هذا اليوم المقـدس وكل أيام حياتنـا بكل سـلام. الضابط الـكل الرب إلهنا. أيها السـيد الإله ضابط الكل أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسـوع المسـيح، نشـكرك على كل حـال ومن أجل كل حـال، وفـى كل حـال، لأنك سـترتنا، وأعتنـا، وحفظتنـا، وقبلتنـا إليك، وأشـفقت علينـا، وعضدتنا، وأتيت بنا إلى هذه السـاعة. من أجل هذا نسـأل ونطلـب مـن صلاحك يا محب البشـر، امنحنـا أن نكمل هذا اليوم المقدس وكل أيـام حياتنـا بكل سـلام مع خوفك. كل حسـد، وكل تجربـة وكل فعل الشيطان ومؤامرة الناس الأشـرار، وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين، انزعها عنـا وعـن سـائر شـعبك، وعـن موضعـك المقـدس هـذا. أما الصالحات والنافعات فارزقنا إياها. لأنك أنت الذى أعطيتنا السلطان أن ندوس الحيات والعقارب وكل قوة العدو.

ولا تدخلنـا فـى تجربة، لكـن نجنا مـن الشـرير. بالنعمـة والرأفـات ومحبة البشـر اللواتـى لابنـك الوحيـد ربنـا وإلهنـا ومخلصنا يسـوع المسـيح. هـذا الـذى من قبلـه المجـد والإكرام والعـزة والسـجود تليـق بـك معـه مع الروح القدس المحيى المساوى لك الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

صلوات قصيرة من طقس القُدَّاس

أيها الرب الإله ضابط الكل أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسـوع المسـيح، نسـأل ونطلب من صلاحك يا محب البشـر، اذكر يا رب سـلام كنيستك الواحد الوحيدة المقدسـة الجامعة الرسـولية، هذه الكائنة من أقصاء المسـكونة إلى إقصائها.

اذكر يا رب بطريركنـا المكرم البابـا الأنبا كيرلـس، حفظًا احفظه لنا سـنين كثيرة وأزمنة سـالمة.

اذكر يا رب اجتماعاتنـا باركها، اجعلها أن تكون بغير مانع ولا عائق لنعقدها كإرادتك المقدسـة الطوباوية.

بيوت صلاة، بيوت طهارة، بيوت بركة أنعم لنا بها يا رب ولعبيدك الآتين من بعدنـا إلى الأبد. قم أيها الرب الإله وليتفرق جميـع أعدائك وليتبدد من قدام وجهك كل مبغضـى اسـمك القدوس. وأمـا شـعبك فليكن بالبركـة ألوف ألوف وربوات ربوات يصنعون إرادتك المقدسـة. بالنعمة والرأفات ومحبة البشـر اللواتـى لابنـك القـدوس ربنا ومخلصنا يسـوع المسـيح لـه وللروح القدس المجد والشرف، الآن وإلى الأبد. آمين.

قانون الإيمان (تلاه الأسقف بالعربية)

بالحقيقة نؤمن بإله واحد. الله الآب ضابط الكل. خالق السـماء والأرض، ما يرى وما لا يرى. نؤمن برب واحد يسـوع المسـيح ابن اللـه الوحيد، المولود مـن الآب قبـل كل الدهـور، نـور من نور، إلـه حق مـن إله حق، مولـود غير مخلـوق، مسـاوٍ للآب فـى الجوهر، الـذى به كان كل شـىء. هـذا الذى من أجلنـا نحن البشـر، ومن أجـل خلاصنا، نزل من السـماء وتجسـد من الروح القدس، ومـن مريم العذراء، وتأنس وصلب عنا، على عهد بيلاطس البنطى، وتألم وقبر، وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السـموات وجلـس عـن يميـن أبيـه، وأيضًـا يأتى فـى مجـده ليديـن الأحياء

والأموات. الذى ليس لملكه انقضاء.

نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيى، المنبثق من الآب. نسجد له ونمجده مع الآب والابن، الناطق فى الأنبياء.

ونؤمن بكنيسة واحدة، مقدسة، جامعة، رسولية. ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا.

وننتظر قيامة الأموات، وحياة الدهر الآتى. آمين.

كيرياليسون! كيرياليسون!! كيرياليسون!!! (تكرر ثلاثًا اثنتا عشرة مرة) الصلاة الربانية.

صلاة تسمى التبرير[1] (تُليت باللغة القبطية)

أيها الرب يسوع المسيح الابن الوحيد وكلمة الله الآب الذى قطع عنا كل رباطات خطايانا من قبل آلامه المخلصة المحيية التى نفخ فى وجه تلاميذه القديسين ورسله الأطهار وقال لهم أقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه غفرت لهم ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت. الآن أيضًا، ياسيدنا، أمام تلاميذك القديسين ورسلك الأطهار منحت هؤلاء الذين يعملون فى الكهنوت فى كنيستك القدسية القدرة على غفران الخطايا على الأرض، وعقد وحل كل رباطات الظلم. الآن أيضًا نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر، عن خدمك هؤلاء المنحنين برءوسهم أمام مجدك المقدس ارزقنا رحمتك واقطع عنا كل رباطات الظلم. فإذا أخطأوا معك فى أى شىء، بعلم أو بغير علم، بالفعل أو بالقول، فأنت يا محب البشر عارف بضعفهم. امنحنا يا ربنا مغفرة خطايانا. اجعلنا نخافك. ارعنا لنسير حسب مشيئتك المقدسة، لأنك ربنا الذى له وللروح القدس واهب الحياة نسجد ونمجد، الآن وكل أوان، وإلى دهر الدهور. آمين.

(١) تقول ملاحظة الكاهن: «الكلمة باللغة العربية هى «التحليل»، وهو ما قد يجعل اسم الصلاة «طلب المغفرة»، ولكن بناءً على معنى الكلمة باللغة القبطية فهى تعنى «التبرير».

المباركة (تُليت باللغة القبطية)

ليتراءف الله علينا ويباركنا، وليظهر وجهه علينا ويرحمنا. خلص شعبك وبارك ميراثك وارعهم واحملهم إلى الأبد. بارك زمن أتباع المسيح بقوة صليبك المحيى وتوسلات سيدتنا وملكتنا أم الإله القديسة والصالحة مريم، والرؤساء الصالحين ميخائيل وغبريال ورفائيل وسوريال؛ والأربع حيوانات غير المتجسدة؛ والكهنة الأربعة والعشرين. الشاروبيم والسيرافيم، والقديس يوحنا المعمدان، والمائة وأربعة وأربعين ألفًا[1]، وسادتى الآباء والرسل. وأبونا بطرس، ومعلمنا بولس، وبقية الرسل، والثلاثة الفتية شدرخ وميشخ وعبدنغو[2] والأرشيدياقون إسطفانوس أول الشهداء. وسيدى الملك القديس جورجيس، والقديس تادرس المشرقى فيلوباتير، وفورياؤس، والقديس الأنبا مينا، والأنبا بقطر بن رومانوس، وكل الشهداء. والقديس العظيم الأنبا أنطونيوس، والأنبا الصالح بولا. والمقارات الثلاثة[3]، والأنبا يوحنا، والأنبا بيشوى، وأبوانا الروحيان ماكسيموس ودميانوس؛ والأنبا موسى والشهداء التسعة والأربعون. كل هؤلاء الذين يلبسون الصليب، الصالحون، وكل العذراوات الحكيمات، وملاك هذا اليوم. سوف تكون معنا مباركتهم المقدسة، وعفوهم، وقوتهم، وحبهم، وعونهم إلى دهر الدهور. آمين.

أيها المسيح ربنا! يا ملك السلام، أعطنا سلامك، قرر لنا سلامك، واغفر لنا خطايانا، لأنه لك القدرة والقوة والمجد الآن وكل أوان وأبد الدهور. آمين.

(١) تشير بعض المصادر الإسلامية أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وأربعين ألفًا. وعن النبى صلَّى الله عليه وسلَّم أنه سئل عن الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا». (المترجم).

(٢) هؤلاء هم الفتية من بنى إسرائيل الذين رفضوا بعد السبى أن يسجدوا لتمثال نبوخذ نصَّر، فأمر بتسعير الحريق وألقوا فيه. والثلاثة فتية كانت لهم أسماؤهم العبرية المرتبطة بالله ـ فحنانيا يعنى «الله حنان»، وميشائيل يعنى «من مثل الله !!؟.». وعزريا «الله يعين». وحاول السبى أن ينسيهم هذا الارتباط بتغيير أسمائهم، وإضافة آلهة الكلدانيين إلى أسمائهم الجديدة، فأخذ حنانيا اسم «درخ» أو «أمر آخ» وآخ كان معبود القمر عند البابليين أو كما ندعوه الآن «سدراك» وميشائيل أضحى «ميشخ» أو تحول من «مثل الله» إلى «مثل آخ» وهو عندنا الآن ميخائيل، والثالث وكان اسمه «عزريا» وقد أعطى اسم «عبدنغو» أى عبد نبو معبود القلم والكتابة عند البابليين. (المترجم).

(٣) المقارات الثلاثة هم: المصرى المدعو بالكبير، والإسكندرانى، المدعو بالمدنى (نسبة إلى المدينة العظمى الإسكند[illegible]قف ادقاو الشهيد (ادقاو مدينة بجوار أسيوط). (المترجم).

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد.

مبارك الله الإله ضابط الكل. آمين.

مبارك ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا. آمين.

مبارك الروح القدس المعزى. آمين.

القدرة والمجد للثلاثة، الآب والابن والروح القدس، الآن وكل آوان إلى دهر الدهور. آمين.

الصلاة الربانية

انتهت المباركة، وعاد الرجل العجوز اللطيف يستفسر من جديد، بنبرات تنم عن قلق الرقيق، عن حال الكل، أنا وعائلتى. وتحدث بالطريقة الشرقية عن السرور الذى منحته إياه تلك الزيارة.

استدار الأسقف ناحية أحد الكهنة وطلب منه إحضار بعض الهدايا الصغيرة، التى كانت تتكون من مناديل كثيرة ملونة(١) بعدد أفراد مجموعتنا الحاضرة. أمسك المناديل منفصلة فى يده اليسرى وأمسك الصليب فوقها، باسم كل واحد منا فى دوره، ثم أعطاها لنا تذكارًا للزيارة.

من المعتاد باستمرار فى الشرق، كما لاحظت، تقديم الهدايا للضيوف؛ وكانت تلك الهدية زهيدة الثمن وكانت فى الوقت ذاته دليلًا على الأدب ورمزًا للفقر الذى يعيش فيه الأسقف؛ وهذا هو شكل هدايا الأسقف باستمرار، لأن البركةَ الشخصية تصاحبها، والمنديل الأحمر الصغير الذى وُزِّع فى أنحاء مصر، يحظى بالتكريم فى آلاف البيوت، حيث يُعد بلا شك نوعًا من التميمة المقدسة.

حينا الأسقف بعد ذلك وانصرفنا. وقد صاحبنا رئيس الكهنة، عبد السيد، إلى البوابة الخارجية، حيث كان جمع من أهالى الحى ينتظر ظهورنا ـ وقبل الانصراف خاطبنا خطابًا رسميًا أثناء وقوفنا فى الفناء المفتوح بهذه الكلمات:

(١) كانت تلك مناديل حمراء مطبوع عليها باللون [illegible] خشنة، ربما لا تزيد قيمتها على بنس.

«منحتنا زيارتكم لنا اليوم شرفًا عظيمًا. وقد فرِح الأنبا إبرام، ومحدثكم، وكل شعب الفيوم بزيارتكم فرحًا كبيرًا. تقبلوا عميق شكرنا. حفظكم الله للأبد. آمين».

كان المعتاد مخاطبة زوار الكنائس والأديرة على هذا النحو، كما يشير كل سجل قبطى محفوظ ـ وبصورة عامة كان ذلك يجرى بقدر أكبر من الإسهاب.

يمكننى هنا إبداء ملاحظة أو ملاحظتين عن النقاط التى أثيرت حول مباركة الأسقف ـ وهى فى الغالب نتيجة تحريات شخصية عن الأساقفة والكهنة وغيرهم من المراجع الحية.

«كيرياليسون» هى الصيحة التى تُردَّد كثيرًا ويمكن التعرف عليها، بسبب لغتها، فى كل قُدَّاس من قُدَّاسات الكنيسة الشرقية. فمنذ أقدم العصور وهذه الصيحة تصعد إلى السماء، بلا توقف تقريبًا. وبالنسبة لترديدها، فإن المراقبين الغربيين الذين يظنونها هراءً مرهِقًا ومملًا، مثل أسقف سالزبورى، لن يفهموا الشرق حتى يدركوا الحاجة العميقة الموجودة فى العقل الشرقى إلى تعبير شديد العاطفة عن النفس لا يمكن بلوغه إلا بالتركيز المطول على كلمات أو عبارات قصيرة بعينها، بغض النظر تمامًا عن كون هذا العقل مسيحيًا أو مسلمًا، بوذيًا أو هندوسيًا. فإذا كان الدرويش يبلغ منتهى النشوة بصياحه ألف مرة «الله! الله!» فإن المسيحى الذى يسعى إلى صحبة الرب يتبع السبيل نفسه، وهو ما بدا على الدوام للعقل الغربى أمرًا لا معنى له ومملًا. إحدى القديسات القبطيات الأوليات، وهى المرأة المباركة تاييس العاهرة، أقامت فى قلاية منفردة لمدة ثلاث سنوات وهى تردد بلا توقف «كيرياليسون»؛ «وكانت مكافأتها عظيمة».(١)

وإذا كان القبطى يستعمل مسبحة، فهو يعد بها المرات التى يقول فيها «كيرياليسون»، كى يردده فى صلواته اليومية بالعدد الصحيح، وهو مقسم باستمرار إلى ثلاثات. وحين يشعر بالفزع تكون تلك هى أول صيحة على شفتيه؛ وإذا كان فى حاجة شديدة، يكون الأمر كذلك. وفى الأزمنة القديمة كانت الأمة كلها تصلى

(١) رسم أناتول فرانس صورة على قدر رقيق من الجمال لحياة تاييس ومِحَنِها فى روايته التى تحمل اسمها.

للرب كى يعيد ملأ النيل بالماء، صائحين فى نفس واحد «كيرياليسون» بينما يصيح المسلمون «الله أكبر» وهم يرغبون بشدة فى الإلحاح على الله العظيم بالسؤال ـ ويقول التاريخ إن معجزة الفيضان الثانى كانت هى النتيجة أكثر من مرة. وإذا كان الحشد المسلم فى العصور الأخرى قد سخر من المسيحيين بمحاكاته الصيغة المقدسة، فلا بد كذلك من تسجيل أن الكثير من الأقباط يظنون أن المسيحيين الغربيين خارج الحظيرة حين يجدون أنهم لا يصلون «كيرياليسون» مائتى مرة ومرة.

منذ أقدم العصور والكنيسة القبطية تتوسل بأسماء الملائكة المذكورة فى الصلاة التى يتلوها الأسقف. ويحظى رئيس الملائكة ميخائيل بتكريم عظيم فى مصر. وفى فولكلور القرن الرابع وما بعده، وجد أميلينو استخدامًا كثيرًا العبارة «بشفاعة الملاك ميخائيل». والمعروف أنه حل محل أحد الآلهة الوثنية الأكثر شهرة. وكان البابا الكسندروس هو الذى حطم التمثال النحاسى لذلك المعبود أمام الناس فى الإسكندرية، حيث حوَّل معبده إلى كنيسة؛ ووافق الناس على وعد بأن يجدوا رعاية كبير الملائكة أفضل من رعاية ذلك المعبود، وأن يستمر العيد السنوى بلا تغيير. وحتى يومنا هذا ما زال العيد تكريمًا لميخائيل(1).

ترجمة الصلاة الأخيرة التى استخدمها الأسقف وأنجزها لى كاهن قبطى ترجمة مهمة، حيث إنها تختلف اختلافًا طفيفًا عن ترجمتها السابقة إلى الإنجليزية. فقد اختلطت أسماء الملائكة بأسماء الآلهة الوثنية. وأبرز تلك الأسماء المذكورة

(1) كان الوثنيون بالإسكندرية يعبدون الصنم زحل صاحب التمثال الذى بنته كليوباترا فى اليوم الثانى عشر من شهر بؤونه، وفى أيام الملك قسطنطين أخذ البابا الكسندروس فى وعظ الجميع مظهرا لهم خطأ عبادة الأوثان التى لا تعقل ولا تتحرك وخطأ تقديم الذبائح لها. ثم حول هيكل هذا الصنم إلى كنيسة باسم الملاك ميخائيل بعد أن حطم التمثال وطلب منهم أن يذبحوا الذبائح لله الحى ويوزعوها على الفقراء الذين دعاهم إخوته حتى يكسبوا بذلك شفاعة الملاك ميخائيل. وكانت هذه الكنيسة تسمى وقتئذ بكنيسة القيسارية (عن مخطوط بشيين الكوم). وقد قيل إن هذا العيد مأخوذ كذلك عن قدماء المصريين القدماء الذين كانوا يعتقدون أن زيادة النيل تبتدئ فى الليلة الثانية عشرة من شهر بؤونة (نزول النقطة) أى دمعة إيزيس إلهة الخصب والنماء، وهى الدمعة التى أراقتها حزنا على زوجها أوزيريس إله الخير الذى قتله تيفون إله الشر، وقد استبدل هذا العيد فى المسيحية بعيد رئيس الملائكة ميخائيل (تاريخ الأمة القبطية). (www.koptischekerkeindhoven.nl/aartsengel_michael.htm - 11k) (المترجم).

صلاة الأسقف ـ ميخائيل قاهر التنين (رؤيا يوحنا اللاهوتى ١٢: ٧)(1)، كانت له وظائف شفائية كذلك؛ وغبريال ورفائيل وأورياثيل؛ وأخنوخ، كاتب السماء الذى احتل المكانة التى كان يشغلها تحوت فى الأزمنة الوثنية.

عندما شاهدت الأسقف، الذى لا شك فى أن شهرته سوف تظل حية قرونًا فى بلد لا تزال فيه القداسة والورع السبب الأساسى لبقاء الذكرى، أصبحت شديد الاهتمام بالقصص الكثيرة التى يكشف عنها ذكر اسمه فى أى جزء من البلاد مهما بَعُد.

أحد أغرب الأمور بالنسبة للمراقب الغربى هو أنه يجد أن من بين أفراد تلك الحشود التى تلجأ يوميًا إلى هذا الرئيس الدينى المسيحى، الذين يقطع الكثيرون منهم المسافات الطويلة كى يحصلوا على مباركته الشخصية، من المسلمين من يتساوون فى عددهم مع المسيحيين. لا اختلاف فى الإيمان المتلهف فى قدرته على مساعدتهم فى كل أحزانهم ومشاكلهم ـ وهى الحقيقة التى تجعل الذين تعلموا النظر إلى التعصب على أنه السمة الأولى من سمات أتباع محمد مخطئين.

عندما يُسأل كل هؤلاء الناس البسطاء عما لديهم من أسباب للظن بأن بإمكانهم الحصول على خير من أسقف مسيحى، يقولون إنه رجل طيب، وإن الرجال الطيبين جميعًا مقبولون من الله؛ فالأسقف يصلى لله كما يصلون، وهو تلميذ لسيدنا عيسى «عليه الصلاة والسلام».

بالنسبة للقدرة التى منحها الرب للأسقف كى يفعل الخير للرجال والنساء الفقراء، ألم يسمعوا عنها لسنوات عديدة؟ لقد رأوا بأعينهم الرجل المريض الذى شُفِى، ومن كانت تلبسهم الشياطين أُخرِجت منهم. ألم يعرفوا أن بصيرة الأسقف يمكنها تعرية خداع اللص، وأنه من المستحيل أن يهرب اللص ولو خدعه؟ حكوا لى أنه فى يوم من الأيام ذهب إليه رجل «يسأله مالًا ليدفن ابنته». شك الأسقف فى أن الرجل محتال، ولكنه أعطاه المال الذى طلبه قائلًا «سوف يجازيك الله بالعقوبة

(1) «وحدثت حرب فى السماء. ميخائيل وملائكته حاربوا التنين». (المترجم).

التى تستحقها». وعندما ذهب الرجل إلى بيته وجد أنه فى اللحظة التى كان الأسقف يتحدث معه فيها ماتت ابنته فجأة.(١)

يُروى عن الكثير من رهبان الصحراء المصرية القدماء قدرتهم على قراءة أفكار الناس، وفهم الأشياء التى تمر فى خاطرهم. كان الأنبا بولا يتمتع بموهبة أعطاها له الرب هى النظر داخل نفس كل رجل، ومعرفة ما عليه نفسه.

إنه ديودوروس الذى قال عند حديثه فى أيام الكهانة تلك: «تتنبأ النفس بأحداث المستقبل فى الخيالات التى تخلقها هى». عندما كان المبارك أمون يعيش فى نتريا، أحضروا له صبيًا مصابًا بُرهاب الماء (داء الكَلِب). نظر الأنبا أمون إلى أقارب الصبى ووبخهم قائلا: «انصرفوا! إن شفاء الصبى فى أيديكم أنتم. أعيدوا ثمن ثور الأرملة الذى ذبحتموه سرًا فيعود لكم الصبى معافى». وفعلوا ذلك وشُفِى الصبى من مرضه، بعد صلاة آمون.(٢)

---

(١) هناك رواية أخرى تقول: إن ثلاثة شبان أرادوا استغلال حبه للفقراء، فدخل اثنان منه يدّعيان أن ثالثهم قد مات وليس لهم ما يُكفنانه به، فلما سألهم الأب الأسقف: «هو مات؟!»، فأجابوا: «نعم مات». ثم هزّ الأسقف رأسه ومدّ يده بالعطية قائلا: «خذوا كفّنوه به». وخرج الاثنان يضحكان: لكن سرعان ما تحول ضحكهما إلى بكاء عندما نظرا ثالثهما قد مات فعلًا. وتقول رواية ثالثة «كان تاجرا وخسر تجارته وذهبت أمواله ففكر فى حيلة ليأخذ مبلغًا كبيرًا من المال من الأنبا إبرام وهى أن يذهب إليه ويخبره أن ابنه الوحيد مات وليس عنده ما يكفنه به، وذهب إليه مصطنعًا البكاء ينوح على وحيده الذى نشب الموت أظفاره فيه وهو فى عنفوان شبابه فتوسل أن يمد له يد المساعده ويمده بالمال اللازم واللائق ليدفن به وحيده، فابتسم الأنبا إبرام ابتسامة تنم عن معرفته بالحيلة وأجابه: هلاكة ابنك الذى سيكون عضدك فيما بعد، لماذا اتخذت هذه الوسيلة الشريرة وكذبت على الرب وادعيت موت وحيدك؟، أنا أعرف أن العذر الشديد هو الذى جعلك تفعل هكذا فخذ ما أعطاك الرب ولا تعد لهذا العمل مرة أخرى ثم أعطاه مبلغًا من المال «وخرج الرجل وكان مسلما متأثرًا قائلًا: «ونعم الديانة المسيحية» لأن فيها قديسين يعرفون الغيب ويرحمون المساكين والمحتاجين». (المترجم).

(٢) مما يُروى عن الأنبا إبرام فيما يتعلق بمعرفة الغيب أن أحد المسيحيين أرسل إليه ثوبًا من القماش وتسلمه تلميذ من تلاميذه اسمه ميخائيل عيد، ثم قال لسيده: إنه تسلم نصف الثوب فقط. وعرف الأنبا إبرام حقيقة الأمر ولكنه لم يكاشفه وحضر الرجل الذى أرسل الثوب وقال للأنبا إبرام: «لعله يكون قد وصل قداستكم ثوب القماش». فقال: «وصل يا ابنى، الرب يعوضكم بالخير». وطلب إحضار التلميذ وقال له: « هل وصلك ثوب أم نصف ثوب ؟ « فقال له: «نصف ثوب». فقال الأنبا إبرام:» ماذا ستفعل بالنصف الثانى؟ « فسكت التلميذ. فقال له الأنبا إبرام: «إنه سيكون كفنك. كل شئ عندى هو لك. فلماذا هذا الطمع ؟ وبعد أسبوعين توفى التلميذ وكان كفنه النصف الثانى من الثوب الذى أخفاه عن =

أمون آخر ذلك الذى عرف بعقله، عندما كان مسافرًا على ظهر سفينة فى النيل، أن الإخوة فى الدير الذى يمر عليه بحاجة إليه. وكانوا فى تلك اللحظة قد خرجوا بالفعل يبحثون عنه لوقوعهم فى مشكلة، فقابلهم على ضفة النهر وهدأ مخاوفهم.

تحدثت عن الرداء المتواضع الذى كان الأسقف العجوز يتدثر به. فقد كان بالمعنى الحرفى للكلمة مثل ثوب أحد النُسّاك الأقباط الأوائل، وهو الأنبا إسحاق، الذى أكد أنه «ينبغى أن تكون هيئة اللباس الذى يرتديه الراهب على نحو لا يجعل أحدًا يستولى عليه إذا تُرِك ثلاثة أيام خارج القلاية».

قاعدة الفقر الخاصة بالأسقف إبرام قاعدة مطلقة وتخلو من أى معنى مزدوج، تمامًا مثل قاعدة آباء كنيسته؛ فهو فقر لم يكن ينتظر بحال من الأحوال الإعلان عن نفسه بعد الاضطرار لإنفاق ١٠ آلاف جنيه سنويًا فى الحفاظ بشكل آلى على ما نسميه بغموض «الوضع المناسب».

قبل زيارتى، لم يعجب رجلا علمانيًا ثريًا أن يرى أسقفه مرتديًا عباءة بالية، ولذلك ذهب واشترى رداءً، ناعمًا أسود. وعندما عاد إلى الغرفة العليا، توسل إلى الأسقف كى يتخلص من الرداء القديم؛ فها هو رداء جديد. أخذ الرجل العجوز الرداء وهو يبتسم ابتسامة باهتة ودسه تحت وسادته. وفى وقت لاحق من ذلك اليوم، رأى الأسقف وسط الجمع الذى التف حوله فلاحًا فقيرًا رث الثياب يرتعش من البرد، فقال له: «لقد تذكرك الرب اليوم. فهذه عباءة تنتظر أول رجل بحاجة إليها».

= سيده. ويُروى كذلك أن أحد الخدام كان يعمل مدرسًا بإحدى المدارس المسيحية الأهلية ببنى سويف ولم يعطه صاحبها أجره وكان ٢٠ جنيهًا، فخطر بباله أن يذهب إلى الأنبا إبرام ويشكو له. طلب من أحد أصدقائه أن يذهب معه فأجابه غاضبًا: «يا عم بلا أنبا إبرام بلا غيره كلهم خطافين». ولم يكد ينتهى من كلامه حتى سقط فى معجنة كبيرة من الطين وخرج منها ملطخًا بالطين وقال: «اذهب لوحدك أنا موش رايح معاك». فذهب بمفرده وقابل الأنبا إبرام وقَبّل يده. ويقول الرجل: «لم أخبره بشىء. ولكنه فاجأنى بحديثه عن مرتبى الضائع، وقال: «لا تخف يا بنى، الرب ها يعوض عليك. ما تزعلش». ثم قال لى: «فين صاحب إللى كان معاك؟» فدهشت لهذه المفاجأة ومعرفته بأن لى صديقًا. ثم دعا لى ولصديقى بالبركة فعدت أدراجى ماشيًا. وبينما كنت أسير عثرت على خرقة قديمة وكانت ثقيلة وكأن بها حجارة فوضعتها فى جيبى. وعندما وصلت إلى المنزل فتحتها فوجدت بداخلها ١٢٠ جنيهًا ذهبيًا، فحمدت الرب لأنه عوضنى أضعاف ما خسرته. (المترجم).

عندما خرج الرجل الفقير فى ضوء النهار رأى أن تلك العباء لا تناسب فلاحًا ريفيًا. ولذلك قرر أن يبيعها ويشترى جلابية خشنة، وحينذاك سيكون لديه رداء ومبلغ من المال يشترى به طعامًا. وكان الرجل الذى عرض عليه العباءة بالمصادفة هو مانحها الذى تعرف على هديته! ولأنه يعرف الأسقف، فقد أدرك أن الاعتراض من أى نوع لن يفيد، ولذلك أعاد شراء العباءة، على أمل أن يقتنع الأسقف بارتدائها عندما يعلم أنه فعل ذلك.

إلا أن العباءة دُسَّت من جديد تحت الوسادة؛ ومرة أخرى تلقاها رجل فقير على أنها من الرب. والآن لا شك فى أن العباءة البالية ستبقى إلى اليوم الذى يَسْتَبْدِلُ بها فيه رداء مجيدًا لا يبليه الدهر.(١)

فى يوم من الأيام كان هناك أخ اسمه بافنويتيوس لم يملك خلال ثمانين عامًا سوى ثوبين؛ وحتى ذلك «الامتياز الروحى» فاقه فيه بستانى مقدس فى أحد الأديرة فى عهد باخوميوس؛ ذلك أنه كان لديه ثوب واحد من الكتان يرتديه حين يخرج ليشارك فى أسرار المسيح المقدسة، وبعد ذلك يخلعه ويحفظه كى يظل نظيفًا، «وبقى الثوب خمسة وثمانين عامًا».

كان زمنه هو الزمن الذى يبيع فيه راهب حتى الكتب القليلة التى أحبها حبًا جمًا، وكانت تملأ الكوة التى فى جدار قلايته، وكان يحصل منها على منفعة ذهنية، وكذلك الإخوة الذين يستعيرونها؛ ولكن مطالب الأرملة واليتيم لا بد أن تكون لها الأولوية إن أراد أن «يحيا».

هنا، فى القرن العشرين، تحيا خلافة أتباع المسيح الأوائل هؤلاء بحق فى حياة أسقف الفيوم، حيث ينفذ بكل ما كانوا عليه من بساطة تعاليم يسوع الجليلى الذى

(١) هناك رواية أخرى لهذه القصة تقول: إن امرأة فقيرة ذهبت إليه تسأله المساعدة، ولم تكن عنده نقود، فأعطاها شالًا جديدًا لم يستعمله بعد وقال لها : «خذى هذا الشال وبيعيه وفكى ضيقتك به». فأخذته وذهبت إلى السوق، فرآها الرجل الذى أهدى الشال إلى الأنبا إبرام فاشتراه منها، وذهب إلى الأنبا إبرام وقال: «لماذا لم تتغط بالشال يا أبانا، والدنيا شتاء؟» فأجابه : «الشال فوق يا ولدى». يقصد أنه عند يسوع الذى أحبه. وعندئذ أظهر الشال وقدمه إليه ورده إلى الأسقف ثانية فقال له الأنبا إبرام: «أوعى تكون ظلمتها يا بنى». فقال له : «لا يا أبى. أعطيتها ثمنه بالكامل كما أشتريته به قبلًا يا أبتى». (المترجم).

لم يكن لديه هو نفسه شىء، وما كان ليقبل تلاميذ له إلا من هم على استعداد لأن يبيعوا كل شىء ليتبعوه.(١)

فى وقت من الأوقات كان للأسقف موارده المالية الخاصة؛ وهذه هى الطريقة التى رتب بها الاستفادة من تلك الموارد قبل سنوات عديدة. فقد أظهرت الحسابات أن دخله يزيد قليلًا على جنيهين فى اليوم؛ ولذلك جرى ترتيب بسيط كان يظهر بمقتضاه خادم موثوق به كل صباح فى البنك الذى يأتى منه للأسقف بما قيمته جنيهان من أنصاف القروش داخل كيس. وكان الكيس يوضع كذلك تحت الوسادة، حين لم يعد بإمكان الأسقف مغادرة سريره، وكان يوزع كل محتوياته على زواره الذين بحاجة إلى المال. وفى النهاية تبرع برأسماله كله.(٢)

تكاد نفقات الأسقف الشخصية لا تُذكر، ذلك أنه لم يُعْرَف عنه أنه يأكل شيئًا سوى بضع حبات من الفول المسلوق والخبز؛ والرجال الذين يقومون على تلبية احتياجاته البسيطة هم «خدم الكنيسة».(٣)

---

(١) عندما سأل رئيسٌ المسيحَ عما يفعله ليرث الحياة الأبدية، رد على نصيحة المسيح بأنه يحفظ كل ما نصحه به منذ حداثته «فلما سمع يسوع ذلك قال له يُعْوِزك أيضًا شىء. بِع كل مالك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال واتبعنى... لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله». (لوقا ١٨، ٢٢ و٢٥) **(المترجم)**.

(٢) يُروى أن أغنياء الأقباط أرادوا تجديد دار المطرانية وتوسيعها حتى تليق بالزوار، فجمعوا لذلك مبلغ مائتى جنيه (وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت) وسلموه للأنبا إبرام. وعندما جاءوا بالمقاول ليتفقوا معه على شروط البناء قال لهم الأسقف إبرام: «انتو اتأخرتوا. أنا خلاص بنيت. خلاص بنيت» فقالوا له: «فين البناء ده يابونا؟ كل شئ زى ما هو». فقال لهم: «أنا بنيت لكم مسكن فى المظال الأبدية». ففهموا فى الحال أنه أعطى المبلغ للفقراء والمحتاجين. ولذلك لم يعطوه مبالغ أخرى لتجديد المطرانية وصرفوا هم على المبانى وتوسيع المطرانية حتى تليق بأسقفهم وزواره. **(المترجم)**.

(٣) كان الأنبا إبرام يقسو على نفسه فيما يتعلق بطعامه. وكان لا يدعها تتغلب عليه. وفى يوم من الأيام اشتهت نفسه طعاما فكلف الطباخ بأن يجهز له حمامًا. فأعد الطباخ الحمام وأحضره له وقت الغذاء، فأمره بأن يأتى به فى وقت آخر. وعندما عاد الطباخ فى وقت العشاء أمره بإرجائه لوقت آخر إلى أن يطلبه هو منه. وبعد أربعة أيام، أمر الطباخ بإحضار الحمام. ولكنه كان قد فسد، فتعجب الطباخ ولكنه أجاب طلبه. وعندما جاءه به خاطب الأنبا إبرام نفسه قائلًا: «هذا ما اشتهيت أكله يا نفسى. فكلى النتانة إن أمكنك ذلك» ثم أمر الطباخ بالتخلص منه. **(المترجم)**.

ولكـن يجب ألا نفترض أن الناس الذين يسـعون للقاء الأسـقف فقـراء؛ فأحزان الأغنيـاء تحظى منه بالسـلوى الروحية تمامًا مثل أحزان هـؤلاء الذين يكتنفهم الفقر؛ ولا ييـأس الزوار الأغنياء أبدأ من محاولاتهم المشـكورة لإثـراء الرجل العجوز. فما أكثـر مـا يـرد إليه من هدايا مـن الذهب؛ ولكنه لا ينظـر إليها بحال مـن الأحوال، ولم يُحْـصِ قط محتويات الأكيـاس التى تُعطى له. فكل ما يقوله هو «هذا من عند الرب»؛ واتباعًا لغريزته وإيمانه، ينتظر باستمرار إلى أن يرسل له الرب الرجل الفقير أو المرأة الفقيرة المقدر له أو لها الحصول على تلك العطية.

قال أحد كهنته، واسـمه عبد السـيد، عند حديثه عن الأسـقف: «يفوق حبه لشعبه أى حـب آخـر. ومـا أكثـر ما يرفع يديه سـائلًا الـرب أن يبارك شـعبه ويسـاعده. وهو يقضـى أيامـه كلها ممجـدًا الرب. ولم يـره أحد قط مهتمًا بأى شـىء آخر فـى الدنيا. أعتقـد أنه هرب من البيت وهو صبى صغير ليدخل الدير. وعندما أصبح رئيسًـا للدير كانت الشـكوى الوحيدة ضده أنه ينفق كل شـىء على الفقراء، بل وكان يسـتدين لهذا السـبب. كان مسـرفًا باسـتمرار فيمـا يتعلق بهـذا الأمـر؛ والواقع أنه قبـل أن يأتى إلى الفيـوم أحضـره البطريرك من ديره ليبقيه إلى جواره، ليس من أجل صلاحه فحسـب، بل لأنه تسبب فى مشكلة لمبالغته فى توزيع موارد الدير. ويشعر شعب الفيوم بالفخر لذهابـه فى ذلك الوقت إلى القاهرة راجيًا البطريرك أن يرسـل لهم ذلك الرجل النبيل ليكـون أسـقفًا لهـم. وقـد أعطى اسـمًا عظيمًا جـدًا لهذه المديرية، وشـرَّف الشـعب المسيحى كله فى مصر باسمه الطاهر».

ربما جاءت قدرة الأسـقف على إخراج الأرواح النجسـة له بزوار من أماكن بعيدة يزيد عددهم عما يأتون من أجل ما اشتُهِر به من قدرات أخرى.

بمـا أننـى أعرف قبطيًا شـابًا فى القاهرة على قـدر كبير من الـذكاء، وهو ابن مرتل كفيف فى الكاتدرائية، وقد سـبق له أن شـاهد علاج أحد أقاربه على يد الأسقف، فقد فكرت أنه سيكون من المفيد الحصول على القصة بكلماته.

هـذا الشـاب ينتمـى إلى الفئة التى ندرت للأسـف مـن الأقباط المتعلميـن تعليمًا جيـدًا، وهـو قارئ جيد بالفرنسـية والإنجليزية، وكذلـك بلغته الأم العربيـة، ويتولى منصبًـا مسـئولًا فـى الجهـاز الحكومـى، ومـع ذلك يحتفـظ بصلـة حماسـية بالدين

المسيحى، وبخدمات الكنيسة الأرثوذكسية وتعليمها. والشاب المصرى المعاصر الذى يعيش فى القاهرة، سواء أكان مسلمًا أم مسيحيًا، يميل أكثر مما يجب إلى الحياة المادية السهلة.

وهذه هى رواية الشاب عن إخراج الأرواح النجسة، التى سأتركها كما كتبها هو بنفسه:

«لدى الأسقف إبرام قدرة لا تخطئ ضد الأرواح النجسة، حيث يشفى كل عام عددًا كبيرًا من المسلمين والمسيحيين الذين تمسهم تلك الأرواح. وكانت تلبس عمتى الشابة روح نجسة، وصارت مصدر قلق كبير للأسرة كلها. حاول أطباء عديدون معالجتها، ولكنهم فشلوا. وعندما كانت تحت تأثير النوبة، كانت تتثاءب كثيرًا وتمد ذراعيها للأمام وللخلف دون أن تتوقف عن الصراخ. وكانت تنطق بكلام فارغ كثير، دون وعى طبعًا؛ ثم تطلب غسل رجليها بالصابون والماء البارد. وكان ذلك يجرى باستمرار؛ ولكنها بعد وقت قصير تقطِّع ملابسها وتتمرغ على الأرض، وكان ذلك المنظر يسبب ألمًا شديدًا لأسرتها.

«لم يكن الأسقف إبرام فى ذلك الوقت قد التزم بيته. ولأن أبى كان خادمًا للكنيسة، فقد رجونا الأسقف أن يزورنا إذا جاء إلى القاهرة.

«وأخيرًا بعث الأسقف برسالة يقول فيها إنه سوف يزور البطرخانة، وفى يوم معين سوف يأتى إلى منزلنا. ورغبة منا فى تكريم الضيف المميز حسب عادتنا الشرقية، أعددنا مأدبة؛ ولكن عندما دخل الأسقف الغرفة ورأى ذلك لامنا بشدة ولم يأكل شيئًا بالمرة، معلنًا أن عمله الأول هو رؤية المرأة المريضة.

«لكون والدى كفيفًا، فقد كان علىّ أن أقود الأسقف إلى غرفة عمتى، وكان يحمل صليبه اليدوى.

«فى اللحظة التى ظهرنا فيها انتابت عمتى نوبة، ولا أدرى إن كان ذلك بسبب الإثارة أم لا؛ وكانت تظهر بصوت رهيب «ابعدوا النار دى عنى! أنا ها اتحرق!».

«كان الأسقف يصلى بجد وهمة ويتحرك ببطء إلى حيث ترقد عمتى. وضع ذلك الصليب على رأسها وقال بنبرات حازمة «باسم يسوع المسيح آمرك أن تخرج وتتركها!».

«لن أنسى عذاب تلك اللحظة، ذلك أن فم عمتى تشوه وأصدرت صرخة رهيبة.

«لم يرفع الأسقف الصليب عن رأسها وكرر أمره. وحينذاك قالت الروح، وكأنها تصارع القوة الأعلى، من خلال صوت عمتى: «هاخرج من عينها!»، ثم «من ودنها»، ثم «من بقها»؛ ولكن الأسقف كان فى كل مرة يوبخها بشدة قائلاً، «اخرج من رجلها»(1).

«بعد ذلك أخذت عمتى تفرك عينيها، وتفرد ذراعيها، وتبعد شعرها عن جبهتها وكأنها تستيقظ من النوم. ثم قعدت وحملقت فى الأسقف الذى كان يبتسم فى تلك اللحظة. طلب منها أن تقف وتريه قدمها. وهنا دخل الغرفة بعضٌ من أفراد الأسرة الآخرين، ونظرنا جميعًا إلى القدم؛ كان هناك صليب أحمر من الدم على الإصبع الكبير، لاحظت وجوده بوضوح.

«رُعِبت عمتى لمرأى الدم، ولكن عندما رووا لها ما حدث وقفت وأخذت يد الأسقف وقبّلتها. باركنا الأسقف جميعًا، ثم قال إنه يمكننا إعداد صحن صغير من الفول، أكله بقطعة صغيرة من الخبز. وبفضل صلاح الأسقف إبرام، تتمتع عمتى منذ ذلك الحين بأفضل صحة؛ وقد تزوجت ولديها ثلاثة أطفال لطفاء».

تُروى قصص كثيرة عن استقامة الأسقف، وعدم خوفه المطلق من الرؤساء الدينيين. فقد استدعاه البطريرك يومًا كى يحضر مجلس لشَلْح أحد الكهنة. فقد اتُهم ذلك الكاهن بالسماح لأسقف محظور عليه دخول الكنيسة بالدخول، وبإعطائه طعامًا يأكله ومكانًا ينام فيه؛ وكان ذلك كله ممنوعًا طبقًا لقانون الكنيسة. ولم تتخلَ

(1) فى كثير من حالات إخراج الأرواح الشريرة التى سمعت عنها أشير فيها إلى أن الروح كانت تسعى للخروج من خلال تلك الأعضاء التى يُعتقد أنها سوف تعانى بذلك من الضرر - وباستمرار تلى ذلك صيغة إخراجها من أصبع القدم.

الكنيسة القبطية عن سلاح الحرمان قط منذ زمن بعيد، وتطبيقه بالغ الأثر ونهائى باستمرار.

اجتمع المجلس برئاسة البطريرك، وقُرئ الاتهام. وعلى الفور أعلن البطريرك أنه لا بد من حرمان الكاهن، وكتب الحكم وأعطاه لقلينى باشا أحد أعضاء المجلس كى يضع توقيعه عليه ويمرر الوثيقة على سائر الأعضاء.

كان الأسقف إبرام جالسًا بجوار الباشا. أخذ الورقة وقرأها، ثم قال: «لا أرى سببًا لضرورة إخراج الكاهن من الكنيسة. ألم يأمرنا يسوع المسيح بأن نرأف بالفقراء ونراعى شعور الغرباء؟».

ثم قال وهو يعيد الورقة إنه لن يوقع عليها، وعندما اعترض الباشا المفزوع قائلاً «البطريرك قرر، والحكم بناءً على قانون الكنيسة»، فرد عليه بخشونة قائلاً: «لِمَ دُعيت إلى هذا المجلس إذا لم يكن من المفروض أن أعبّر عما أعتقده؟».

كل إنسان يعرف الرعب الشرقى الشديد من عواقب الكلام الصريح، وخاصة عندما يكون مخالفًا لرأى من فى أيديهم السلطة، سوف يدرك الفزع الذى أصاب أعضاء المجلس الآخرين. فقد قال أحدهم هامسًا: «انت عارف يابونا إن إللى بتكلمه ده قلينى باشا؟» فسأله الرجل العجوز: «مين قلينى باشا؟ هو مش موسى كلم الرب نفسه؟ سيبونى فى حالى». وبعد ذلك غادر غرفة المجلس ونزل إلى الطابق الأسفل. فخرج وراءه أحد الأعضاء ليقول له إن البطريرك يريده، ولكن الأسقف رد عليه قائلاً: «مبارك اسم الرب! لن أصعد سلم هذا البيت(1) مرة أخرى فى حياتى، ما لم يؤت لى بالحكم ممزقًا، وأنا واقف هنا».

أذعن البطريرك لهذا الرجل، الذى هو «الأستاذ الحقيقى» للكنيسة. وقد أُخلى سبيل الكاهن وما زال مسئولاً مسئولية كاملة عن كنيسته وأبرشيته فى الريف.

يتبع الأسقف النُسّاك الأوائل، ليس فقط فيما يتعلق بالطعام، بل كذلك فى حرمان نفسه من الكثير من النوم الذى تتطلبه الطبيعة. قيل عن أنطونيوس الكبير إنه فى

(1) فى منزل البطريرك بالقاهرة، مثله مثل أى منزل فى الشرق، كل الغرف التى لها أية أهمية موجودة فى الطابق الأول. أما الطابق الأرضى فيُستخدم للخزين، وللأخشاب، وللاسطبلات، وأى شىء غير سكنى الإنسان، حيث [illegible] ضارًا له.

معظم أيامه كان النهار يطلع عليه دون أن يكون قد أخذ أى قسط من النوم. وبينما كان النُّسّاك الأوائل يربون فى نفوسهم ما بلغوه من احتقار تام للجسد، رتَّب الكثيرون منهم مغاراتهم على نحو لا يُمَكّنهم من الجلوس أو الرقود، وبذلك يصبح النوم مستحيلًا. وأعلن أحدهم أنه فى فترة الليل قد يرى المرء أشياء كثيرة تنتمى إلى الحياة الروحية؛ وكان الامتناع عن النوم، مثله مثل الامتناع عن الطعام، يتغلب على الإغراء؛ وعلاوة على ذلك كان بإمكان الرجل أن يضاهى الملائكة فى السماء. والأنبا صيصوى، الذى عاش فى قاهرة زمانه (بابليون) وأمضى الليل كله واقفًا على جُرُف خطير فى التلال ليدفع النوم عنه، حيث أنقذه أحد الملائكة، هو الذى حظر تلك الوسيلة بعد ذلك.

كثيرًا ما يقضى أسقف الفيوم ليال بكاملها فى الصلاة وهو جالس فى وضع واحد. وكانت رغبة الناسك هى الوصول إلى حالة الاستحالة، وكان بين القديسين الأقباط من أهملوا الجسد إلى حد أنهم كانوا فيما عليه من نحول عاجزين عن الوقوف. صاحب أحد الأجسام العجوزة المسكينة ـ وهو بستانى الدير الذى تحدثت عنه من قبل ـ الذى لم يكن ليسمح لنفسه بوضع مريح، أصبح شديد الانحناء والتصلب لدرجة أنه حين مات كان من الصعب نزع الرداء المصنوع من الجلد الذى كان يلبسه. وسجل إخوانه البسطاء ما يلى: «اضطررنا إلى لفه فى القماش كالصُّرَّة، ودفناه على ذلك الحال». هذا هو «مرفأ انعدام الشعور» الذى يتحدثون عنه؛ وقد بلغ أسقف الفيوم هذا المرفأ.

من غير المستغرب أن نجد ضباب الخرافة قد أخذ يتجمع بالفعل حول هذه الشخصية، وبالأخص فى أرض مصر التى تتسم بالغموض، وفى وجود أحفاد الشعب الذى كان يبحث عن الحكمة والإرشاد عند العراف أو المتنبئ، وهو ما نشأ عن الإيمان العميق ببعض القوى التى أجدنى متأكدًا من أن الأسقف لا يدعى الكثير منها لنفسه. ومن الممكن أن يكتسب أى رجل يحيا تلك الحياة قدرات تبدو للناس العاديين غير عادية. فمن المتوقع أن هذا الرجل ربما يرى رؤى. وفى أرض التكهن هذه، من الطبيعى أن تلى ذلك ملكة الهجس، أو سبق النظر بالمستقبل. وقد قال مار أنطونيوس المبارك، أول راهب فى صحراء مصر، معبرًا عن الاعتقاد القديم الذى لم يَشِخ قط: «أى قلب طاهر يمكنه التنبؤ بأمور ستحدث».

ليس من الصعب أن نرى فى جمع المتوسلين المتلهفين الذى احتشد فى الفناء

وغرف الأنبا إبرام الخارجية صورة الجموع التى كانت تسعى للحصول على الإرشاد الإلهى فى معابد مصر القديمة، حيث كان من المفترض أن الإله يتحدث بواسطة علامات أو نبوءات من خلال الكهنة.(١) وسواء صدقنا أو لم نصدق ما يقوله جارنو من أن هؤلاء الناس كانوا ضحايا الدجالين، أو ما يقوله ماسپيرو من أن الكاهن كان يتحدث فى واقع الأمر بإيحاء إلهى باسم المعبود، فإن النقوش التى وصلتنا تبين لنا تلك النبرة النبيلة التى كان الناس يتحدثون بها عن تجاربهم فى المعبد. «جئت أنشد الحكمة الإلهية. نطقت بتضرعى أمام سَلَفى، طالبًا منه النصح. وبعد انتهاء المقابلة ابتعدت عن تلك الأسرار وقد أشرق وجهى لما ملأ قلبى من فرح، لأننى سمعت الإله يحدثنى حديث الأب إلى ابنه». هذه هى الرواية التى تنقلها لنا الكتابة الهيروغليفية مرارًا وتكرارًا.

أو قد نرى أحفاد جموع المعانين كهؤلاء الذين كانوا يسعون إلى قدس أقداس معبد پتاح فى منف، حيث كانت الآلهة لعصور طويلة ترسل أحلامًا لكشف العلاج للمرضى الذين جاءوا ليناموا فى أفنية معابدها(٢)؛ وكان الناس أنفسهم يأتون إلى

---

(١) كانت استشارة العامة للمعبود فى أمر ما تتم أثناء موكب الإله، حيث يمكنهم رؤية المعبود. ومن أمثلة الاستشارات التى تعرض على الإله: تعيين موظف ما أو تأكيد ذنب شخص ما فى عمل جريمة أو لإثبات ملكية شخص لشىء ما لم تكن الأسئلة الموجهة من العامة للإله نابعة من رغبة فى معرفة المستقبل، بل كان القصد هو التصرف طبقًا لمشيئة الإله. وكانوا يطلبون منه المساعدة فى وقت الشدة والرغبة فى حسم الأمور والموافقة على تعيين شخص فى وظيفة معينة. وكانت الأسئلة الموجهة للإله إما شفاهية أو مكتوبة على شقافة أو ورق البردى، حيث توضع أمام الإله صيغتان إحداهما بالإيجاب والأخرى بالنفى ليختار بينهما. فإذا سار حاملو التمثال فى اتجاه الأولى فالإله موافق وإذا ساروا فى اتجاه الثانية فهو غير موافق. والطريقة الأخرى هى أن يتلو صاحب الحاجة طلبه، فإذا تراجع التمثال الذى يحمله الكهنة فهذا معناه الرفض، أما إذا واصل تقدمه فقد نال طلبه القبول. (المترجم).

(٢) كان الكثير من فئات الكهنة، وخاصة ابتداءً من الدولة الحديثة (اعتبارًا من ح. ١٥٥٠ ق.م)، يخدم فى مؤسسة مصرية فريدة هى «پر عنخ» أى «دار الحياة»، التى يبدو أنها كانت ملحقة بكل المعابد الكبيرة. ونعلم بأمر دور الحياة هذه فى معبد پتاح بمنف، ومعبد مين بقفط، ومعبد أوزيريس بأبيدوس، ومعبد خنوم بإسنا، ومعبد أتون بالعمارنة، ومعبد حورس بإدفو. وكان الناس يذهبون إلى هناك ليتعلموا وليتلقوا العلاج وليشتروا التمائم والنصوص الجنائزية، وليشاركوا فى الأحلام الموجهة. وكان كتبة دار الحياة، سِش پر عنخ، ومفسرو الأحلام، پا حِرى تِپ، والأطباء المعالجون، والمعلمون، والمشعوذون، وصانعو التمائم وبائعوها يعملون فى دور الحياة. (المترجم).

المعبد طلبًا لكشف اللصوص الذين ألحقوا بهم الضرر. وعندما جاءت المسيحية لجأوا إلى الرهبان للحصول على مساعدة مشابهة. وكان من يُسرق منه شىء يلجأ باستمرار إلى شنودة الناسك المسيحى الأخميمى، وكان ينجح بما لديه من مقدرة يمارسها فى تحديد اسم السارق وإجباره على إعادة ما سرقه.

وفى الوقت الحاضر نجد أن الناس المختلفين قليلًا جدًا فى الملامح أو الملابس عن تلك الجموع القديمة، وتتشابه نظرتهم العقلية إلى حد كبير معها، يصرون على التعامل مع رجل مثل هذا الأسقف القديس باعتباره عرافهم وكذلك طبيبهم.

وكما كان يفعل القديس أنطونيوس، يعلن الأسقف باستمرار أن «الرب وحده هو الذى يمنح الفرج»، ويفعل كل شىء ممكن لإبعاد الناس عن ذلك التملق الشخصى الذى يميل الشرقى كثيرًا إلى وضعه عند قدمى أى رجل له سلطة روحية.

كما هو الحال بالنسبة للأمور الأخرى، يقوم تعليم الكنيسة القبطية فيما يتعلق بالشفاء الكهنوتى على نحو شديد الحرفية على تعاليم يسوع المسيح وتلاميذه.

وبالنسبة لمصداقيته، ينبغى ألا ننسى أنه بالإضافة إلى استخدام الزيت المقدس فى المسح، وفى دَهْن الأيدى، وطرد الأرواح النجسة، فكثيرًا ما يدرس الأساقفة والكهنة، وحتى البطريرك نفسه، الطب دراسة جادة ويكتسبون مهارة كبيرة فيه؛ ولذلك فإن الكثير من حالات الشفاء التى تحدث تكون نتيجة للعلم إلى جانب الإيمان ـ ومن المؤكد أن هذه هى التوليفة الصحيحة فى خدمات الطبيب الحقيقى، سواء أكان من الإكليروس أم كان علمانيًا.

فى كنيسة أبى سيفين، بالقرب من مارمينا، هناك صورة لقديس اسمه قلتة يظهر فيها ممسكًا فى يده اليمنى عصا تشير إلى صندوق فى يده اليسرى؛ وغطاء الصندوق مرفوع ليكشف عن ست خانات للعقاقير. وهناك صليب معلق فى الهواء على أحد جانبى الصورة، وعلى الجانب الآخر عكاز الأسقف.

حدث فى القرن الثامن أن استُدعى البطريرك بليطان[1] إلى بغداد لعلاج محظية

(١) هكذا وجدت الاسم فى المراجع العربية الذى وصفته بأنه أحد علماء الإسكندرية البارزين وأشهر أطبائها بعد الفتح العربى؛ غير أنه بالرجوع إلى قائمة بطاركة الكنيسة القبطية فى القرن الثامن لم أجدها تتضمن هذا الاسم. (المترجم).

الخليفة الشهير هارون الرشيد، حيث وعده بمنح امتيازات لكنيسة الإسكندرية مقابل ذلك.

بل إنه حتى الرهبان الأوائل لم يتركوا الناس يعتمدون فى علاجهم اعتمادًا تامًا على الصلاة وسحر الزيت المقدس، وهو الشىء الوحيد الذى كانوا على استعداد للقيام به. فالراهب أنكيرا لم يكن سوى واحد من كثيرين عملوا على توفير احتياجات المرضى الجسمانية و«كان يأتى لهم بالضمادات التى تساعد على شفائهم». ويُروى عن الناسك أپولونيوس أنه كان يحمل معه الرمان وأرغفة الخبز المجففة والزيت والبيض باعتبارها الأشياء الضرورية للمرضى.

ومع ذلك فليس لدى شك فى أنه حين كان هؤلاء الآباء الأقدمين يجمعون الأعشاب التى يعرفون أن لها خواصًا طبية، كانوا يستخدمون الرُّقى التى ما زال هناك اعتقاد عام بأنها إذا استُخدِمت الاستخدام الصحيح فسوف تضيف المزيد إلى فاعليتها.

كان أكبر جهد من جانب الكنيسة القبطية للقضاء على مد الترهل والأفكار القائمة على الخرافات التى نمت على نحو مفزع فى التربة المصرية هو ما قام به مرقس بن القمبار فى القرن الثانى عشر. ونجح تعليمه لبعض الوقت، ولكن عادات البلاد المتأصلة وقفت باستمرار فى وجه تقدم هؤلاء الذين يرغبون فى الإصلاح.

هناك قُدَّاس مهيب لوضع اليد على المرضى، بعد احتفال الإفخارستيا صباح يوم الأحد. إذ توقد الشموع أمام صورة العذراء، ويقف الكهنة عند مدخل الهيكل يرتلون نصوصًا من الكتاب المقدس على إيقاعات الأجراس اليدوية والصنوج.

مسح المرضى بالزيت القائم على تعليم القديس يعقوب[1] أحد الأسرار السبعة للكنيسة الشرقية، وهو لا يُستخدَم بحال من الأحوال كطقس أخير للمُحتَضَرين كما

(١) ابن زبدى وسالومى، وهو الأخ الأكبر ليوحنا الرسول. كما أنه أحد تلامذة المسيح الاثنا عشر وكاتب «رسالة يعقوب» فى العهد الجديد التى فيها «أمريض أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب. وصلاة الإيمان تشفى المريض والرب يقيمه وإن كان قد فعل خطية تُغفر له.» (رسالة يعقوب ٥: ١٣ و١٤) (المترجم).

فى الكنيسة الرومانية. وتفهم الكنيسة القبطية المرض بمعنى شديد الاتساع؛ فهناك مرض الجسم، ومرض النفس الذى هو خطية، ومرض الروح أو الأهواء. ويُمارس المسح بالزيت فى كل حالة، وليس فقط فى حالة المرض الجسمانى، بل كذلك على التائبين، وحتى على الموتى.

عند تطبيق المسح بالزيت تطبيقا صارمًا بناء على الطقوس القديمة، فإن أولى أعماله هى ملء المصباح ذى السبعة شعب بأنقى زيت زيتون من فلسطين، ويوضع على حامل أمام صورة العذراء. يُحرق البخور بينما يُقرأ الكتاب المقدس وتُتلى الصلوات. وبينما يواصل الكاهن قُدّاسه يشعل رئيس الكهنة فتايل المصباح الواحد تلو الآخر على فترات محددة وهو يرشم الزيت.

يؤتى بعد ذلك بالشخص المريض إلى باب الهيكل، ويمسك رئيس الهيكل الإنجيل فى صندوقه الفضى والصليب اليدوى فوق رأس الرجل المريض؛ وبعد ذلك يضع يديه على صدغى الرجل المريض مرتلًا الطلبات، بينما يمنح الكهنة الآخرون بركاتهم للعديد من الأشخاص. ويأخذ أحدهم الإنجيل ويقرأ الصفحة التى يصادف أن يفتحه عليها. وبعد ذلك يُرفَع الصليب مرة أخرى ويطوف فى أنحاء الكنيسة حاملًا المصباح والشموع المضاءة، بينما تُرتَّل الصلوات من أجل الشفاء من خلال شفاعة القديسين والشهداء. وبعد أن يعود الشخص المريض إلى الهيكل يُمسح بالزيت على شكل الصليب على جبهته وعلى كل رسغ من رسغيه.

إذا كان الشخص الذى يُقام من أجله القُدّاس من الضعف بحيث لا يمكنه الحضور، يوضع بديلٌ له، فهذا القُدَّاس لا يمكن إقامته خارج الكنيسة. ولا بد من وجود سبعة كهنة للطقس الكامل.

أحد اتجاهات العقل الشرقى العملية الغريبة، التى تدهش المراقب السطحى، هو القانون الإيجابى وإن لم يكن مكتوبًا الذى يقتضى أن يكون أول عمل عام يقوم به الشخص بعد شفائه من المرض هو زيارة الحمَّام العام.

عند الحديث مع الأشخاص الذين يلجأون إلى أسقف الفيوم، نكتشف فى الحال مقدار ما يحكمهم من خرافات لا تختلف كثيرًا عن أسلافهم المسيحيين الأوائل،

حينما كانت رموز الديانة المسيحية نفسها تُستخدم عوضًا عن آلهة الفراعنة التى سقطت. فالإيمان بالسحر الذى فى الصليب عام؛ فهو ذو قوة مزدوجة، ذلك أن القوة الروحية التى وراء عنخ أو «رمز الحياة» عند الفراعنة نُقلت إلى الرمز المسيحى. يقول الدكتور بدج (١) إن «هؤلاء الذين يعرفون سحر مصرى عصر الأسرات يجد القليل من الأحداث الإعجازية فى تواريخ الرهبان التى لا مثيل لها فى أدبيات مصر الوثنية».

كان مولد النزعة الروحانية فى مصر. بل إنها برعت فى القرن الرابع فى جلسات تحضير الأرواح الشائعة، بما فيها من اتصال بالموتى - فقد جرى من خلال تحضير الأرواح (كما يروى التاريخ) تحديد اسم خليفة للحاكم الرومانى ثيودوس.

وقد عاش أوائل السحرة فى مصر، ومن المحتمل أنه فيها سيعيش من تبقى من جنس السحرة. تعرف كل قرية الغجر بما لديهم من كتاب مدهش للسحر والشعوذة. فهذه أرض العفاريت والجن - يؤمن الفلاح القبطى إيمانًا شديدًا بهذا الجنس من المخلوقات مثل جاره المسلم، وهو يخاف أيما خوفٍ من استدعاء جن من ديانة غريبة إلى بيته، تمامًا مثلما كان المسيحيون الأوائل يخافون خوفًا مرعبًا من الإله سرابيس فى الإسكندرية.

قد تقرأ عن شبح الدير فى سجلات القرن الرابع. أليست هناك إشارة إلى التنويم المغناطيسى فى قصة تعود إلى التاريخ نفسه تتحدث عن الراهب الشاب الغنى الذى أزعجه حب الشهوة فهام على وجهه فى الصحراء مصليًا من أجل إخراجه من تلك التجربة كى يمكنه العودة إلى الدير الذى كان قد بناه ويحتاج إلى إشرافه؟ لقد جاءته الملائكة وأمسكته من يديه وقدميه، وأخذ أحد الملائكة سلاحًا وبتر عضوه، «ليس على نحو حقيقى فى واقع الأمر، ولكن ظاهريًا فحسب وبطريقة وهمية»، أو كما نقول نحن، بالإيحاء. وكان الشفاء تامًا ودائمًا، وعاش الأنبا إيليا ليدير الدير الكبير فى طيبة بكل جدارة.

(١) عالم المصريات البريطانى الشهير. ومن أهم كتبه «آلهة المصريين» و«السحر فى مصر القديمة» و«الديانة الفرعونية: أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى». (المترجم).

لم تفلح قرارات الكنيسة فى القضاء على الإيمان بالسحر. ولكن إذا كنا نميل إلى إدانه هؤلاء الناس المساكين، فمن الذى سيحاسَب على وجود قوة سحرية فى الزيت المقدس والخمر، وفى دم الشهداء، وفى آثار القديسين، وفى الأشكال العديدة من المياه المقدسة التى يصل الكنائس القبطية مدد منها على قدر كبير من التنوع والوفرة؛ ومن ذا الـذى سيصدق كل أنـواع الحكايـات ويضيف فولكلـور المعجـزات إلى القصص المقدسة التى نسى الغرب الإشارة إليها أصلًا؛ ربما لا نزال نذكر أن قرارات قبطية صدرت ضد تلك الأشياء، ويرغب الرجال الصالحون مثل أسقف الفيوم إبرام مخلصين فى تبنى الناس عقيدة أكثر بساطة.

سوف تصر المرأة التى تأتى إلى الأسقف بصداع لا يُحتمل، رغم ما قد يقوله لها، علـى أن الألم سـوف يزول بمجرد لمسـة من صنـدوق الإنجيـل، أو الصليب، الذى يمسك به فوق رأسها أثناء المباركة. كانت سيدة إنجليزية تزور بعض النساء الفقيرات فـى القاهرة، وعندمـا رأين أنها تحمل إنجيلًا فى يدها، قالـت إحداهن: «خلينى أحط الكتـاب علـى دماغـى المصدعـة؛ ده هـا يشـفينى». وبالطريقـة نفسـها كانـت هـذه المجموعة من الأنفس المسكينة الجالسـة على الأرض أمام مذبح الكنيسة الجانبية، وقد احتضنت الصناديق الطريفة الملفوفة داخلها رفات القديسين مرتلات صلواتهن، تؤمـن إيمانًـا قويًّـا بأن هنـاك قوى سـحرية سـوف تأتى من مجـرد الاتصال بالعظام الثمينة؛ ورأيت نسـاءً مسـلمات جالسـات فى الكنيسة المسـيحية يحتضن الآثار وقد بَدَون على القدر نفسه من انتظار البركة الذى كانت عليه النساء القبطيات.

مـا زال الرجال على رغبتهم فى تقبيل يدى الأسـقف، رغـم اعتراضاته، معتقدين أنهم بتقبيل يدى كاهن سوف يطهرون أنفسهم؛ وبالطريقة نفسها يندفعون وهم داخل الكنيسة إلى باب الهيكل فى نهاية الإفخارستيا، أملًا فى الإمساك ولو بقطرة من الماء الذى ينثره الكاهن الذى يتولى القُدَّاس الذى انتهى للتو من غسـل يديه، لظنهـم أنـه لا بـد أن يكـون للمـس الرجـل الذى تعامـل مـع العناصر المقدسـة له قوة سـحرية، وخاصة فى حالة المرض أو العجز البدنى.

بالنسـبة للتعليم العام للكنيسـة القبطية بشأن هذا الموضوع المحدد، أظن أنه لا بد

لنا من الإقرار بأنه لم يبتعد إلا قليلًا عن ممارسـة الكنيسـة الغربية المبكـرة. فعندما واجهت كنيستنا ذلك القدر الضخم من الخرافة الوثنية التى تمكنت من خلال تكيفها مع الديانة المسيحية من السيطرة على جموع الشعب، كانت الكنيسة تطرح من حين لآخر تلك الاحتجاجات التى كانـت تأتينا مـن حين لآخر عبـر قـرارات المجامع الكنسية والقادة اللاهوتيين الكبار. إلا أن تلك الاحتجاجات نفسها سلمت بعجائب السحر، ولكنها استنكرتها باعتبارها غير إلهية وشيطانية، بينما سمحت بوجود شكل إلهى أسمى من السحر.

نتيجة لهـذا التعليم، لا بـد أن نتوقع النظر إلى الأسـرار الكنسـية علـى أنها ذات سمات سحرية، وأن الاعتقـاد لا يـزال كامنًـا فـى الكنيسـة القبطيـة، رغـم الحظـر البابوى، حتى بين الكهنة. ويُروى عـن أحد الرهبـان المتقدمين فى العمـر أنه يأكل رماد البخور باعتبـاره طعامًـا مباركًا؛ وكثيرة هـى الاسـتعمالات السـحرية للزيت المقدس، والماء المقدس، والبخور، والملح المقدس، وحتى الشـمع المتسـاقط من شموع المذبح.

ورث هؤلاء الأشـخاص المسـاكين الذين يتصايحون عند باب الأسـقف كذلك، وبـدون أى تغيير أو شـعور بالشـك، كل الحكايـات التى تجمعت حـول الإنجيل فى الأيام الأولى، بدايةً من هذا القدر الكبير من الحكايات التى تدور حول الطفل يسوع، والمعجـزات، بل وعن لمسـة الطفل المقدس؛ وسـوف يروون لك تلـك الحكايات بإيمان طفولى، حيث تصدمهم أية إشارة منك، كمسـيحى، يمكن أن تحمل أى شك فى صحتها.

هؤلاء الفلاحون المسـاكين لم يكن لهم قط سـلف يعرف القراءة والكتابة، ولكن فى الشرق يكفيهم فقط أنهم سمعوا بآذانهم، وأن آباءهم حكوا لهم تلك الأشياء.

لقـد شـربوا جميعًا فى وقت ما من نبع فى المطرية، خارج القاهرة مباشـرة، وهى البقعة المقدسـة التى اسـتراحت فيها العائلة المقدسـة حين فرت مـن هيرودس؛ لقد سـألونى بجد شـديد إن كنت لا أصدق أن ذلك النبع الذى لا يتوقف من الماء العذب هبة يسـوع المعجزة؟ ليس هناك شـك فى أنهم ينظرون إليه علـى هذا النحو منذ أقدم

العصور؛ وعندما كانت الرحلة إلى مصر أكثر صعوبة، كان الكثيرون من الأوروبيين المتدينين يحجون خصيصًا للشرب من هذا الماء.

بعد بضع سنوات من الفتح المحمدى لمصر، قتل شخص مسلم مسلمًا آخر وألقى بجثته أمام باب كنيسة حارة الزويلة. أُبلغ حاكم القاهرة المحمدى بذلك، وعندما علم أنه عُثِر على الجثة أمام باب الكنيسة أصدر أوامره بأنه ما لم يقدم الأقباط فى حارة الزويلة تفسيرًا مُرضيًا للطريقة التى قُتِل بها الرجل فسوف يُحاكمون جميعًا.

كان الخبر مفزعًا. إذ لم يكن هناك من يعرف شيئًا عن الرجل الميت، وكان الأقباط بريئين تمامًا من الجريمة، ومع ذلك فقد كان عليهم تفسير الأمر. وأعطيت لهم مهلة أسبوع لتقديم تفسيرهم.

مرت ثلاثة أيام دون أن يحققوا أى نجاح فى اكتشاف الحقائق. وقرر كاهن الكنيسة أن يموت جوعًا تحت صورة العذراء مريم القديمة، التى رأيتَها (يشير صديقى إلى المؤلف) فى كنيسة حارة الزويلة، التى لها باب من الشَبَك السلك رُبطت به قطع صغيرة من القماش. ربط الكاهن رقبته بحبل رفيع أوصله بباب الصورة السلك. وراح فى نوم عميق وظهرت له العذراء مريم فى المنام وقالت له «قم من نومك وخذ بعض الماء من هذه البئر وصبه على الرجل الميت. فسوف تعود له الحياة ويحكى قصته».

استيقظ الكاهن من نومه مفزوعًا ومندهشًا وفعل ما أُمِر به. تحرك الرجل الميت وعادت له الحياة وحكى قصته كلها للحاكم. أُلقى القبض على القاتل المحمدى ووُجِه بجريمته. وأوضح الكاهن كيف عاد الرجل الميت إلى الحياة، وبعدها سقط الرجل المقتول وقد فارق الحياة كما كان من قبل.

بعد ذلك ذاع خبر البئر فى أنحاء البلاد كافةً، وعانى الأقباط كثيرًا جدًا بعد ذلك «إذا ظن المحمديون أنهم قادرون على إحياء الموتى، وكان يُطلب منهم باستمرار أن يفعلوا ذلك لموتاهم، غير أنه كان من المستحيل عمل ذلك مرة أخرى».

بعد كتابتى للصورة السابقة، سمعت عن موت أسقف الفيوم المقدس(١). فقد تلقيت معلومات مفصلة عن نياحته من أصدقاء فى الفيوم والقاهرة. وقد أرسل ممثل على الفور من البطريركية للإبلاغ عن ممتلكات الأسقف الشخصية، وكانت الأشياء الوحيدة التى وجدها هناك الصليب اليدوى والعكاز.(٢) فقد كان قد أعطى كل ماله للفقراء، ولذلك كان على كبار الأقباط فى المدينة أن يسهموا بالمال لدفع مصاريف جنازته. وحضر الجنازة أكثر من عشرين ألف شخص، كانوا جميعًا يشعرون بحزن كأنه على صديق شخصى. وكان أهل تلك المنطقة من الريف حزانى وعزاؤهم غير ممكن. وقد دُفِن فى جبانة أحد الأديرة الصحراوية.

يمكننى أن أقدم لكم نسخة قبطية صرفة من حياة الأسقف من كتاب صغير نشره بالعربية بعد وفاته كاهن قبطى كان على معرفة به، وهو القمص م.أ. البراموسى الصغير:(٣)

وُلِد الأنبا إبرام فى قرية تسمى جَلَدَة بمديرية أسيوط.(٤) كان والداه تقيين فربياه على المبادئ المسيحية الصحيحة التى اتبعها باستمرار، وأرسلاه إلى الكُتّاب. عندما ترك الكُتّاب اهتم اهتمامًا شديدًا بقراءة الكتاب المقدس وترانيم الكنيسة وغير ذلك. وفى سن التاسعة عشرة دخل دير العذراء مريم،

(١) تنيح الأسقف إبرام فى ١٠ يونيو ١٩١٤. قبيل نياحته استدعى القمص عبد السيد وبعض الشمامسة وطلب منهم أن يصلوا المزامير خارج باب غرفته وألاّ يفتحوا الباب قبل نصف ساعة.... ولما فتحوا الباب وجدوا الأب قد تنيح. (المترجم).

(٢) التركة التى تركها الأنبا إبرام:

١ - غرفة نوم: مرتبه بسيطة ومخدة ولحاف، دكة خشب وسرير بوصة واحدة وحصيرة مفروشة على الأرض.

٢ - غرفة الجلوس: بعض كراس قديمة وكنبة.

٣ - غرفة الغرباء: فرش كاف وغطاء.

٤ - محتويات الخزانة: أرامل، وأيتام، وفقراء، عمى، صم، مفلوجون، عابرو سبيل، كشوفات بمصروفات شهرية كان يقدمها لعائلات قسا عليها الدهر. (مواقف ومعجزات الأنبا إبرام أسقف الفيوم، forum.ava-kyrillos.com/showthread) (المترجم).

(٣) لم أتمكن من العثور على هذا الكتاب، ولذلك فما يلى ترجمة للنص الإنجليزى. (المترجم).

(٤) تتبع هذه القرية مركز ملوى الذى يتبع محافظة المنيا فى الوقت الحالى. (المترجم).

المعروف بدير المحرَّق القريب من أسيوط الذى يقول البعض: إنه المكان الذى توقفت عنده العائلة المقدسة عندما فرت من هيرود الملك. وكان محبوبًا جدًا داخل الدير. كان الرهبان معجبين به أيما إعجاب، وخاصة رئيس الدير القمص عبد الملك. وكانت مهمة الأنبا إبرام فى ذلك الوقت هى استقبال الزوار ورعاية المرضى.

كان من الضرورى معرفة رأى الرهبان الموجودين فى الدير عن أن شخص سوف يُرَسَّم راهبًا؛ ولذلك عقد رئيس الدير اجتماعًا للرهبان جميعًا وطلب معرفة رأيهم فى شخصية الأنبا إبرام، وما إذا كان يستحق أن يكون شريكهم وأخاهم. أثنوا جميعًا عليه، وكانت نتيجة ذلك أن رُسِّم راهبًا، وأصبح حينذاك يُسمى بولس غبريال المحرقاوى. وكان باستمرار أسوة حسنة فى الدير. بل إنه فى بعض الأحيان كان يعطى ما معه للفقراء. وكانت له إرادة قوية وكان قادرًا على التحكم فى نفسه.

كان أسقف المنيا فى ذلك الوقت يسمى الأنبا ياكوبوس. وكان مغرمًا جدًا بقضاء وقته مع الرهبان. وقد اختار بولس غبريال مرافقًا له ورغب فى بقائه فى المنيا. لم يكن رئيس الدير يحب أن يعيش الرهبان بعيدًا عن الدير، ولكنه اضُطر لتلبية واجب طاعة أسقف المنيا الذى كان أعلى منه فى الرتبة الكنسية. وذهب بولس غبريال المحرقاوى إلى المنيا، حيث جعلوه مسئولًا عن قسم الزوار والإشراف على بيت الأسقف بصورة عامة.

كان أسقف المنيا شديد الإعجاب به، وفى وقت لاحق، عندما أراد العودة إلى الدير، رقاه الأسقف قبل مغادرته إلى رتبة قس وطلب منه الصلاة له. وقد شجعه وأبدى إعجابًا كبيرًا به.

وهكذا عاش بهدوء فى ديره فترة من الزمن مع إخوانه الذين كانت لهم شهرة كبيرة لما كانوا عليه من تقوى وطهارة. ولأن الكل كانوا معجبين به، فقد اجتمعوا على أن يطلبوا من البطريرك تعيينه رئيسًا للدير، وعُيِّن رسميًا فى هذا المنصب المؤثر الذى مكنه من ممارسة كرمه.

ظل خمس سنوات رئيسًا للدير، كانت تلك المؤسسة خلالها مأوى للفقراء. وأثناء فترة توليه لذلك المنصب زرع حديقة مساحتها أربعة أفدنة، وزاد

المبانى، ورفع معنويات الرهبان الذين منهم أساقفة الآن. فأسقف الحبشة الحالى، وكذلك الأنبا لوقا أسقف قنا، والأنبا مرقس أسقف إسنا، وغيرهم، كانوا رهبانًا فى الدير تحت رئاسته.

بعد خمس سنوات فى رئاسة الدير استقال[1] وذهب إلى دير آخر يسمى دير البراموس. وقد تبعه عدد كبير من الرهبان الذين لم يستطيعوا العيش بدونه. دير البراموس أحد أقدم الأديرة فى مصر. وفى هذا الدير الأخير لم يكن له دور نشط فى الشئون الإدارية، ولكنه اتخذ غرفًا لنفسه ولأتباعه، وشغل نفسه بالصلوات والدراسة الدينية، وكان يبدى باستمرار تعاطفًا مع الفقراء؛ وكان يُشرك بدو وفلاحى المنطقة المجاورة فى ملابسه.

فى عام ١٥٩٧ (بالتقويم القبطى) اختير أسقفًا للفيوم والجيزة. وعندما حصل على ذلك المنصب المهم أبدى اهتمامًا كبيرًا بالفقراء والأرامل واليتامى، وعاش على نحو تام مثل رجال الرب. فلم يكن يهتم بثروته. وكان طعامه بسيطًا باستمرار. وكان يقضى لياليه فى غرفة ضيقة على أرضية خشنة لم يستخدم سريرًا حتى نهاية حياته، إلا حين نصحوه بقوة كى يستخدم سريرًا لدواعى سنه.

عندما ذاع اسمه كصديق للفقراء، كان منزله يزدحم بالمحتاجين الذين كانوا يأتون من كل مكان فى البلد. وكانت نتيجة ذلك أن أتى براهبة، كانت فى وقت من الأوقات رئيسة لأحد الأديرة بالقاهرة وطلب منها تولى مسئولية الفقراء. فكرت تلك المرأة يومًا فى أن تقدم للأسقف طعامًا من نوعية أفضل من ذلك الذى تقدمه للفقراء. لم تكن تلك الحقيقة معروفة للأسقف، ولكن فى يوم من الأيام قرر الذهاب لتناول الطعام مع الفقراء. وكانت مفاجأة لها أن يرى أن الطعام المقدم لهم مختلفًا عن طعامه. ولذلك اقترب من الراهبة وسألها عن سبب فعل ذلك. لم ترد عليه بكلمة. فأخذ منها المفاتيح وصُدِمت هى بشدة، وما زالت ترقد مريضة منذ ذلك الحين.

(١) ازداد حقد بعض الرهبان عليه لأنهم كانوا يعتبرون هذه الأعمال الخيرية إسرافا وتبذيرا، فتذمروا عليه وشكوه إلى الأنبا مرقس مطران البحيرة الذى كان قائما وقتئذ بالنيابة البطريركية لوفاة البابا ديمتريوس فقبل شكايتهم وعزله من رئاسة الدير. (المترجم).

لا أبالغ إن أنا أسميته أبانا إبراهيم، بسبب إيمانه وحبه للأغراب؛ وقد يُسمى موسى لصبره؛ أو داود لطهارة قلبه؛ أو إيليا لفصاحة لسانه؛ أو بولس لقوة حججه.

قضيت ذات مرة أسبوعًا مع الأسقف فى الفيوم. وهذه هى الأشياء التى رأيتها أثناء إقامتى. فقد اشتد المرض وطال كثيرًا على امرأة من بلوط، وهى قرية قريبة من منفلوط بمديرية أسيوط. أنفقت تلك المرأة كل ما تملك على الأطباء دون نتيجة. وفى النهاية سمعت الناس يتحدثون عن أسقف الفيوم. لم تكن متأكدة إن كانت بركة الأسقف تُعطى للمسيحيين وحدهم أم لغيرهم كذلك؛ فهى لم تكن مسيحية. ومع ذلك أخذها أربعة رجال من أقاربها إلى الفيوم. وبالإضافة إلى عللها الأخرى، كانت بكماء. وحين وصلوا إلى منزل الأسقف وضعوا المرأة أمامه، طالبين منه الصلاة لها. وهكذا أخذ يصلى لها ثلاثة أيام. وبعد ثلاثة أيام استطاعت المرأة السير فى الشوارع، وعادت إلى قريتها، حيث حكت لأهلها عن نتيجة صلوات الأسقف.

جىء له برجل آخر غيَّر دينه المسيحى، وترك زوجته. حاول الأسقف عبثًا التأثير عليه ليعود ويعيش مع زوجته ويتبع دينه الأصلى. لم يستمع الرجل. فقال الأسقف «ربنا يعرف شغله فيك». وهكذا ذهب الرجل ولكنه مات بعد ذلك بفترة قصيرة.(١)

(١) هناك رواية أخرى لهذه القصة تقول: «أغرى شاب مسلم شابة مسيحية إثمًا، ووقعت فى الخطية وتأصلت الخطية فى قلبها وأصبحت بجملتها ملكًا للشيطان وزين لها أن تترك دينها وتعتنق دين الشرير لتتمتع بالخطية مع هذا المسلم. وقدمت طلبا للجهات المختصة لتنفيذ رغباتها الدنيئة وحسب العادة المتبعة أحيل الطلب إلى الرئاسة الدينية، فأرسل الأنبا إبرام إليها لتحضر أمامه ولم يوكل الأمر لغيره من القساوسة فقد كان يهتم بنفسه على رعية المسيح التى اؤتمن عليها، نصحها كثيرا فلم تسمع ولم تصغ لإرشاده، وفى النهاية احتدت روح الأنبا إبرام وقال لها: أنت لا تقصدين الدين بل الشاب، لأن أغراضك شريرة فاسدة، اذهبى، الرب يعرف شغله فيك «وما إن غادرت المكان بعيدًا حتى سقطت مغشية عليها فظنوا أنها ماتت فطلبوا البوليس اعتقادًا أن فى الأمر جريمة. وعلم الأنبا إبرام بالأمر فذهب إلى المكان الذى سقطت فيه وصلى على كوب من الماء، ورشه عليها فقامت من رقدتها فى الحال وهى تسبح وتمجد الرب وكانت تردد قائلة: «أنا شفت بعينى.. أنا شفت بعينى» وعادت هذه الشابة عن طلبها فى اعتناق الإسلام بل إنها وهبت حياتها للخدمة ولم تتزوج وعاشت فى حياة الفضيلة والطهارة بقية حياتها». (المترجم).

رأيت أعدادًا كبيرة من النساء أتين من أنحاء مختلفة بأمراض شتى وقد عالجهم جميعًا بصلواته.

كانت زياراته السنوية لشعب إيبراشيته فريدة من نوعها. وكان أول شىء يفعله عند دخول القرية أن يسأل عن فقرائها. وأثناء إقامته فى القرى كان يفكر كثيرًا فى العلاقات السلمية بين الطائفة وكان يبذل كل جهده ليجعلهم يعيشون فى وئام.

كان يختبر أى مرشح للكهنوت. وكان يأخذ إرادة الشعب فى اعتباره إلى حد كبير. فإذا لم يكن المرشح محبوبًا جدًا لا يعينه. وكان يتبع قول بولس لتيموثاوس «لا تضع يدًا على أحد بالعَجَلة». وفى أحيان كثيرة كان يفضل المرشحين الفقراء على الأغنياء. وفى كل الأحوال كانت موافقة الشعب كله ضرورية جدًا.

فى سنة ١٦١٨ (بالتقويم القبطى) زار مطران الحبشة مصر، وهو أحد الرهبان الذين عينهم أسقف الفيوم. وبعد استقبال البطريرك والخديو له فى القاهرة قام بجولة فى بعض عواصم المديريات. ثم اعتزم زيارة ديره القديم. فطلب من الأسقف العجوز مصاحبته فى الزيارة. وأُجيب طلبه. وقد انضم إليهم أسقف الإسكندرية وأسقف إسنا وآخرون، وتوقفوا فى عدة أماكن استجابة لدعوات من الأعيان الأقباط.

فى أبو قرقاص نزلوا ضيوفًا على أديب بك وهبى الذى لم يكن له ولد حتى ذلك الحين. وقد اتفق الأساقفة كلهم على أن يطلبوا من أسقف الفيوم أن يصلى له عسى أن يهبه الله ولدًا. وكان البك يؤمن إيمانًا قويًا بصلاة الأسقف. وبعد عشرة أشهر استجاب الله لصلاة الأسقف ومُنح أديب بك وهبى ابنًا هو الآن فى حوالى الثانية عشرة من عمره.

وفى ذكرى زيارة الأسقف، كان أديب بك وهبى يزور الأسقف فى كل عام، وكان يذبح عددًا من البهائم للفقراء، ويعطى اللحم وأشياء أخرى للفقراء والمحتاجين. وفى السنوات القليلة الأخيرة، وبسبب التقدم فى العمر، لم يكن الأسقف يستطيع القيام بجولته فى القرى.

كان رجلًا منكرًا لذاته. وفى يوم من الأيام أراد أحد البطاركة رفعه إلى رتبة مطران، ولكنه رفض بأدب.

وما يجعل كرم هذا الأسقف أكثر تقديرًا هو أنه لم يميز يومًا بين الأديان والمذاهب المختلفة. وكان على استعداد دومًا لأن يعطى حين يُسأل، ولم يؤخر يومًا صلاة كانت هناك حاجة إليها عندما تُطلب منه. وكان يقضى معظم وقته فى الصلاة، وخاصة من أجل الفقراء.



أسقف الفيوم مع صليبه العجيب. هذه الصورة التى التُقطت للأسقف فى إحدى المرات الأخيرة التى ظهر فيها فى أماكن عامة دون علمه وهى الصورة الوحيدة الموجودة له، وهى بحوزة المؤلف.

الفصـــل السابــع

هل لا يزال عنصر الفراعنة القديم موجودًا فى مصر؟!

قد تكون دراسـة طريفـة أن نبين كيف نجح الأقباط نجاحًا تامًا فى إخفاء أنفسـهم عن الملاحظة، بل عن معرفة الرحالة والمقيمين فى بلدهم الذين يزعمون أنهم قاموا بدراسة كاملة للسكان فى وادى النيل. قد يكون هناك بعض الشك فى أن كل ما يتسم به الأقباط من تكتم شـرقى، بالإضافة إلى النزوع الطبيعى جدًا للشـك، وَلَّده اضطهاد بعض حكامهم المسـلمين؛ فلولا امتلاكهم لهاتيـن الصفتين لكان مـن المحتمل أن يُسحقوا ولا يكـون لهم وجـود بالمـرة. وإذا كان الأقباط قد أخفوا أنفسـهم عن أبناء وطنهم مـن غيـر دينهم، فإن لديهم سـببًا أقـل لإخفاء أنفسـهم عن مسـيحيى البلدان الأخرى الذين يكرهون ما يعتبرونه هرطقة قبطية قدر كراهيتهم لكفر المسلمين.

عندمـا اسـتولت الحملـة الصليبية الأولى علـى بيت المقدس فى عـام ١٠٩٩ منع الصليبيـون أبنـاء الكنيسـة القبطية مـن دخـول المدينة المقدسـة، وبذلك لـم يكونوا يفرقـون كثيـرًا بين المسـلمين المصريين الذين هزموهم فى عسـقلان، والمسـيحيين الشرقيين المتعاطفين معهم.

وعندمـا غـزا الصليبيـون مصر فـى عـام ١٢٠٤، ذبَّحـوا السـكان دون تفريق بين مسيحى ومسلم؛ ومن المحتمل أنهم نظروا إلى هؤلاء المسيحيين باعتبارهم هراطقة أسـوأ مـن الكفار، مثلهم فى ذلك مثل أسـقف سـالزبرى الذى قاد حملـة صليبية قبل تلك بأحد عشر عامًا.

لم يكن القديس فرنسيس الأسيزى[1] يعلم حين انضم إلى الحملة الصليبية السادسة المتجهة إلى مصر فى عام ١٢١٨ بوجود الكنيسة المصرية. وبعد قرون عديدة لم يَشُكَّ قط الرحالة الإنجليزى العظيم بروس، الذى تنقل فى مصر والحبشة وتلقى أكبر مساعدة من موظف فى الدولة كان قبطيًا، أن لمؤسسة مثل الكنيسة القبطية وجود. وكان جهل إدوارد لين بالأقباط، وظلم توصيفه لهم، يقوم على أدلة ضئيلة جدًا، ربما أمكن إرجاع سببها إلى ما اتسم به هؤلاء الأقباط الذين كان يتعامل معهم من مكر كتوم.

بينما أعطى المسلمون بعض الثقة للين (وإن كنت متأكدًا تمامًا من عدم شكهم فى أنه إنجليزى متخفٍ فى هيئة ابن البلد له ذلك القدر غير العادى من الاهتمام بهم) فقد نجح فقط فى الحصول على أى شىء مثل الحديث المألوف مع أحد الأقباط ـ ذلك الشخص الوضيع الذى لا تزال إساءته إلى إخوانه المسيحيين تحمل مرارة الظلم حتى يومنا هذا.

أى قدر من التحامل المَرَضى على الأقباط الذى يميز موقف الكثير من الإنجليز فى مصر منشؤه عمل لين، الذى يرجع إليه كل من يرغب فى الحصول على معلومات عن الشعب المصرى. كما أن هذا الموقف يشجع تعمد المراوغة الشرقى القديم، وبذلك لا تكون هناك فرصة كبيرة لمعالجة الجهل الإنجليزى الذى لا حد له بهؤلاء الناس.

بل لا بد أن أقول إنه حتى فى أيام الحكم والحماية الإنجليزيين هذه لا يمكن الحصول على المعلومات الموثوق بها من الأقباط إلا بأكبر قدر من الصبر والصعوبة، مهما كان تعاطف السائل.

إذا حظى شخص إنجليزى باهتمام الأقباط الأغنياء الذين سبق لهم السفر للخارج، لا بد أن يكون حذرًا من الانطباع الذى يودون خلقه لدى هذا الشخص بأن الفرق ليس كبيرًا فى الأخلاق والعادات، كما هو الحال فى الدين، بين الإنجليز والفرنسيين الذين يحاكونهم وبين أبناء جنسهم، أو أنه ليس هناك فرق بالمرة.

(١) مؤسس طائفة الفرنسيسكان. (المترجم).

أعلن الكاتب المعاصر مستر جون وارد فى حكمه على الأقباط من خلال حياة عائلة ثرية أو اثنين أقام معهما أن «الفضائل المسيحية تُمارَس كلها. فالرجل زوج امرأة واحدة، سيدة البيت تجلس بجوار زوجها عند تناول الأسرة لوجبات الطعام»، وهلم جرا؛ ثم يمضى فى حديثه ليعبر عن الآراء التى يوحَى بها بحرص شديد لزوار تلك الأسر فى مصر وتقول «إن الأقباط بعيدون فى كل أساليبهم عن أبناء وطنهم المسلمين».

تشير الحقائق إلى أن تلك المنازل الثرية القليلة، التى تمتعت بكرم ضيافتها، لا تمثل الحياة القبطية؛ ولحسن الحظ أن حرية سيداتها اللائى يمكننى الحديث عن جاذبيتهن وتواضعهن أمر لا يبدى القبطى العادى أى نوع من إقراره.

بالنسبة لمسلمى الطبقة العليا فإنهم فخورون جدًا بأى دور يقومون به لتصوير أنفسهم على أنهم ليسوا سوى شرقيين فى عاداتهم وأفكارهم، وليس معروفًا على وجه الدقة مدى شدة استيائهم من أساليب حياة الأقباط الأثرياء المتشبهة بالإنجليز.

وعندما يطلب المرء معلومات من الإكليروس القبطى، فإنه إما أن يُقابل بالاقتصاد فى الحقائق، وهو الأمر الأكثر تضليلًا من الصمت، أو بالجهل المطبق؛ وإذا طلب ذلك من أحد موظفى الحكومة الأذكياء ـ ومنهم الكثيرون فى مصر ـ فما يحصل عليه هو صورة مرسومة للحياة القبطية ليس لها علاقة كبيرة بالحقيقة، كما تكتشف أنت ببطء، ما لم تفتر المثابرة قبل اكتشاف الحياة الحقيقية للناس.

لا يتحدث قبطى على أى قدر من التعليم مع الغرباء عن الفولكلور البدائى، ولا عن الخرافات الفجة التى تعود إلى القرون الأولى ويكتسبها الجميع وتلوِّن الحياة كلها وخاصةً معتقدات الناس الدينية، ولا عن العادات الشرقية الشائعة فى حياة مصر بحيث لا يكون هناك فرق كبير بين المسلم والقبطى، إن كان هناك فرق. وجميعهم لديهم الفكرة الخاطئة التى ترى أن هناك ما يمكن كسبه لمصلحة القضية القبطية إذا أُرسِل كاتب، وخاصة إذا كان إنجليزيًّا، للخارج بصورة يتخيل العقل الداهية الكتوم أنها تلبى أفضليات الزائر وتحيزه وتجعله يتملق صاحبها.

يشكو الأقباط من الاحتقار الذى تعاملهم به الطبقات الرسمية الإنجليزية، ومن نفاد صبر أبناء بلدهم المسلمين، ويبدون عاجزين تمامًا عن إدراك أنهم مسئولون إلى حد كبير عن عدم الثقة التى أوصلتهم إلى هذه النتيجة.

الكُتَّاب الإنجليز الذين يعتبرهم الأقباط أفضل أصدقائهم، لأنهم سجلوا كل ما قيل لهم على نحو غير نقدى، هم فى واقع الأمر من ألحق بهم أكبر الأذى. وعندما يعلن البروفيسور بتلر أنه «أمام القانون وأمام الحكومة ينبغى أن تكون هناك عدالة صارمة، لا أقباط ولا مسلمين بل مجتمع واحد من المصريين» فما يقوله كلام يتسم بالحكمة يحسن الأقباط صنعًا إن هم أخذوه على محمل الجد.

إنهم الكُتَّاب الذين يقولون لهم باستمرار - بعد أربعة عشر قرنًا - إن العربى غازٍ فى مصر، وأن البلد مِلك فى واقع الأمر للأقباط؛ ولأن «المصريين الحقيقيين هم الأقباط المسيحيين» لا بد أن تكون لهم معاملة خاصة على أيدى الإنجليز، وأن أخطاءهم فى الغالب أخطاء ناتجة عن الاضطهاد. إنهم فى واقع الأمر من يحيى إلى الأبد كراهية المسلمين بتركيز الاهتمام على الماضى، بينما يتملقون الأقباط بأن ينسبوا إليهم فضائل ليست لهم؛ فرغم أكثر النوايا ودًا التى يبديها هؤلاء الكُتَّاب تجاه الأقباط، فإنهم لم يخفقوا فى مساعدة القضية القبطية فحسب، بل أعاقوها.

يعود تاريخ الصدع الذى بين القبطى والمسلم، الذى ازداد اتساعًا بذلك، إلى فترة الاحتلال البريطانى فحسب؛ فالطائفتان ليست بينهما عداوة فطرية أو متأصلة، وهو ما أثبته التاريخ مرارًا وتكرارًا. ولم يحصل القبطى من الإنجليز على شىء من خلال الصدع، بل إن ما ادعاه من المعاملة الخاصة أدى إلى حد ما إلى إنكار العدالة المجردة. وكان الحاكم الإنجليزى يبغض تأكيد الذات؛ ذلك أنه عندما كان يقوم على أية أفضلية «لإخواننا المسيحيين» يصبح بغيضًا حتمًا؛ وكان الموظف الإنجليزى فى سعيه لبيان أنه برىء من أى تحيز يفاخر بأنه يبعد نفسه كثيرًا جدًا عن نقطة الحياد الأساسية.

•

بعض الآراء القائمة على غير علم، مثل قول دين ستانلى بأن المسيحيين الأقباط المصريين هم «الأكثر تحضرًا من بين الأهالى»، آراء يرددها مرارًا وتكرارًا الذين يعرفون القليل عن الشعب المصرى، أو لا يعرفون عنه شيئًا البتة، حيث إن رغبتهم

كُتَّاب مسيحيين هى وحدها التى أوجدت تلك الفكرة التى أثارت استياء الجزء المسلم من المجتمع؛ ليست فقط لاعتبارها قذفًا فى حقهم، بل كذلك لكونها تشويهًا للحقائق التى يشكون فى أنه جرى احتضانها على نحو يتسم بالمكر.

لم تتردد مسز بوتشر فى كتابها الرائع «تاريخ الأمة القبطية» The Story of the Church of Egypt فى إلقاء اللوم على الاضطهاد الإسلامى فيما يتعلق بالارتداد، بل إنها حين تصل إلى التفاصيل التى يقوم عليها هجومها المستمر على المسلمين، تتحدث عن «البقشيش» باعتباره رذيلة إسلامية صرفة!

أتمنى باعتبارى إنجليزيًا ومسيحيًا - كما يتمنى آخرون رأوا قدرًا لا بأس به من البلد مثلى - أن نُحَكِّم ضمائرنا فى هذه الحماسة الدينية التى تتسم بالتملق القائلة بأن أقباط الوقت الراهن، وبسبب عقيدتهم، يتفوقون على أبناء وطنهم فى الأخلاق وكذلك فى الثقافة. ومنذ سنوات مضت عملت ميس واتلى شقيقة رئيس أساقفة أيرلندا بصبر ودأب بين الفقراء فى القاهرة من أجل مصلحتهم الأخلاقية. وكانت النتيجة التى توصلت إليها هى: «لا يمكننى القول بأننى رأيت فرقًا كبيرًا بينهم؛ فليس هناك تفوق من جانب الأقباط، فى الأخلاق أو السلوك».

وماذا كان حكم اللورد كرومر عندما انتهت مدة خدمته كأعظم حاكم شهدته مصر؟ لقد قال فى كتابه «مصر المعاصرة»، رغم كل أغراض التعميم الواسع، إن الفرق الوحيد بين القبطى والمسلم أن الأول مصرى يتعبد فى الكنيسة، بينما الثانى مصرى يتعبد فى المسجد.

تلك قراءة ممقوتة. ولكن إذا كان لا بد من إبطالها، فعلينا الاعتراف بأن التصرف كالنعامة تجاه الوضع الحقيقى لإخواننا فى المسيحية هؤلاء سوف يؤدى إلى تعطيل من يرغبون فى المساعدة للوصول إلى حالة أفضل وأكثر مواساةً للأمور.

يمكن رؤية القدر المشترك بين المسيحية المصرية الأرثوذكسية وتعليم كنيسة إنجلترا، على سبيل المثال، عند اختباره على أيدى المرجعيات المسئولة فى كلتا الكنيستين.

بدأت الجمعية الإنجليزية، التى تسعى باسم الكنيسة الإنجيلية إلى تقدم المسيحية فى مصر، عملها بـ«رفض التسامح مع هرطقة الأقباط المدمرة للنفس»، وهى بذلك

تعيد إلى زماننا الكراهية المسيحية الموروثة بين الشرق والغرب التى سبق لى الحديث عنها.

ولا بد أن رجال الكنيسة هؤلاء أناس يفتقرون بشدة إلى الذاكرة التاريخية أدهشهم إبداء البطريرك الحالى القادم من دير صحراوى، وهو أحد الأماكن التى يطيل فيها الرجال التفكير فى الإهانة والأذى فى هدوء القرون الذى لا يقطعه شىء، شكه الشديد فى مبادرات الدكتور بلايث أسقف كنيسة إنجلترا فى الشرق، مما جعله يرفض استقباله فترة طويلة.

لا شك لدى فى أن البطريرك يظن أن الحديث عن التئام شمل العالم المسيحى، وخاصةً حين يتذكر الطريقة التى سحبت بها البعثات التبشيرية الأمريكية خرافه من حظيرة كنيسته العتيقة، تبجح صادر عن كنيسة الإصلاح. ولم يكن البطريرك فى يوم من الأيام أحد هؤلاء الأقباط الذين يسعون إلى اكتساب حظوة لدى الإنجليز من أية طبقة؛ والواقع أنه يفضل باستمرار الخضوع للسلطات المصرية على الخضوع لسلطات المعتمد البريطانى.

فى ظل الجهل السائد بأحوال الشعب القبطى، ليس من المستغرب ألا يعطى علماء التاريخ الاهتمام الكافى لدراسة أصولهم العرقية؛ أو أن ما حظى به المسيحيون المصريون من البحث والدراسة كان فى كثير من الأحيان تافهًا أو مضَلِّلًا.

فقد كان اسم الأقباط نفسه موضوعًا لتخمين عشوائى من جانب رجال يزعمون أنهم يكتبون استنادًا إلى ما لديهم من حجج. فاسم الأقباط يجب أن يُكتب ويُنطق Kypt أو Gypt كما تنطقه الطائفة نفسها. وهو لا شك مشتق من الاسم اليونانى القديم لمصر Aiguptos. ولا يهمنا كثيرًا إن كان هذا الاسم مشتق بدوره من الاسم المصرى القديم لمنف «حقا بتاح» أم لا، أما الخطأ الشائع بإرجاع كلمة Copt إلى اسم مدينة Coptos التى تُسمى الآن «قِفْط» بمديرية قنا فضرب من العبث.

بدايةً، لم يكن هناك أى سبب لتغيير تسمية الأمة بكاملها عند تغيير المصريين لديانتهم. ومن المؤكد أنه كان من الأولى اختيار مدينة أكثر أهمية لتوفير الاسم.

وهناك كُنية شائعة يطلقها المسلمون على الأقباط وهى «الجنس الفرعونى» وهى

الكُنية التى يستخدمها لوصف أبناء بلدهم رجال يفخرون هم أنفسهم بأنهم عرب أولاد عرب.

ولكن سواء أكان الاسم أقباط يعود بنا إلى مصر الفرعونية أم لا، فالكثير من العادات الدنيوية، كما أسلفت فى مواضع أخرى، تربطهم بالقدماء. ومع ذلك فاللغة القبطية هى ما أظن أنه سيكون على دارس المستقبل أن يبحث فيها عما هو «الدليل الأوثق على أصل الشعب».

قام الدكتور صبحى[1] من القاهرة، وإقلاديوس بك لبيب العالم القبطى البارز[2]، ببحث مضنٍ فى العامية المصرية الحديثة سمحا لى بالاستفادة منه، وقد أسفر عن العثور على أكثر من ألف ومائتى مفردة قبطية مستخدمة جنبًا إلى جنب مع اللغة العربية. وقد اكتشفا فى بعض الأحيان جملًا بكاملها وأقوالا شائعة باللغة القبطية الصرفة يستخدمها المصريون الآن، دون أن يعرفوا أصلها. وبعض هذه الكلمات بات يُنظر إليه على أنه مجرد رطانة أو سيم.

هناك تعبير شائع كثيرًا ما يستخدمونه بدلًا من الكلمات «شىء أو آخر»، وهو يُنطق هكذا «كانى مانى». عندما قابل الدكتور صبحى هذا التعبير لأول مرة ظن أنه مجرد نموذج للسجع الذى لا معنى له. إلا أنه وجد أنهم كثيرًا ما يضيفون شطرًا آخر له، وهو «ودكان الزلبانى»، ومعناها دكان الحلوانى؛ وهنا تذكر أن «كانى مانى» هما المفردتان القبطيتان اللتان تعنيان العسل والزبد.

(١) العلامة الدكتور جورجى صبحى الذى كان ضليعا فى اللغة القبطية فسجل الآلاف من هذه الكلمات فى كتابه. ويصفه المستشار الدكتور نشأت نجيب بأنه «أحد العلامات الفارقة فى تاريخ مصر المعاصر جمع فى شخصيته الفذة بين الأصالة والمعاصرة واستطاع أن يؤكد على إمكانية التعايش بين الحضارات والتواصل والاتصال بينها. استمد من جذوره التاريخية القدرة على الابتكار والبحث من أجل مستقبل أفضل وحياة إكثر إشراقا للبشرية. أضاف الدكتور جورجى صبحى الكثير إلى العلوم الإنسانية خاصة فى فروع الطب والتاريخ والاجتماعيات واللغة. واهتم اهتماما خاصا بالدراسات القبطية باعتبارها أحد أعمدة الشخصية المصرية». (المترجم).

(٢) عيَّن البابا كيرلس الخامس إقلاديوس لبيب مدرسًا للغة القبطية، وشجعه على وضع أول قاموس من نوعه قبطى - عربى. كما وضع كتابًا عن النحو وقواعد اللغة القبطية. أنشأ إلى جوار كنيسة السيدة العذراء بمصر القديمة أول مطبعة يدوية لطباعة كتب الكنيسة الطقسية، وما إن اتسعت حتى نقلت إلى بيته فى عين شمس وسميت «مطبعة عين شمس». (المترجم).

وفى التعبيرات المستخدمة بين الأمهات وأطفالهن الرضع، وتلك التى يستخدمها العمال فى الحقول، يوجد الكثير من تلك الأمثلة؛ وهو موجود بشكل خاص فى كلام النوتية فى النيل - حيث يتوقع المرء أقل قدر من التغيير فى التعابير العامية.(١)

---

(١) من أوائل الكلمات التى يستعملها الطفل المصرى كلمة «أمبو» والتى تعنى ماء أى أريد أن أشرب ماء، وهناك مدينة يطلق عليها كوم أمبو. وعندما تعلم الأم ابنها المشى فتغنى له «تاتا ـ خطى العتبة» ويعتقد أن هذه الأغنية نشأت عند تعلم الأقباط اللغة العربية لأنها تحتوى على اللغتين القبطية والفرعونية فى أغنية واحدة. وإذا جرح الطفل أو شعر بالألم فيشير إلى الموضع ويقول «واوا» وعندما تلاعب الأم ابنها تقول له «بخ» أى عفريت أو شيطان أما إذا أرادت الأم تخويف طفلها فتقول له فى الظلام يوجد «بعبع» وهو شيطان كان يستعمله القدماء فى أعمال السحر اسمه «بوبو» وكثيرًا ما يبتهج الأطفال بسقوط الأمطار فيتغنون تحتها قائلين: «يا نطرة رخى رخى...» وفى بعض الأماكن الأخرى يقولون: «رخيها رخيها.. خللى البط يعوم فيها» فإذا اتسخت ملابس الطفل حذرته أمه من «السخام» أى النجاسة، وتحذره من مد يده للقذارة وتقول له كلمة «كخ». وعرف المصرى القديم اسم اللحمة باسم «حات»، والعظم اسمه «بات»، والجزار اسمه «حاتى» والتى ما زالت تطلق حتى اليوم على صانع الكباب والكفتة، والذى أكل الطعام كله نقول «حتتك بتتك» أى أنه لم يفرق بين اللحم والعظم، وعن الفقير «حاتا باتا» أى أنه جلد على عظم. أما الكلمة الأكثر شهرة فى مصر هى «المدمس»، ويرجع أصلها إلى «المتمس» أى الفول المطمور، والبصارة أصلها «بيصور» ومن أنواع السمك البسارية والشلبة، وأصلها «بسارى وشلقاو» وأما الجبنة الطازجة فنطلق عليها «حالوم» وهى كلمة قبطية. ولا يزال القرويون حين يلعبون الكرة الشراب فى الجرن.. يستخدمون مفردات فرعونية مثل «الميس» الذى يصد الكرة، ويستعملون الأعداد القديمة وأولها «سنو» ويصفون الشخص مفتول العضلات بأنه «عتيل» وأصلها «عتورى» يعنى قوى. ويقولون عن ريح الشمال الباردة «طياب» وريح الجنوب الدافئة «مريس» ومنها أغنية: ياهوا يامريسى.. نشف لى قميصى.
ومن الأمثلة اليومية التى يقولها المصريون «أخويا هايص وأنا لايص.». والليص هو الطين. ويعنى أن أحواله مطينة. وما زال يستعمل عمال البناء اليوم فى أغانيهم عندما يعملون «هوب ليصا». ومن الكلمات الشائعة اليوم حتى الآن أننا نقول عن أول ضوء النهار إن الفجر «شأشأ» وعندما يتراجع الشخص عن عهوده نصفه بأنه «حمرا» فإذا كان خفيف العقل نقول أن عقلة «تراللى». وعندما تجلس المرأة القروية أمام الفرن فإنها تستخدم «الشاروقة» وهى كلمة فرعونية مكونة من لفظين هما «شى رقة» ومعناها الحريق. والشراق اسم نوع من الخشب الدهنى الذى يساعد على الاشتعال. وهى تستخدم «البشكور» فى دفع أرغفة العجين إلى الشاروقة لا تزال تستخدم «الماجور» النحاس كوعاء. ونحن لا نزال نقول «بشبش الطوبة اللى تحت دماغه» وهو الطوب بعد صب الماء عليه ليكون لينا، ومن أسماء المكاييل التى لا تزال سائدة الأردب وأصله «أرطبة» و«الويبة» و«التليس» بمعنى الزكيبة. ومن الكلمات التى تستخدم فى السب والتحقير كلمة «بقف» وهو جلد النعجة، ونصف الشخص التافه بأنه «مهياص» وهى مكونة من لفظين: «مه» بمعنى يملأ و«يص» بمعنى التسرع والشطط، وقد تقول الفتاة لصديقتها على سبيل المداعبة «جاتك أوا»، وهو الوجع، ونقول عن الطماع أنه «يكوش»، أى يستولى على كل شىء.. وحين يصرخ الرجل مستنجدا يقول «جاى» بمعنى الحقونى. ولا نزال نصف اليوم الحار بأنه «صهد» فإذا اشتد الحر قلنا نقره الشمس، وأصلها «نج» بمعنى شديد و«ره» أى رع إله الشمس. (كلمات قبطية فى لغتنا اليومية فى مصر، موسوعة تاريخ أقباط مصر) (المترجم).

يظن أن عدد القبط كان حوالى ستة ملايين نسمة عند الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى؛ ويقدر يوتيخوس، وهو أقدم مؤرخى الكنيسة القبطية، عددهم بثمانية عشر مليونًا، وهو ما لا بد أن يكون رقمًا مبالغًا فيه، إلا إذا كان يشمل عدد السكان الفعلى فى بداية الحكم الرومانى.

من بين الباحثين القلائل الذين تعاملوا مع الموضوع، كشف البعض عن وجود أصول زنجية بين الأقباط؛ بينما اعتبر آخرون، مثل روسيلليني، أن هناك أدلة آثار على الدماء اليهودية والرومانية.

وأجرى دينون فى «وصف مصر» مقارنة كاملة للسمات الجسمانية القبطية وكانت النتيجة أنه شعر بالرضا لوجود تطابق ملحوظ بين الأشكال البشرية المصورة فى اللوحات والتماثيل الخاصة بالجنس القديم.

ربما تكون هناك حقيقة فى هذه النظريات جميعها. ففى أنحاء كثيرة من مصر نجد أن المسيحيين مختلفين إلى حد ما عن النمط العام، تبعًا لهيمنة تلك التأثيرات. فأقباط الوجه البحرى، وخاصةً فى مديرية الشرقية، أكثر سمرة من المعتاد؛ وتُستثنى من ذلك المنصورة. وفى الصعيد نجد أن أقباط سوهاج وجرجا والمنيا ذوو بشرة سمراء، بينما كل سكان أبنوب القريبة من أسيوط ذوو بشرة بيضاء وعيون زرقاء.

وبالنسبة للقطر كله، يتراوح لون البشرة بين الأصفر الشاحب والبنى الداكن؛ فهى ليست طينية بحال من الأحوال، ولكنها صافية وناعمة باستمرار.

العيون بصفة عامة داكنة، ولكن درجاتها تتراوح بين الأسود والبنى الفاتح - أو «العسلى»، كما يقولون بالعربية. وهى تميل إلى أن تكون لوزية الشكل؛ ولكنها ليست بعيدة جدًا عن الأنف كما يُقال كثيرًا.

الأنف مستقيم بصورة عامة، ولكنه فى بعض الأحيان معقوف قليلًا لأسفل وكبير عند طرفه؛ ونادرًا ما يكون معقوفًا كمنقار النسر.

الفم متوسط الحجم، والشفتان ممتلئتان وحسنتا الشكل، والأسنان بيضاء وقوية ومنتظمة. الأذنان كبيرتان فى بعض الأحيان. والأقباط متوسطو الطول؛ ونادرًا ما يكونون طوالًا إلى حد كبير.

وفى التعبيرات المستخدمة بين الأمهات وأطفالهن الرضع، وتلك التى يستخدمها العمال فى الحقول، يوجد الكثير من تلك الأمثلة؛ وهو موجود بشكل خاص فى كلام النوتية فى النيل ـ حيث يتوقع المرء أقل قدر من التغيير فى التعابير العامية.(١)

---

(١) من أوائل الكلمات التى يستعملها الطفل المصرى كلمة «أمبو» والتى تعنى ماء أى أريد أن أشرب ماء، وهناك مدينة يطلق عليها كوم أمبو. وعندما تعلم الأم ابنها المشى فتغنى له «تاتا ـ خطى العتبة» ويعتقد أن هذه الأغنية نشأت عند تعلم الأقباط اللغة العربية لأنها تحتوى على اللغتين القبطية والفرعونية فى أغنية واحدة. وإذا جرح الطفل أو شعر بالألم فيشير إلى الموضع ويقول «واوا» وعندما تلاعب الأم ابنها تقول له «بخ» أى عفريت أو شيطان أما إذا أرادت الأم تخويف طفلها فتقول له فى الظلام يوجد «بعبع» وهو شيطان كان يستعمله القدماء فى أعمال السحر اسمه «بوبو» وكثيرًا ما يبتهج الأطفال بسقوط الأمطار فيتغنون تحتها قائلين: «يا نطرة رخى رخى...» وفى بعض الأماكن الأخرى يقولون: «رخيها رخيها.. خللى البط يعوم فيها» فإذا اتسخت ملابس الطفل حذرته أمه من «السخام» أى النجاسة، وتحذره من مد يده للقذراة وتقول له كلمة «كخ». وعرف المصرى القديم اسم اللحمة باسم «حات»، والعظم اسمه «بات»، والجزار اسمه «حاتى» والتى ما زالت تطلق حتى اليوم على صانع الكباب والكفتة، والذى أكل الطعام كله نقول «حتتك بتتك» أى أنه لم يفرق بين اللحم والعظم، وعن الفقير «حاتا باتا» أى أنه جلد على عظم. أما الكلمة الأكثر شهرة فى مصر هى «المدمس»، ويرجع أصلها إلى «المتمس» أى الفول المطمور، والبصارة أصلها «بيصور» ومن أنواع السمك البسارية والشلبة، وأصلها «بسارى وشلقاو» وأما الجبنة الطازجة فنطلق عليها «حالوم» وهى كلمة قبطية. ولا يزال القرويون حين يلعبون الكرة الشراب فى الجرن.. يستخدمون مفردات فرعونية مثل «الميس» الذى يصد الكرة، ويستعملون الأعداد القديمة وأولها «سنو» ويصفون الشخص مفتول العضلات بأنه «عتيل» وأصلها «عتورى» يعنى قوى. ويقولون عن ريح الشمال الباردة «طياب» وريح الجنوب الدافئة «مريس» ومنها أغنية: ياهوا يامريسى.. نشف لى قميصى.
ومن الأمثلة اليومية التى يقولها المصريون «أخويا هايص وأنا لايص.». والليص هو الطين. ويعنى أن أحواله مطينة. وما زال يستعمل عمال البناء اليوم فى أغانيهم عندما يعملون «هوب ليصا».ومن الكلمات الشائعة اليوم حتى الآن أننا نقول عن أول ضوء النهار إن الفجر «شأشأ» وعندما يتراجع الشخص عن عهوده نصفه بأنه «حمرا» فإذا كان خفيف العقل نقول أن عقلة «تراللى». وعندما تجلس المرأة القروية أمام الفرن فإنها تستخدم «الشاروقة» وهى كلمة فرعونية مكونة من لفظين هما «شى رقة» ومعناها الحريق. والشراق اسم نوع من الخشب الدهنى الذى يساعد على الاشتعال. وهى تستخدم «البشكور» فى دفع أرغفة العجين إلى الشاروقة لا تزال تستخدم «الماجور» النحاس كوعاء. ونحن لا نزال نقول «بشبش الطوبة اللى تحت دماغه» وهو الطوب بعد صب الماء عليه ليكون لينا، ومن أسماء المكاييل التى لا تزال سائدة الأردب وأصله «أرطبة» و«الويبة» و«التليس» بمعنى الزكيبة. ومن الكلمات التى تستخدم فى السب والتحقير كلمة «بقف» وهو جلد النعجة، ونصف الشخص التافه بأنه «مهياص» وهى مكونة من لفظين: «مه» بمعنى يملأ و«يص» بمعنى التسرع والشطط، وقد تقول الفتاة لصديقتها على سبيل المداعبة «جاتك أوا»، وهو الوجع، ونقول عن الطماع أنه «يكوش»، أى يستولى على كل شىء.. وحين يصرخ الرجل مستنجدا يقول «جاى» بمعنى إلحقونى. ولا نزال نصف اليوم الحار بأنه «صهد» فإذا اشتد الحر قلنا نقره الشمس، وأصلها «نج» بمعنى شديد و«ره» أى رع إله الشمس.(كلمات قبطية فى لغتنا اليومية فى مصر، موسوعة تاريخ أقباط مصر) (المترجم).

يُظن أن عدد القبط كان حوالى ستة ملايين نسمة عند الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى؛ ويقدر يوتيخوس، وهو أقدم مؤرخى الكنيسة القبطية، عددهم بثمانية عشر مليونًا، وهو ما لا بد أن يكون رقمًا مبالغًا فيه، إلا إذا كان يشمل عدد السكان الفعلى فى بداية الحكم الرومانى.

من بين الباحثين القلائل الذين تعاملوا مع الموضوع، كشف البعض عن وجود آثار أصول زنجية بين الأقباط؛ بينما اعتبر آخرون، مثل روسيلليني، أن هناك أدلة على الدماء اليهودية والرومانية.

وأجرى دينون فى «وصف مصر» مقارنة كاملة للسمات الجسمانية القبطية وكانت النتيجة أنه شعر بالرضا لوجود تطابق ملحوظ بين الأشكال البشرية المصورة فى اللوحات والتماثيل الخاصة بالجنس القديم.

ربما تكون هناك حقيقة فى هذه النظريات جميعها. ففى أنحاء كثيرة من مصر نجد أن المسيحيين مختلفين إلى حد ما عن النمط العام، تبعًا لهيمنة تلك التأثيرات. فأقباط الوجه البحرى، وخاصةً فى مديرية الشرقية، أكثر سمرة من المعتاد؛ وتُستثنى من ذلك المنصورة. وفى الصعيد نجد أن أقباط سوهاج وجرجا والمنيا ذوو بشرة سمراء، بينما كل سكان أبنوب القريبة من أسيوط ذوو بشرة بيضاء وعيون زرقاء.

وبالنسبة للقطر كله، يتراوح لون البشرة بين الأصفر الشاحب والبنى الداكن؛ فهى ليست طينية بحال من الأحوال، ولكنها صافية وناعمة باستمرار.

العيون بصفة عامة داكنة، ولكن درجاتها تتراوح بين الأسود والبنى الفاتح - أو «العسلى»، كما يقولون بالعربية. وهى تميل إلى أن تكون لوزية الشكل؛ ولكنها ليست بعيدة جدًا عن الأنف كما يُقال كثيرًا.

الأنف مستقيم بصورة عامة، ولكنه فى بعض الأحيان معقوف قليلًا لأسفل وكبير عند طرفه؛ ونادرًا ما يكون معقوفًا كمنقار النسر.

الفم متوسط الحجم، والشفتان ممتلئتان وحسنتا الشكل، والأسنان بيضاء وقوية ومنتظمة. الأذنان كبيرتان فى بعض الأحيان. والأقباط متوسطو الطول؛ ونادرًا ما يكونون طوالًا إلى حد كبير.

الشعر أسود أو بنى داكن باستمرار، وفى بعض الأحيان أملس ولامع، ولكن فى الأغلب مموج؛ ولكنه لا يكون أجعد أبدًا.

حيثما يكون هناك تنوع من هذه الأنماط العامة يكون السبب فى ذلك الزواج من الأجانب. فهناك خليط من الأرمن؛ ورغم وجود تحيز موروث بين المسيحيين المصريين والمسيحيين الشوام فى الوقت الحالى، فالتزاوج قائم بينهم إلى حد ما. أما الزواج من اليونانيين فغير معروف تقريبًا.

أجرى البروفيسور إليوت سميث فى تقرير قيِّم بعض المقارنات بين مقاييس الرجال فى الوقت الحالى، وهو ما يشير إلى أن هناك اختلافًا قليلًا جدًا فى هذا الصدد بين المصريين القدماء وأحفادهم.

فُحِصت جماجم أقباط القرون الأولى، وقد اتضح أنها متطابقة تقريبًا مع جماجم المومياوات الفرعونية؛ وشكل الجمجمة نفسه موجود بين المسيحيين المصريين المُحْدَثين.

أرجع البروفيسور إليوت سميث انحرافًا ما فى الجمجمة حدث فى القرن الخامس إلى وقوع اختلاط مع الجنس السريانى. وفى تلك الفترة عُقِد مَجْمَع إفسوس لحرمان نسطورس بسبب الهرطقة، مما أدى إلى وجود صلة قوية بين الكنيسة القبطية وكنيسة إنطاكية. وقد انتقل حينذاك عدد كبير من الكهنة السريان إلى مصر؛ وفى وقت لاحق كان عدد الكهنة السريان كبيرًا لدرجة أنه كان لهم دير مستقل فى وادى النطرون ما زال قائمًا منذ القرن التاسع حتى وقتنا هذا.

ولا شك فى أنه تبع هؤلاء الرهبان عدد كبير من العلمانيين الذين يمكن أن يُنسب إليهم ذلك النمط الذى يقابَل من حين لآخر بين الأقباط، مع وجود أنف متسع وعينين كبيرتين مستطيلتين، ولحية كثة شعثاء لا تُرى على رجل آخر فى مصر. نقابل أحيانًا آثارًا من الدم الزنجى؛ ومن بين الجماجم التى فُحِصت ما اتضح أنه ذو سمات زنجية.

كان الأقباط باستمرار يملكون أعدادًا كبيرة من العبيد، وفى فترة ما كان اتخاذ المحظيات أمرًا شائعًا، رغم إصدار الكنيسة قرارات مشددة ضد ذلك الأمر، مع التهديد بالحرمان الكنسى.

تفسر على الفور القوانين الشرقية الحاكمة لامتلاك العبيد ـ التى كان يراعيها بكل ما فيها من شفقة إنسانية الأقباط الذين لم يكن هناك من الأوامر القرآنية ما يجبرهم على ذلك ـ كيفية استمرار النمط الزنجى بعد أن فرضت الكنيسة رأيها على الكل فيما يتعلق بالإماء. فما كان الأب لينكر بنوة الأطفال الناتجين عن تلك العلاقة، ولم يكن هناك قانون يَصِم هؤلاء الأبناء بعدم الشرعية. وكان التحيز اللونى وما زال غير معروف إلى حد كبير، بحيث كان هؤلاء الأطفال جميعًا يتزوجون بدورهم داخل الطائفة التى ولدوا فيها. وعلاوة على ذلك كانت أية أَمَة تحمل طفلًا لسيدها تصبح حرة منذ ذلك الحين، وكانت تُعامل معاملة الزوجة الكريمة.

ولكن رغم ذلك كله فإنى أظن أنه لم يُعط الانتباه الكافى للعنصر اليهودى بين الشعب القبطى. وأعرف أن هذا ليس اقتراحًا شائعًا، ولكن التحيز الذى تجمَّع على امتداد العصر المسيحى ضد اليهود، ويشارك فيه الأقباط بالكامل، لا ينبغى أن يجعلنا نغفل بحق عن الحقيقة التاريخية.

فمنذ أيام إرميا، حين قاد يوحانان بن قاريح فرقة من اليهود إلى مصر، لم يتوقف سيل هجرة اليهود من فلسطين.

فى هذا الصدد، نجد أن المقبرة العتيقة المحفوظة فى أحد معابد مصر القديمة، ويصر اليهود باستمرار على أنها تضم جثمان النبى إرميا، ذات أهمية كبيرة.(١)

بحلول القرن الأول، يروى لنا فيلو أن اليهود المقيمين بالإسكندرية، وفى البلاد الممتدة من صحراء ليبيا حتى حدود الحبشة لا يقل عددهم عن المليون.

(١) حتى سنوات قليلة منذ ذلك الحين، كانت تُحفظ فى ذلك المكان لفافة يتفق الكل على أنها من كتابة النبى عزرا، وتحمل لعنة على كل من ينقلها من مكانها. وبخيانة من أحد اليهود أصبح أمر وجودها معروفًا للأغراب. شق هواة جمع الآثار المتحمسين طريقهم إلى داخل المعبد اليهودى واكتشفوا اللفافة، وحاولوا فكها. ومن الواضح أنها لم تكن قد فُتحت منذ قرون، ذلك أنه عُثر على بقايا ثعبان فى مخبئها، حيث كانت توجد. وكانت فضلات الثعبان قد لصقت حوافها ببعضها، حتى وُجِد أنه من المستحيل فصلها بدون إلحاق ضرر كبير بها. وبعد أن رأى هواة جمع الآثار ما يكفى لإرضائهم بأنها تعود إلى عصر عجيب، رحلوا على أمل القيام بمزيد من الفحص فى ظروف مواتية. ولكن الحراس انتبهوا، وعثروا لها على مخبأ جديد بعيد عن تطفل الأغيار.

أدت التأثيـرات الفلسـفية العديـدة التى تعرضت لها الطائفة فى مصر إلى تقليص الجماعـة المحافِظـة القديمـة، كتلك التـى كانت موجـودة فى القـدس، وكذلك التى أصبحت مضطهدى القديس بولس الأشد قسوة(١)، لتصبح أقلية صغيرة. أما الأغلبية فكانت هـى ذات الاتجاهات التقدمية الأكثر حيوية؛ وكانت المدرسة الغالبة يقودها رجل مثل فيلو الذى كان يسعى إلى التوفيق بين اليهودية والفلسفة اليونانية.

وهنـاك قدر جيد من الأدلة على أن من كانوا يدعون للعقيدة المسيحية فى البداية استهدفوا على نحو تام تقريبًا اليهود الهيلينستيين، ولم تكن هناك محاولات كبيرة فى أول الأمر للوصول إلى جموع أبناء البلد من المصريين.

وكان «الإنجيل بحسب العبرانيين»(٢) يقرؤه فى الأساس من دخلوا المسيحية من اليهـود. وكان مقصـودًا بـ «الإنجيل بحسـب المصريـين»(٣)، كما يوحى اسمه، أن يستخدمه أبناء البلاد المصريين، تمييزًا لهم عن السكندريين، أو كذلك الأغيار الذين اعتنقوا المسيحية، تمييزًا لهم عن اليهود.

(١) «ولد بولس لأبوين يهوديين فى مدينة طرسوس فى آسيا الصغرى، ونشأ فيها وتعلم حرفة صنع الخيام، ثم ذهب إلى أورشليم، فأكمل تعليمه عند رجل يدعى جمالائيل أحد أشهر معلمى الناموس فى أورشليم (انظر أعمال ٢٢/ ٣٩،١٨/ ٢٣/ ٣،٢٣/ ٣). وقد أسماه والده «شاول» ومعناه «مطلوب»، ثم سمى نفسه بعد تنصره «بولس» ومعناه «الصغير» (أعمال ١٣/ ٩). ولا تذكر المصادر النصرانية لقيا بولس المسيح، وأول ذكر لبولس فيما يتصل بالنصرانية شهوده محاكمة وقتل استفانوس أحد تلاميذ المسيح، ويذكر بولس أنه كان راضيًا عن قتله (انظر أعمال ٨/ ١) فقد كان يهوديًا معاديًا للمسيحيين الأوائل. ويحكى سفر الأعمال عن اضطهاد بولس للكنيسة وأنه «كان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت، ويجر رجالًا ونساءً، ويسلمهم إلى السجن» (أعمال ٨/ ٣)». (هل العهد الجديد كلمة الله؟ (http://www.ebnmaryam.com/monqith/monqith2/tmheed.htm)، و«ذكر قداسة البابا بأن أول اتصال لبولس بشخص يسوع حدث من خلال شهادة الجماعة المسيحية فى أورشليم التى اضطهدها بقوة، مشيرًا إلى أن بولس نفسه قد اعترف ثلاث مرات فى رسائله بأنه اضطهد كنيسة الله». (إذاعة الفاتيكان، ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٦) وكان بولس فى الأصل اسمه شاول وكان ينتمى إلى طائفة الفريسيين وهو المذهب الأكثر تشددًا بين اليهود. (المترجم).

(٢) كان «الإنجيل بحسب العبرانيين» أحد الأسفار المسيحية الأولى وكان معروفًا فى منتصف القرن الثانى الميلادى، وكثيرًا ما أشار إليه آباء الكنيسة الأوائل خلال القرون الخمسة الأولى من العصر المسيحى. أما الكتاب نفسه فقد اختفى تمامًا، وكل ما بقى لنا منه اقتباسات سجلها كليمنت وأوريجونس وجيروم وكيرلس الأورشليمى. (المترجم).

(٣) ينسبه البعض إلى مرقس الرسول. (المترجم).

نذكر أن أقدم الأناجيل التى كانت متداولة فى مصر لم تكن هى الأناجيل القانونية(١)، ففى زمن كليمنت كان هذان الإنجيلان - بحسب العبرانيين وبحسب المصريين - ما زالا يُستخدمان استخدامًا عامًا. وهناك اعتقاد سائد بأن هاتين الوثيقتين سبقتا أناجيل الرسل الأربعة إلى مصر، ومن الأرجح أن أقدم طائفة مسيحية هناك استخدمتها.

يقول أدولف هَرْنَك «إنها مسألة تخمين محض، ولكنه قد يكون تخمينًا صحيحًا، أن اليهود الذين دخلوا فى المسيحية فى وادى النيل كانوا أكثر منهم فى أى مكان آخر».

مصر هى موطن الزهد، ومن الأرجح أن اليهود كانوا ينظرون إلى المسيحية فى البداية على أنها دعوة إلى سبيل جديد شديد الروحانية لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال اليهودية. ومن المنطقى افتراض أنه بمرور الوقت أصبح هؤلاء اليهود مستوعَبين داخل الكنيسة المسيحية التى كانت تغطى البلاد على نحو سريع.

فما هو ذلك التطور الغريب الذى حدث فى مصر ويؤدى إلى الشعور بالنفور من اليهودى فى الوقت الحالى ويحرمه، دون سائر الناس، من دخول الكنيسة القبطية أثناء القُدَّاس؟ فحتى المسلم لا يُمنع أبدًا من الدخول. وقد وقفت طوال احتفال الإفخارستيا كله بجوار شيخ، ولكن الباب كان موصدًا دون اليهود.

ونجد بين العامة فى مصر أن أحدث سِباب هى نعت الرجل بأنه يهودى! وبعد أن كان المصرى يبتسم عند سماع نعوت مثل الكلب أو الحمار أو الجاموسة، فإن بوابات سيول الغضب الشرقى تنفتح عمومًا عند نعته باليهودى.

(١) كلمة قانون (Canon – kanon - kanώn) هى كلمة يونانية وتعنى «قصبة القياس»، «عصا مستقيمة»، «قاعدة للقياس أو للحكم»، ويقابلها فى العبرية «كانيه – kaneh - קָנֶה». وقد استخدمتها الكنيسة فى القرون الأولى وبصفة خاصة منذ أن استخدمها القديس اثناسيوس الرسولى فى رسالته الفصحية سنة ٣٦٧م للتعبير عن «الأسفار المقدسة» الموحى بها من الله؛ التى نطق بها الله»، «كل الكتاب هو ما تنفس به الله» (٢تي١٦:٣)، سواء أسفار العهد القديم أو أسفار العهد الجديد، وتميزها، كأسفار مكتوبة بالروح القدس وكلمة الله، عن غيرها من الكتب الدينية الأخرى غير الموحى بها، مثل التلمود وكتب آباء الكنيسة الأولى. (القمص عبد المسيح بسيط _http://209.85.165.104/search?q=cache:b1u6 rsTf_QJ:www.christpal.com/shobohat/el7ad/antithedavin) (المترجم).

أظن أن الأمر فى حالة الأقباط لا يمكن أن يكون سببه ظلم الربا القديم الذى مارسه اليهود، فى حين أنه المسئول إلى حد كبير عن هذه الكراهية فى أنحاء أخرى من العالم. ذلك أن الأقباط أنفسهم "رجال البنوك"، حسب تعبيرهم، أو بالمعنى الصريح هم المرابون الرئيسيون فى مصر. وهم فى هذا العمل يتسمون بالدهاء والجد، ولذلك فإن بعضًا من ثرواتهم الضخمة قامت على أساليب ساعدت على إثارة مشاعر الضحايا من المسلمين (الذين علمهم القرآن أن الربا عمل آثم وبغيض[1]) ضد الجنس كله.

التقيت بواحد أو اثنين من الأقباط أحالهما سعيهما الذى يتسم بالقسوة وبعدم التقيد بمبادئ الأخلاق للكسب بواسطة الربا الماكر إلى نمط من الإنسان الجشع المتوحش، الذى يعرفه معظمنا لحسن الحظ من الميلودراما؛ حيث إن الرجل الوحيد الذى يمكن أن يباريهما هو المستشار رافلز.[2]

سمعت من يقول إنه لأن محمد على صانع مصر الحديثة، ومؤسس الأسرة الخديوية (حكم من ١٨١١ إلى ١٨٤٨)، ومن بعده إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) وجد أشخاصًا من هذا النوع، ولديهم المقدرة، والقوة على ممارسة تلك المقدرة، فقد وضع شئون مصر المالية فى أيدى الأقباط.

كانت تلك أيام بعض الأعمال شديدة القسوة الخاصة بالضغط المالى، حيث كان المال يُنتزع انتزاعًا، ويجرى الاستيلاء على الأملاك بطرق ماكرة فى كثير من الأحيان، وبأساليت اتسمت بالهمجية.

(١) ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ البقرة: ٢٧٥. ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ البقرة: ٢٧٦ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٣٠ ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ الروم: ٣٩. (المترجم).

(٢) بطل رواية إرنست هورنونج Mr. Justice Raffles التى صدرت فى أوائل القرن العشرين. يساعد رافلز، وهو نصاب طائش ولاعب كريكت كبير، عائلة جارلاند فى الانتصار على المرابى اليهودى دانى ليفى الملقب بـ«مستر شايلوك». (المترجم).

يحدث صديق قديم لى باستمرار عن غارة وقعت عندما كان شابًا على قطعان ... حيث أخذ رجال إسماعيل المغيرين كل رأس ماشية من المزارع الكبيرة، ... أى نوع من الأعذار. ولكن الدم الشاب غلى فى عروق صديقى المسلم واستدعى ... الأسرة حيث أسرعوا بجرأة لا بأس بها على ظهور الخيول التى استعاروها إلى مزارع الخديو على بعد بضعة أميال واستعادوا الماشية. وكان ما تلى ذلك شرقيًا بحق. فقد ضحك إسماعيل على السرقة الأولى التى جرت باسمه، ولكنه أُعجِب بالروح التى لم تستسلم للأمر، وأرسل فى طلب صديقى ليحييه، وصارا بعد ذلك جيران طيبين فى الريف. إلا أن الأقباط المشاركين فى ذلك العمل ما كانوا ليحظوا بحب الناس.

عند رؤية التطورات الفاتحة لعهد جديد التى وُلِدت فى مصر، من خلال حب المصريين المبكر للرهبانية، قد يكون مسموحًا الإشارة بسرعة إلى تطور غير عادى لليهودية السكندرية شُكِّلت بمقتضاه جالية يهودية استقرت بالقرب من بحيرة مريوط نفسها على هيئة أخوية رهبانية. ويصف فيلو[1] كيف عاش كل فرد من أفراد الأخوية فى قلاية منفردة تسمى monasterium كان يمضى فيها وقته فى التعبد والممارسات الرهبانية، وبشكل خاص فى دراسة التوراة وتلاوة المزاميز؛ مع ممارسة قدر كبير من إنكار الذات أثناء ذلك. وهو يقول إن النساء كن يُقْبَلن فى الأخوية؛ فقد كن يقضين وقتهن فى رعاية الأطفال اليتامى، وكن يستمعن «من وراء جدار فاصل» إلى الشريعة أثناء قراءة الرجال لها فى تعبدهم. وهو ما يقضى بالصدفة على الاتهام الذى يتكرر كثيرًا بأن الحجاب اختراع لاحق جاء به المسلمون المرعبون.

بحلول القرن الرابع كان الزهد فى الدنيا القوة السائدة فى مصر. ومن غير المستحيل أن تكون الحركة كلها قد انطلقت من ذلك الاتجاه المبكر فى اليهودية المصرية.

كان الاضطهاد هو الذى وجه فى البداية أفكار معظم قديسى المسيحيين الأوائل فى مصر إلى أن السكينة موجودة فى الملاذات الصحراوية - فى البداية داخل

(١) فى De Vita Comenplative.

مغارات وقلايات منفردة، ثم داخل أديرة بُنيت فى أماكن بعيدة كذلك عن حياة الدنيا العادية.

وعن طريق قمع الذات، ومن خلال إزعاج الجسد وإهانته بكل طريقة ممكنة، من خلال سحق كل الغرائز الطبيعية، كان الرجال يظنون أنهم يحيون حياة الملائكة، وأنهم يتبعون الطريقة الوحيدة لخلاص نفوسهم؛ وهو ما كان فى واقع الأمر الهدف الوحيد لأتباعها، وخاصة فى الرهبانية المصرية.

بالمعنى الحرفى إلى حد كبير، كان النُّساك والرهبان (والراهبات، إذ لا بد من تذكر أنه كان لدى النساء باستمرار دور كبير فى هذه الحركة) يعتبرون أن هذه هى الطريقة التى يجعلون بها الصحراء "تتفتح كالوردة". إذا أزهرت الصحراء - والواقع أن الكثير من الزهور الجميلة والعطرة كانت تتفتح فى تربتها المحرقة - فقد ذَبُل كل شىء كان حيويًا ومعينًا لحياة الكنيسة والأمة.

عندما حل اضطهاد بيزنطة اللاحق على الأقباط كان معظم قوة المقاومة النبيلة قد ضاع؛ فقد حاربوا وجادلوا، وكادوا وتآمروا، وانتقموا بعاطفة متعطشة للدماء، بروح مضطهديهم.

ليس مستغربًا كثيرًا أن العرب وجدوا فتح مصر مسألة لا تتسم بقدر كبير من الصعوبة، وأن الانطباع الأول الذى تكوَّن لديهم عن المسيحية لم يكن جذابًا لأبناء الطبيعة الشجعان هؤلاء.

كُتِب الكثير عن اضطهاد المسلمين للمسيحيين، ولم يعبأ التحيز الغربى الذى كُتبت به القصة كثيرًا بالتسامح الذى أبداه الفاتحون الأوائل، وبعض من الحكام اللاحقين. ونادرًا ما كان يُسَجَّل الكثير من أعمال تعظيم الذات والتكبر المتسمة بالسلوك المشين من جانب الأقباط عندما كانوا يتمتعون بالحرية، الأمر الذى كان يثير غضب المسلمين ويدفعهم إلى الانتقام بقسوة. ومن يعرفون المزاج الشرقى يقدرون أهمية تلك القصص كقصة القبطى الثرى (وكانت جريمة مزدوجة لأنه جمع ثروته من الربا) الذى كان يسير بفرسه منذ زمن بعيد فى القاهرة بعجرفة واستعراض غير معقولين، وكان يعاقب كل من يرفض الانحناء له؛ ويقدرون كذلك غضب السلطات المسلمة من تلك الأخبار، والاستخدام الشرس لنفوذها الأعلى، من



كاهن قبطى. كانت السلطات تطلب من الأقباط فى وقت من الأوقات ارتداء الملابس السوداء والعمامة السوداء، وما زالت تلك هى ملابس الخروج للكهنة وحدهم

خلال إصدار أوامرها بتوجيه تلك الإهانات العامة للأقباط التى اتسمت ببراعتها الشيطانية. ولذلك كان على الأقباط أن يرتدوا ملابس مميزة فى الشوارع، كى يعرف الناس أنهم مجرد مسيحيين، ويشيرون إليهم بأصبع الاحتقار. بل إنهم ما كانوا ليهربوا من الملاحظة حتى فى الحمَّامات؛ ذلك أنه كان عليهم أن يضعوا أجراسًا فى رقابهم وهم عراة. وإذا اجترأ قبطى على ركوب فرس أو بغل، فإن أول مسلم يقابله قد يقتله ويأخذ بضاعته. وقد يركب القبطى حمارًا، ولكن بشرط أن يكون وجهه مقابلًا للذيل.

الواقع أن تلك الأيام كانت تتسم بالمرارة والقسوة، حيث كان العداء يزداد ضد المسيحيين بحيث توجَّه كل ما لديهم من مهارة ومكر نحو الحفاظ على حياتهم، وكان ذلك يحدث بالاختفاء فحسب.

كان يجرى تعليه كنائسهم بكل نوع من البناء كى يمكنهم الهروب من الملاحظة، وكانت أجراس كنائسهم قد أُسكِتت منذ زمن بعيد. وكان الشعب يحتشد معًا فى أحيائهم المنفصلة التى حصنوها قدر ما يجرءون عليه، وكانوا يموهون مساكنهم كما موهوا كنائسهم.

قد يُقال إن الأقباط فى واقع الأمر ظلوا مئات السنين يدفنون أنفسهم أحياء، وكان وجودهم نفسه يمضى دون أن يدركه حتى من يزور بلدهم من المسيحيين.

يقوم بُعْض الموظفين الإنجليز فى أيام سيادتنا هذه هناك، بما يبدونه من عدم ثقة وكراهية عجيبة للأقباط دون أن يدروا، على أساس من الأخلاق غير المرغوب فيها الناجمة عن هذا الوجود ـ تواضع الأخلاق الذى يبعث على الخجل، الذى يسمى خنوعًا؛ والنظرة الماكرة الباحثة عن خط يتسم بأقل قدر من المقاومة، وهو ما يسميه اللورد كرومر «مسايرة السياسة السائدة»؛ والاقتصاد فى استخدام الحقيقة إلى أن يروا طريقهم بوضوح، وهو ما يُسمى باسم أشد قسوة.

إذا كان القبطى يذكر الدين باعتبار أنه يعطيه الحق فى العطف، فلا يمكن للإنجليزى أن يخفى اشمئزازه الشديد، وذلك دون أن يخطر على باله أن القبطى بطبيعة الأمور يعتبر أن الحق الأول الذى على أبناء الدين المسيحى هو تقديمهم للعون وتلقيهم إياه.



امرأة قبطية من الطبقة الفقيرة

ويؤدى البغض المتولِّد على هذا النحو لدى الإنجليزى إلى أحكام بعيدة الأثر، بعضها ظالم؛ ولذلك يعلن الكثير من الأقباط أنهم كانوا فى وضع أفضل - خاصةً بعد أن أزال محمد على معوقاتهم منذ قرن - مما هم عليه فى ظل الحكم الإنجليزى.

إذا نظر الإنجليزى تحت السطح، فسوف يجد أن العناصر الأساسية فى الشخصية القبطية ذات قيمة أعلى مما يمكن أن يتخيله الذين يحكمون عليها بالأخلاق المشوهة التى اكتسبتها.

فمن ناحية - وهذه هى الأهمية الأولى فى حكم الشخص البريطانى - ليس القبطى جبانًا بالإجمال، كما يُقال فى كثير من الأحيان؛ وإن كنت أعترف بأنه يزيد عن أى شرقى آخر فى خوفه القاتل من العداوة المثيرة. غير أن قدرًا كبيرًا من تاريخه يصرخ عاليًا ضد اتهامه بالجبن. فمتانة نزعته الوطنية المبكرة، وولاؤه الثابت للكنيسة، الذى لم يكن أى مكسب منتظر من القسطنطينية أو من روما ليجعله يحيد عن مساره للحظة، أمر أكدته انتصارات الشهداء الأوائل الرائعة وجَلَد الآباء القديسين - وليس ما أنجزه القديس سمعان العمودى(1) بالإسكندرية من أمور عجيبة إلا مثالاً واحدًا.

يُقال بكل ثقة بالنفس إن القبطى ليس رجلًا محاربًا، دون الإشارة إلى حقيقة أنه لم يُسمح له منذ عام ٦٤٢ ميلادية بحمل السلاح.

(1) وُلد القديس سمعان العمودى فى عام ٣٩٠ وانتقل فى عام ٤٥٩. وزيادة منه فى التقشف، كان يربط جسمه بحبل حتى يجرحه، وكان يرفض العلاج، فطلب الرهبان طرده من الدير حتى لا يتشكك الضعفاء. وبالفعل خرج من الدير ودخل برية قريبة من هناك وسكن فى بئر جافة. صمم أن يصوم كل سنة أربعين يومًا بدون طعام ولا شراب، ووضع قيودًا من حديد فى قدميه حتى لا يتحرك كثيرًا. ولأن الجماهير كانت تقبل يديه وثيابه ملتمسين بركته، فقد أراد التخلص من ذلك بصعوده على عمود ارتفاعه ستة أذرع ثم زاده ستة أخرى، ثم زاده ثمانية أذرع وهكذا حتى صار طول العمود ثلاثين ذراعًا. وكانت دائرة قمته حوالى ستة أشبار وحولها مسند. ويذكر «قاموس آباء الكنيسة وقديسيها» أن هناك ثلاثة أشخاص باسم «سمعان العمودى». الأول المذكور هنا ويدعى سمعان العمودى الكبير. والثانى سمعان العمودى الصغير فى أواخر الجيل الخامس، ذكره الأب يوحنا الدمشقى فى عظته الثالثة على الأيقونات. أما الثالث فعاش فى بلاد كيليكيا ومات بصاعقة انقضت عليه. وقد ذكره صفرونيوس فى الفصل السابع والخمسين من كتاب «المروج الروحية». (المترجم).

ومع ذلك فقد أظهر الأقباط خلال فترات على مر قرون الاضطهاد أمارات بطولة عظيمة، بالإضافة إلى تلك القوى العظيمة الخاصة بالمقاومة العنيدة التى حفظت وحدتها ووجودهم. وإذا شكُّوا فى أن فى نفوسهم خوفًا، فإنهم، وبتعقيد العقل الشرقى، يرشمون أنفسهم ومن يحبون مرارًا وتكرارًا بالصليب، كى لا ينكروا ربهم حين يحين وقت التجربة.

فما هى القصة الأجمل فى التاريخ المسيحى كله من قصة أتباع المسيح الذين أسلموا تحت ضغط كبير، ثم قرروا بعد ذلك العودة إلى ولائهم للصليب مهما كان الثمن، استجابة لوعظ من بطركهم مَتَّى.

لم تشهد القاهرة، تلك المدينة ذات الفنتازيا الدينية الغريبة الكثيرة، منظرًا أكثر غرابةً أو إثارةً من الموكب الذى دخل بواباتها فى عام ١٣٨٩ ميلادية وكان يضم سيلًا كبيرًا من الرجال والنساء الذين وترتهم العاطفة المكبوتة وقوَّاهم العزم والتصميم، وكانوا يصيحون وهم يسيرون «نحن نصارى! نحن ننكر الإسلام ورسوله! نعترف ونحن خزايا بأننا تركنا المسيح خوفًا من الاضطهاد!» كانوا يسعون بذلك إلى التكفير عن هجرهم لعقيدتهم، مدركين أنهم يتجاوزون بذلك الخوف المريع الخاص بإثبات أنهم خونة.

أحاط حشد من المسلمين بالرجال والنساء بصيحات السب والذم، بينما طلب منهم الشيوخ الاستسلام. وقد ردوا عليهم مرارًا وتكرارًا بصوت واحد «نحن نصارى! نحن نصارى! لقد جئنا بهذه الطريقة لنكفِّر عن خطيتنا الفظيعة؛ فربما كسبنا بموتنا عفو المخلِّص الذى أنكرناه!».

عندما وجدوا أن أيًا منهم لن يستسلم بالتهديد أو بالترغيب، قرروا فى البداية أن يجعلوا من الرجال عبرة. فقطعوا رءوسهم الواحد تلو الآخر أمام أعين النساء. إلا أن النساء بقين على ثباتهن وكان صياحهن يزداد لأنهن فضلن الموت على خيانة سيدهم. وعندما غضب قاضى القضاة من الرفض المستمر لطلبه، أمر الحراس بأن يأخذوا ثلة النساء كلها إلى سفح القلعة حيث قُطِعت رءوسهن جميعًا. وقد حدث ذلك رغم صياح المسلمين فى الحشد ضد القاضى لأمره بقطع رقاب النساء.

وفى العصر الحديث، فإنه عند سقوط أم درمان فى أيدى قوات المهدى، قُتل الكثير من الأقباط وأجبِر كثيرون على التعبد فى المسجد. ومن بين من نجوا فى تلك الأيام اثنان من الأقباط المشهورين، أحدهما اسمه بولس نجح فى الدفاع عن نفسه داخل بيته، حتى أن الدراويش وعدوه بالحفاظ على حياته ليعفوا أنفسهم من مشقة إحضار المدافع الثقيلة. أما الآخر فهو إبراهيم بك الذى يدين بحياته لخادم أسود.

لا أحد يعرف كم من الأقباط رفضوا فى ذلك الوقت التخلى عن عقيدتهم. غير أن الأهالى حكوا عن قبطى من البربر قال عندما أحضروه أمام الخليفة عبد الله[1] إن آباءه من قبله كانوا مسيحيين، وأنه يفضل الموت على إنكار عقيدته. وحتى بينما كان يحنى رأسه لضربة السيف، توسط أصدقاؤه ورجوا الخليفة أن يمنحهم وقتًا لتعليمه الدين الجديد، قائلين إنه مجنون وجاهل. وعند مثوله للمرة الثانية كان لا يزال على إصراره وأعلن أنه يفضل الموت على التخلى عن المسيح. أعفى عنه الخليفة لأنه مخبول؛ ولكنه فى يوم الجمعة التالى كانت شجاعة ذلك المسيحى موضوع خطبته التى ألقاها فى المسجد الجامع، حيث عبَّر عن شكه فى استعداد أى من المصلين الحاضرين للموت عمدًا من أجل المهدية.

خلال تلك السنوات الثلاث عشرة من سوء الحكم المريع فى أم درمان، نجح الأقباط وغيرهم من المسيحيين فى التجمع داخل حى خاص بهم. ومع أنهم كانوا يُضطرون للذهاب إلى المسجد بانتظام، فقد كان أطفالهم يعمدون سرًا على يد الست كاترينا زوجة التاجر اليونانى التى ربما كانت أشجع منهم جميعًا.

(١) هو الخليفة عبد الله بن تورشين. أوحى له أبوه بظهور المهدى وأنه سيكون خليفته! وعليه ذهب الابن إلى جزيرة أبا، بعد سماعه لأحاديث يتناقلها الناس عن دعوة السيد محمد أحمد باعتباره مهدى الزمان المنتظر. أقر المهدى بأن عبد الله تورشين هو أول خلفائه الأربع. وكان الرجل ألمع الخلفاء جميعًا وأقواهم شخصية فى إدراكه لطبيعة ومغزى ثورة السيد محمد أحمد، حيث أعانه على ذلك كثرة ما كان يسمعه من أهله، التعايشة، وخصوصًا والده بالتنبؤ بظهور السيد المهدى الذى من شأنه إنهاء الوجود التركى المصرى ومحو المظالم عن أهل السودان وإقامة دولة الشريعة التى امتدت لتشمل أجزاء واسعة من السودان الحالى. قال اللورد كيتشنر - وهو يقف على جثمانه بعد استشهاده - مؤديًا له التحية العسكرية: «ماهزمناهم ولكنا قتلناهم!». (المترجم).

إذا كانت قصص مثل هذه القصة - وهى ليست نماذج فريدة بحال من الأحوال - تُعزى إلى العاطفة الدينية، فمن الإنصاف تذكر أن الأقباط فى زمن الغزو الفرنسى لم يبدوا شجاعة فحسب، بل أبدوا سعة الحيلة كذلك. فقد كان رجل اسمه يعقوب[1]، مع مجنديه الأقباط من الصعيد الذين دربهم، هو الذى حصَّن منزله أثناء مذبحة الثلاثة أيام، وحصَّن بعدها بمهارة كبيرة حارة النصارى بكاملها فى القاهرة.[2] ويقال (وهو ما لم ينكره أحد) أن نابليون أخذ بعض الأقباط الشباب من مصر للخدمة فى جيشه بفرنسا، حيث وصل البعض منهم إلى رتبة كابتن، وأصبح أحدهم جنرالًا.

(١) هناك خلاف حول شخصية الجنرال، أو المعلم، يعقوب حنا، وهل هو وطنى أم خائن لوطنه. فبينما يتهمه البعض بأنه «أبرز من خانوا بلادهم فى المجتمع الحديث»، يقول الدكتور لويس عوض: «إن الدور الذى قام به المعلم يعقوب حنا مع الفرنسيين ضد العثمانيين يعتبر تعاونًا يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب فى أكبر ميادين القاهرة ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر فى العصر الحديث». ويقول الدكتور شفيق غربال: «أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى هو تخليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى، وإنما مزيج من الفوضى والعنف والإسراف، ولا خير للمحكومين فيه ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة... وثانى ما فى تأييده هو إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك الوقت) مدربة على النظم العسكرية الحديثة الغربية..... والذى نروم أن نذكره وننبه إليه هنا على ضوء الوثائق التى وجدت حديثًا فى محفوظات وزارة الخارجية الإنجليزية هو أن فكرة الاستقلال المصرى التى نشأت فى ظل حملة بونابرت كانت قد خطرت منذ فجر القرن التاسع عشر للمصريين، فإن واحدًا منهم وهو المعلم يعقوب القبطى أعرب عنها بلسانهم، إلا أن موته قبل الأوان حال بينه وبين عرض هذه القضية والدفاع عنها أمام وزارات أوربا». وقد منحه الفرنسيون رتبة جنرال، ولقب القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسى. وقد استطاعت القوات الفرنسية بمعاونة ميليشيات المعلم يعقوب من قمع ثورة القاهرة الأولى سنة ١٢١٣ هـ وثورة القاهرة الثانية سنة ١٢١٤هـ وقد أباح القائد الفرنسى كليبر للمعلم يعقوب أن يفعل بأهل القاهرة ما يشاء بعد أن قمع ثورة القاهرة الثانية، فقام بإحراق الدور ونهب الأموال وهدم المساجد وانتهك الأعراض. (المترجم).

(٢) يقول الجبرتى: «وأما أكابر القبط مثل جرجس الجوهرى وفلتيوس وملطى فإنهم طلبوا الأمان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا فى دورهم وهم فى وسطهم وخافوا على نهب دورهم إذا خرجوا فارين فأرسلوا إليهم الأمان فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والأمراء وأعانوهم بالمال واللوازم وأما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادًا كبيرًا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى». كما يقول: «فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العسكر الفرنساوى والأروام وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر فوقعت الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمى بالبندق والقرابين من طبقات الدور على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر ويحامون عن أنفسهم والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور ويتسورون عليها». (المترجم).

وتوفيق بك، وهو قبطي، هو الذي كان فيما بعد بطل حاميات ساحل البحر الأحمر.

لم يُبدِ قط هؤلاء الفرنسيون الذين كانت لهم علاقات حميمة مع الأقباط ـ أظهر الفرنسيون باستمرار قدرة على فهم المصريين تفوق قدرة الإنجليز ـ ذلك النوع نفسه من الاحتقار تجاههم. فقد كتب أملينو بحماس عن الشجاعة الهادئة التي تميز بها أقباط الأرياف البارزين، مثل صديقه الحميم عبد الشهيد بطرس، كبير عائلة ثرية في قرية تقع بين جرجا وأبيدوس، الذين هدَّأوا العاصفة التي أثارها تمرد عرابي باشا في ١٨٨١ ـ ١٨٨٢، حيث أبدوا سمات واضحة من الدبلوماسية وضبط النفس بتصديهم للفوضى والتعصب اللذين يجدان في الفئات الدنيا من الشعب في أي بلد منفذا بمجرد الإطاحة بالحكم العادي.

الفصل الثامن

المسيحيون المصريون والحكم البريطاني

رأى المؤلف أنه من الأفضل ترك هذا الفصل كما كتبه في آخر أيام السلام في عام ١٩١٤.

بما أنه لم يكن لدي قط أدنى ميل ـ وهو ما قد يرجع إلى نوع ما من الغرابة المزاجية ـ إلى مقاربة أيٍّ من أهل الشرق بذلك التحيز الذي يبدو أنه أمر طبيعي بالنسبة لغالبية الإنجليز، فأظن أنني سأكون على أرض أكثر أمانًا باقتباسي ما قاله أحد المسئولين معبرًا عن الآراء التي يقوم عليها الموقف الرسمي تجاه الأقباط.

«لا بد من الاعتراف بأنه عندما جاء الإنجليز إلى البلاد في عام ١٨٨٢ تبنوا موقفًا يتسم بعدم الثقة تجاه الأقباط، وهو موقف لا يختلف عما يشعرون بها تجاه اليهود في أوروبا. ويصبح هذا الموقف مبالَغًا فيه عند صياغته في كلمات ـ فهو غير محدَّد ولا يعبر عن المعنى المقصود ـ ولكن لا شك في أنه كان ولا يزال موجودًا بين المقيمين الإنجليز ككل. فأخلاق بعض الأقباط التي تتسم بالخنوع تثير ضيق الموظف البريطاني. وقد شاع عنهم، إن لم تكن تلك هي الحقيقة الفعلية، أنهم مغرمون بالمشروبات الكحولية. وفي بعض الأحيان يقدم القبطي الذي يبحث عن وظيفة في مكتب رجل إنجليزي طلبه باسم المخلِّص الذي مات من أجلهما ـ وهي وسيلة بغيضة إلى حد كبير للمقاربة كان البريطاني يميل بلا تفكير إلى إنكار مغزاها بشيء من الحرارة. وعلاوة على ذلك كان هناك شعور، ليس على سبيل المزاح

تمامًا، بأنه بينما لا يقول المصرى المسلم الحقيقة أبدًا إلا عندما يرغب فى الخداع، فإن القبطى يُغْفِلها فى كل الأحيان».[1]

أوضحت فى موضع آخر كيف أظن أن هذا النوع من الحكم يقوم على ما هو ملاحظة سطحية واستنتاجات متعجلة مزاجية وليس على معلومات مكتسبة بصبر وأناة وخبرة. فإذا كنت محقًا فى ذلك، فلن يكون من الصعب، بناءً على تلك المعلومات، رؤية كيف يؤدى مثل هذا الظلم الشائع للمعاملة الشخصية، وكذلك المسار الذى تتخذه السياسة، إلى الجور والسخط.

وبمرور الوقت، يُهيأ لى أنه يجب علىَّ الاعتراف بأن قليلًا جدًا ذلك الذى جرى عمله فى سبيل الحصول على المعلومات الأصدق عن هؤلاء الناس، وذلك من خلال النظر إلى ما يتجاوز مجرد الأخلاق السطحية وصولًا إلى منابع الحياة والشخصية الأكثر عمقًا؛ أو ربما العثور على تفسيرات تاريخية لبعض العادات الذهنية التى تثير غضب الإنجليز الذين نشأوا فى أرض تتميز بالحرية التامة؛ أو الاعتراف بمبررات الأخلاق التى قد يُعتَرَف بأنها نتيجة قرون من التقييد الشديد.

كان الإنجليز هم مَن أنقذ الأقباط من وجود لم يجعله ممكنًا إلا السلوك الذليل، إن لم يكن «مسايرة السياسة السائدة» والتآمر. فبالنسبة لذِكر الصليب فى مشاغل الحياة اليومية العادية، فإن هذا بطبيعة الحال أمر يَنْفُر منه الإنجليز، حيث يتسمون بالتحفظ والخجل بشأن أى ذكر للأمور الدينية. ولكن علينا مرة أخرى فى هذه النقطة أن نأخذ فى اعتبارنا مقدار اختلاف الشرقيين التام عنا، وأنه فى مجتمع مغلق، كمجتمع الأقباط، لا بد أن يكون الرباط الوحيد باستمرار هو الرباط الدينى. فكيف يمكنهم معرفة أنه فى حالة الإنجليز تتأذى مشاعرنا بالإشارات التى تعد أكثر ما تكون طبيعية بالنسبة للشرقيين؟ وكان اللورد كروم محقًا - إذ كان القبطى نفسه سيبدى تحيزًا مع المسيحيين الآخرين لو كانت لديه القدرة على ذلك.

أتمنى أن أكون قد وضحت أننى لست متعاطفًا مع من يشجعون الأقباط على توقع أى نوع من الأفضلية على المسلمين، أو يظنون أن لهم حقًا واحدًا، تاريخيًا

(١) Blackwood's Magazine, August 1911.

أو شخصيًا، فى مثل هذه المعاملة. ولكن يجب ألا نقدم لهم ما هو أقل من المساواة، حتى لو رغبنا فى توضيح أننا إمبرياليين، أو حرمانهم من العدل كى نثبت كراهيتنا لسمات بغيضة بعينها.

إذا كانت الطريقة التى تقدّم بها مطالبهم تثير غضبنا، فيمكننا رغم ذلك بحث هذه المطالب بموضوعية، ونوافق على تلك الحقائق باعتبار أنها تحتمل الإثبات.

لم يفعل السير إلدون جورست[1] شيئًا من ذلك؛ ومع أنه منذ الانفجار المزعج الذى أحدثه آخر ما كتبه من تقارير[2] يُعامل الأقباط على نحو أكثر انضباطًا،

(١) خلف السير إلدون جورست اللورد كرومر بعد استقالته فى عام ١٩٠٧ كمعتمد بريطانى فى مصر. وبعد وفاته فى عام ١٩١١ عُيّن كتشنر خلفًا له. يقول عباس الطرابيلى فى مقال له بعنوان «مؤتمر قومى مسلم مسيحى لبحث مطالب الأقباط وقضيتهم»، الوفد ٣١ أكتوبر ٢٠٠٦: «وسعى المعتمد البريطانى الجديد الدون جورست إلى تطبيق سياسته الجديدة «فرق.. تسد» ودفعهم إلى الدعوة لعقد مؤتمر قبطى لطرح «مطالب الأقباط».
«ورغم أن جورست استهجن فى البداية مطالب الأقباط، ورفض ما أثاروه من شكاوى وأثبت بالأرقام أن الأقباط لهم نصيب فى وظائف الحكومة يفوق بكثير نسبتهم العددية إلا أنه كان المسئول الأول عن هذه الفتنة. وتداعى الأقباط إلى عقد مؤتمر قبطى عام فى أسيوط فيما بين ٥ و٨ مارس ١٩١٠ برئاسة بشرى حنا بك وكان من أغنى الأقباط وأوسعهم نفوذًا - وهو أخو سينوت حنا بك - الذى كان من أشد أنصار سعد زغلول ومصطفى النحاس وقدم حياته فداء للنحاس بعد ذلك.. ويروى د. حسين مؤنس حوارًا بين الشقيقين بشرى «الأكبر» وسينوت «الأصغر» عندما عاتب الكبير شقيقه خوفًا على مصالح العائلة، فرد سينوت بك: إننى أسعى لاستقلال مصر وإخراج الإنجليز فهذا هو الضمان الوحيد لسلامتنا جميعًا أقباطًا ومسلمين. وأنت تظن أن الإنجليز يحرسون أموالنا ويحمون حقوقنا نحن الأقباط.. هذا خطأ. لأنهم لا يحمون إلا أنفسهم وها أنت تراهم يستكثرون من نصارى الشوام ويعتمدون عليهم من دوننا. وانظر عنايتهم بالأروام "اليونان" والأرمن والمالطيين. وإنجلترا بنت كنيسة الروم وكنيسة الأرمن بالقاهرة ويمولون المستشفى الإسرائيلى: هل ساهموا بقرش فى بناء كنيسة قبطية؟ ثم قال: أماننا الوحيد هو أن نظل متحدين مع إخواننا المسلمين فنحن وهم دائمون فى هذا البلد وما عدانا زائل. هذا هو الأمان الوحيد لى ولك ولأموالك التى تخاف عليها». (المترجم).

(٢) فى تقريره المرفوع إلى حكومته بتاريخ ١٠ مايو ١٩١١ قال جورست: «إن المسلمين يؤلفون ٩٢٪ من مجموع السكان ويمثل الأقباط أكثر قليلا من ٦٪ (..). لهذا فإن فكرة معاملة قطاع من سكان البلاد كطائفة مستقلة فى نظرى يمثل سياسة خطأ سوف تكون فى النهاية مخربة لمصالح الأقباط.. إن شكوى عدم تطبيق العدالة مثلا فى التعيين فى الوظائف الحكومية تنقصه الإحصاءات التى تبين أن الأقباط يشغلون نسبة من الوظائف العامة تزيد بكثير عن نسبة قوتهم العددية التى تسمح لهم بذلك (..). إن جملة العاملين بوزارات الحكومة بلغت ١٧٥٩٦ منهم ٩٥١٤ من المسلمين أى بنسبة ٥٤,٦٩٪=

وما زالت الأمور على ما تركها عليه تقريبًا. وقد تم التوصل بجهد كبير إلى وقف هياجهم المعتدل من أجل بحث مطالبهم بوعد مبهم بإجراء تعديل فى المستقبل، مع تهديدات، ليست مبهمة بحال من الأحوال، بعواقب أى نوع من تجديد شكاواهم.

والنقاط التى طالب الأقباط ببحثها واضحة كل الوضوح. وهى تندرج تحت خمسة عناوين رئيسية:

(١) حُرِموا منذ بداية الحكم البريطانى من تولى منصب مدير المديرية، أو مأمور المركز.

(٢) يُجبر الأقباط الذين توظفهم الحكومة على العمل يوم الأحد، لأن الإنجليز جعلوا يوم الجمعة يوم الراحة، دون مراعاة أنه يوم صلاة المسلمين.

(٣) الطائفة القبطية غير ممثلة التمثيل المناسب فى مجالس الحكومة ولجانها.

(٤) إنهم مضطرون لدفع ضرائب لدعم الكثير من المدارس التعليم الدينى فيها إسلامى فقط، وليس هناك بالمرة الاستعداد الكافى فى أى من المدارس لتقديم أى نوع من التعليم المسيحى لأطفالها.

(٥) الرغبة فى لفت الانتباه إلى المبالغ الضخمة التى تنفقها الحكومة على الاحتفالات الدينية الإسلامية، مثل إرسال الكسوة المُشَرَّفة إلى مكة كل عام، بينما لا يقدَّم أى تشجيع أو دعم للديانة القبطية.

يبدو لى أن الشكوى الأولى هى الأكبر، كما أنها الأكثر إزعاجًا. وإذا كنت مصيبًا فى حكمى بأن إقصاء الأقباط عن المناصب الإدارية العليا فى البلاد عمل من أعمال

=و٨٢٠٨ من الأقباط أى بنسبة ٧١ر٤٥٪ بينما فى بعض الوزارات ترتفع هذه النسبة أكثر بكثير.. فوزارة الداخلية وإداراتها المحلية تضم ٦٢٢٤ موظفا منهم٧, ٣٧٪ من المسلمين والباقى من الأقباط (بنسبة الثلث من المسلمين والثلثين من المسيحيين.. وفى وزارة الداخلية بالذات!!).
«من هذا يتبين أن الأقباط يمثلون فى الجهاز الحكومى من حيث العدد والمرتبات نسبة لا تتكافأ مطلقا مع نسبتهم العددية... إننى لا أقر مطلقا فى ضوء مصالح الأقباط أنفسهم أن أشجع أى نظام من شأنه أن يحدث انشقاقا بين الطوائف المسلمة والقبطية لأنه ليس فى صالح الطائفة القبطية». «النصارى يحكمون مصر»، محمد عباس، www.mohamadabbas.net (المترجم).

التعمية السياسية، سوف يكون من السهل تخيل كيف أن الجزء الأكبر من الطائفة القبطية يسفهه ويهينه سماع أن السبب «الدبلوماسى» الذى يقدَّم فى كل مكان هو أن الأقباط يفتقرون إلى الكفاءة اللازمة لشغل تلك المناصب.

فى اللحظة ذاتها التى كان يعلن فيها معتمدنا لشعب بريطانيا العظمى، من خلال تقاريره، أنه لا بد من إخضاع الأقباط لذلك الإجراء الخاص بإقصائهم عن شئون البلاد لعدم كفاءتهم، كان رئيس النظار المصرى، الذى صعد إلى السلطة بالجدارة المحضة، هو نفسه من الأقباط.

بالنسبة للمؤهلات اللازمة لممارسة السلطة الإدارية، من ذا الذى يجهل حقيقة أن مصر حُكِمَت مرارًا وتكرارًا بواسطة الأقباط وحدهم، ولأغراض عملية بحتة؟

ولكن مع ذلك فقد أساء إلى القضية القبطية بعضُ الكُتّاب الإنجليز المتعاطفين الذين دفعهم تأييدهم لها إلى التأكيد على أن أبناء هذا الجنس ليسوا مساوين للمسلمين، بل يتفوقون عليهم كثيرًا فى المهارة والشخصية (وتكرر التأكيد على ذلك مرارًا) إذ أبدوا مهارة فائقة فيما يمكن تسميته بالعمل المكتبى، وفى مسك الدفاتر، وفى تفاصيل روتين الإدارة. وفى الأشغال الخاصة فى الريف تكاد لا تكون هناك دائرة أملاك أو منشأة تجارية يملكها مسلمون لا يديرها فى تلك الأقسام أقباط يعترف أصحاب العمل جهارًا بقدرتهم ونزاهتهم.

وفى الوقت نفسه، فإن المسلمين الذين يصعدون إلى السلطة يمتلكون مواهب لا يُستهان بها فى التنظيم؛ وهى تلك المواهب التى تتجه إلى الانتقاء الحكيم وإدارة الرجال، وإلى المبادرة، وتتسم بقدر من وضوح البصيرة والحُكْم. ولكنى أعتقد أنه ليس هناك فرق تقريبًا بين الأقباط والمسلمين، عند الحديث بصورة عامة عن مقدرتهم. وأعترف بأن الوعى الذى يخص الجنس الغازى يكسب المسلم مظهرًا يتسم بالهيبة يبدو أنه يميزه كحاكم. ولكن أليس من الممكن أن نجد عما قريب، بالتشجيع المناسب الذى يقدَّم بلا تمييز فى ظل حكمنا، أن الأقباط قد استردوا بأعداد كبيرة الروح اللازمة بشدة للقيادة؟

إذا لم تكن تلك الشكوى نتيجة ما ظن الإنجليز، صوابًا أو خطأً، أنها ضرورة سياسية، فكيف لم يُنظر قط إلى المناصب المشار إليها على أنها مغلقة فى وجه الأقباط إلى ما قبل الاحتلال؟

لدىَّ الكثير من الأصدقاء المسلمين فى مصر، وعندما يُسألون يتضح أنهم فهموا ذلك المقترح بالكامل من الاتجاه العام للسياسة البريطانية، فى كل ما يُقال تأييدًا لإقصاء الأقباط. ورغم ما قد يبدو عليه الأمر من غرابة، فإن الإنجليز هم مصدر فكرة عدم الأهلية الدينية؛ ذلك أنه عند الضغط على المسلمين فإنهم لا يحاولون أبدًا تأييدها بقاعدة أو بسابقة من عندهم.

قال المرحوم الشيخ على يوسف ذات مرة: «لا فرق بين الأقباط والمسلمين فى الكفاءة». وكان ذلك قبل أن يستوحى ما يتعين عليه فعله وقوله مما يشير به السير إلدون جورست[1]، وهو ما حدا بالشيخ إلى كراهية الأقباط التى عبَّر عنها فيما بعد على صفحات الجريدة التى يحررها.

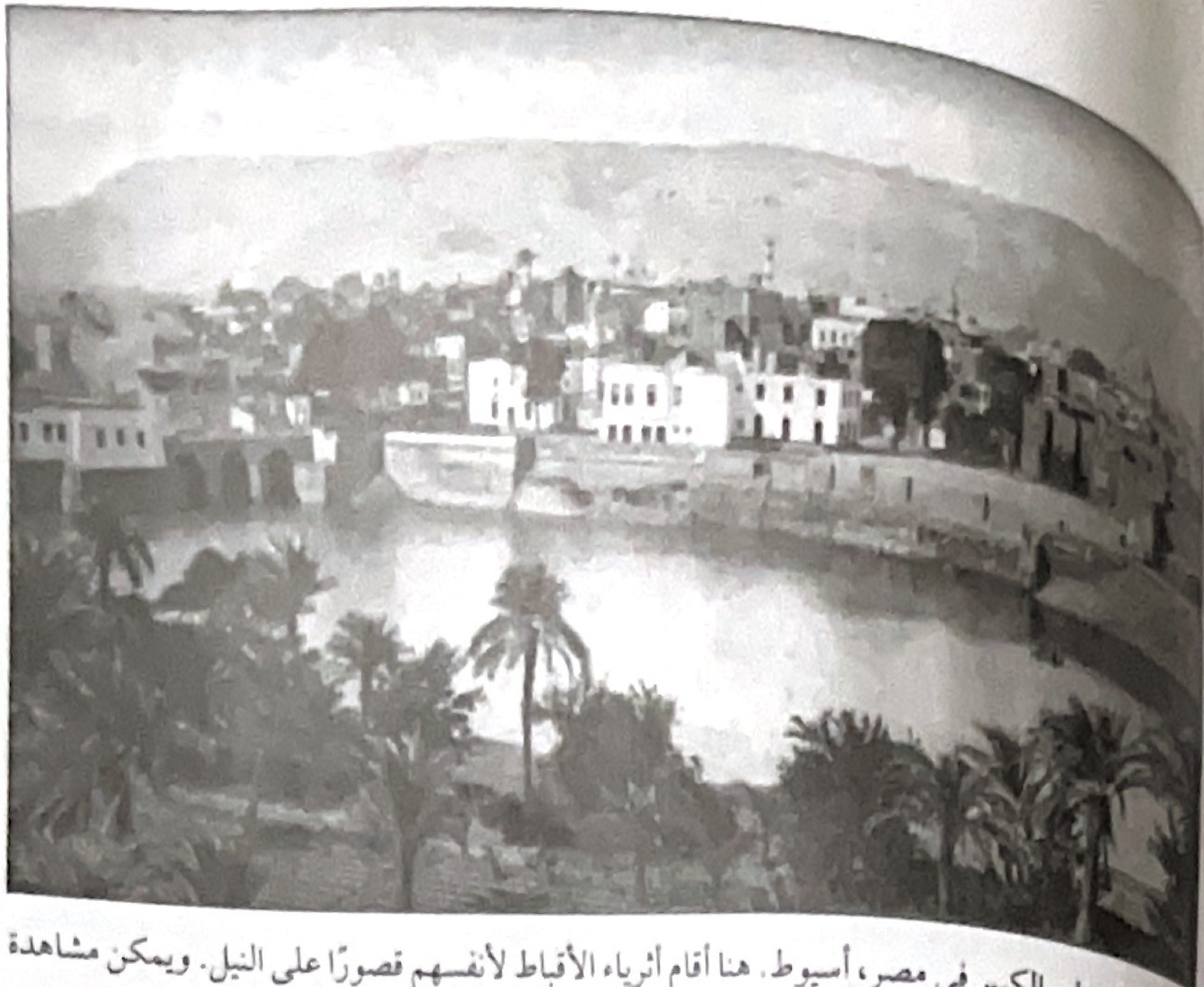
فيما يتصل بالمسألة الدينية، لدينا أدلة تخص رجلًا إنجليزيًا. فقد قال البروفيسور سايس مؤخرًا: «عندما عرفت مصر لأول مرة، فى أيام ما قبل الاحتلال، لم يكن هناك وجود للعداء الدينى بين الأقباط والمسلمين؛ فقد كانوا جميعًا سواء، مصريين».

وقد رأيت بنفسى كنائس قبطية بناها المسلمون، ومسجدًا بناه صاحب أطيان قبطى قبل الاحتلال بعام أو عامين. وفى المدارس العلمانية القبطية، التى بنيت على نفقة أهل الخير فى أنحاء مختلفة من البلاد، لم يحدث قط أنى لم أجد بها تلاميذ مسلمين؛ ولا يفكر أحد فى استبعاد الأطفال الأقباط من المدارس المشابهة التى بناها مسلمون، وخاصةً فى المناطق الريفية.

يزخر تاريخ الإسلام بأمثلة تقوم على تعاليم الرسول وتدل بوضوح على أن العقيدة لم تكن فى يوم من الأيام عقبة فى سبيل توظيف أفضل ما يمكن الحصول عليه من الرجال فى إدارة الشئون المهمة للمصلحة العامة، بالرغم من كل التحيز الغربى ضد الإسلام الذى يندرج تحت صيغة «التعصب» التى تحظى بالتقدير.

---

(١) كان الشيخ على يوسف صاحب جريدة «المؤيد» من ألد أعداء الاحتلال البريطانى، ومن أصدق المخلصين للخديو، ثم ما لبث أن انقلب على صاحبه وأصبح من المؤيدين للاحتلال. (المترجم).



المركز القبطى الكبير فى مصر، أسيوط. هنا أقام أثرياء الأقباط لأنفسهم قصورًا على النيل. ويمكن مشاهدة قباب الكنيسة ومئذنة المسجد من على بعد

فى عهد أسر الخلافة المبكرة وفى عهد المماليك، كان الأقباط يرقون إلى المناصب والأكثر مسئولية فى الدولة، وكانوا يترقبون باستمرار قيادة الجيش ومنصب الحاكم. لم يكن محمد على (السياسى والجندى العظيم، ومؤسس الأسرة الحاكمة الحالية) ليقبل الحكم بعدم أهلية أى رجل تثبت مقدرته فى خدمة الدولة الخاصة، سواء أكان قبطيًا أم يهوديًا؛ فلم يكن فى عهده أى دليل على الاستياء الدينى الذى يُقال حاليًا إنه قد ينشأ فى ظل التعيينات التى قام بها هو وخلفاؤه.

عندما يبحث المرء الطابع الاستبدادى لحكم محمد على، والأساليب المستخدمة فى جباية الضرائب من الشعب بالقوة من خلال تلك التعيينات، يجد إجابة حاسمة للشك فى استياء المسلمين من تعيين الأقباط فى مناصب قيادية. وكان محمد على يعرف جيدًا مدى ما أعطى المماليك من قبله للأقباط من سلطة؛ حيث بلغ بهم الأمر أن أوكلوا لهم جباية الضرائب ومسئولية النفقات إلى جانب الإيرادات.

وعندما قُسِّمت مصر إلى دويلات يحكم كل منها تركى معه حامية من الجنود، كان يُعيَّن قبطى باستمرار فى المنصب المدنى الرئيسى كوزير للحاكم. وكانت واجبات ذلك القبطى متنوعة ومهمة. فهو لم يكن يتولى جباية الضرائب فحسب، بل كان مسئولًا كذلك عن الميزانية، وكان يشرف على مسح الأراضى الزراعية، وكان يقدم النصح والمشورة للحاكم بصورة عامة. والواقع أنه عندما تولى محمد على مقاليد الأمور فى مصر لأول مرة وجد أن الرجل المسئول عن شئون الدولة كلها هو إبراهيم الجوهرى، وهو قبطى، وقد جعل ذلك الرجل وزيره الأول! وطبقًا لما ذكره الجبرتى، المؤرخ المسلم الكبير، فقد كان ذلك الرجل المصرى الوحيد الذى كان مسموحًا له بتدخين غليونه فى حضرة الخديو الأول.(1)

---

(1) أصدر محمد على العديد من الفرمانات فى مصلحة الأقباط منها:

1- عدم إجبار الأقباط على إرتداء أزياء معينة فُرِضت عليهم من قبل؛ فخلع الأقباط الزى الأزرق والأسود الذى كان مفروضًا عليهم وأصبحوا يلبسون الكشمير الملون، وخلعوا الجلاجل الحديدية التى كان مفروضًا عليهم وضعها فى رقابهم.

2- سمح لهم بركوب البغال والخيول.

3- سمح لهم بحمل السلاح لأول مرة منذ الفتح العربى.

4- سمح لهم بحرية بناء الكنائس وممارسة الطقوس الدينية ولم يرفض أى طلب لبناء الكنائس أو إصلاحها.=

وبعد وفاة الجوهرى، عين محمد على قبطيًا آخر، هو غالى دوس (1)، كبيرًا للمباشرين، وكانت له سلطة جباية الضرائب والإنفاق. كما كان مسموحًا لدوس كذلك بتعيين كل الموظفين فى إدارته. وقد خلفه ابنه باسيليوس الذى حقق قدرًا من النجاح رفعه إلى رتبة البكوية(2) وجعله محمد على عضوًا فى المجلس المخصوص الذى كان لا يضم إلا أقاربه والقليل من أصدقائه المقربين. وفى وقت من الأوقات بات ذلك المجلس ينظر إلى باسيليوس على أنه قائده.

يؤكدون فى السنوات الأخيرة أنه لم يخدم قبطى فى منصب يخضع فيه المسلمون لحكمه، وهو ما يجعل من المفيد أن أسرد أسماء الرجال الذين علمت أنهم شغلوا تلك المناصب. فقد عين محمد على رزق بك، وهو رجل من ميت يعيش بالوجه البحرى، مدير إدارة مديرية القليوبية، ومكرم أغا، من الجيزة مديرًا لإدارة الجيزة. كما عين الخديو بطرس فلتاؤوس، مأمورًا للدندرة، وميخائيل عبده، مأمورًا للفشن (3). وليس هناك ما يدل على استياء المسلمين من تلك التعيينات.

=5- كان محمد على أول حاكم مسلم يمنح موظفى الدولة من الأقباط رتبة الباكوية، كما اتخذ لنفسه مستشارين منهم. (المترجم).

(1) يُعرف كذلك باسم المعلم غالى أبو طاقية، وهو من أهم الشخصيات القبطية التى اشتهرت أيام محمد على، وكان من قبل كاتبًا لدى محمد بك الألفى، ولكن محمد على أسند إليه منصب كبير المباشرين، وهم جباة الضرائب. وقد وضع نظام الضرائب وجبايتها. وعيَّن المعلم غالى بعض الأقباط فى الوظائف الصغرى الذين يشترط فيهم الأمانة الكاملة. وهو الذى قسَّم مصر إلى مديريات وأقسام والأطيان إلى أحواض، وهو أساس النظام الذى لا يزال معمولًا به حتى الآن. **(المترجم)**.

(2) أول قبطى يُنعَم عليه برتبة البكوية. ومما يُروى عن باسيليوس أنه بعد مقتل أبيه على يد إبراهيم بن محمد على استدعاه الباشا وسأله «أأنت حزين لموت أبيك ؟» فكان رد «لم يمت أبى ما دام مولاى الأمير حيًا» وفى رواية أخرى أنه قال: «حاشا لله يا سيدى أن أعرف لى أبًا غير أفندينا». وكان ذلك سببًا لما أنعم به محمد على عليه. وظل باسيليوس غالى يمارس مهام منصبه حتى وفاته. وتوالى أفراد من أجيال مختلفة من هذه الأسرة القيام بأدوار فى السياسة المصرية، فكان منهم بطرس غالى رئيس النظار، وواصف بطرس غالى وزير الخارجية، وبطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية والسكرتير العام للأمم المتحدة، ويوسف بطرس غالى وزير المالية الحالى. **(المترجم)**.

(3) كما عين بطرس أغا مأمورًا لمركز برديس، وفرج أغا مأمورًا لدير مواس، وتكلا سيداروس لبهجورة، وأنطوان أبو طاقية للشرقية. (المترجم).

وفى وقت لاحق، وفى عهدى سعيد وإسماعيل، ظل الأقباط يشغلون مناصب مشابهة مما جعل القاعدة هى تعيين قبطى فى منصب ـ النائب العام فى كل مديرية ـ وهو منصب يتمتع بقدر كبير من السلطة، حيث كان الرجال الذين يشغلونه يتولون منصب القضاء فى أوقات معينة. وكان هؤلاء يحتلون المرتبة رقم ثلاثة فى ترتيب موظفى الأقاليم. ومن بين آخرين، خدم سيداروس تكلا، فى إسنا، وتادرس شلبى، فى جرجا، وشحاتة حسب الله، فى أسيوط، وعبد الملك كتكوت، فى المنيا، وجرجس يعقوب، فى بنى سويف، وعوض الله بك سرور، فى الدقهلية. وعُيِّن آخر هؤلاء وكيلًا لمدير البحيرة، وشغل المنصب بجدارة كبيرة حتى إحالته إلى المعاش قبيل الاحتلال البريطانى.

وفى عهد إسماعيل (الذى كان يؤكد باستمرار أن «المصريين جميعًا سواء») خدم الأقباط الدولة فى كثير من المناصب العليا، والحقيقة الأكثر لفتًا للنظر هى أن نظارة الجهادية تولاها قبطى لأول مرة (كان محمد على أول من أزال الموانع التى تحول دون خدمة الأقباط فى الجيش) وكانت لعيَّاد بك حنا السلطة الكاملة.

كان لا بد من تولى قبطى لمنصب وكيل مدير المديرية. وحتى فى عهد عرابى رُقِّى قبطىٌّ لمنصب وكيل وزارة الحقانية، وهو المنصب الذى يحمل معه فى واقع الأمر الإشراف على المحاكم والتعيينات الصغرى اللازمة لتلك المحاكم. وكان كبير التشريفات فى قصر إسماعيل نفسه قبطيًا، وهو واصف باشا عزمى.

لم يكن متوقعًا من الشرقيين أنه حين يرى المسلمون فرصة لتولى المناصب الرئيسية فى البلاد سوف يفعلون أى شىء لإقناع الحكام البريطانيين بأن فكرتهم الدبلوماسية لتأييد ذلك خاطئة وتقوم على أساس غير سليم. فقد كان دور السير إلدون جورست السياسى هو قلب نظام كرومر، وبدء صداقة دبلوماسية مع الخديو عباس الذى كانت إنجلترا حتى ذلك الحين غريبة عليه تمامًا. وكانت النتيجة أنه لم يكن هناك قبطى واحد ضمن الحاشية، أو حتى فى الخدمة فى دواوين القصر العديدة. والواقع أنه عند الحديث مع الرجال الذين أحاطوا بخديو مصر الفاسد هكذا كان الأمر يصل بالمرء إلى تخيل أنه فى معسكر معارض، بينما العدو هو ذلك الجزء المسيحى من الأمة.

فى ظل النظرة الشديدة للورد كتشنر، الذى ذهب إلى مصر لمعالجة أخطاء حكم جورست الذى جمع بين الفشل والتوفيق، تلاشى على الفور أى شىء يشبه الصداقة الشخصية بين قصر الخديو والمعتمد البريطانى، وتغيرت كراهية القصر للأقباط إلى شك فى أنهم يحاولون من جديد وبقدر ضئيل تزكية أنفسهم لدى البريطانيين من خلال سلوكهم الذى اتخذ الطابع الغربى وعقيدتهم المسيحية.

ومع ذلك فهناك فى الفترة الأخيرة من الدلائل ما يشير إلى أن السلطات تقترب من نوع ما من إدراك الحقيقة، التى كانت المرشد لسابقاتها، وهى أن الناس يشكلون أمة واحدة، وأن دين المسلمين أو الأقباط أو اليهود لا ينبغى أن يمنع الناس من أن يكونوا داخل شعور وطنى واحد وولاء واحد، أو يحول دون إعطاء فرص متكافئة فى خدمة الدولة ونصيب من شرف تلك الخدمة.

يعلن الأقباط أنه بينما كان أهلهم يشغلون عددًا كبيرًا من المناصب العليا فى الدولة عندما سيطر البريطانيون على البلاد، فإنه خلال أقل من ربع قرن اختفى رؤساء المصالح الأقباط كلهم تقريبًا. فقد كانوا ممثلين تمثيلًا تامًا على منصات القضاء، ولكن شيئًا فشيئًا وصل العدد إلى صفر؛ وكذلك الحال بالنسبة لمصالح الدولة الأخرى، حيث استمرت عملية عزلهم وإغلاق الباب فى وجه التعيينات الجديدة إلى أن بلغ بهم الأمر حالة من تثبيط الهمة تقارب اليأس.

كثيرًا ما رأيت كيف تشل آثار ذلك ينابيع الجزء الأكبر من الحياة القبطية. فقد تحدثت مع آباء وأبناء واعدين فيما يتعلق باستكمال تعليمهم، واكتشفت بذلك كيف أنه فى طائفة تقدِّر التعليم تقديرًا كبيرًا يجد القليل من الشباب الأقباط طريقهم إلى جامعاتنا وكلياتنا الإنجليزية مقارنة بالمسلمين.

يقول لى هؤلاء الآباء: «إنه أمر لا طائل من ورائه. فإننى سأقدم تضحيات كبيرة كى أوفر لابنى أفضل تعليم ممكن فى إنجلترا، وعندما يعود إلى مصر سوف يذوب قلبه أسى وهو يعمل فى وظائف تافهة، وسوف يرى الرجال الذين درسوا بجانبه فى أكسفورد أو كمبردج، ولا يتفوقون عليه فى شىء، وقد رُقُّوا مرارًا وتكرارًا لمجرد أنهم مسلمون. لن أقع فى الغلطة التى وقع فيها بعض أصدقائى وتؤدى إلى قدر كبير من الشعور بالمرارة».

تحدثت مرارًا، بشكل مطول وجاد، مع شباب من الديانتين سلكوا ذلك المسلك. مع مسلم شاب جذاب رُقِّى بخطوات سريعة بعد حياة دراسية ناجحة فى إحدى الجامعات الإنجليزية، ومع قبطى شاب، كان زميلًا له فى الجامعة، ولا شك فى قدراته، ولكن مصر تركته بلا وظيفة. وبما أن الشاب الأخير لم يكن مضطرًا للبحث عن فُتات الوظيفة الوضيعة، فها هو قد فقد اهتمامه ببلده ويستفيد من مواهبه فى أرض ليس فيها ما فى مصر من عقبات، وهو ما يحزن والديه، اللذين يأسفان، لكونهما ينتميان إلى عائلة عريقة، أسفًا مضاعفًا على فقد ابنهما. وأستطيع القول بأن كل شىء عرفته عن فشل الشاب القبطى كان مصدره صديقه المسلم، الذى ينظر إلى الأمر بحزن شديد؛ ففى تلك الحالة لم يقل لى القبطى شيئًا، وكذلك والداه، عن خيبة الأمل التى كانوا يعانون منها من خلال الإهمال البريطانى.

هذه بعض الحقائق التى قد تؤخذ فى الحسبان عندما يدافع الأقباط عن بحث قضيتهم، وهى حقائق يجب عدم رفضها، ضَجَرًا، باعتبارها جزءًا من قضية ظهرت إلى الوجود نتيجة الشعور القبطى بالضيق الشديد، أو فى محاولة لتوفير شىء ليس للأقباط حق فيه.

ربما يكون أحد أغرب الأمور فى الحكم البريطانى فى مصر هو الطريقة التى جرى بها التعامل مع عطلة يوم الأحد. فمن ذا الذى يصدق أن شعبًا مسيحيًّا، فُرِض عليه الالتزام بيوم الراحة باعتباره أمرًا سماويًّا، يمكن أن يدخل بلدًا به كنيسة مسيحية أخرى يبلغ أتباعها مئات الآلاف، ثم يضع على الفور ترتيبات يحرم بمقتضاها المسيحيين الذين يستخدمهم، وكل أطفالهم فى المدارس الحكومية، من أية فرصة لإقامة يوم العبادة والراحة؛ بينما يعطى فى الوقت نفسه يوم راحة للعمل العلمانى؟ ولكن هذا هو ما فعله الحكم البريطانى.

وما هى الغاية من ذلك؟ تخيل البعض فكرة أن هذا هو الأمر الحكيم الوحيد الذى يجب عمله من باب احترام المسلمين باعتبارهم الأغلبية! ويمكن الحكم على هذه الفكرة السياسية بأنها خيالية ولا تقوم على أساس متين من الأثر الذى أحدثته فى عقول هؤلاء الذين يُظَن أن تحيزهم يتطلبها. وإنى على اقتناع ما بعده اقتناع بأنه ما من شىء أفقدنا الاحترام من جانب المسلمين مثل هذا الفعل نفسه الذى قمنا به

على غير رضاهم. فقد سألنى مرارًا وتكرارًا، وبجدية شديدة، مسلمون من كل الطبقات ومن أنحاء مختلفة من مصر «هل للمسيحيين الإنجليز أى يوم للصلاة؟» وعندما كنت أشرح لهم طبيعة يوم الراحة كنت أُقابَل بتعابير الاستغراب والدهشة للتخلى عن مثل هذه المؤسسة الدينية تحت أى ظرف من الظروف. وكانوا يعبّرون عن عدم تصديقهم المطلق حين يُشار إليهم أن ذلك يجرى مراعاةً لآراء المسلمين.

ليس فى الدين الإسلامى ما يدعو أتباعه إلى الاستياء من إقامة يوم العبادة والراحة المسيحى بين ظهرانيهم؛ بل على العكس من ذلك، فإن هذه الإقامة تروق لهم بشدة. وقد رأيت ذلك فى الجزائر، حيث لم يلغ الفرنسيون احترامهم السرى والعلنى ليوم الراحة، ولا يجدون صعوبة فى أن يلبوا فى الوقت نفسه حاجات المسلمين فيما يتعلق بوقت صلاة الجمعة. تحدث إلىَّ أكثر من شيخ ورع فى الجزائر عن الانطباع الطيب الذى تركه ذلك لدى أهله.

لم تكن طبيعة يوم الصلاة الإسلامى تستدعى بحال من الأحوال تلك التضحية التى دُفع المسئولون البريطانيون إلى المساعدة عليها؛ ذلك أنه ليس يومًا مخصصًا بالكامل لإقامة الشعائر الدينية، أو حتى للراحة. فالواجب على المسلم التوقف عن العمل كل يوم جمعة إلى أن يؤدى الصلاة؛ وبعد ذلك هو حر «يذهب إلى سبيله المعتاد من أجل الربح أو المتعة».(١)

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ... فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ تدل هاتان الآيتان الكريمتان على أنه ليس مطلوبًا من المسلمين أن يرتاحوا يوم الجمعة؛ فهم يبيعون ويشترون قبل الصلاة وينتشرون فى الأرض بعدها. بعكس يوم الراحة، أو «السبت» كما جاء فى الكتاب المقدس، إذ أمر الرب بحفظ السبت ليكون يوم راحة أسبوعية، ويوم عبادة. فقد جاء فى الكتاب المقدس: «ولكن احفظوا سبوتى لأنها علامة بينى وبينكم مدى أجيالكم، لتعرفوا أننى أنا الرب إلهكم» (سفر الخروج، ٣١-١٣). وكذلك «واحفظوا يا بنى اسرائيل السبت لتجعلوا السبت مدى أجيالكم عهدًا. بينى وبين بنى اسرائيل علامة إلى الأبد» (سفر الخروج، ١٦،٣١-١٧). وبينما نقرأ «وكثيرًا ما عمل المسيح المعجزات يوم السبت، لأن غاية السبت هى عمل الخير. وينتج من هذا أن المسيح ورسله لم ينسخوا السبت، لكنهم استبدلوا الأحد بالسبت بعد أن قام المسيح يوم الأحد. وما زال المسيحيون يسمّون يوم الأحد يوم السبت (أى الراحة). غير أنهم يخصّصونه بكلمة المسيحى فيقولون «السبت المسيحى»». (شبهات وهميّة حول رسالة كولوسى www.answering-islam.org/Arabic/Books/Claims/col.html) نقرأ فى موضع آخر «والمسيحى=

الواقع أنه رغم كل تناقضات أخلاق الأقباط، فقد رأيت أدلة كثيرة على أن لديهم شعورًا عميقًا باحترام السبت يقوم قبل كل شىء على أوامر الكتاب المقدس - والمعنى الحرفى لكلمات الكتاب المقدس هو أس كل نوع من التأثير فوق الطبيعى الذى تجمّع فى القرون الأولى عن يوم الرب وعن الإفخارستيا، بما فيه من راحة من الكد، حتى بالنسبة للفلاح والعبد. أعرف أقباطًا من الصعيد يسيرون لمدة ثلاث ساعات على ظهر الحمار لحضور عبادة الأحد؛ وحسب علمى، فقد تخلى أحدهم عن وسيلة كسب لقمة عيشه الوحيدة كى لا ينتهك حرمة السبت؛ وإن كان صاحب العمل المسلم أعاده إلى الخدمة، ووثق فيه ثقةً تامة منذ ذلك الحين، عندما رأى أنه بالفعل فى حاجة ماسة لذلك.

هؤلاء الذين يهتمون أشد الاهتمام من بين الأقباط بأن يروا أبناء بلدهم من أتباع العقيدة المسيحية يتقدمون نحو إدراك أكثر روحانية لدينهم، لهم العذر فى الحديث بالطريقة التى تكلم بها الدكتور فانوس. فقد قال: «إن اللورد كرومر ألمح إلى أننا معشر الأقباط لسنا نموذجًا للمسيحية. وللأسف فإن هذا صحيح؛ وهو كذلك لأن تعليمنا كمسيحيين مهمَل. إذ كيف نتوقع أن يتبع الناس تعاليم دينهم إذا كانوا يبينون لهم أنه لا أهمية لهم عند سلطاتهم التى تضع هى نفسها العقبات فى سبيل ممارسة شعائرنا الدينية؟ لقد علمونا عادة إهمال تعاليم ديننا».

على خلاف المسلم، لا بد أن يذهب القبطى إلى كنيسته وهو صائم؛ وعلى عكس العبادة فى المسجد، التى لا تستغرق أكثر من نصف ساعة مع الخطبة، تستمر الإفخارستيا من قبل الساعة الثامنة صباحًا حتى الظهر. وبعد ذلك فإن القانون الملزم هو أن على المسيحى اتباع الأمر «عملًا ما لا تعملوا».

=غير خاضع للناموس (غلاطية ١:٤-٢٦ ورومية ١٤:٦). ولا يجب على المسيحى حفظ السبت «سواء كان ذلك يوم السبت أو الأحد. وأول أيام الأسبوع الأحد أو يوم الرب (رؤيا ١:١٠) نحتفل بالخليقة الجديدة بقيامة يسوع المسيح. فلا يجب علينا أن نحفظ السبت للراحة ولكن يمكننا أن نتبع المسيح المقام ونقوم ونخدم. وبولس ترك الاختيار للمسيحى «واحد يعتبر يوما دون يوم، وآخر يعتبر كل يوم. فليتيقن كل واحد فى عقله» (رومية ٥:١٤). فيجب علينا أن نعبد الله كل يوم وليس فقط يوم السبت أو الأحد». (هل يجب على المسيحيون حفظ السبت؟ www.gotquestions.org/Arabic/ Arabic-Sabbath-day.html) (المترجم).

الأمر المستغرب هو أن الخطة الوحيدة لتلبية المطالب الخاصة بالأيام المقدسة تلك التى تروق للسلطات البريطانية هى إعطاء نصف يوم عطلة للمدارس والمكاتب الحكومية كلها بعد ظهر الخميس ويوم الجمعة بكامله، وتجاهل أية تدابير لإقامة الأحد المسيحى يوم عبادة وراحة، بالنسبة للأقباط ولهم.

تفتح المحاكم أبوابها أيام الآحاد، ولا بد أن يحضر المسيحيون جميعًا عندما تقتضى الحاجة، حيث يتركون واجباتهم الدينية، بل إن هذا ينطبق كذلك على الكهنة الذين قد يُستدعون، وهم الذين من الواجب عليهم الخدمة عند المذبح. ومع ذلك تؤجل جلسات المحاكم أيام الجمع من أجل المسلمين، وتؤجل المحاكم المختلطة جلساتها أيام الآحاد لمصلحة المسيحيين الأوروبيين، دون أن يكون فى ذلك أى إزعاج. وفى المدارس الوطنية لا تُعطى أية فرصة للطلاب كى يقيموا الأحد يوم عبادة وراحة. ومع ذلك فإن مكتب البوستة العمومية يُغلق فى الإسكندرية، وكذلك مكاتب الجمارك، يوم الأحد بدلًا من يوم الجمعة، خضوعًا لضغط خاص هناك؛ وقد وُجِد أن السماح للمسلمين بالغياب يوم الجمعة حتى بعد صلاة الجمعة أمر غاية فى السهولة.

وحلًا لهذه الشكوى المرة، فإن ما يُقترح هو أن يعمل الأقباط فى المصالح الحكومية كل يوم ساعة أكثر من الوقت الحالى كى يكون لديهم وقتٌ يومَ الأحد للعبادة. وهم يشيرون إلى أن السلطان خليفة المسلمين تبنى منذ فترة بعيدة عادة إغلاق المكاتب الحكومية فى بيروت، وفى أماكن أخرى، يوم السبت وكذلك يوم الجمعة، دون أن تكون لذلك عاقبة سيئة؛ وخلال العام أو العامين الماضيين قررت الحكومة التركية، بعد التشاور مع شيخ الإسلام، وهو المرجعية الدينية للعالم الإسلامى كله، قبول المطالب الخاصة بيوم الأحد.

بالنسبة للمدارس، طُلِب أن يتوفر للتلاميذ الأقباط الوقت اللازم أيام الآحاد لحضور الإفخارستيا، بدلًا نصف يوم الخميس. وحتى فى هذه الحالة يعنى هذا ضياعًا لبعض وقت المدارس، ولكن يُرَد على ذلك بأن هذا سيكون مهمًا مقارنةً بخطأ تنشئة الجيل الصاعد بمعزل تام عن ممارسة شعائر دينه؛ وهو أمر مؤلم بالنسبة للآباء الذين يشعر الكثير منهم بالقلق من النتائج السيئة التى يرون أنها تنشأ عن هذه الممارسة.

قد يوجد الرد البريطاني الرسمي (عند بيان الموقف العقلي الذي تعرضه السلطات لأية مناقشة حول هذه المسألة) في الكلمات التالية: «لا يمكن إنكار أن رغبة الأقباط في عبادة ربهم في يوم السبت المسيحي ليست عادلة في ظاهرها فحسب، بل هي كذلك رغبة مشكورة؛ إلا أنها ليس مطلبًا يمكن للسلطات البريطانية الامتثال له، ما دامت لا تعدو كونها سلطة احتلال. فالمحمدية هي دين الدولة في مصر، وبما أنه يجب على الموظفين القيام بكثير من العمل كي يتمكنوا من تبني نظام بيروت، فليس هناك ما يمكن عمله إلا الاستمرار في إقامة الجمعة يوم عبادة وراحة وحيد من بين أيام الأسبوع».

هناك تساؤل حول ما إذا كان تذرع فظ كهذا يمكن تبريره تحت أي ظرف من الظروف بينما مبادئ حيوية أخرى تتعرض للخطر. ولكن ما الذي يمكن قوله عن تبرير على هذا القدر من الضحالة بحيث يلوذ بحجة أن الإسلام دين الدولة - في حين أن أغلب تعاليم الإسلام تعارض الأمر المفهوم ضمنًا من هذا التبرير.

وبالنسبة لعبارة «لا تعدو كونها سلطة احتلال» فإن هذا الشبح الباهت يذوب في أول لحظة تشعر فيها السلطات البريطانية بالحاجة إلى تأكيد السلطان والسلطة المطلقة، التي تعلم تمام العِلم أنها تملكها في واقع الأمر، لتنفيذ أي مشروع تعتزم القيام بها أيًا ما كان، سواء في ذلك أتفه مشروع أو أهم مشروع. ومثل هذا النوع من الادعاء هو الذي يجلب على إنجلترا احتقار الناس من أبناء الأمم الأخرى، ويعوق تأثيرنا كمسيحيين. وهناك مداهنة بخصوص هذا الأمر تزود أعداءنا بأكثر أقوالهم الساخرة مرارة.

لا شك في أن إنجلترا يمكنها حل هذه الشكوى، إن هي اهتمت بذلك. ويمكن تحقيق هذا الأمر إن هي آمنت في البداية بصدق الدعوى المطالبة بالإصلاح، وحينئذ يمكنها جعل نفسها مهتمة بالتطور الأخلاقي والاجتماعي للمصريين اهتمامها بالمكسب المادي الذي تحقق على نحو كبير نتيجة لحكمها.

لن أقول شيئًا عن بقية الشكاوى القبطية. فإذا ظهر في مصر في يوم من الأيام الرجل القوي الذي لديه طموحات لتحقيق النهضة الروحية للأمة، دون اهتمام خاص بأي من الإسلام أو المسيحية، فمن المتوقع أن يصحح هذا الرجل بكل ثقة

وضع الشعب القبطي فيما يتصل بالاعتبارات التاريخية والأخلاقية التي سبق طرحها. وساعتها سوف تختفي على نحو آلي الشكاوى المرة كالتعليم، ونسبة تكرار الضرائب المتعلقة بها، والتعليم الديني للأطفال، والتمثيل العادل للأقباط في مجالس الحكم.

أما بالنسبة للاحتفالات الوطنية الإسلامية، فإني أشك في سماع أية كلمة اعتراض أخرى في يوم من الأيام، لأنه في مثل هذه التفاصيل لا بد باستمرار للأقلية من الخضوع. ولا بد كذلك من ترك تاريخ ما قبل الاحتلال، إذا لجأ إليه أحد الطرفين، لتسوية الاعتراضات القبطية على الإنفاق على محمل الكسوة المُشرَّفة، وهي الشيء العزيز على نفوس الغالبية من السكان المسلمين.

وإذا لم يظهر ذلك الرجل الذي أتمناه، ولم تتحرك الحكومة البريطانية نفسها، الجالسة في لندن، للاهتمام بأي شيء في حكم مصر يتجاوز مراقبة الحسابات[1]، حيث الموازنات المالية من جانب الدائنين فحسب، فإني لا أرى أن هناك فائدة في أية مناقشات.

إني على ثقة وأؤمن باقتناع شديد بأن كلًا من الطموح والرجل سوف يأتي، عندما يحين الوقت. ويرى الذين يعرفون شيئًا عن روح مصر أن هناك دلائل كثيرة تبشر بهذا المحصول النادر الذي سيُحصد في أوانه.

(١) المعروف أن عجز الحكومة المصرية عن تسديد أقساط ديونها للدول الأجنبية أدى إلى تدخل تلك الدول بحجة حماية رعاياها من الدائنين. وكان إعلان الخديو إسماعيل عن سداد دينه فرصة ذهبية لتدخل تلك الدول ثم احتلال إنجلترا المصر في عام ١٨٨٢. «ولقد فتح إسماعيل باب التدخل الأجنبي في شئون مصر حين طلب من إنجلترا إيفاد موظف مالي كبير لإسداء النصح فيما يجب عمله إزاء الأزمة المالية، ليس لإسداء النصح له ولكن لإجراء تحقيق واسع بهدف الاطلاع على أحوال البلاد... وظل صندوق الدَّين رقيبًا ماليًا على البلاد، يحد من قدرتها على التصرف في إيراداتها ومصروفاتها، حتى إلغائه في عام ١٩٤٠». (د. يحيى محمد محمود، الدّين العام وأثره في تطور الاقتصاد المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨) (المترجم).

ملاحـــق

دفن الصورة داخل المذبح

في يوم خميس العهد تُنزل صورة الصَّلْب من المكان الموضوعة فيه داخل الكنيسة وتوضع على حامل خاص، ويوضع حولها صلبان ومجامر وشموع. كما يوضع على الحامل صندوق الإنجيل الفضي وقد غُطي بكمية كبيرة من بتلات الورد. وفي يوم الجمعة الحزينة يبدأ القُدَّاس من الساعة التاسعة حتى الغروب، وفي لحظة معينة تؤخذ الصورة حيث تُحمل ويُطاف بها ثلاث مرات في أنحاء الكنيسة. بينما تُدفن صورة أخرى للمسيح في القبر داخل المذبح، مع صليب خشبي صغير. وتوضع قطع صغيرة من المُر على الصليب، ثم توضع داخل المذبح كمية من الورود والبتلات ويدفن الكل حيث يُغطى بغطاء كبير.

اعتقادًا بأنه حين نزل يسوع المسيح العالم السفلي خرت الأرواح المحبوسة على وجوهها عابدةً إياه، تطلب الكنيسة من المصلين الركوع أربعمائة ركعة، كل مائة منها ناحية أحد الاتجاهات الأصلية. وبعد ذلك يقطعون صومهم بمنقوع المر في ورق العنب.

يبدأ قُدَّاس عيد الفصح عند غروب يوم السبت، حيث تُتلى ليتورجية القديس جريجوريوس على نحو خاص من الأبهة. وقبيل خدمة الإفخارستيا مباشرة تُغلق أبواب الهيكل، ويضرب الشماس بعد ترتيل ترنيمة طويلة الأبواب المغلقة على الجانب الغربي قائلًا « افتحوا أيها الملوك أبوابكم»...إلخ[1] من أجل دخول ملك

---

(١) «افتحوا أيها الملوك أبوابكم، ارتفعي أيتها الأبواب الدهرية، ليدخل ملك المجد. من هو ملك المجد، الرب العزيز القوي، الجبار القاهر في الحروب هو ملك المجد». (المترجم).

المجد. ثم يسأل الكاهن الذى داخل الهيكل «من هو ملك المجد؟» ثم يفتح الأبواب. وحينئذ تُخرَج الصورة من المذبح، ويحمل كل من الإكليروس والمرتلون صورة أخرى ليسوع المسيح منشدين «المسيح قام». وينتهى هذا القُدَّاس فى حوالى منتصف الليل.

تقطيع الخبز

طريقة تقطيع الخبز كما يلى:

أولًا: يقطعه الكاهن إلى ثلث على اليمين وثلثين على اليسار.

ثانيًا: يضع الثلث الأيمن فوق الثلثين اللذين على اليسار ليتكون صليب. وبعد ذلك يأخذ قطعة من الثلث الثالث المتصل به الإسباديقون ويضعها فى الصينية جهة الشرق، وتوضع قطعة أخرى جهة الغرب. كما يأخذ قطعة من الثلث الأيمن ويضعها على اليمين، ويضع الجزء الباقى على اليسار داخل الصينية، ليتكون بذلك شكل الصليب.

ثالثًا: يقسِّم قطعة الثلثين إلى قسمين، ويضع الإسباديقون فى وسط الصينية.

رابعًا: يقسِّم الثلث الباقى فى يديه كذلك. والآن يأخذ فى يديه الثلث الموضوع على اليسار ويضع مكانه الثلث الأخير الذى قسَّمه.

خامسًا: يقسِّم كذلك الثلث الذى فى يده ويضعه على يمين الصينية.

سادسًا: يجمع الآن كل تلك الأقسام معًا فى وسط الصينية، ويفرك يديه ليتخلص من الفتات الذى قد يكون عَلَق بهما.

ببليوجرافيا

Egypt and Israel. Professor Flinders Petrie. (Society for Promoting Christian Knowledge)

Among the Huts in Egypt. M. L. Whately. (Seeley, Jackson & Haliday)

Ragged Life in Egypt. M. L. Whately. (Seeley, Jackson & Haliday)

More Ragged Life in Egypt. M. L. Whately. (Seeley, Jackson & Haliday)

Dr. Liddon's Tour in Egypt and Palestine. (Longmans, Green & Co).

Copts and Moslems under British Control. Kyriakos Mikhail. (Smith, Elder & Co)

Egypt and the Christian Crusade. Charles R. Watson. (Published in America).

In the Valley of the Nile. Charles R. Watson. (Fleming H. Revell Co)

The Eastern Church. A. P. Stanley. (J. M. Dent)

The Patriarch of Jerusalem. Ven. Archdeacon Dowling. (Society for Promoting Christian Knowledge)

Ancient Coptic Churches of Egypt. A. J. Butler, M.A. (Clarendon Press)

Egypt and Syria. Sir J. W. Dawson. (Religious Tract Society)

The Story of the Church of Egypt. E. L. Butcher. (Smith, Elder & Co)

Christian Egypt: Past, Present, and Future. Rev. Montague Fowler, M.A. (London Church Newspaper Ltd)

Folk-lore of the Holy Land. J. E. Hanauer. (Duckworth & Co)

Blessing of the Waters. Marquis of Bute. K.T., and E. A. Wallis Budge, M. A. (Henry Frowde)

Upper Egypt. its People and Products. Dr. Klunzinger. (Blackie & Son).

Thäis. Anatole France. (The Bodley Head Press).

Dictionary of Christian Biography. (John Murray.)

The Paradise of the Fathers. Translated by E. A. Wallis Budge. M.A. (Chatto & Windus).

The Egyptian Church. Archdeacon Dowling. (Cope Fenwick)

The Abyssinian Church. Archdeacon Dowling. (Cope Fenwick)

The Coptic Church. Archdeacon Ward. (The Faith Press)

The Rites of the Coptic Church – Baptism and Matrimony. Translated by B. T. A. Evetts. (David Nutt).

The Encyclopaedia of Religion and Ethics.

Yearly Reports of the Anglican and Foreign Church Society. (S.P.C.K)

عن المترجم

المترجم أحمد محمود، حاصل على ليسانس الآداب فى اللغة الإنجليزية ودبلوم الدراسات العليا فى الترجمة، وعضو اتحاد الكُتاب ونقابة الصحفيين، وحاصل على جائزة محمد بدران فى الترجمة من المجلس الأعلى للثقافة عن كتاب «طريق الحرير». ومن ترجماته: «الناس فى صعيد مصر»، و«عالم ماك»، و«صناعة الخبر»، و«تشريح حضارة»، و«التحالف الأسود»، و«الفولكلور والبحر»، و«مصر أصل الشجرة». كما يسهم بترجماته فى مجلة «وجهات نظر» منذ إنشائها.

أبناء الفراعنة المحدثون

نشر هذا الكتاب النادر عام ١٩١٨، وتناول فيه المؤلف البريطاني «ليدر» حياة أقباط مصر فى ذلك العصر: فيسلط الضوء على الحياة الاجتماعية للأغنياء والفقراء ورجال الدين ويفرد فصلا لعجائب القديسين وموالدهم، وللمعتقدات والخرافات، ثم يتحدث عن طقوس الولادة والتعميد واختيار الزوجة الصالحة والعرس القبطى ثم عاداتهم فى الحزن والموت.

ويشرح فى الجزء الثانى من الكتاب موقف المسيحى الشرقى داخل كنيسته وطريقة تعبده ومعتقداته والعلاقة بالتراث الفرعونى. كما يفرد فصلا عن البطريرك كيرلس الخامس والأنبا إبرام. وينهى الكتاب بالعلاقة المركبة بين المسيحيين المصريين والاحتلال البريطانى.

انه كتاب كانت المكتبة العربية بحاجة إليه خصوصا ان تلك الفترة مهمة فى تاريخ مصر وانعكس ما جرى فيها على ما أعقبها من فترات.. ومما يدعو للعجب أنه توجد إشارات عديدة إليه فى الأدبيات القبطية وتلك التى تتناول تاريخ الأقباط الحديث وتاريخ الكنيسة القبطية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومع ذلك فهذه هى الترجمة العربية الأولى له.



دار الشروق
www.shorouk.com